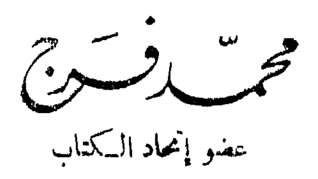


المدرسة العسكرية الإسلامية
محمد فرج
ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



عضو إتحاد الكتاب

المدرسة العسكرية الإسلامية

الطبعة الثانية

منقحة ومزيدة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى الكاتب الفنان الأديب

حسين القباني

المثل الحي للإنسان الصابر والصامد

على طريق الإيمان والكفاح والخلود

محمد فرج

« كلمة حق »

بقلم الأستاذ الدكتور

عبد الصبور شاهين

الكتابة عن غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرورة تربوية ، إلى جانب كونها ضرورة حضارية ، ذلك أن هذه الغزوات كانت فى الواقع حدث الأحداث فى التاريخ الإنسانى ، الذى قام على الصراع الدموى ، وأشعل الأقوياء فيه حروبهم كيما يسحقوا الضعفاء ، بلا رحمة ، وبلا قانون ، حتى كانت هذه الغزوات لتقدم دستور الصراع الإنسانى فى الحرب ، وفى السلام .

وحسبنا أن نعلم أن حروب الدعوة الإسلامية كانت ولا زالت السابقة الوحيدة فى التاريخ الإنسانى للحرب العقائدية الخيرة ، فقد كان الهدف منها نشر التوحيد ، وكانت وسيلتها إلى تحقيق الهدف مستمدة من أخلاقيات التوحيد ، لا عدوان ، ولا إفساد ، ولا استغلال ، وإنما عدالة مطلقة ، وإصلاح فى الأرض ، وصيانة لحقوق المهزوم ، قبل أن تعرف الدنيا المعاهدات التى تنظم الحرب والسلام .

ولذلك كان الناس بحاجة إلى تناول هذا التاريخ العسكرى للدعوة الإسلامية من زاوية غير زاوية التأريخ ، وسرد الأقاصيص ، والخلوص إلى عبرة تستدر الدموع ، أو تثير الإعجاب ، ولا شيء غير هذا .

كان الناس بحاجة إلى دراسة هذه الغزوات ـ التى بلغت سبعاً وعشرين ، خاض فيها النبى صلى الله عليه وسلم مع صحابته معارك الصراع مع الشرك والوثنية ، ونيفاً وأربعين سرية تجلت فيها مهارة القادة من الصحابة ، فى توجيه المعارك ، وتحريك الأحداث على أرض الجزيرة العربية وما حولها ـ على أن تكون الدراسة تحليلية ، تكتيكية ، استراتيجية ، فقد مل الناس من السرد التاريخى ، وتاقت نفوسهم لمشارقة المستقبل .

ولقد عرفت السيد الصديق محمد فرج مؤرخاً ، محللا عسكرياً ، ذا نظر ثاقب فى تقدير الاحتمالات ، وتتبع الأحداث ، وتصور الأبعاد الاستراتيجية ، لكل ما يعالج من مشكلات ، فقد نذر نفسه منذ بعيد لدراسة العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول ، وأفاد كثيراً من تخصصه ، كواحد من معلمى الاستراتيجية والتكتيك فى الكليات العسكرية ، ولعله من أبرع من نهضوا بهذه المهمة فى شرقنا العربى .

وللأستاذ محمد فرج مجموعة من الكتب المفيدة ، أهمها فى نظرى كتابه عن العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول ، الذى أشرت إليه آنفا ، وهو كتاب اقتضى منى جهداً ، وعكفت عليه فترة من الزمن ، أنهل من مضمونه ، وأفيد من نظراته ومعالجاته ، وأشهد أنى ما ظفرت بمثله فى المكتبة العربية ، التى لا تضم على أى حال إلا عددا محدودا من المؤلفات فى هذا الفن الحديث .

ومؤلفنا يبدو فى كتبه دائما مؤمنا ، أمينا فى عرض موضوعاته ، متألقا بصفاته الأصيلة ، فكلماته قوية لأنه مؤمن ، ومدوية لأنه محارب ، وعميقة لأنه مجرب ، ومستوعبة لأنه طالما نظر فيها وأعاد النظر ، حتى استوت على صورة تتميز بالنضج وبالإقناع وبالشمول .

وإنه ليبهرك فى كتابات الأستاذ محمد فرج براعته فى سلسلة الوقائع ، والربط بينها ، حتى لقد بدا التاريخ العسكرى للدعوة فيما يشبه (البانوراما) ، صورة كلية واعية ، واعية لكل الجزئيات والتفاصيل الدقيقة ، مقرونة دائما بما يتصل بها من نصوص قرآنية ، تأخذ فى سياقها معانى متجددة ، وليس يجاريه فى هذا المجال كاتب ممن عرفت فيه ، فهو مجال قليل كتابه ودارسوه ، نظرا إلى حداثة الاهتمام بهذا الجانب فى السيرة النبوية بخاصة ، وفى التاريخ الإسلامى بوجه عام .

لقد طغت الأحداث المعاصرة على اهتمامات الكتاب والمؤرخين ، فركزوا جهودهم على متابعة ما كان على عهد نابليون ، وعلى يد مونتجمرى وروميل ، ولم يلتفتوا إلى أن فى أبطال الإسلام من يتفوق على هؤلاء علما وذكاء ورصيدا من الانتصارات ، من أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو ابن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، وأبى عبيدة ، وسعد بن أبى وقاص ، وغيرهم عشرات ، بل مئات من القادة ، كلهم تربوا فى أكاديمية الدعوة الإسلامية العسكرية ، التى كان قائدها ورائدها محمد صلى الله عليه وسلم ، فتخرجوا فيها قادة دعاة هداة

ولذلك فإننا نعرف للأستاذ محمد فرج قدره ، وندرك أنه يخوض مجالا

عزف عنه غيره ، فكل إضافة يقدمها هى إضافة إلى ثقافة الجيل والأجيال القادمة ، وهى إسهام فى تربية شبابنا ، وإثراء خبراته بعناصر الحياة فى فى مسيرة الإسلام الخالدة .

لست بهذه الكلمات أقدم كاتبا ، هو يقدم نفسه بنفسه ، فضلا عن أن عمله الزكى يقدمه بصورة أبلغ وأعمق ، ولكنى أعبر عن رأيى الذى طالما تمنيت أن أعلنه للقراء ، الحريصين على انتقاء الأعمال المتميزة من بين ما يطرح على الجماهير من ركام لا ثقافى ولا أدبى ، لا تربوى ولا حضارى .

وحسب الأستاذ محمد فرج من عمله أنه يضعه فى مصاف الدعوة إلى الله بأسلوب جديد ، قائم على الدراسة والاستنتاج ، وما أحوجنا إلى من يتقن هذا الأسلوب فى عرض تاريخ الإسلام ، ومسيرة دعوته الخالدة .

عبد الصبور شاهين

مقدمة

بقلم فضيلة الشيخ

عبد الرحيم فوده

اختار الله هذه الأمة لشرف الجهاد فى سبيله والدعوة إليه ، وبوأها مكانة الإمامة والزعامة حيث يقول ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، وحيث يقول ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . [البقرة ١٤٣] ، [آل عمران ١١٠]

فالجهاد فى سبيل الله وفى سبيل إعلاء راية الدين الذى ارتضاه ، هو الوظيفة الشريفة لهذه الأمة ، وهو الذى بوأها المكانة الكريمة العظيمة التى وصلت إليها ، وذلك ما يشير إليه قول الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج ٧٦/٧٧] .

وقد كان العرب قبل الإسلام - بحكم طبيعتهم وبيئتهم وأخلاقهم - أنسب الشعوب لشرف هذه الوظيفة والنهوض بها ، إذ كانوا يأبون الضيم ويأنفون من الذل ، ويعرفون بالكرم والنجدة والشجاعة ونقاء الفطرة ، ويرون فى الموت دفاعا عن القيم التى يؤمنون بها شرفاً لا تقاس به الحياة مع الظلم والهوان ، بل كانوا يكرهون الموت على الفراش ويرون فيه ضعة وحطة تهبط بأقدارهم إلى مستوى الدواب والأنعام ، وذلك ما يلمح فى قول خالد ابن الوليد وهو يجود بأنفاسه الأخيرة « ... وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

ثم جاء الإسلام فعبأ هذه القوى وألف بينها ووجهها إلى غاية أكرم وأعظم ، إذ حبَّب إليهم الإيمان وزيَّنه فى قلوبهم ، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ثم دفع بهم إلى الجهاد فى سبيل الله ، ووضع نصب أعينهم هدفين لا ثالث لهما لتحقيق الغاية من الجهاد : الموت الشريف الكريم فى ميدان الحرب ، أو النصر المؤزر المظفر على أعداء الله وأعداء دينه ، فإن فى كليهما الخير الكثير والأجر الكبير عند الله كما يفهم من قوله تعالى ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٧٤] ، أما الفرار لغير حرفة حربية أو لغير الانحياز إلى فئة للتقوى بها أو تقويتها على الثبات والصمود والنصر ، فذلك جريمة منكرة تعرض صاحبها لغضب الله وسوء المصير ، كما يفهم من قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال ١٥/١٦] .

وهذا التوجيه الإسلامى يتسق مع ما طبع عليه العرب من هذه المعانى ، فقد كانوا يرون كما قال أحدهم « المنية ولا الدنية » و « استقبال الموت خير من استدباره » و « الطعن فى الصدور خير منه فى الأعجاز والدبور » .

ولكن العداوة بينهم كانت تجعل بأسهم بينهم ، ومن ثم كان من أجل نعم الله عليهم أن ألف بالإسلام بين قلوبهم ، كما يفهم من قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وقوله سبحانه ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ [آل عمران ١٠٣] ، [الفتح ٢٩] .

لهذا لم يكن عجباً أن تتألق فى ضوء الإسلام « المدرسة العسكرية الإسلامية » ، بكل هذه الخصائص والسمات القوية التى عرضها الباحث الفاضل الأستاذ محمد فرج فى هذا الكتاب القيم ، وأن نجد فى هذه المدرسة كل ما يعده الناس جديداً فى الفن الحربى والدراسة العسكرية ، فقد جلى فيه فكرة الحرب والإعداد للحرب والتنظيم لها ، وتقدير الموقف قبل الخوض فيها ، والمشاكل التى تنجم عنها ، والمبادىء التى تقوم عليها .

لقد طاف المؤلف الفاضل بالقارىء حول الحروب والمعارك الإسلامية ، ليريه العجب العجيب فيما كان يقع من مهارات وخبرات وقدرات ، وفيما كان يحرك الحشود من رغبة فى القتال وإقبال عليه واستبسال فيه ، وفيما كان يتحلى به المجاهدون من الآداب الإسلامية التى رفعت أقدارهم وجعلتهم نماذج رفيعة ومثلا عليا ، أو كما يقول الله فيهم ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح ٢٩] .

وقد اشتمل هذا الكتاب على بحوث إسلامية تتصل بموضوعه الأصلى ، يجد فيها القارىء زاداً من الثقافة التاريخية والعلمية ، يكشف عن سعة اطلاع المؤلف ، وإلمامه بموضوع بحثه ، واعتزازه بتاريخ العروبة والإسلام .

وهذا مما يجعل لهذا الكتاب قيمة عظيمة فى إذكاء الشعور وإنهاض العزائم وتعبئة القوى ، وبخاصة فى هذا الظرف العصيب الذى تتأهب فيه الأمة العربية لإزالة آثار العدوان ، وتشعر فيه الشعوب الإسلامية بضرورة الكفاح والجهاد لتحرير الأرض المقدسة والمسجد الأقصى من نير الصهيونية وقبضة الاستعمار .

لهذا سعدت بقراءة الكتاب ، وشعرت بأنه جاء فى حينه ووقته .

وأسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه ، وأن يسدد خطانا جميعا على الصراط المستقيم .

عبد الرحيم فوده

مقدمة الكتاب

[الطبعة الثانية]

سطع نور الإسلام فى الجزيرة العربية ، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الدين الجديد الذى ارتضاه الله تبارك وتعالى ديناً لخلقه ومكملا لما سبق أن نزل على موسى وعيسى وختاماً لرسالاته .

وتعرضت الدعوة لمقاومة عنيفة ، وكان أمامها طريقان .. إما أن تستمر وتصمد وتقاوم ليسطع نور الله ، وإما أن تقبع حيث هى و يستسلم الداعى لها للقوى المضادة وينتهى كل شىء .

واختار رسول الله طريق الله .. طريق الدعوة إلى الحق والعدل والسلام وهو طريق كان معروفاً لدى رسول الله أنه يقود إلى صدام مسلح مع قوى كثيرة تقف له بالمرصاد وتملك القدرة والإمكانيات ، ولكنه عليه السلام رأى من آيات ربه أن النصر له لأنه من عند الله أصلا ، فداوم المسيرة على الطريق الذى اختاره ، وسار معه رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه إيماناً صادقاً وعقيدة راسخة وبذلا بلا حدود وأملا فى نصر أو استشهاد .

وما كانت نذر اللقاء المسلح تلوح ، حتى أذن للمسلمين بالقتال وحمل السلاح ومواجهة القوى المضادة ، دفاعاً عن الدين وحماية للداعى له والداخلين فيه ، وحتى تصل الدعوة إلى الناس كافة ، فيختارون ـ وقد تهيأت لهم حرية الاختيار ـ الدخول فى الإسلام أو البقاء على دينهم ، وقد أقر الإسلام منذ البداية حرية العقيدة .

ومع صدور الإذن بالقتال أخذت المدرسة العسكرية الإسلامية مكانها على مسرح الأحداث ، وبدأت فى إعداد العقول التى ترسم وتخطط ، والرجال الذين يحملون عبء التنفيذ ، والسلاح الذى تتم به المواجهة .

ولما كان الإسلام فى بدء الطريق ، وكان الرجال الذين آمنوا به قليلين وعدتهم محدودة ، ولما كانت القوى المضادة متمكنة من نفسها قادرة بإمكانياتها ـ رجالا أشداء ، وسلاحاً كثيفاً ، وماضياً عريقاً ، وحاضراً يتسم بالسلطة والسيادة ، ومستقبلا مرجواً فيه استمرار السلطان ـ فقد كان على المدرسة العسكرية الإسلامية مواجهة الموقف .

ولجأ رجال العسكرية الإسلامية إلى القرآن ، يستمدون منه أسلوب العمل فى مرحلة الجهاد المقبلة ، ووجدوا فى آياته الكريمة فيضاً من التوجيهات والإرشادات التى أصبحت عماداً لكل عمل عسكرى .

ولأن المعارك الإسلامية قامت أساساً على تعليمات القرآن الكريم وتوجيهات السماء ، وإرشادات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد انتصر

المسلمون فى كل معاركهم ، لا فى داخل الجزيرة فقط ، ولكن فى كل موقع دار فيه قتال ضد القوى المضادة .

وأرست المدرسة العسكرية الإسلامية أسس الإعداد للمعركة ، وكيفية ممارستها وإدارتها ، ووجهت عنايتها الفائقة إلى الفرد المقاتل ، لتتغلب على مشكلة الكثرة العددية التى يفتقدها المسلمون وتتميز بها القوى الأخرى ، وخلقت المدرسة مقاتلين لهم كل المقومات التى تحتاجها المعركة نفسياً وبدنياً وعقائدياً ، ورسمت للمسلمين كيفية تنظيم أنفسهم للقتال ، ووضعت الخطوط العريضة التى تقوم عليها خطة القتال ، وحددت لهم المبادىء الحربية والأصول القتالية لتكون نبراساً ومنهجاً عند الاشتباك .

ولم يقف جهد المدرسة العسكرية الإسلامية عند حد الإعداد للمعركة وتنظيم خوضها وتحريك الجيوش أثناءها ، وإنما امتد دورها وجهدها إلى معالجة المشاكل التى تنجم عن الحرب ، فوضعت لها الحلول العادلة التى تنبع أساساً من عدالة الإسلام .

وفاقت المدرسة العسكرية الإسلامية المدارس العسكرية الأخرى ، لأنها كانت ذات فضل على الحرب لا ينسى ، فهذبت فكرة الحرب وارتقت بأسبابها ، وعالجت شئونها بما يعود على الإنسان والبشرية بالخير والسلام والأمان .

وإذا كان التاريخ عامة هو مدرسة للشعوب ، تتعلم منها وتأخذ عنها وتضع بها أيديها على مواطن القوة ومواضع الضعف ، وتبصر من تاريخ السابقين الدروس المستفادة ، فإن التاريخ الحربى يمثل المقام الأول بين فروع التاريخ ،

فدراسة التاريخ الحربى ضرورة لابد منها ، ولايجب الاهتمام فقط بنواحى الاستراتيجية والتكتيك ، بل يجب أن تمتد الدراسة لتشمل كافة العوامل السياسية والإدارية والفنية والعقائدية ، ذات التأثير المباشر فى سير الحملات ونتائج المعارك .

ولقد اهتم العالم كله بدراسة تاريخ الحرب ، وظهرت مؤلفات عديدة مستفيضة ، تقديراً لأهمية هذه الدراسة ، إلا أنه مع الأسف الشديد فإن التاريخ الحربى الإسلامى لم ينل مايستحقه من عناية الكتاب واهتمامات المؤرخين وحرص الدارسين . . ووجدنا بين أيدينا فيضاً غامراً من المؤلفات التى تحدثت عن الحروب فى الشرق والغرب ، قديماً وحديثاً ، بينما افتقدت المكتبات أية مؤلفات تتناول المعارك والحروب الإسلامية . .

وأصبحنا نسمع ونقرأ عن شخصيات عسكرية تنتمى إلى دول العالم كله ، وعن معارك حربية تمت فى مختلف الأماكن والأزمنة ، ولم تطرق آذاننا كلمة عن قائد عسكرى مسلم رغم نبوغ القيادات الإسلامية ، أو عن معركة إسلامية رغم روعة الأداء فيها ، وارتفاع مستوى الإعداد والتجهيز والتنفيذ .

إن هناك فعلا كتباً كثيرة ومؤلفات عديدة عن الإسلام ، تناولته من كافة جوانبه العقائدية والفكرية والثقافية والاجتماعية والأدبية ، وكان من الطبيعى أن تتعرض هذه الكتب والمؤلفات للأحداث العسكرية الإسلامية ولكنها تعرضت لها كتاريخ وأحداث ، ولم يتناولها كاتب من وجهة نظر

الاستراتيجية والتكتيك ، ولهذا كان تناولهـا للجانب العسكرى هزيلا ضعيفاً لايجدى ولا يفيد ...

ولم يكن من العدل أن نقرأ عن الفن العسكرى فى معارك التاريخ الكبرى ، دون أن تتضمن هذه المعارك معارك الإسلام الخالدة ، التى كانت أحداثاً لها صداها على العالم كله من الجانب السياسى ، ولها أيضاً بصماتها من الجانب القتالى والفنى .

وإن المؤرخ المنصف حين يطالع تاريخ الحرب الإسلامية ، ويقف على ماخلده الاسلام فى تاريخ الحرب من قواعد ونظريات ومبادىء ، لايملك إلا أن يعترف له بالفضل ، ذلك أن كل معارك التاريخ التى جاءت بعد الإسلام ، أخذت منه وتعلمت عنه ، ولكنها نسبت الفضل لنفسها .

وفى ضوء هذا كله وُلدت فكرة إعداد هذا الكتاب ، فلما صدرت الطبعة الأولى تلقاها القراء قبولا حسناً ، مما يؤكد حاجتهم وتعطشهم إلى معرفة تاريخهم العسكرى والوقوف على نواحى التفوق الفنى فيه .

ورأى الصديق الأستاذ محمد محمود الخضرى صاحب دار الفكر العربى ؛ وشيخ الناشرين فى مصر ، أن تصدر الطبعة الثانية من الكتاب ، ووافقته على أن تكون معدلة ومزيدة ، وأعدت مراجعة الكتاب ، وأدخلت بعض التعديلات والإضافات ، نتيجة لآراء كثيرة تلقيتها منذ صدور الطبعة الأولى من قراء كرام فى مصر والعالم العربى .

وإنى أنتهز هذه الفرصة فأقدم عظيم شكرى وعميق تقديرى لكل

صاحب رأى أبى أن يحبسه ، وبعث به إلىّ فى مودة ومحبة وأخوة إسلامية .

وتصدر هذه الطبعة الجديدة من الكتاب ، وقد افتقدت وافتقد معى العالم الإسلامى الأخ الصديق العالم الفاضل الشيخ عبد الرحيم فودة ، فقد انتقل إلى رحمة الله ، بعد أن أدّى بكل الصدق والاخلاص والوفاء واجبه تجاه ربه ودينه ووطنه وإخوانه .. رحمه الله رحمة واسعة ، ورضى عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مثواه .

وأخيراً ..

فهاهو ذا الكتاب بين يدى القارىء .

أرجو أن يجد فيه شيئاً جديداً مفيداً ، وقد بذلت غاية جهدى ، وأدعو الله أن يتقبل منى هذا الجهد ، وأن يعين على جهود مماثلة .

والحمد لله أولا وآخرا ؟



مقدمة الكتاب

[الطبعة الأولى]

منذ وجد الإنسان وجدت معه الحرب .

وبتطوره وارتقائه تطورت الحروب وتبدلت فى الأسلوب والوسيلة والمنهج والغاية ، فالعلاقة بين الاثنين لم تنفصل أبداً ، وإنما ازدادت إتصالا ، لأن الإنسان وجد فى الحرب وسيلة للبقاء ، عملا بمبدأ البقاء للأقوى ... وكلما ازدادت مطامع الإنسان واتسعت آماله ، ازداد ارتباطاً بالحرب ، لأنها كانت أسلوب تحقيق الأطماع وتنفيذ الآمال ، وشهد التاريخ البشرى جولات متعددة بين الناس كأفراد ، ثم بينهم كجماعات وقبائل ، وعندما قامت الدول والممالك شهد التاريخ البشرى قتالا متصلا بين هذه الدول والممالك .. بعضها كانت تملك وسائل القوة فسادت واتسعت ، وبعضها افتقدت هذه الوسائل أو لم تصل إلى المستوى المادى المطلوب لإحراز النصر فهزمت وانكمشت أو زالت.

وبتطور التفكير الإنسانى تطورت وسائل الحرب وأساليبها ونظمها ، واستحدث الفكر الإنسانى وسائل جديدة وأساليب متعددة ونظما متطورة ، ولم يقف الفكر الإنسانى فى هذا المجال عند حد معين ، وإنما استمرت الحرب وسيلة وأسلوباً ونظما فى تطور دائم متصل ، طالما كان التفكير الإنسانى يزداد تطوراً وتقدماً وازدهاراً ، ولما أصبحت هناك الجيوش المنظمة التى تدين بالولاء لفرد هو الملك أو الإمبراطور ، أو لقطعة من الأرض هى الدولة أو

المملكة أو الإمبراطورية ، امتدت يد الإصلاح والتغيير والتطور إلى هذه الجيوش فى مختلف مظاهرها وجوانبها وزواياها ، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى حدوث تغيير كبير فى الحرب ذاتها ... فى أصولها وفنونها ووسائلها ومعداتها وكيفية ممارستها ، وقد أدى هذا التغيير إلى ظهور عبقريات عسكرية على طول التاريخ الحربى ، سادت فترات طويله فى ميادين القتال ، وأصبح اسمها علماً من أعلام الحرب وعلامة بارزة فى تاريخ المعارك .

ولكن هـذا التغيير الكبير الدائم والمتصل ، وظهور العديد من العبقريات فى مجالات الحرب والقتال ، لم يحقق قيام مدرسة عسكرية لها جوانبها الفنية وأصولها العلمية ، كما تحقق ذلك فى تاريخنا المعاصر ، فنحن نسمع عن المدرسة العسكرية الألمانية ، والمدرسة العسكرية الفرنسية ، والمدرسة العسكرية الإنجليزية ، والمدرسة العسكرية الأمريكية ، (يطيب للبعض أن يستخدم اسم المؤسسة العسكرية بدلا من المدرسة العسكرية ولكننا نرى كما يرى غيرنا من العسكريين أن اسم المدرسة أشمل فى دلالته وأعم فى معناه) ، ولم يتردد على أسماعنا من قبل قيام مثل هذه المدارس ، لأن قيام مدرسة عسكرية يعنى وجود منهاج معين للحرب ، وأسلوب يتميز بحسن التخطيط والإعداد والمناورة والقيادة والتدريب ، وممارسة فنون القتال على أسس علمية صحيحة تحقق النصر وتؤكده ، كما يعنى أيضاً خلق قيادات ناجحة تعتبر مثلا فى قياداتها للجيوش ، وتتميز بالخبرة والقدرة والكفاءة ، وصفات أخرى يأتى فى المقام الأول منها الشجاعة والجرأة وحسن التصرف ، وتعتبر معاركها من المعارك المثالية فناً وقيادة وإعدادا ، فتعكف الأجيال المتعاقبة على دراستها وفهمها وإدراك نواحى النجاح والتميز فيها .

فالفراعنة مثلا كان لهم تاريخ مجيد وحضارات ما زالت حتى يومنا هذا

موضع التقدير والإعجاب ، وكانت لهم حروب كثيرة متعددة ، وظهر اسم رمسيس وتحتمس كرجلى حرب لهما مكانة معروفه وتاريخ حافل ، وكانت معاركهما من أعظم ما شهده التاريخ الحربى قدرة وفناً وقيادة ، ونحن مازلنا نذكر الانتصارات العظيمة التى كانت لهما فى مجدو وقادش ، وما زلنا نذكر أيضاً أنهما وغيرهما من ملوك الفراعنة استطاعوا أن ينازلوا أعداءهم وأن يقهروهم ، وأن يصونوا بلادهم من الغارات المتعددة التى تعرضت لها من جانب الطامعين فى امتلاكها والسيطرة عليها كالهكسوس مثلا (هم المعروفون فى التاريخ باسم الملوك الرعاة ، وقد أخضعوا مصر لحكمهم واستوطنوها حتى خرجوا منها منهزمين مندحرين عام ١٦٠٠ ق . م) .. لقد حكمت مصر ست وعشرون أسرة فرعونية فى مدى ثلاثة آلاف سنة ، ووصلت مصر خلال هذا الحكم إلى أوج مجدها ، ورغم هذا التاريخ الفرعونى الحافل فإنه لم تقم مدرسة عسكرية تحمل اسم الفراعنة ؛ لأن تاريخ معاركهم اندثر بانتهاء حكمهم وانقضاء عهدهم ، وإن كانت هناك جهود فردية بذلت لتمجيد فن الفراعنة العسكرى ، فإنها لم تصل إلى حد الاعتراف بقيام مدرسة عسكرية تحمل اسمهم ، ولعل ذلك يرجع إلى أن الفراعنة كانوا يمارسون باهتمام بالغ جوانب الإصلاح الاجتماعى فى داخل بلادهم ، كالإنشاء والتعمير وإقامة السدود والقناطر والخزانات ، ويرجع أيضاً إلى أنهم لم تكن لهم أطماع خارج حدود بلادهم ، فقد كان همهم الأكبر هو الذود عن حياض بلادهم والدفاع عنها ضد أى عدو يأتيها من الخارج طمعاً فى امتلاكها واحتلالها ، ولهذا اشتهر العهد الفرعونى بإصلاحاته الداخلية ونهضاته الاجتماعية وبالرقى فى مجالات الصناعة والزراعة والتجارة ، وبالتطور الهائل فى الفن والرسم والزخرفة مما طغى على الجانب العسكرى فى هذا العهد .

ومقدونيا مثلا كان لها شأن كبير فى التاريخ الحربى لا سبيل إلى إنكاره، وخاصة فى عهد الملك فيليب الذى عرف بأنه من أعظم رجال الحرب، مارسها عن قدرة وفن ونبوغ، وكذلك فى عهد ابنه الاسكندر، الذى قرر مجلس شيوخ روما تقديراً لفنه العسكرى أن يقرن اسمه بكلمة « الأكبر »، والذى بسط نفوذه وسلطانه على قارات ثلاث، وكون أعظم إمبراطورية فى التاريخ خلال ثلاث عشرة سنة، والذى مضت حياته على قصرها سلسلة من الانتصارات المتتابعة، لم يهزم مرة، ولم تقف أمام قواته مدينة أو قلعة أو جيش ... لقد كان الإسكندر عقلية عسكرية فذة ومحارباً ممتازاً وقائداً من قادة الحرب الأمجاد، ومع هذا لم تظهر فى التاريخ الحربى مدرسة عسكرية تحمل اسم الإسكندر أو اسم دولته.

وقرطاجنة كانت هى الأخرى ذات أمجاد عسكرية، شغل النزاع بينها وبين روما فترة طويلة فى التاريخ الحربى، وكان « هانيبال » نجمها العسكرى اللامع، تولى قيادة جيوشها وهو فى الحادية والعشرين، وغزا أسبانيا وإيطاليا، ووصفه جاكوب آبوت بأنه « أعظم أبطال الحروب فى التاريخ، إذ توغل بجيش صغير من المقدونيين فى أقاليم سحيقة، وقهر جيوشاً وأنشأ مملكة لا مثيل لها »، ولا يختلف اثنان فى أنه رجل حرب لا مثيل له، خاض المعارك بقوة وشجاعة وتفهم وإدراك، وكان له مايؤكد عمق تفكيره كمحارب وخصب عقليته كعسكرى، وصدق خبرته كقائد، وردد التاريخ اسمه كواحد من ألمع قادة التاريخ الحربى، ولكن بموته انتهت حياته العسكرية على حد قوله « دنت ساعتى وقضى الأمر وخسرت كل شىء »، ولم يعد يذكره إلا بعض من العسكريين أو رجال التاريخ الذين يهوون قراءة التاريخ العسكرى أو التاريخ العام، فأصبح سيرة تقرأ، ولم تظهر فى التاريخ مدرسة عسكرية تحمل

«اسمه تنسج الأجيال المتعاقبة على منوالها أو تسير على دربها .

وظهرت روما أيضاً كدولة لها تاريخ عسكرى طويل ، بدأ بالحروب المتصلة ضد قرطاجنة ، فلما قضت عليها بسطت نفوذها على إيطاليا ثم سردينيا وصقلية وجزء كبير من أسبانيا وبلاد الغال ، وأصبحت لها السيادة كاملة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الذى سموه بحرنا ، وامتدت مطامعها إلى جاراتها استجابة لشهوة الفتح ونزعات الاستعمار ، فتوسعت فى حروبها ، وتوغلت جنوباً فى أفريقيا ، وشرقاً فى آسيا واليونان ، وغرباً فى أسبانيا ، وكان الجند يحتلون المقام الأول فى الدولة ، يولّون الملوك ويسندون العروش ، ورغم هذه الحقبة الطويلة التى حفلت بالفتوحات وبالمعارك وبسيادة العسكريين وسيطرتهم، فإن تاريخ روما العسكرى انتهى ، ولم يبق منه غير مظهره ، ولم تقم فى التاريخ مدرسة عسكرية تحمل اسم روما أو اسم أحد قادتها .

وقبل العهد الإسلامى كانت هناك دولتا الفرس والروم ، وكانت لكل منهما صفحات فى تاريخ الحروب ، ولقد اشتعلت نيران الحروب بينهما على فترات طويلة ، وتكررت المواقع وكثرت اللقاءات ، وكانت كفة النصر تميل إلى هذا الجانب تارة وإلى ذاك أخرى ، فعند قيام الدولة الساسانية فى عهد أردشير الأول كانت فتوحات الروم قد جاوزت نهر الفرات ، واقتطعت أرض الجزيرة ، واتصلت الحرب بينها وبين دولة الروم ، وفى عام ٥٦٠ م هزم الروم ، ووقع امبراطورهم فاليران أسيراً فى أيدى الفرس ، وظل أسيراً إلى أن مات ، وكانت الحروب سجالا بين الدولتين .

وزحف هرقل بعدها بجيش رومى إلى فارس واكتسحها ودمرها ، وسبى نساء كسرى ، إلا أن الأخير عاد فاكتسح بلاد الروم ، ومابين عامى ٦١١م و٦١٧م كان قد وضع يده على الرها ، وحلب ، وأرمينيا ، وآسيا الصغرى ، وأنطاكية وقيصرية ، ودمشق ، وأورشليم ، وانتزع الصليب الأعظم وبعث به إلى المدائن وغزا مصر واستولى على الإسكندرية ، ونزل قول الله تعالى فى هذه الغلبة الفارسية ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ﴾ [الروم ١ ــ ٤]

وعاد هرقل فقاد جيوش الروم ودخل أرض فارس ، وقتل رجالها ، واحتل المدائن ، واستعاد آسيا الصغرى وأرمينيا وأذربيجان فى عام ٦٢٣ ، ٦٢٤ م ، ثم استولى على القوقاز ووادى دجلة ، ورغم أن الحرب دارت رحاها بين الدولتين فترة طويلة ، فإن تاريخ الدولتين الحربى انتهى بانتهائهما وانقضى بانقضائهما .

وفى خلال فترة الصدام المسلح بين الدولتين كانت القبائل العربية تنتشر فى أنحاء الجزيرة العربية تسعى وراء المرعى والكلأ ، وتعتمد على الانتقال من مكان لاتتوافر فيه سبل الحياة إلى مكان تسهل فيه الحياة ، وأدى هذا الانتقال إلى الصدام المسلح بين القبائل ، وقامت بينهـا الحروب الكثيرة المتعددة ، ولم تكن هذه الحروب تعتمد على الفن العسكرى قدر اعتمادها على الكثرة العددية ، ولهذا دونت سير هذه الحروب على أساس أنها كانت مظهراً للقوة والشجاعة والجرأة ، ولم تدون على أنها مرجع عسكرى يمكن الرجوع إليه للاستفادة منه ، وذلك رغم اتفاق الكافة على أن الحيـاة فى الجزيرة كانت تخفق فوقها بنود الحرب ، وحسبنا أن نعرف أن روايات التـاريخ الجاهلى

تذكر أن حرب داحس والغبراء مكثت أربعين عاما لاتخمد جذوتها ، وأن حربا بين بكر وتغلب دامت عشرات الأعوام .

وعندما سطع نور الإسلام فى الجزيرة العربية ، وبدأت الدعوة إليه من مكة على لسان رسول الله وخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، بدأت القبائل العربية تقاوم الدين الجديد وتقف فى وجهه ، وكثر المعارضون واشتدوا فى معارضتهم ، وتجمعت جبهتهم وألقت بثقلها فى المعركة ، تبغى أن يسود دين الآباء والأجداد ، وأن يبقى لهم السلطان والثروة والقوة ، وأن يقبر الدين الجديد فلا تقوم له قائمة ولا يؤمن به أحد .

ورغم تمسك الرسول بالدعوة السلمية للدين الجديد ، إلا أنه كان لابد للقوتين من أن تتلاقى وجها لوجه ، وأن يقع الصدام المسلح بينهما ، وأذن للمسلمين بحمل السلاح ومقاومة العدوان والدفاع عن الدين وحماية الدعوة ، وقامت المعارك المعروفة فى التاريخ ، وانتصر المسلمون على أعدائهم فى داخل الجزيرة وفى خارجها ، وساد الإسلام ، وقامت دولته تنشر العدل والحق والإخاء والمساواة ، ومبادىء الحياة الكريمة الشريفة الطاهرة ، وامتدت حدودها فشملت بلاد الشام وفارس وما وراء النهرين شرقا ، وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس غربا .

وخاض المسلمون معارك كثيرة ، وقابلوا أعداء كثيرين ، وانتصروا فى غالبية المعارك ، وهزموا فى القليل جداً منها ، ولكنهم أخذوا من الهزيمة دروسا استفادوا منها فى استكمال عوامل النصر وطرح أسباب الهزيمة (كما حدث فى أحد ، وفى موقعة الجسر بفارس) .

وظلت تفاصيل معارك الإسلام نبراسا للقادة وهدى للعسكريين ، ومثالا يقتدى فى مختلف العصور والأزمنة ، وأصبحت للإسلام مدرسة عسكرية تتميز بالأسس السليمة والدعائم الصحيحة ، وبالفكر العسكرى المتطور ، وأخذت عنها الأجيال العسكرية المتعاقبة فنون الحرب ، والخطوط العريضة للإعداد والتجهيز لها ، ومنهاج قيادة الجيوش وإدارة المعركة ، ومعالجة مشاكلها ، فلما قامت المدارس العسكرية الحديثة ،أصبح من حق المدرسة العسكرية الإسلامية أن تكون فى مقدمتها،ولها مكان الصدارة ،لأنها كانت المعلم الأول فى هذا المجال .

وإن المؤرخ العسكرى المنصف حين يطالع تاريخ الحروب الإسلامية ويقف على ماخلّده الإسلام فى تاريخ الحرب من دروس وقواعد وأسس ونظريات ومبادىء ، لايملك إلا أن يعترف بالمدرسة العسكرية الإسلامية كأول مدرسة فى التاريخ العسكرى، فى ضوء آثارها العظيمة وبصماتها ومبادئها فى المجال العسكرى ، حتى أصبحت منارة تهتدى بها الأجيال العسكرية التى جاءت بعد العصر الإسلامى .

ولعل من أعظم وأجل بصمات الإسلام فى مجال الحرب أنه :

- طور نظرية الحرب وعدّلها بما يناسب طبيعة القتال .
- هذّب فكرة الحرب وسما بأسبابها ودوافعها وأغراضها .
- وضع أسس الإعداد للمعركة بأسلوب ومنهاج يضمن النصر .
- أرسى القواعد والأصول والمبادىء التى تحقق كسب المعركة .
- أخرج أجيالا من العسكريين كانت لهم صفحات مشرقات فى التاريخ الحربى .

- عالج المشاكل التى تنجم عن الحروب بما يتفق مع إنسانية الإنسان، حفاظاً على حياته وأمنه وكرامته وبشريته .

والملاحظ أن المبادىء التى حققتها الحروب الإسلامية فى مختلف مراحل القتال ، لم تنته بانتهاء هذه الحروب ، ولم تندثر بقدم عهدها ، وإنما بقيت مناراً للعسكريين الذين جاءوا بعدها ومارسوا الحرب فى تاريخ لاحق ، وأصبحت الأسس التى وضعها الإسلام للمعركة صورة حية جديرة بالدراسة والتطبيق فى عهود ما بعد الاسلام ، وإلى يومنا هذا ، وستظل كذلك فى المستقبل .

إذن فجميع مقومات المدرسة العسكرية قد توافرت بجلاء ووضوح وفاعلية فى المدرسة العسكرية الإسلامية ، ومن هنا فلابد من الاعتراف بقيام هذه المدرسة ، ونحن لا نلقى القول تحمساً للإسلام أو انطلاقا من إيماننا به ، ولكنها الحقيقة الماثلة فى وجدان التاريخ الحربى ، فقادة المدرسة العسكرية الإسلامية كانت لديهم القدرة على رسم الخطط ، بحيث لو طبقت هذه الخطط فى حروب اليوم لحققت المعجزات ، وبحيث لو بذل النقاد العسكريون جهدهم وتفكيرهم لنقدها أو إظهار مواطن ضعف فيها ما استطاعوا . . هذا فوق أن المدرسة العسكرية الإسلامية ابتكرت وسائل للحرب وأساليب لم يتنبه إلى فاعليتها وآثارها أحد إلا بعد مرور فترة طويلة ... ومن هذه الوسائل والأساليب :

- اتخاذ الحروب الاقتصادية وسيلة تقصم ظهر العدو وتمهد طريق النصر .
- عدم القتال فى جبهتين مختلفتين ضد عدوين فى وقت واحد .
- الاهتمام البالغ بالجبهة الداخلية لتكون سنداً للجيش المقاتل .

- عقد المحالفات والمعاهدات بقصد تحييد بعض القوى وقت وقوع الصدام مع العدو .

- استخدام الحرب الباردة كوسيلة لإضعاف قوى العدو ومعنوياته .

ولا يفوتنا أن نبرز حقيقة هامة ، وهى أن رجال العسكرية الإسلامية كانوا يحاربون أعداء فاقت إمكانياتهم المادية إمكانيات المسلمين ، سواء كان هؤلاء الأعداء فى داخل الجزيرة أو خارجها ، وأنهم تمكنوا بقدرات مادية ضئيلة وإمكانيات محددة من التغلب على أعدائهم ، وأسسوا دولة عربية إسلامية قوية فى داخل الجزيرة ، استطاعت أن تدحر قوى إمبراطوريتى الفرس والروم ، وهما تملكان العدد والعدّة والإمكانيات والقدرات ، وكانت لهما فى التاريخ الحربى جولات وصولات ، ولم يكن للمسلمين وقتها شىء من هذا كله .

لقد نجحت المدرسة العسكرية فى خلق دولة قوية راسخة ، تمتد فى آسيا وأفريقيا وأوربا ، ومازالت هذه الدولة قائمة حتى يومنا هذا ، وإن كانت قد امتدت إليها يد التغيير ، فأصبحت تحت ظروف معينة مجموعة من الدول التى تشمل حيزاً كبيراً فى أفريقيا وآسيا . . ووجود هذه الدول يؤكد صدق قيام هذه المدرسة وصلابتها وأصالتها ، ولا عجب فالمدرسة العسكرية الفرنسية التى قامت على أكتاف نابليون قد نجحت فى تكوين إمبراطورية فرنسية ، ولكنها تلاشت وانكمشت ، وعادت فرنسا إلى حدودها الطبيعية قبل عهد نابليون ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للمدرسة العسكرية الإنجليزية التى اتسعت حدود إمبراطوريتها فشملت غالبية أراضى آسيا وأفريقيا ومناطق متعددة فى

العالم ، ثم عادت هذه الحدود وانكمشت ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للمدرسة العسكرية الألمانية التى امتد سلطانها إلى مناطق كثيرة من أوروبا واتسعت رقعتها ، ثم عادت وانكمشت .

ورغم اعترافنا واعتراف العسكريين فى العالم كله بقيمة ومنزلة ومكانة هذه المدارس العسكرية المختلفة ، فإن المدرسة العسكرية الإسلامية قد فاقت كافة هذه المدارس وبزتها ، لأن الدولة التى أقامتها هـذه المدرسة مازالت فى ذات النطاق الذى كانت عليه ، تحدها ذات الحدود ، لم يحدث فيها انكماش أو تغيير ، رغم أن بعض دويلات أوروبية استقلت تحت ظروف قاهرة ، ورغم هذه الحدود المصطنعة التى وضعها الاستعمار وفرضها ، وهذه الخلافات الوهمية التى أثارها بين العرب لتبقى المنطقة العربية الإسلامية تحت سيطرته وطوع سلطانه .

وعلى كثرة ماقرأنا وسمعنا عن هذه المدارس العسكرية الحديثة ، وعن قادتها ومعاركها وأساليبها فى تطور فن المعركة والقتال ، فإننا لم نقرأ أو نسمع بقدر متوازن عن المدرسة العسكرية الإسلامية وفنها العسكرى وشخصياتها وأساليبها ، وهذه حقيقة مؤلمة مع الأسف الشديد والعميق ، ولـكن هذا لايعنى أبداً إنكار وجود هذه المدرسة أصلا ، أو تجاهل بصماتها ، فإن وراء هذه الحقيقة أسباباً ودوافع .

فالإسلام خلق قوياً وعاش قوياً ، له أسلوب وأصول ، وقواعد ومنهج ، وخط واضح وسبيل قويم ، إلا أنه تعرض — شأنه شأن أية دعوة تسعى إلى الإصلاح وتحرير الإنسان وخير البشرية وسلام العالم — إلى معارضات قوية وتيارات عاتية وقوى مضادة ، وقفت كلها فى طريقه ، تصده عن سبيله ، وتمنع

تقدمه وتطفىء نوره ... ووقف الإسلام أمام هذه القوى شامخا صلبا صامدا، وواجهها المسلمون بكل الإيمان والمثابرة ، وخاض الإسلام برجاله جولات متعددة على طول التاريخ منذ بدء الدعوة ، وما زال العداء قائما والمواجهة مستمرة حتى يومنا هذا ، وستظل كذلك فى المستقبل حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

واجه الإسلام — أول ما واجه — مقاومة قريش والقبائل المنتشرة فى الجزيرة العربية واليهود المقيمين بها ، ثم واجه دولتى الفرس والروم ، ثم واجه أعداءه فى شمال أفريقيا وبلاد الأندلس ، ثم فى بلاد الشرق ، واستطاع بمبادئه وبصلابة رجاله أن يحول خصومه من أعداء ألداء إلى أتباع مخلصين ، وأن يوطد أسسا صالحة لبناء أعظم دولة فى التاريخ ، تؤمن بالله الواحد القهار ربا ، وبمحمد رسولا ، وبالقرآن كتابا .

ولم تقف المواجهة عند هذا الحد بل ظلت القوى المضادة للإسلام بالمرصاد ولا يمكن أن ننسى ما تعرض له الإسلام من محنة حين هاجم المغول أرض الإسلام ، وعاثوا فيها فسادا ، فهدموا المدن وأسرفوا فى قتل النساء والرجال وسرقوا ونهبوا ، وأحرقوا وأشعلوا النيران فى المساجد ودور العبادة ، كما حدث فى بغداد وحلب ودمشق ، ولكن المسلمين استطاعوا بفضل إيمانهم وتضامنهم وصمودهم إيقاف هذا التيار المعادى بانتصارهم العظيم فى عين جالوت .

وتعرض العالم الإسلامى إلى الحملات الصليبية ، التى جاءت من أوروبا تجتاح بلاد المشرق العربى ، وتسعى إلى القضاء على الإسلام والمسلمين ،

وذكر المؤرخون فيما ذكر عن هذه الحملات « إن الله بعث بطوس الناسك، فحرّك بقوة ربه أوروبا لتنقذ قبر المسيح والبلاد المقدسة من أيدى المسلمين العابثين فيها ، فملكوا البلاد وضربوا فى الأرض ، وطغوا وبغوا وارتكبوا من المظالم والمفاسد ما احمرت الأرض منه خجلا » .. جاءت هذه الحملات إلى العالم الإسلامى بهدف أوضحه ستيفن سن فى كتابه « الصليبيون فى الشرق » إذ قال « لم تكن الحروب الصليبية سوى حملات عسكرية لتأسيس قوة لاتينية فى سوريا وفلسطين » .. وعبّر عنه البابا أوربانوس الثانى فقال « إنها ليست لاكتساب مدينة بل لإحتلال أقاليم آسيا بجملتها » .. إذن كان الهدف هو القضاء على الإسلام فى مناطقه ، ولكن المسلمين استطاعوا بفضل إتحادهم وشجاعتهم وقوة إيمانهم أن يوقعوا الهزيمة بالصليبيين ، تارة على يد صلاح الدين فى حطين ، وتارة على يد الملك الصالح أيوب فى المنصورة .

ولم يكن انتصار الصليبيين نهاية لجهادهم ضد أعدائهم ، بل كان حافزا للأعداء ، فجمعوا صفوفهم ووحّدوا غاياتهم وواصلوا عداونهم ... واتحدت قوى الصهيونية العالمية مع قوى الاستعمار الغربى ، واتخذا معا خطة موحدة لهدم الإسلام والقضاء على المسلمين ، وبدأت المعارك بين الطرفين منذ عهد بعيد ، وما زالت المعارك مستمرة ، وستظل إلى أن يحق الله الحق ويدحض الباطل ويتم نوره ولو كره الكافرون .

وسعت القوى المضادة بكل سلطانها وجبروتها إلى إيجاد الفرقة بين المسلمين فى كافة البقاع ، وإلى إضعاف روح المقاومة عندهم ، وألقوا بثقلهم فى المعركة ، وبدأ مفكروهم وكتابهم ومؤرخوهم وكافة أجهزتهم الدعائية

والإعلامية فى حملة مكثفة لإضعاف ثقة المسلمين فى أنفسهم وفى دينهم وفى قرآنهم ، وأعماهم التعصب الدينى فشوّهوا الحقائق ، وصوّروا الحق بصورة الباطل ، وحوّلوا النور بدعاياتهم الكاذبة وأهوائهم الطائفية إلى ظلام حالك حرّكهم تعصب جاهل وعقل ضيق وميول شريرة ونزعات خبيثة وبُعد عن الإنصاف والنزاهة وميل مع الهوى وتجنى على العلم والعقل والتاريخ والأمانة العلمية والواقع .

وكان لابد من إغفال كل مايثير القوة فى نفوس المسلمين ، ومايعيد إلى أذهانهم بطولات الإسلام ومواقف رجاله الميامين ، حتى تهن عواطفهم ، وتتلبد مشاعرهم ، فيفقدون حماسهم ، ويضلون عن عقيدتهم الراسخة فى القلوب المؤمنة والعقول المتفتحة ، فيرون أنفسهم قوماً ضعافاً ، وينسون تاريخهم المشرق وماضيهم العريق ، وانتصارات أجدادهم على طول التاريخ .

واتجه الكتاب والمؤلفون والمؤرخون إلى إخفاء جميع معالم القوة ومظاهر العزة عند المسلمين ، وسلطوا الأضواء على البطولات الحديثة ، بهدف ضياع أو نسيان الأمجاد الإسلامية ، وأسدلوا عمداً الستار على التاريخ العسكرى الإسلامى ، حتى لاتبدو صفحاته المشرقة فى أعين الناس ، فيعرفون ماضيهم ، ويدركون أمجادهم ، ويستمدون من تاريخهم العون والقوة ، ويأخذون من أسباب الانتصار فى الماضى أسباباً للانتصار فى الحاضر .

وتنبهت بعض العقول الواعية والضمائر الحية إلى مايدور فى الخفاء ضد الإسلام ، وضد تاريخه الحربى بصفة خاصة ، فأخذت على عاتقها مهمة إبراز هذا التاريخ وتوضيح زواياه المختلفة للناس ، ونشر صفحاته

المجيدة ، وإعادة كتابته فى ضوء العلم الحديث حتى يبدو للعالم نوراً ، ومجداً وعلماً .

وبدأ الكثيرون يحملون أقلامهم ليعيدوا من جديد كتابة وتأريخ الأحداث العسكرية الإسلامية ، وكنت واحداً من هؤلاء على كثرتهم ، لى شرف المشاركة فى هذا العمل العظيم ، فقد أحسست بمسئوليتى كمسلم تجاه دينى ، وأدركت العبء الكبير الملقى على عاتقى ، وبالواجب الضخم الذى يفرضه علىّ الإسلام الذى عليه ولدت وعليه أموت وعليه أبعث .

وقدمت للمكتبة العربية وإلى المسلمين والناطقين بالضاد مجموعة من المؤلفات ، تحمل إليهم صوراً مجيدة للإسلام ، وتقدم صفحات مشرقة من تاريخ المسلمين ، وقد أحسست بسعادة غامرة حين وجدت إقبالا بلا حدود على هذه المؤلفات ، وأدركت أن مهمتى ومهمة زملائى قد بدأت تؤتى ثمارها وتصل إلى هدفها وتحقق آمالها .

وحينما قررت — كما قرر زملاء لى — أن أحمل راية الدفاع عن تاريخ الإسلام العسكرى ، واجهنى تساؤل له قيمته وله أيضاً أهميته . . . تساءل الكثيرون كيف لنا أن نقارن بين حروب المسلمين وحروب العصر الحديث وكيف ندّعى أن معارك الإسلام تقف على قدم المساواة مع حروب اليوم ؟ ، وكان منطق المتسائلين أن حروب اليوم تعتمد أساساً على الأعداد الضخمة التى لم يكن فى قدرة المدرسة العسكرية الإسلامية تجهيزها ... وعلى السلاح الحديث الذى شمله التطور نوعاً وكماً وفاعلية كالدبابات والطائرات والقنابل وغيرها مما يعتبر دون شك أمضى فى المعركة من السيف والرمح والسهم التى

تمثل أسلحة المسلمين الرئيسية ... وعلى وسائل الاتصال والنقل الحديثة فإن حرباً تستخدم فيها الطائرات وناقلات الجنود والمظلات واللاسلكي أفضل وأقدر دون ريب من حرب تدار بالفم والإشارة والنداء، ولايستخدم فيها غير الخيل والإبل كوسيلة نقل للمحاربين.

ومنطق المتسائلين غير سليم، لأنه منطق الذين لايعرفون عن الحرب أكثر من مظهرها وصورتها العامة، بينما غابت عنهم حقيقة الحرب وفلسفتها والعبرة من سير أحداثها وتطور ظروفها، ولهذا فإن الرد على المتسائلين سهل يسير.

فالعبرة فى الحرب ليست بأشكال المعركة أو بأحجامها أو بظواهرها، وإنما العبرة بأسسها ونظمها وأفكار قادتها، والمعركة لاتقاس بحجمها وبعدد المقاتلين وكمية السلاح ونوعيته، ولكن تقاس بكيفية الإعداد لها والتجهيز لخوضها، وبالفن المستخدم فى إدارتها، وبأسلوب تحريك القوات ومواجهة الأعداء، وبمدى تحقيق الهدف.

فمما لاشك فيه أن الاختلاف كان واضحاً بين تكوين الجيش الإسلامى، وتكوين جيشى الفرس والروم، فالكثافة العددية، والكثرة فى السلاح، والخبرة فى ممارسة الحرب، كانت فى جانب الفرس والروم، ومع هذا انتصر المسلمون، لأنهم حاربوا اعتماداً على الإعداد الفنى، والتخطيط السليم، والدراسة الواعية لظروف المعركة.

والتاريخ الحربى المعاصر يؤكد صدق مانذهب إليه، فروميل مثلا كان يحارب القوات البريطانية فى الصحراء الغربية فى عام ١٩٤٢ بقوة قُدرت

بفرقتين مدرعتين ، لا تصل فى حجمها وأعدادها وتسليحها إلى مستوى القوة البريطانية ، ومع ذلك استطاع خلال عامين أن يوقع بها خسائر فادحة عند كل لقاء ...

وأمريكا وهى إحدى أعظم قوتين فى العالم ، دفعت إلى فيتنام بأعداد ضخمة من الجنود ، كان عددها يرتفع بصورة غير عادية ، وبكميات مكثفة من السلاح مختلفة أنواعها براً وبحراً وجوا ، وكان التفوق العددى فى الرجال والسلاح فى جانبها ، ومع هذا كله فإنها لم تستطع أن تحقق نصراً ، بل لم تستطع أن تخفف من حدة المقاومة هناك .

إذن فالعبرة ليست بأحجام المعركة وأشكالها ، وإنما بمدى الأسس التى تقوم عليها ، والنظم التى تستخدم ، والقواعد التى تتبع ، والأفكار التى تطبق ، والخطة التى تتحرك بها القوات ، وفوق ذلك كله نوعية الرجال وكفاءتهم القتالية ، ومدى إيمانهم بالهدف الذى يقاتلون من أجله .

أما بعد

فقد عشت مع المدرسة العسكرية الإسلامية فترة طويلة من حياتى ، طالعت خلالها تاريخها وأحداثها ، وقارنتها بالمدارس العسكرية الأخرى ، ووقفت على حملات الهجوم ضدها ، وبحثت أوجه الرد ، ورأيت أن أدفع بهذه الدراسة إلى المكتبة العربية ، ليطالع الناس تاريخ هذه المدرسة التى تعتبر علامة مميزة فى تاريخ الحرب والإنسان والبشرية ، فتتضح أمامهم رؤية الطريق المنير الذى سار عليه رسول الله والذين آمنوا ، ويتبين لهم المنهج النبوى القويم ليكون هذا كله هداية إلى عمل جاد ، يصلح به أمرهم ، ويستقيم به حالهم ، ويقوى به إيمانهم ، ويثبت به يقينهم .

ولقد استجاب الله تبارك وتعالى لرغبتى فى أن يكون لى لقاء متجدد مع شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، فانتهيت فى رمضان من عام ١٣٨٨ هـ من إعداد الكتاب .

وتفضل فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فودة بمراجعة الكتاب وتقديمه وفضيلته عالم ومعلم ، يدير عن كفاءة وقدرة مجلة الأزهر التى تحمل رسالة الإسلام وتنشر مبادئه ، وتتطلع إليها الأجيال المتتابعة فيزيد إيمانها ويقوى يقينها .

والكتاب أخيراً فى يد القارئ العربى ، فإن وجده محققاً للغاية ، فالحمد لله أن هدانا إلى ذلك ، وإن وجد فيه بحثاً لم يستكمل فإن الكمال لله وحده .

والله تبارك وتعالى هو الموفق إلى ما فيه خير البلاد وخير العباد .

محمد فرج

المبحث الأول

نظرية الحرب
بين التطوير والتهذيب

(١) الكم .... والكيف
(٢) تهذيب فكرة الحرب
(٣) المستشرقون والحرب
(٤) أطراف النزاع
(٥) الإسلام والسلام
(٦) الشهادة

ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة
ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا
الله به، فانطلقوا فإنما هي
إحدى الحسنيين.. إما ظهور وإما شهادة

عبد الله بن رواحة

(١)

إن المتعمق فى دراسة تاريخ الحروب والمتتبع لظروفها وتطورها يدرك أن هناك نظريتين سادتا ميدان الحرب منذ عرف الإنسان الحرب وإلى يومنا هذا

● النظرية الأولى هى الكم .. أى العدد .. ويقصد به عدد المقاتلين الذين يشتركون فى القتال ويواجهون العدو ، وكمية السلاح التى يستخدمونها .

● النظرية الثانية هى الكيف ... أى المقدرة الفردية ، وإمكانية المقاتل وقدراته ، ومدى إحساسه بالمسئولية القتالية وهو يخوض المعركة ويقاتل عدوه .

والنظريتان مختلفتان ، فالأولى تعتمد على الكم ، بينما الأخرى تعتمد على الكيف إلى حد كبير وتهمل الكم إلى حد ما ، أى أنها تضع فى المقام الأول من عنايتها المقاتلين من حيث هم أفراد ، لهم إمكانيات القتال وقدرات المواجهة ، ومن حيث هم مقاتلون على درجة من الكفاءة تعينهم وتؤهلهم لمزاولة مهنة الحرب .

سادت نظرية الكم ميادين القتال خلال القرون الطويلة التى سبقت الإسلام ، وقبل ظهور المدرسة العسكرية الإسلامية ، فلما أذن للمسلمين بالقتال

وحملوا سلاحهم وسيوفهم ، وخاضوا غمار المعارك وواجهوا أعداءهم ، تبدلت هذه النظرية بنظرية أخرى جديدة قضت على سابقتها وقامت على أنقاضها ، وهى نظرية الكيف التى ظلت مسيطرة على تفكير كافة القيادات ، إلا أن نظرية الكم كانت تبدو على السطح على فترات ، ولكن لاتلبث أن تختفى لتعود نظرية الكيف إلى مكانتها فى عقول القادة ووجدانهم .

فلما قامت المدرسة العسكرية الفرنسية على يد نابليون بونابرت آثرت الأخذ بنظرية الكيف نبت الفكر العسكرى الإسلامى ، واقتنع نابليون بأهميتها وضرورتها ، وجعلها أساس تخطيطه العسكرى فى كافة معاركه التى خاضها طوال حياته العسكرية ، وحقق بها انتصاراته العظيمة التى حفل بها تاريخ العالم العسكرى .

وسيطرت نظرية الكيف على أفكار القيادات فى المدارس العسكرية التى ظهرت بعد نابليون ، إذ رأت فيها المنهاج السليم والطريق السوى الذى يقود إلى النصر .

وإن المتتبع للحروب الكثيرة التى قامت قبل الإسلام ، يلمس أن النصر فى هذه الحروب كان دائماً فى الجانب الأكثر عدداً والأوفر سلاحاً ، ولهذا كان القادة يسعون دائماً إلى أن يتوافر تحت لوائهم العدد الكبير من المقاتلين والكميات الهائلة من السلاح ، وكان مجرد اجتماع هذا العدد يُدخل الطمأنينة إلى قلب القائد الذى يضمن إلى حد كبير النصر فى لقائه المنتظر مع عدوه .

ويحضرنى فى مجال الحديث عن الكثرة العددية ، وصف جاء على لسان أحد رجالات الحرب فى معرض حديث له عن نظرية الكم ، فقد شبّه الجيش

ذى يتميز بالكثرة العددية فى المقاتلين والسلاح ، بحائط كبير مرتفع يتكون
ن عدد كبير من الطوب وكميات هائلة من المؤن والحجارة ، وقال إن هدم
ذا الحائط يحتاج إلى وقت طويل متسع وجهد عظيم متصل ، أما الجيش
لقليل العدد ، فقد شبّهه بحائط صغير يتكون من عدد قليل من الطوب وكمية
بسيطة من المؤن والحجارة ، فهو لا يحتاج مع قلة تكوينه إلا إلى جهد بسيط
حتى يسقط ويتهدم .

وسعياً وراء العدد الكبير وُجدت فئة الجنود المرتزقة ، وعُرف هؤلاء
الجند فى التاريخ ، وجاء ذكرهم فى مواقع كثيرة ، واتخذ هؤلاء الحرب مهنة
للكسب والرزق ، فكانوا يسعون إلى الانخراط فى الجيوش المقاتلة التى كانت
قياداتها ترحب بهم وتدفع لهم ، لأنهم كانوا يشكلون عاملا هاماً فى زيادة
عدد المقاتلين ، وبذلك تزيد الفرصة فى كسب المعركة ، وتقترب الآمال
من النصر .

ولقد اختفت هذه الفئة حين برزت إلى الوجود العسكرى نظرية الكيف
لأن هذه الفئة لا تتفاعل أبداً مع مقومات هذه النظرية ، فإن الحرب تقوم
لأسباب تتصل بالإنسان المقاتل ، فهو يحارب دفاعاً عن نفسه وأرضه وعرضه
ومبادئه وقومه وأهله وحريته ، ومن هنا تتوافر بين جوانحه وفى وجدانه
دوافع وأسباب تؤهله لأن يحمل السلاح عن إيمان ويخوض المعركة فى ثقة ،
ويسعى بقوة وعزم إلى النصر أو الاستشهاد .

أما فئة المرتزقة فإنها تتخذ الحرب وسيلة للكسب والرزق ، وهى من
خلال هذا المبدأ والهدف تحرص على الحياة وتتمسك بها ، ولهذا فإنها

تكون حريصة وقت القتال على ألاّ تصاب أو تُقتل ، بل تحرص على أن تبقى سليمة حيّة ، وهى بذلك تفقد مقومات المقاتل الذى يخوض المعركة من أجل هدف معين يؤمن به ولا يبخل فى سبيل تحقيقه بالمهجة أو الروح .

إن الحروب الكثيرة قبل الإسلام تؤكد بصورة قاطعة اعتماد القيادات فى معاركها على الكثافة فى الجند والعتاد . . فالإسكندر المقدونى خرج من بلاده فى أول غزوة له وتحت قيادته أربعون ألفا من المقاتلين يشكلون الكتائب المتراصة المسماة « فلانكس » ، وكانوا مسلحين يلبسون الدروع على أذرعهم ، ويحملون رماحا طول الواحدة ستة عشر قدما ، وفى رءوسها حراب من حديد . . . يبدو إذن الحرص على حشد أكبر عدد من المقاتلين وأكبر كمية من السلاح فى تشكيل هذا الجيش .

وحين قرر هانيبال الزحف إلى روما ، حرص على أن يكون الجيش كثيف العدد كثير العدّة ، فجمع خمسين ألفا من الرجال ، وأربعين فيلا ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تتجمع فيها بصعيد واحد هذه الجموع ، حتى أن خصومه اعترفوا بضخامة جيوشه قائلين « لقد ظل ستة عشر عاما محتفظاً بقواته فلم يسرحها أو يبعدها عن الوغى ، وبالرغم من تجميعه لهذه القوات فقد وُفق فى أن يسيطر على هذا الجيش اللجب العرمرم ، مع أنه لم يكن مكونا من شعب واحد أو جنس واحد » .

إذن فجيش هانيبال كان خليطا من شعوب متعددة وأجناس مختلفة سعياً وراء الحشد الضخم ، وذكر المؤرخون أنه كان يسعى إلى ضم كافة العشائر والعبيد إلى جيشه حتى يكثر العدد وتزيد الكثافة .

وذكر هارولد لامب أن ضباط هانيبال كانوا يطوفون البلاد برسالة منه يقرأونها على الناس ، يقول فيها « ستحصل كافة العشائر التى تشترك فى هذا الجيش على الميزات نفسها التى ينعم بها القرطاجيون ، وسيسترد العبيد الذين يصحبون سادتهم حريتهم ، وسيدفع هانيبال ثمن هذه الحرية لسادتهم ... »

وذكر أيضاً أن هانيبال كان يقول لرجاله « إنى أرحب بالراغبين منكم فى اصطحابى ، الذين سأقتسم معهم العطايا وخير الجزاء » .

ولقد ذكر ول ديورانت مؤلف كتاب « الحضارة الرومانية » أن جيوش روما لم تكن جيوشاً رومانية خالصة ، بل كان معظمها يتألف من أبناء الولايات ، وأكثرهم من البرابرة ، ولم يكونوا يحاربون دفاعاً عن دينهم أو وطنهم ، بل كانوا يقاتلون لنيل أجورهم وهباتهم ومغانمهم .

وعلى هذا الدرب سار القادة فى جميع الأزمنة ، فكان همهم الأول ، بل الأكبر هو حشد أكبر عدد من المقاتلين ، يخوضون بهم غمار المعارك ، ويواجهون بهم أعداءهم ، وسيطرت فكرة الكثرة العددية على رءوس القادة وتفكيرهم ، وبالتالى على ميادين المعارك ومسارح الحرب .

وظل الأمر على هذا الحال حتى قامت المدرسة العسكرية الإسلامية ، فنظرت إلى الحرب نظرة جديدة ، وعمقت نظرتها إلى الجندى المقاتل ، فاهتمت به كفرد محارب ، وأولت مقوماته بالغ اهتماماتها ، ومن هنا وُلدت النظرية الجديدة ، وأصبحت الحرب الإسلامية تعتمد على الرجال ، لا على عددهم وكثرتهم ، وإنما على قدراتهم وإمكانياتهم ومشاعرهم ومعنوياتهم ، وأصبح

الاهتمام موجها بالدرجة الأولى إلى المقاتل بشخصه وذاته .. أى إلى يده القوية التى تحمل السلاح ، وقلبه المؤمن الذى يخفق من خلف السلاح ، وعقله المفكر الذى يدبر وسائل استخدام السلاح ، ولعل الاهتمام بالفرد المقاتل الشجاع الجسور هو الذى حدا بكثير من القيادات الإسلامية إلى رد عدد من المقاتلين ، ومنعهم من الخروج والإسهام فى القتال ، لنقص فى قدراتهم أو لعجز فى إمكانياتهم أو لافتقارهم إلى الدافع والإحساس والمسئولية .

والسؤال هو ... كيف ظهرت هذه النظرية إلى الوجود ؟

عندما نزل الأمر الإلهى بالقتال ، لم يكن لدى رسول الله القوة التى يستطيع بها صد أعدائه والدفاع عن نفسه ودعوته ، ولم يكن من المستطاع والدعوة فى مهدها توفير عدد من المقاتلين وتجهيز كمية من السلاح تتناسبان مع قوى العدو ، وتقدران على مواجهته ، ورأى الرسول بفكره الراجح الواعى أن الكثرة العددية ليست هى العامل الأساسى فى كسب المعركة ، وإنما الرجل المقاتل هو وحده هذا العامل ، واعتبره رسول الله أداة الحرب الرئيسية وعنصر النصر الحقيقى ، على أن يتم إعداده وتجهيزه معنويا ونفسيا ، وعلى أن تنمو لديه كافة إمكانياته ومشاعره وعواطفه وإمكانياته ، ليخوض معركة الحياة بقلب ثابت وساعد قوى وفكر متيقظ ، لا يهاب الموت ولا يخاف العدو ، وكانت المعنويات العالية وكفاءة القدرة القتالية هى التى رجحت كفة المسلمين فى كافة المواقع ، رغم قلة العدد والعدة ، وكانت هى دائما عنصر النصر وأساسه ، والدعامة الرئيسية الأولى فى كل المعارك منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كانت بدر معركة الإسلام الأولى ، خاضها المسلمون وهم قلة لا يتجاوز عددهم خمسة وثلاثمائة رجل ، ولم يكن معهم من وسائل الركوب سوى سبعين بعيرا يتعقبون عليها ، وكانت تنقصهم معدات القتال كالدروع ، كما كانت قوة الفرسان معدومة ، إذ لم يكن لهم سوى فرسين .. هذا بينما كان عدوهم يفوقهم عدداً وعدّة ، فقد بلغ زهاء ألف مقاتل ، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير ، وكانوا جميعا مسلحين بالدروع والسيوف والنبال ، ورغم قلة المسلمين وندرتهم ، وقلة سلاحهم وندرته ، كان النصر إلى جانبهم ، وانهزمت قريش مع كثرتها ، وسر النصر والهزيمة هو اهتمام المسلمين بالكيف ، بينما اهتم العدو بالكم ، فانشغلوا وفى مقدمتهم أبو جهل بجمع المقاتلين وحشد الرجال .

وفى أُحد أخذت قريش تعد العدّة وتستجمع قواتها وترصد رجالها وتعبىء القوى وتعد الرجال وتجهز السلاح ، وتسعى إلى القبائل تستنفرهم وترغبهم فى قتال محمد ، وتجمع لديها ثلاثة آلاف ، وانضم إليها أبو عامر ابن صيفى بن مالك الذى كان يلقب بالراهب والذى سماه رسول الله ــ لمغالاته فى عداوته ــ بالفاسق ، وكان معه رهط من الأوس .

وخرجت مع قريش نساء كثيرات تقودهن هند بنت عتبة ، التى أثارت خروج المرأة قائلة « نعم نخرج فنشهد القتال ولا يردنا أحد » ، وكان قد اجتمع من المسلمين سبعمائة رجل ، عقد لهم رسول الله ثلاث ألوية ، وكانت معهم مائة دارع وفرسان ، ويتلاحظ أنّ رسول الله رد كثيرا من الخارجين معه فى أحد لصغر سنهم ، رغم أنهم خرجوا يدفعهم إيمانهم وإحساسهم بمسئوليتهم كمسلمين إلى المشاركة فى رد العدوان .

كما يتلاحظ أنّ رسول الله رفض أن ينضم إلى الجيش حلفاؤه من يهود ، فقد سأله أحد أنصاره « ألا نستعين بحلفائنا من يهود » ؟ فأجابه « لا حاجة لنا فيهم » ، كما يتلاحظ أيضاً أنه عليه السلام لم يحفل بانسحاب عبد الله ابن أبى بن سلول وجماعته وعودته بهم إلى المدينة وعدم مشاركتهم فى القتال .. ورغم الاختلاف الكبير فى قوة الجيشين فقد انتصر المسلمون فى المراحل الأولى من المعركة ، ولولا أن فريقا منهم خالف أوامر رسول الله طمعاً فى الغنائم ، لكان النصر النهائى فى المعركة للمسلمين مع قلة عددهم وندرة سلاحهم .

واعتمادا على نظرية الكيف — نبت الفكر العسكرى السليم — خرج أتباع محمد من الجزيرة ، وخاضوا غمار معارك تاريخية هامة ضد الفرس وضد الروم ، وانتصروا عليهم ، وأزالوا ملكهم ، ووُجد كسرى الفرس مقتولا فى طاحونة مهجورة ، وفرّ إمبراطور الروم وهو يودع بلاد الشام قائلا « عليك السلام سلاما لا اجتماع بعده » ، وكان انتصار المسلمين تأكيدا للنظرية الجديدة التى جاءت بها المدرسة العسكرية الإسلامية ، إذ اتفقت جميع المصادر والمراجع والروايات على التفوق الهائل الذى كان عليه الروم والفرس عددا وعدّة ، ومن أسطع الأدلة وأقطعها ما حدث فى اليرموك إذ اجتمعت للروم أربعة جيوش ، كان الأول تسعين ألفا يقوده تيودريك ، والثانى ستين ألفا يقوده الفيقار بن نسطوس ، والثالث أربعين ألفا يقوده الدراقصى ، والرابع خمسين ألفا يقوده جرجه ، أى أن مجموع الجيش المحتشد فى مواجهة المسلمين مائتان وأربعون ألفا ، بينما كان الجيش الإسلامى أقل من ذلك بكثير ، إذ قُدر بأربعين ألفا فقط ، وأثار هذا الفارق الكبير رجلا من المسلمين ، فجاء إلى خالد وقال له « يا خالد ، ما أكثر الروم

وأقل المسلمين !! » ، فغضب خالد وأجابه « بل قل ، ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالهزيمة والخذلان ، لا بعدد الرجال » ، وكان النصر فى اليرموك فى جانب المسلمين مصداقا لقول خالد الذى آمن بأن كثرة الرجال لا تحقق النصر ، ولكن الرجل نفسه هو الذى يملك أن يحققه .

ومثل آخر من تاريخنا الإسلامى .. فها هو ذا عمرو بن العاص يقود أربعة آلاف مسلم ، ويجتاز بهم طريقا طوله سبعين ميلا خلال الصحراء ، بداية بالعريش متجها إلى داخل مصر ، وفى بلبيس التقى بجيش للروم بلغ عدده اثنى عشر ألفا كامل العدة ، وانتصر عمرو ، وقتل من الروم ألفا وأسر منهم ثلاثة آلاف ، ومزّق جيش عدوه ، وتم له بعد ذلك فتح مصر ، ثم برقة ، وطرابلس وبلاد النوبة ، وفى كل هذه الفتوحات كانت قوة جيشه أقل بكثير من قوة عدوه .

وما حدث فى وادى بكة فى أرض الأندلس يؤكد صدق نظرية الكيف ، فهناك التقى جيش المسلمين بقيادة طارق بن زياد بجيش ردريق قائد الأسبان ، لم يكن هناك تكافؤ فى القوى على حد قول لين بول « إن جيش ردريق كان ستة أضعاف جيش المسلمين » ، واستمرت المعركة ثمانية أيام ، وانتصر المسلمون وقضوا على الأسبان ، ولعل من أبرز مظاهر الاهتمام بإثارة معنويات المقاتلين والارتفاع بمستوى الكفاءة القتالية ، إقدام طارق على حرق أسطوله ، حتى لا يفكر جندى من رجاله فى الانسحاب ، وحتى لا يتعلق واحد منهم بأمل العودة إلى بلاده ، وحتى يضع الكل كافة الطاقات والإمكانيات فى المعركة من أجل تحقيق النصر .

ونود أن نقف وقفة قصيرة .

فكنا قد أشرنا إلى أن نظرية الكم كانت تطفو على السطح لفترات ، وقد حدث هذا فعلا إذ اهتمت بعض القيادات بالكم مرة أخرى ، واعتمدت على ضخامة الحشد فى معاركها ، ولكن كان ذلك فى فترات محدودة ، ولم تستطع نظرية الكم أن تستقر فى أذهان القادة ، ذلك أن العودة إليها كانت ردّة فى التفكير الحربى السليم ...

فالمغول والتتار اعتمدوا فى غاراتهم المعروفة التى تعرضت لها الأمة الإسلامية فى همجية وقسوة ووحشية ، على القوة العددية دون الدراية الفردية ، فجنكيز خان قضى عمره فى تجميع القبائل من حوله ، حتى إذا ما بلغ سن الخمسين ، كانت جميع القبائل القاطنة فى مناطق آسيا الوسطى قد أسلمته قيادها ، فاستغلها — اعتمادا على الكثرة العددية فى المقاتلين الذين أمدته بهم هذه القبائل — فى توسيع ملكه .

ولقد كان اهتمامه بإعداد السلاح وتوفيره يحتل المقام الأول فى تفكيره فقد كان يسعى بكل جهده من أجل توفير أنواع متعددة من السهام التى تختلف بين الطول والقصر وبالأقواس التى تقذف بها هذه السهام ، وكان يجمع الجياد لأنها سلاحه الراكب الخفيف الحركة .

وبذات التفكير والأسلوب حارب تيمورلنك ، فقد كان توفير الرجال وإعداد السيوف والأقواس والرماح والدروع والخوذ ، هو شغله الشاغل قبل كل معركة ، ولقد شهد المشرق العربى موجات من الحشد

الكثيف لقوات تيمورلنك ، وهى تجتاح بلاد العراق والشام فتدخل المدن وتحرقها وتقتل الرجال وتبيدهم .

ولكن لابد أن نذكر أنه حين وُوجهت هذه القوى المكثفة بالكفاءة القتالية وبالمعنويات العالية فى عين جالوت انهارت ولحقت بها الهزيمة ، ولم تستطع أن تصمد أمام قوات أقل منها عددا ، ولكن تفوقها فى المعنويات وفى طبيعة الرجال . . . قدرةً وإمكانياتٍ وحسنَ بلاء .

واعتمدت الدولة العثمانية أيضاً على الكم فى حروبها ، فخاض السلطان سليم المعارك ضد الدولة الصفوية فى العراق ، والدولة المملوكية فى الشام ومصر وكان يهتم بالحشد فجمع تحت قيادته جموعا غفيرة وأسلحة وفيرة ، ونجح فى أن يوسع رقعة دولته على حساب البلاد العربية كلها فى أفريقيا وآسيا ، وأصبحت ضمن إمبراطوريته الكبيرة .

قلنا إن عودة نظرية الكم إلى عقول وأفكار العسكريين كانت ردة ، انتهت بقيام الثورة الفرنسية ، وتألق نابليون كقائد عسكرى وكصاحب مدرسة عسكرية لها تعاليمها وقواعدها ونظمها وآراؤها فى الإستراتيجية والتكتيك ، وخاض نابليون معاركه إرتكازا على نظرية الكيف ، فلم يكن يهتم بالكثرة العددية قدر اهتمامه الكبير بالفرد المقاتل .

ولهذا كان نابليون أكثر اتصالا بضباطه وجنوده ، يقضى معهم وقته ، ويثير حماسهم ويقوى عزمهم ويجدد نشاطهم ويضاعف روحهم المعنوية وأثر عنه أنه كان يردد على مسامع جنده قوله « لا ريب فى أننى أستطيع فتح العالم بهؤلاء الرجال » ، وكان يوثق الصلة بينه وبين قادته ، وبينه

وبين جنده ، وبتأكيد هذه الصلة كانت ترتفع معنويات جنده ، وتزداد حماستهم ، ويعمق إيمانهم ببلدهم ومستقبلهم . . . . حدث فى أثناء معركة « واجرام » أن وجّه نابليون نقدا إلى أحد قادته وهو القائد « مارمون » ، وكان النقد قاسيا عنيفا مما أحرج القائد ، فغادر الرئاسة كسير القلب متألما ، وما أن وصل بيته حتى جاءه رسول من قبل نابليون يحمل إليه بشرى ترقيته إلى رتبة مارشال .

واقتنعت كافة القيادات ـ بداية بنابليون وحتى عصرنا الحديث ـ بنظرية الكيف ، فجعلتها أساسا للنظام العسكرى ونقطة البداية فى الإعداد العسكرى ، والخط العريض فى سياسة الحرب ، ومما يؤكد ذلك أن معارك الصحراء الغربية خلال الحرب العالمية الثانية ، أثبتت أن انتصار الجيش الثامن بقيادة مونتجمرى لم يتحقق أساسا لكثرة فى الرجال أو وفرة فى السلاح ، وإنما اعتمادا على قدرات المحاربين ومعنوياتهم ، فقد كان كل جندى يؤمن بضرورة النصر ، لأن النصر يعنى شرف الإمبراطورية التى ينتمى إليها ، ولأن النصر هو حماية لتاريخ أمته وصون لكرامتها ودفاع عن وجودها وتأكيد لكيانها وحياتها .

ومن عجب أن المؤرخين نسبوا نظرية الكيف إلى مدرسة نابليون ، وتناسوا أنها تقررت أساسا فى العهد الإسلامى مع ظهور المدرسة العسكرية الإسلامية .

ومن عجب أيضاً أن هذه النظرية أصبحت موضع الدراسة فى الكليات والأكاديميات العسكرية ، وأصبحت موضوعا تناوله المؤلفون والكتاب

فى مؤلفاتهم بالدراسة والبحث والتحليل ، ومع هذا فإن كافة الأجهزة سواء أجهزة الدراسة أو أجهزة التأليف لم تشر إلى أن هذه النظرية من نبت الفكر العسكرى الإسلامى ، وأنها ثمرة من ثمار المدرسة العسكرية الإسلامية .

إن الإسلام دون ريب هو صاحب الفضل الأول فى تطوير نظرية الحرب ، ولقد التقطت منه المدارس العسكرية الأخرى التى جاءت من بعده الخيط ، وآمنت بنظريته وآرائه فى تكوين الجيوش ، وفى ضرورة توجيه الاهتمام الكبير والعناية المطلقة إلى معنويات الجنود وقدراتهم ، وأصبحت توليها غاية عنايتها ، وجعلتها أساساً للنظام العسكرى ، وبداية لتشكيل الجيوش وتحريكها وساد الرأى العسكرى الحكيم الذى ينادى « الرجل أولا ثم السلاح » .

نابليون وهو رأس المدرسة العسكرية الفرنسية وضع قاعدة عسكرية هامة « إن نسبة القوى المادية إلى القوى المعنوية فى المعركة كنسبة ٣ : ١ » ، وهو يعنى بذلك أن جندياً واحداً يتمتع بمعنويات عالية وروح قتالية على كفاءة وقدرة تؤهله لتحمل ويلات الحرب ، يعدل ثلاثة جنود يعتمدون على كثرتهم وسلاحهم فقط .

ويؤكد هذا المعنى فيلسوف الحرب الألمانى كلاوزفتز فيقول « إن القوى المعنوية هى التى تحدد نتيجة المعركة » وهذا يعنى أن المقام الأول فى المعركة للقوى المعنوية وليس للقوى المادية .

ويصدق على ذلك مونتجمرى فى مذكراته عن حرب الصحراء ، فيقول « كان قادة الجيش الثامن يعرفون الكثير عن القتال ولكنهم لم يكونوا يفهمون معنى الحرب ، فالمفروض فى الجنرالات أن يكسبوا المعارك ، أما مادتهم الخام

فهي الرجال ، فالمعارك تكسب أولا وبصفة رئيسية فى قلوب الرجال .. وعندما يخرج الأمر من أيدينا يتحول نهائيا إلى الجنود ، فإن النصر يعتمد على تدريبهم وعلى شجاعتهم وعلى رفضهم تقبل الهزيمة ، وعلى ثباتهم وصلابة كفاحهم ، وعلى تصميمهم على النصر أو الموت » .

وجاء هذا المعنى على لسان « جيفارا » فى مذكراته حيث يقول « يجب عدم التهوين من شأن الجندى الأمريكى لقدراته التكتيكية التى تجعل منه عدواً رهيباً ... إن الذى ينقصه هو افتقاره إلى أرضية أيديولوجية فى ممارسة القتال ، ولذلك يتوقف انتصارنا على تحطيم معنوياته وذلك بإنزال الهزيمة تلو الهزيمة بقواته فى مختلف أرجاء الأرض » .

وبمراجعة هذه الأقوال على الأحداث العسكرية الإسلامية نجدها متفقة ومتطابقة .. وبمراجعة النسبة بين قوتى المسلمين وأعدائهم نجدها فى بدر ١ : ٣ وفى أحد ١ : ٣ ، وفى الخندق ١ : ٣½ (كان عدد المسلمين ٣٠٠٠ ، وعدد المشركين ١١٫٠٠٠) ، ويتلاحظ أن النسبة لم تتغير فى هذه الغزوات ، وأن هذه النسب هى التى قررها نابليون وأصر عليها لكسب المعركة ، ونحن لانستبعد أن يكون نابليون قد استلهم هذه النسبة من دراسته للعسكرية الإسلامية ، فقد عرف عنه أنه كان يواظب على قراءة تاريخ الحرب ، وكان ينصح رجاله دائماً « عليكم بقراءة تاريخ الحروب » .

وثمة شىء آخر هام فإن المخطط العسكرى الصينى « سن تزو » قال « إن أعظم درجات المهارة هى تحطيم مقاومة العدو دون قتال » .

وأوضح لينين إستراتيجية الحرب فى رأيه فقال « إن أصح استراتيجية

للحرب هى أن تؤجل العمليات الحربية حتى يهيىء تحلل القوى المعنوية للعدو إلى الضربة القاضية بسهولة ويسر » .

وفى ذات المعنى قال روشننج « إن استراتيجيتنا هى أن ندفع العدو إلى تحطيم نفسه أو نهزمه عن طريق نفسه » .

وبمراجعة أحداث غزوة الفتح نجد أنها تتفق مع هـذه الأقوال الثلاثة للقادة المختلفين الذين يمثلون ثلاثة مدارس عسكرية مختلفة .

- فالرسول سعى إلى تحطيم مقاومة قريش دون قتال .
- والرسول أجل بدء العمليات الحربية حتى ضمن تحلل قوى قريش المعنوية .
- والرسول جعل قريش تنهزم وحدها أو هزمها عليه الصلاة والسلام عن طريق نفسها .

وها هى ذى التفاصيل .. .

فقد أمر رسول الله عمه العباس بن عبد المطلب أن يصحب أباسفيان ابن حرب ليرى بعينيه قوة المسلمين ، فناداه العباس وقال له « ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله فى الناس ، واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة » ، فسأله أبو سفيان « وما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ » ، وصحبه العباس إلى خطم الجبل — وهو مكان يبرز منه الجبل ويضيق الطريق — حيث تمر الألوية الإسلامية المتحركة إلى مكة ، وسأل أبوسفيان « سبحان الله ياعباس من هؤلاء ؟ » ، فأجابه « هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار » ، فتولته الدهشة وسيطر عليه

الخوف ، ووجد نفسه يحدث نفسه « ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة » ، ثم أسرع إلى قومه يقول لهم معبراً عن مشاعره وإحساساته « يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن » .

فلما ثارت زوجته عليه صاح قائلا « ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لاقبل لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن » .

وهزتهم كلماته ، وأحسوا بصدق مايقول ، وأدركوا الخطر المقبل فسألوه « وما تغنى عنا دارك ؟ » ، فأجاب « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن » ، فأسرعوا جميعاً ... البعض يغلق بابه ، والبعض يحتمى بالمسجد ، وتحطمت أعصابهم ، ووهنت روحهم ، وافتقدوا الرغبة فى المواجهة ، ولم تعد لدى أحدهم نية قتال ، ودخل الجيش الإسلامى مكة منتصراً دون قتال يذكر إلا فى قطاع خالد .

وهكذا حطم رسول الله مقاومة قريش دون قتال كما قال سن تزو ، وهدم معنوياتهم على حد قول لينين ، وجعل قريشا تهزم نفسها كما جاء على لسان روشننج ، والمهم هنا أن هذه المدارس الثلاثة جاءت بعد الإسلام بزمن طويل مما يؤكد أن مبادئها العسكرية تمتد جذورها إلى العهد الإسلامى وتستمد وجودها من معارك الإسلام وغزواته .

وتاريخ الحروب الإسلامية يحمل بين سطوره صوراً متعددة وأمثلة مختلفة تبرز التفوق المعنوى عند المسلمين ، وتبين أهمية هذا التفوق عند اللقاء مع العدو ، فالقيادات الإسلامية منذ أن وجدت بذلت قصارى جهدها لتزكية

معنويات الجنود ولإثارة قدراتهم ولإبراز أهمية الدور الكبير الملقى على عاتقهم تجاه الإسلام .

ولعل إيمان المسلمين الأوائل وإصرارهم على نصرة الدين الجديد ، هو الذى جعلهم يصمدون أمام تعذيب قريش ، وقد بلغ حدّ القسوة والوحشية ، ولولا هذا الإيمان لعادوا جميعاً أدراجهم إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل خطوات جهاده أسوة حسنة لهم ، فعندما أشرف أبو طالب — وموقفه معروف من قريش ومن ابن أخيه — على الموت فرحت قريش وطمعت فى أن يغيروا من قلبه على ابن أخيه وهو يحتضر ، لعلهم يظفرون منه فى ساعة الموت بما لم يظفروا به فى فسحة الأجل، فيقف الرجل إلى جوارهم ضد ابن أخيه ، أو يأخذون عليه موقفاً وهو فى ساعاته الأخيرة بأن يحمل ابن أخيه على العدول عن سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، فمشى إليه أشرافهم وعلى رأسهم عتبة بن ربيعة وأبو جهل ابن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب ، وقالوا له « يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا و بين ابن أخيك ، فادعه ، نخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه » .

فأرسل أبو طالب فى طلب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له « يا ابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، فماذا ترى ؟ » .

وأدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وعمه على فراش الموت ماوراء نقده من أهوال وما ينتظره من أحداث جسام ، وأدرك أيضاً مايعتلج فى صدور

الحاضرين من خواطر وما تضطرم به صدورهم من أحاسيس ، ولم يشغله هذا كله عن أن يقول كلمة الحق بصوت قاطع وبلهجة تنم عن الإيمان العميق الوثيق « ياعم ، أنا لا أريد إلا كلمة واحدة يعطونيها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم » ، وقاطعه أبو جهل فى لهفة وقال « نعم وأبيك وعشر كلمات » ، فقال الرسول « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » ، وتعجب الناس وقالوا « إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وأمضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه » .

إذن فهؤلاء سادة قريش يحيطون بمريض يحتضر ، ويحاولون أن يستغلوا لحظة ضعف لتكون قوة لهم وتأييدا لمطالبهم ، ولكن الإيمان الذى يفيض به قلب رسول الله ، أنطقه كلمة الحق فى أحرج الساعات ، لأنه قلب يزخر بحب الله ويؤمن بنصره ويفيض بالحق والإيمان ، وهذا الإيمان الذى فاض به قلب رسول الله فاضت به قلوب المسلمين جميعا .

وكان هذا الإيمان غذاء روحيا رفع معنوياتهم وحسهم ، فكانوا فى تسابق إلى الخروج كلما دعاهم إليه رسول الله ، كانوا يتسابقون ، كل يود أن يسبق الآخر ، وأن يكون فى المقدمة ، وأن يكون له قصب السبق فى مجال القتال والكفاح . . كان كل مسلم يدرك بعمق أنه أحد جند الله ، وأنه يقاتل جند الشيطان ، ويحارب من أجل خيره وخير العالم وصلاحه ، لا من أجل سلطة أو جاه أو ثروة أو شهرة ، وكان يعى تماما أن جهاده فى سبيل الله واجب ، وأن قتاله لأعداء الله أمانة ، وأن الموت فى سبيل الله شرف ، وأن الحياة الآخرة خير وأبقى .

ولهذا كان الجندى المسلم يخرج إلى القتال بقلب ثابت لا يهتز ولا يرتجف ، يهجم فى قوة وعنف وصلابة ، مستهدفا إحدى الحسنيين النصر أو الاستشهاد .. ولم يتردد كبير السن أو صغيره ، صحيح البنية أو المريض ، السليم المعافى أو صاحب العلّة ، كانوا جميعاً يسمون إلى الخروج رغبة فى المشاركة وأملا فى النصر أو الشهادة . .

ها هو ذا خيثمة بن سعد يتوجه إلى رسول الله قبل الخروج إلى أُحد ويقول له « يا رسول الله ، لقد أخطأتنى واقعة بدر ، وكنت حريصاً عليها ، حتى بلغ من حرصى أن ساهمت إبنى فى الخروج فخرج سهمه ، ورزق الشهادة ، وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم . يقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى ورقت عظمى وأحببت لقاء ربى » .

وعند الخروج فى بدر أعاد رسول الله عددا من الخارجين ، ومنعهم لصغر سنهم ، فإنهم لم يبلغوا السن الذى يسمح لهم بالقتال ، ومن هؤلاء أسامة بن زيد ، وعمير بن أبى وقاص ، وحارثة بن سراقة ، وزيد بن ثابت ، وآخرون ، ولعل ردّ هؤلاء ومنعهم من الاشتراك فى القتال يرجع إلى أن كفاءتهم القتالية لم تصل بعد إلى مستوى المعركة ، ولن تتحمل أعصابهم أحداثها ووقائعها ، ويصبحون مشكلة تواجه المقاتلين ، فتشغلهم عن أمور المعركة وتحوّل أنظارهم عن أعدائهم إليهم .

وأصرّ عمرو بن الجموح — وكان يشكو عرجا شديدا — على الخروج ، فمنعه أبناؤه الذين خرجوا جميعا للقتال ، فتوجه إلى رسول الله يشكو إليه

أولاده قائلا « إن بنى هؤلاء يمنعونى أن أخرج معك ، فوالله إنى لأرجو أن أستشهد » ، فقال له الرسول « إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد » .

وعن عبادة بن الصامت « ما منا رجل إلّا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ... إن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة » .

ودعا عبد الله بن جحش ربه قائلا « اللهم لقنى من المشركين رجلا عظيما كفره شديدا حرده ، فأقاتله فيقتلنى فيك ، ويسلبنى ثم يجدع أنفى وأذنى ، فإذا لقيتك فقلت : يا عبد الله بن جحش فيم جدعت ، قلت : فيك يارب » .

وكتب خالد بن الوليد إلى أهل فارس خطابا جاء فيه « الحمد لله الذى فضى عليكم ، وفرّق جمعكم ، وأوهن بأسكم ، وسلب أموالكم ، وأزال عزمكم ، فإذا أتاكم كتابى فأسلموا تسلموا ، واعتقدوا منا الذمة ، وأجيبوا إلى الجزية ، وإلا والله الذى لا إله إلا هو ، لأسيرنّ إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ، ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا » .

والتقى عمرو بن العاص بقُرة بن هُبيرة الذى قال « إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة (بقصدالزكاة ومنعها بعد وفاة الرسول) ، فإن أعفيتموها من الزكاة فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم » ، واستنكر

منه عمرو هذا القول بشدة وقال له « إنى أراك على شفير جهنم ، تحاول أن تتردى فيها مع من تردى ، أتخوفنا بردة العرب ؟ فوالله لأوطئن عليهم وعليك الخيل ، ولأصلن إلى عنقك ، ولو أخفيته فى يد الجن »[1] .

ووصف تيودمير قائد الأسبان جيوش المسلمين فقال « لقد نزل بأرضنا قوم لا ندرى أهبطوا من السماء أم نبعوا من الأرض » ، ووصفت عيون ردريك (جماعات الاستكشاف) العرب فقال « شهدنا معسكر المسلمين ، لقد جاء منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك » .

وأمر طارق بن زياد بحرق أسطول المسلمين « لقد حرقوا مراكبهم إياسا لأنفسهم من التعلق بها وصُفُّوا فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب » ، وخاطب طارق جنده فقال « لقد استقبلكم عدوكم بجيش كبير ، وأسلحته وقواته موفورة ، وأنتم لا ملجأ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم » .

ووصف المقوقس المسلمين بقوله « رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة » ، وقال قبطى آخر « ما أعجب أمر هؤلاء العرب ، إنهم أتَوْا إلى مصر فى قلَّة من الناس ، يريدون لقاء الروم فى كتائبهم العظيمة !! » ، فأجابه الآخر « إن هؤلاء قوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يُقْتلوا عن آخرهم » .

---

(١) جاء فى بعض الروايات « . . . فوالله لأوطئن عليك الخيل فى حفس أمك » أى فى بيت أمك .

وفى القادسية انطلق الشعراء وأولو الرأى ، يذكرون الناس بتاريخهم ويحرضونهم على القتال ، وخاطب الهذيل الأسدى قومه المشتركين فى القتال ضد الفرس « اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليها كأسود الأجم ، وتربدوا لهم تربّد النمور ، وادرعوا العجاج ، وثقوا بالله » .

وخاطب عاصم بن عمرو المقاتلين فقال « إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ، ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، ولا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيناً على العرب غداً » .

وبعث الخليفة عمر إلى سعد بن أبى وقاص رسالة جاء فيها « لا يهولنك كثرة عَدَدهم وعُدَدِهم ، فإنهم قوم خدعة مكرة ، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع شملهم أبداً » .

وفى إيمان المسلم وقوته هاجم المغيرة بن شعبة يزدجرد وهو فى قصره وبين حرسه ، تحيط به مظاهر الملك والقوة والسلطان ، لم يخف ولم يرتعد ، ولم ترهبه هذه المظاهر « إنى لا أعلم أمة فى الأرض كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بَيْن منكم ... اختر إن شئت الجزية وإن شئت السيف أو تسلم فتنجى نفسك ... يدخل من قُتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقى منا على من بقى منكم » .

وترك حنظلة بن أبى عامر عروسه جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول ليلة العرس حين نادى المنادى للحرب ، وتقلد سيفه ودرعه ، وخرج إلى القتال

وهو جنب لم يغتسل ، وقاتل قتال الأبطال ، وبحث وسط المعركة عن أبى سفيان فلما وجده هجم عليه فوقع ، وأراد حنظلة ذبحه بالسيف ، فاستنجد أبو سفيان بقريش ، وسمعه رجال منها ، فهجموا على حنظلة وضربوه ضربة قاتلة من وراء ظهره ، فاستدار إليهم فتناولوه بالرماح فمات ، وطلع رسول الله يقول لأصحابه « إنى رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبى عامر بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة » .

والتقى سيف الدولة على رأس خمسمائة من رجاله بقائد الروم برزاس فوكاس الذى كان يقود جيشاً بلغ عدده خمسين ألفا ، وقتل سيف الدولة بقوته القليلة ثلاثة آلاف ، وأسر كثيرين ، وفرّ الباقى ، ووصف المتنبى المعركة فى قوله :

سراياك تترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبى

وفى قوله أيضاً فى قصيدة أخرى :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضّاح وثغرك باسم

وبلغ صلاح الدين الأيوبى أن الإفرنج يستعدون لغزو المناطق المحيطة بدمشق ، فقال لجنده « دعوهم يعملون ما يشاءون ، فإنهم إنما يستولون على قرى وكفور ، فى حين أننا نأخذ مدنا وبلاداً ، فإذا ما ذهبنا إليهم جئنا لهم بجنود لا قِبَل لهم بها ، فنخرجهم مما ملكوا أذلة وهم صاغرون » ، وفاجأ جزء من جيش الصليبيين بعض المواقع بالهجوم ، وكان للمفاجأة أثرها فى نفسية المقاتلين وأدرك صلاح الدين ذلك فأسرع بجواده يهاجم الصليبيين وهو يصيح فيهم « قفوا مكانكم ، فما قلب أسد أقوى من قلب أسدكم » .

بعد هذه الأمثلة المتعددة من تاريخ الإسلام الحربى ، وبعد هذه الصور التى توضح التكوين النفسى للجيش الإسلامى فى مختلف عصوره ، وبعد هذه الدلائل على الحشد المعنوى للقوى الإسلامية ، يتضح لنا أسلوب الإسلام فى مواجهة الأعداء ، فلم يكن هم القيادات حشد القوى وتجييش الجيوش وتجهيز السلاح ، وإنما كان همها الأكبر هو توفر الروح المعنوية والمقدرة الفردية وإمكانية المقاتل واستعداده الكامل لمواجهة عدوه ، سعياً وراء نصر يسود به الإسلام أو استشهاد يفتح أمامهم أبواب الجنة ، وثابت أن المسلمين كانوا بهذا الأسلوب يحرصون على الموت أشد من حرصهم على الحياة ، وكانوا يقدمون أنفسهم قربانا ، لكى تنتصر المبادىء الإنسانية العالمية التى جاء بها الإسلام وتسود ، ويسعد بها الناس فى جميع أنحاء الأرض ، وعلى جميع الأزمان .

وفى هذا المعنى يقول مالك بن سنان « نحن والله بين إحدى الحسنيين : إما أن يظفرنا الله بهم فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى أن يرزقنا الشهادة ، والله ما نبالى أيها كان ، إن كلا لفيه الخير » .

بهذا الأسلوب كان المسلم يدخل المعركة ساعيا إلى عدوه باحثا عنه لا يهرب ولا يفر مهما بلغ عدد عدوه ، ومهما كانت شراسة أسلحته ، ومهما اشتد وطيس الحرب وحميت حدّة النزال ، ومن وراء هذا المسعى كان يأتى النصر .

بهذا الأسلوب تطورت فكرة الحرب ، وسادت نظرية التكيف ، وأصبح لها المكان الأول بل مكان الصدارة فى كل عمل عسكرى ، ولقد آمنت بهذا التطور المدارس العسكرية الأخرى ، وما زالت هذه المدارس حتى يومنا هذا تسلك مسلك المدرسة الإسلامية ، وتتبع أسلوبها ، وتنسج على منوالها .

(٢)

خلق الله الناس أحراراً يعمرون الأرض ، ويسمون فيها بالخير ، ويتعاونون على التقوى والصلاح والهداية .

وكان أول خلقه تبارك وتعالى آدم وحواء ، اللذين استمعا إلى صوت الشيطان ، واستجابا لدعوته ، وتناسيا تعاليم الله خالقهما ، وهبطا إلى الأرض بعد أن تاب الله عليهما ، ثم كان منهما على الأرض قابيل وهابيل ذرية يرجى منها تعمير الأرض وقيام الحياة ، إلا أن حياتهما اتسمت بأخطر ما تعرضت له الحياة ، فقد وقع بينهما أول صدام راح أحدهما ضحيته .

وجاء الناس بعد قابيل وهابيل ، فكان صدامهما متمثلا أمام أنظار الجميع ، ولهذا تعدد بينهم الصدام ، واستمر حتى يومنا هذا ، بل وسيستمر طالما كانت هناك حياة .

والذى نريد أن نوضحه هو لماذا قام العراك بين الأخوين ؟ ولماذا وقع الصدام الذى أدى بحياة أحدهما ؟

وقع بينهما ما وقع لأن الطمع فى امتلاك ما للغير سيطر على مشاعر أحدهما .

ومنذ ذلك التاريخ والطمع يدفع بالناس إلى المخاطرة بحياتهم ...

ثم أصبح الطمع وحب السيطرة والامتلاك وفرض الإرادة وإذلال الغير واستغلال الناس والموارد لمصلحة فئة تملك القوة، هى العوامل الرئيسية فى وقوع الصدام بين الناس . . . وتحت تأثير هذه العوامل قامت الحروب وانتشرت، وعرفها الناس، وذاقوا أهوالها، واكتووا بنارها، وعاشوا حياتهم فى خوف من لحظة اشتعالها، وأصبحت الحروب مهلك البشرية .

قبل الإسلام ساد القوى الذى يملك القوة، وذُل الضعيف الذى لا حول له ولا قوة، أذل الإنسان القوى الإنسان الضعيف، وسيطرت الأمم القوية على الأمم الضعيفة، وضاعت الحريات، وهانت القيم الإنسانية، وعاش الإنسان حياته فى خوف، وفقد طمأنينته، ونزلت به الكوارث، لا لشىء إلا لأنه ورث السيطرة وحب التملك وفرض الإرادة، وآمن بمبدأ البقاء للأقوى، منذ الصراع بين قابيل وهابيل .

لم يقع صدام مسلح فى عهود ما قبل الإسلام إلا تحت تأثير عامل من العوامل السابقة، وإن من يتأمل التاريخ البشرى منذ الأزمان السحيقة، يلحظ أن الحرب ثارت دائما بين الأفراد والجماعات والعشائر والقبائل، حتى عندما تطور الإنسان فى درجات الارتقاء الفكرى والاقتصادى والاجتماعى استمرت الحروب لا تنطفىء لها جذوة ولا يخمد لها اوار .

واشتعلت نيران الحروب بين ممالك وإمبراطوريات العالم القديم، كقدماء المصريين والهكسوس والحيثيين والأشوريين وأهل بابل وفينيقيا والفرس والإغريق، ولم تنقطع المنازعات والحروب بين مدن الإغريق القديمة والمدن المجاورة لها، ولم تنته الاصطدامات المتعددة بين أثينا واسبرطه

وسائر جاراتها ، ولقد شهد العالم الحروب الكثيرة التى بيعت فيها الأرواح رخيصة على مذبح الأهواء والمطامع والمصالح الشخصية ، وهذا ما يضفى عليها صفة البربرية والوحشية .

وهكذا عاشت البشرية تحت وطأة تهديد القوى ... فأية فائدة جنتها البشرية من العدوان على الغير وانتصار فريق وفناء فريق ؟ ؟

لقد قاسى العالم الأمرّين من الحروب التى أثارتها الاضطهادات الدينية فى القرون الوسطى ، وقت أن طاردت الوثنية الديانة المسيحية فى عهدها الأول فى ظل الإمبراطورية الرومانية ، ثم ما كان من انتشار المسيحية بعد ذلك فى أنحاء الإمبراطورية ومطاردتها للوثنية .

هذه الحروب التى امتلأت بها صفحات التاريخ البشرى تتفق كلها فى الأسباب التى أدت إليها وفى الدوافع التى قامت من أجلها ، وهى أسباب ودوافع لا ترقى مع الأسف الشديد إلى المستوى اللائق بالإنسان العاقل الخير المخلص المؤمن الذى استخلفه الله تعالى ليعمر فى الأرض وينتفع بالحياة فيها ، ولقد كانت هذه الأسباب والدوافع ضد حياة الإنسان وارتقائه ... كانت نقمة عليه تؤذيه فى معاشه وأمنه وراحته ، وتضر برزقه وأرضه وشرفه ، وتسىء إلى وجوده وكيانه وإنسانيته، وتحجرعلى أفكاره ورغباته وحرياته .

لقد كانت هذه الأسباب والدوافع تسيطر على الإنسان وتصرفاته ، وتشعل الحروب وتسبب الخراب والدمار ، وتوقف الإنسانية عن تقدمها وتطورها فى الأزمنة الطويلة التى سبقت الإسلام .

لقد اكتوى الإنسان بنيران الحروب ، ولم يجن من ورائها إلا الدمار

والخراب ، لم يشأ أن يعيش مع أخيه الإنسان بالحب والسلام ، وإنما كانت طبيعته هى حب الصراع والتحطيم ، وكانت غريزته خاضعة لجاذبية الضعف والقوة ، وكانت الرغبة فى القتال تكمن فى نفسيته وطبيعته ، ومن ثم يصدق عليه ما قاله فيلسوف يونانى عندما وصفه بأنه ذئب ، همه الانقضاض على أخيه الإنسان .

ولا يمكن أبداً أن نتجاهل صرخات الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا ينادون دائماً بالسلام ، ويدعون إلى التمسك به ،ويطالبون بإبعادشبح الحرب ، إلا أن صرخاتهم ومساعيهم ذهبت كلها أدراج الرياح ، إذ رجحت كفة الداعين إلى القوة ، فاندفع الإنسان فى أتون حروب مهلكة .

وظلت الحرب تسيطر على عقليات القادة وتشد انتباههم ، حتى أصبحت هى المحرك الأول لعواطفهم ومشاعرهم ، والمسيطر الأعظم على تصرفاتهم وأعمالهم .

وجاء الإسلام والعالم على هذه الصورة .

وبدأت الدعوة إليه ، وفكرة القوة مازالت مسيطرة على عقول الناس وأذهانهم ، وبالتالى على تصرفاتهم وسلوكهم .

وكان منهج الدعوة إلى الدين الجديد يقوم على أساس أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ، وعلى أساس الاقتناع حتى يدخل الإيمان إلى قلوب الناس وعقولهم وأذهانهم ، ليكون إيماناً صادقاً لا إكراه فيه ، ولا عجب فى ذلك فرسالة الإسلام هى نشر السلام والمحبة والرحمة والإخاء ، والإسلام وهو خاتم الأديان جاء ليجعل من العالم أسرة واحدة تعيش فى إطار واحد ، لا يفرق بين أهله طمع أو مصلحة خاصة ، وإنما تجمعهم أخوة وتعاون وتضامن ، لا فرق

بين واحد وآخر ، لأن الجميع لآدم وآدم من تراب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٣) .

جاء الإسلام وهدفه الأول إصلاح المجتمع والقضاء على الشرور ، وفى مقدمتها الحرب ، ولهذا حرَّم الظلم وأمر بالعدل حتى مع من تبغضه أشد البغض ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ... أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (المائدة : ٨) .

كان هذا هو منهج الإسلام .

ولكن ماذا كان منهج القرشيين وهم أول من عارض الدين الجديد ، ووقف فى وجه الدعوة ، وحاول بكل السبل والوسائل أن يوقف تيارها ويمنعوا انتشارها ، أملا فى الإبقاء على دين الآباء والأجداد ، الذى كان يتفق مع ميولهم إلى السلطة والسيطرة ، ويتفق مع مجتمعهم الذى تقوم فيه طبقة للأسياد وأخرى للعبيد ؟

من الحقائق الثابتة التى لها سند من التاريخ والواقع ، أن الحرب فُرضت فى الإسلام والمسلمون ــ وفى مقدمتهم الرسول الكريم ــ نافرون منها ، ولكن قريشاً كانت فى معارضتها الدائمة للدين الجديد تدفع بالموقف إلى حد الصراع والمواجهة واستخدام القوة .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً أن الرسول الكريم بذل من جانبه محاولات لصد إيذاء قريش سلمياً ، دون أن يبدى هو أو أحد من أتباعه مقاومة تذكر ،

ولجأ المسلمون جميعاً فى ظل توجيهات الرسول الكريم إلى الصبر الجميل على الإيذاء والتعذيب .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً أن الرسول الكريم رغبة منه فى المحافظة على السلام ، وفى معالجة أمور الدعوة باللين وبالمجادلة بالتى هى أحسن، أمر رجاله ـ وقد رأى ما نزل بهم من الأذى والتعذيب والتمثيل ـ أن يتركوا أرضهم وديارهم ، وأن يتفرقوا فى الأرض ، وطلب منهم أن يذهبوا إلى بلاد الحبشة المسيحية « فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

وكانت قريش بمحاولاتها المتعددة لوقف الدعوة وهدمها من أساسها تدفع ـ كما قلت ـ بالموقف إلى نقطة الخطر ، وأعنى بها نقطة الصدام المسلح .

ولكن ما هذه المحاولات ؟

إن محاولات قريش تنقسم إلى نوعين :

١ ـ محاولات ضد الرسول بوصفه الداعى للدين الجديد وحامل لواء الدعوة .

٢ ـ محاولات ضد المسلمين الأوائل الذين اجتمعوا حول الرسول وآمنوا برسالته .

واتخذت محاولاتهم ضد الرسول صوراً متعددة ...

● لجأت قريش إلى أبى طالب عم الرسول ـ وقد كان الرسول يعيش فى كنفه ـ وطلبت منه أن يصد ابن أخيه عن دعوته، وأن يمنعه من الاستمرار

فيها ، « يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلّى بيننا وبينه ، وإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه » .

ومرة أخرى قالوا له « يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين » .

• أوفدت قريش إلى أبي طالب وفداً ومعه عمارة بن الوليد ، وقال له الوفد « يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى في قريش وأجمله ، نخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً ، فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك ، وفرّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل » ، وكان عرضاً غريباً يرفضه بطبيعة الحال رجل عاقل يحب ابن أخيه حباً ملك عليه مشاعره ووجدانه ، فقال لهم « والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون أبداً » .

• ثم اتفقوا ـ وقد رأوا الوفود ترد إلى مكة وتسمع عن محمد وعن الدين الجديد ـ على الإدعاء بأن محمداً ساحر ، جاء بقول هو السحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، وكان هدفهم أن يقتنع الوافدون برأيهم فلا يؤمنون بالإسلام .

• وسار عتبة بن ربيعة يعرض على الرسول المال والجاه والسلطة ليترك دعوته « يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت في العشيرة والمكان في

النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها ... إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا » ، وجاءه رد رسول الله مقنعاً حتى أن الرجل رجع إلى قومه فقال « إنما سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالسحر ولا بالكهانة » .. ، وكان رد رسول الله بعض آيات من سورة « فصلت » ﴿حَم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (١/٥) .

● ثم دبر رجال قريش لقاءات مع الرسول ، وطلبوا منه أن يسأل ربه بعض أمور يطلبونها ...

* « سل ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسيِّر عنا هذه الجبال التى ضيّقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجِّر لنا فيها أنهاراً ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث قصى ابن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق » .

** « سل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنات وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة ، يغنيك به عما نراك تبتغى » .

*** « فأسقط علينا من السماء كسفاً ، كما زعمت إن ربك إن شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلاّ أن تفعل » .

وكان رد رسول الله فى كل مرة هو :

* « ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئت من الله بما بعثنى به » .

** « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا » .

*** « ذلك إلى الله ، إن شاء يفعله بكم فعل ، أتطلبون منه المعجزات ؟ أليست المعجزات فيما خلق ولكنكم لا تفهمون ؟ »

• وبعثت قريش بالأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة يطلبان من رسول الله أن يعبد ما تعبد قريش ، وأن تعبد قريش ما يعبده هو ، فأبى عليهم ذلك ، مصداقا لقول الله تبارك وتعالى « لاَ أَعْبُدُ مَاتَعْبُدُونَ . وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَاأَعْبُدُ » (الكافرون ٢/٣) .

• وبعد أن باءت المحاولات السابقة بالفشل ، اتخذت قريش خطوة أكثر إيجابية ، فقررت مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، وإخراجهم من مكة إلى شعب أبى طالب حتى يسلموا إليهم محمدا ، وكتبوا بذلك عهدا فى صحيفة علقوها فى جوف الكعبة ، وخرجت عشيرة رسول الله من مكة ، وتركوا ديارهم ، وذاقوا أشد أنواع الحرمان طيلة عامين ، نفذ فيها زادهم ، ولم يجدوا سبيلا إلى إستعاضته لأن الأسواق أغلقت فى وجوههم حتى أضطروا إلى أن يتغذوا من ورق الشجر . . .

وأخيرا علت إرادة الله على إرادة قريش ، فاجتمع خمسة من رجالها

هم هشام بن عمرو وزهير بن أبى أمية والمطعم بن عدى وزمعة بن الأسود وأبو البختري بن هشام وقرروا نقض الصحيفة ، ونجح تدبيرهم ، وعاد محمد وأصحابه إلى مكة بعد أن كانت الأرضة قد أكلت الصحيفة إلا فاتحتها « باسمك اللهم » .

● وأخيراً ائتمروا به ليتخلصوا منه ، وعرض الأسود بن ربيعة عليهم « نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله مانبالى أين يذهب » ، ولم يجد هذا العرض قبولا ، خوفاً من أن يتبعه الناس فيسير بهم إلى مكة ويأخذه أمرها من أيدى القرشيين ...

ثم جاءهم الحل الذى قبله الجميع على الفور على لسان أبى جهل « أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً جلداً حسيباً فى قومه نسيباً ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدون إليه ، فيضربونه ضربة رجل واحد ، فيقتلونه ، فنستريح منه ، فإذا تم ذلك تفرق دمه بين القبائل جميعاً ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فيرضوا عنا بالدية » ...

وصدر الأمر الإلهى لرسول الله « لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه » . . ، وكان هذا الأمر إذناً للرسول بالهجرة إلى المدينة ، فخرج إليها ، وتبعه المؤمنون الأولون الذين تحملوا العذاب بروح الصبر والسماح على حد قول المؤرخ وليم موير « آثروا نبذ الوطن وراءهم ظهرياً فراراً من أن يفتنوا عن دينهم العزيز عليهم حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا » .

أما محاولات قريش ضد المسلمين الأوائل فكانت صورة قاسية للتعذيب الوحشى الذى يخرج عن حدود الإنسانية والإحساس البشرى ، فها هو ذا

مثلا أمية بن خلف وقد علم بإسلام عبده بلال ، يصب عليه جام غضبه ، ويذيقه العذاب ألوانا ... أحاط عنقه بحبل من ليف النخيل الخشن، وأسلمه إلى أيدى الصبية الصغار ، يعبثون بجره وجذبه كحيوان ، والحبل يحز فى عنقه ، وهو صابر ، ثم منع عنه الطعام والشراب ، وكان إذ حميت الظهيرة يخرجه ويطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ويأمر بالصخر فيوضع على صدره ، ويقول له « لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى » ، وكان رد بلال دائماً وباستمرار « أحد ... أحد » ، فيزيد أمية فى تعذيبه .

وبنو مخزوم أخذوا عمار بن ياسر وأباه وأمه سمية إلى الرمضاء ، حيث تفننوا فى تعذيبهم بكل ماتوحى به غلظتهم الجامحة ، فألبسوا عمارا درعاً من حديد فى يوم صائف ، وطرحوه أرضاً وتركوه معرضاً لأشعة الشمس الملتهبة ، وضاق أبو جهل بصبرهم فطعن سمية بحربة فماتت ، وكانت أول شهيدة فى الإسلام .

وصبّ السادة جام غيظهم على كل من دخل فى الإسلام ، فاتخذوا التعذيب وسيلة لإعادتهم سيرتهم الأولى ، ولكن الإسلام كان قد تمكن من قلوبهم ، فصبروا على التعذيب ، حتى جاء أمر الرسول بالهجرة .

لم يعد أمام قريش بعد كل هذه المحاولات ـ وقد رأت الدعوة تنتشر وتسير فى طريقها والداخلين فى الإسلام يتزايدون عدداً وإيماناً ، والإسلام يقوى ويشتد ـ لم يعد أمام قريش سوى حمل السيف وحشد القوى ومواجهة المسلمين وجهاً لوجه فى معركة حاسمة يقضون فيها على محمد وأتباعه .

ومن خلال هذا التفكير بدأ الاستعداد لجولة جديدة ، تستخدم فيها

القوة كوسيلة أخيرة فى محاولات قبر الدعوة والقضاء عليها .

ومن خلال هذا التفكير كان الصدام المسلح ... وكانت الحرب .

وكان لابد للإسلام من أن يقر الحرب ، بعد أن وصل الأمر بين قريش والمسلمين إلى حد محاولة فتنتهم وردهم عن دينهم بالقوة ، وإلى حد الرغبة فى المواجهة المسلحة .

ورأى الرسول أنه لابد من أن يلجأ المسلمون إلى السيف ، يستخدمونه فى مواجهة عدوهم حتى ينتصر الحق .

وصدر الأمر الإلهى باستعمال السيف وبقبول الحرب ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ (البقرة ١٩١/١٩٠) .

وقبول الإسلام للحرب التى فرضتها عليه قريش ، يستند إلى المبدأ الذى يقول إن أقوى الغرائز الإنسانية هى حماية النفس والدفاع عنها ، وتبعاً لهذه الغريزة أصبح للإنسان المسلم حق طبيعى غير متنازع فيه لحماية نفسه ، لا من الوجهة المعنوية فقط ، بل ومن الوجهة المادية أيضاً ، وهذه الغريزة هى دون شك حجر الزاوية فى الجهاد للحياة ، بل هى دون ريب من أسباب التقدم والارتقـــاء .

ونخرج من هذا بحقيقتين هامتين ...

الحقيقة الأولى هى أن الإسلام أجاز الحرب فى حالتين إثنتين فقط هما صد العدوان ودفعه ، ثم حماية الدعوة حتى تصل إلى الناس كافة .

(١) حالة الدفاع عن النفس والدين أى رد العدوان وصد الاعتداء، ومقاومة البغى قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ (الحج: ٣٩).

ويتلاحظ أن هذه الآية تقرر أن المسلمين فى موقف المظلوم المبدوء بالقتال والعدوان، وهى إذن برد الظلم ودفع العدوان، وبشرى من الله بنصرهم، وتنويه بما يكون لهذا النصر من نتائج عظيمة من تمكين لهم فى الأرض، ليسلكوا فيها مسلك الصلاح والإصلاح، وليقيموا فيها صروح الحق والعدل، فيأمرون بالمعروف، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

ويتلاحظ أيضاً أن الآية جعلت الدفاع عن النفس من غرائز الإنسان، ومن ضروريات بقائه وحفظ حقوقه وصيانة وجوده، حتى لا يقوى الشر ويستشرى الفساد والظلم، ويستبد القوى بالضعيف، ويُحال بين الناس وبين حرياتهم، وتتعطل شعائر الدين التى يجب أن تتوفر لها الحرية، وتتهدم أماكن العبادة ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١) ... و ... ﴿لَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠).

ويتلاحظ أيضاً أن الآية تستهدف دفع يد البغى والعدوان، ومن هنا يكون القتال مشروعاً وواجباً، لأنه تقليم لأظافر الطغيان وكسر لشوكة الطغاة، ويكون الاستسلام للبغى والسكوت على الظلم تمكيناً للشر

وتأكيداً له ، وتدعيماً لاستمراره ، وإطلاقاً ليده ، ولهذا وجبت مواجهته ، والتزام كل مسلم مؤمن بالله بأن يدفع هذا العدوان ويتصدى له بكل ما ملكت يداه ووسعه جهده .

ويتلاحظ أيضاً أن الآية قد أوضحت أن المسلمين لم يسعوا إلى قتال أو مواجهة لمجرد القتال أو المواجهة ، وأنهم لم يرتكبوا خطأ أو إثماً بقولهم ربنا الله ، ولم يعتدوا على أحد بعبادتهم الله ، ولم يقع منهم ضرر يعود على أحد وهم يدخلون فى الإسلام ، وإن إيمانهم بالله لا يكون مبرراً للعدوان عليهم ، وظلمهم من أهل الكفر والضلال ، الذين أدانوا إيمانهم بعقول فاسدة لاتميز الطيب من الخبيث ، ولاتعرف الخير من الشر ، ولاتعى الهدى من الضلالة ، ولا تفرق بين الحلال والحرام .

وقال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُم مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾ (البقرة : ١٩٠ / ١٩١) .

وفى هذه الآيات يلزم الله المسلمين بالقتال طالما وقع عليهم عدوان من أعدائهم ، رغبة فى صدهم عن الإسلام وعن الدعوة إليه .

ولقد أوضحت الآيات ما كان من إخراج للمسلمين من ديارهم ، وإجبارهم بالضغط والقسر والقوة على ترك بلدهم ، التى ارتبطوا بها مولداً ونشأة وحياة ، ومحاولة فتنتهم بعضهم لبعض عن دينهم ، وهى فتنة وصفتها

الآيات بأنها أشد من القتل ، لأن الفتنة قتل للمسلمين ، ولأن المفتتن فى دينه يخسر الدنيا ويخسر أيضاً الآخرة .

وتوضح الآيات أن الكفار هم البادئون بالقتال ، فإن اعتدوا وجب على المعتدى عليهم رد العدوان وصده ، ومواجهة المعتدين بكل القوة والعنف ، حتى يرجعوا إلى رشدهم ، ويلاحظ أن الله تبارك وتعالى أمر فى هذه الآيات المسلمين بألا يكونوا معتدين ، لأنه تعالى لا يحب المعتدين ؛ وهذا يعنى أن المسلمين كانوا يسلكون طريق السلام ، دون أن يفكروا فى البدء بالعدوان ، لأنهم إذا بدءوا بالعدوان خرجوا عن تعاليم الله ، وهدموا بذلك ركناً هاماً من أركان إسلامهم ، لأن من أسس الإسلام الصحيح إطاعة الله وإطاعة رسوله .

٣ — كان رسول الله مكلفاً بأن يبلغ رسالته إلى الناس كافة وليس إلى أهل مكة فقط ، فقد قال تبارك وتعالى فى سورة المائدة ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (٦٧) ، وقد حددت الآية مناط رسالة الرسول وفحوى الحكمة من رسالته ، فهو عليه السلام الصلة بين الله والناس ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ (المدثر : ١) ، و .. ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (الحجر : ٩٤) ، وعليه إذن أن يبلغ رسالة ربه إلى الناس جميعاً ، وأن يحيطهم بكل أهدافها ومبادئها وحدودها وتعاليمها وأبعادها ، ثم يرون بعد ذلك رأيهم فى حرية كاملة ، دون ضغط أو إرهاب أو خوف من بطش ، فمن شاء منهم آمن ، ومن شاء منهم بقى على دينه ... المهم أن تصلهم الرسالة ، وأن يعرفوا أمورها ، وأن يناقشوها فى حرية كاملة .

وقال رسول الله فى هذا المعنى « بعثت إلى الأحمر والأسود » ، وقال

« أرسلت إلى الناس كافة ، وبى ختم النبيون » ، وقال أيضاً « أنا رسول من أدركت حياً ، ومن يولد بعدى » ، وهذه الأقوال كلها تؤكد أن رسول الله أدرك أن مهمته هى إبلاغ رسالة ربه إلى كل الناس ، وأن يبذل فى ذلك قصارى جهده ، لأن ذلك هو صلب رسالته .

انطلاقاً من تكليف الله تبارك وتعالى ، واقتناع الرسول عليه الصلاة والسلام ، شرع رسول الله فى أعقاب صلح الحديبية يكاتب الملوك والأمراء من حوله ، يدعوهم إلى الإسلام ، ويعرض عليهم رسالته ، وكانت الدول البارزة ذات الشأن وقتها هى الفرس ، والروم ، والحبشة ، وكانت الأولى دولة مجوسية تدين بعبادة النار ، أما الروم والحبشة فكانتا تدينان بالنصرانية ، وكانت هناك دول وإمارات أخرى صغيرة بعضها خاضع للفرس ، وبعضها خاضع للروم ، وبعضها مستقل كاليمامة وعمان والبحرين ...

وكتب رسول الله إلى ملوك وأمراء هذه الدول يدعوهم إلى الإسلام ، ويكلفهم بأن يبلغوا هذه الدعوة إلى أممهم وشعوبهم ، فبعث دحية الكلبى إلى قيصر ملك الروم ، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى ملك فارس ، وعمرو ابن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة ، وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط ، وشجاع بن وهب إلى الحارث الغسانى أمير الغساسنة ، والعلاء ابن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى بالبحرين ، وسليط بن عمرو العامرى إلى ملكى اليمامة ، وعمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان من بلاد اليمن .

وتلقى هؤلاء جميعاً رسائل رسول الله ...

بعضهم ردّ رداً كريماً ... كنجاشى الحبشة ، فقد قبل كتاب رسول الله

ووضعه على رأسه وعينه ، وأسلم ، وشهد شهادة الحق ، وكتب إلى رسول الله قائلا « ... فأشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقاً ومصدقاً ، وقد بايعتك ، وأسلمت لله رب العالمين » ... وكالمقوقس[1] فقد أحسن استقبال مبعوث رسول الله ، وأكرمه ، وبعث إلى رسول الله بجاريتين هما مارية وسيرين ، وثياب ، وأهداه بغلة هى الدلدل .

وبعضهم كان موقفه يتأرجح بين القبول والرفض ... كملك الروم الذى ناقش أبو سفيان ـ وكان موجوداً بالشام فى تجارة ـ فى أمر رسول الله ودعوته وصفاته ، وكان عالماً أوتى علم النجوم ، فتقبل كتاب رسول الله تقبلا حسناً ، وقبل الإسلام ديناً ، وأذعن لدعوة الحق ، إلا أن قومه عارضوه وخيّروه بين الإسلام والإذعان وبين البقاء على الملك ، فاختار الملك ، وقيل إنه دعا كبير الأساقفة وسلمه كتاب الرسول ، وطلب رأيه ، فأجابه بأنه مصدق به ، فقال قيصر « إنه كذلك ، ولكنى لا أستطيع ، إن فعلت ذهب ملكى وقتلنى الروم » .

وبعضهم أساء التصرف ، وكان موقفهم من الرسالة موقفاً غير كريم ... ككسرى فارس الذى مزق رسالة رسول الله[2] ، وكتب إلى باذان[3] أميره على اليمن « إنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فسر إليه ، فاستتبه ، فإن تاب ، وإلا فابعث إلىّ برأسه » ، وفى رواية أخرى « إن تكفينى رجلا خرج بأرضك يدعونى إلى دينه ، فابعث إليه برجلين جلدين يأتيانى به » ... وكذلك كان موقف الحارث بن أبى شمر الغسانى ،

(١) المقوقس لقب واسمه جريج بن مينا .

(٢) لما علم رسول الله بذلك قال « مزق الله ملكه » .

(٣) أرسل باذان رجلين إلى رسول الله تنفيذاً لأمر كسرى فأبلغاه أن رسول الله قال لهما إن كسرى قد قتل ، فلما تأكد من هذا القول صدق وآمن وأسلم ومن معه .

فقد رمى بكتاب رسول الله بعد أن قرأه ، وعزم أن يسير إليه بجيش ليقاتله ، وكتب يستأذن قيصر الروم الذى منعه وكتب إليه ألا يفعل .

لقد أسفرت كتب رسول الله عن موقفين :

الأول ... إسلام بعض الملوك والأمراء كنجاشي الحبشة ، والمنذر بن ساوى ملك البحرين ، وملكى عُمان جيفر وعبد ابنى الجلندى ، وملك صنعاء الحارث الحميرى ، وأهل اليمن ، وملك غسان جبلة ابن الأيهم[1] .

الثانى ... رفض الباقين للدعوة وحجبها عن شعوبهم .

ولا شك فى أن منع إبلاغ الرسالة إلى بعض الشعوب يجعلهم جاهلين بأمرها ، وهذا يتعارض تماماً مع ما كُلف به الرسول من ضرورة إبلاغهم بها ليروا فيها رأيهم .

والوقوف فى وجه وصول الدعوة إلى مختلف الشعوب ، أمر يتعارض مع إرادة السماء ، ومن هنا أصبح من الواجب اتخاذ كافة إجراءات الإبلاغ ، ولو أدى الأمر إلى المواجهة المسلحة ، فهذا عبء ألقته السماء على عاتق رسول الله ، وكان عليه – عليه السلام – أن ينفذ إرادة السماء وأن يحقق أمرها.

* * *

ونحن إذا تابعنا آيات القرآن الكريم فى الجهاد والقتال – والقرآن هو دستور الإسلام – وإذا رجعنا إلى ظروف التنزيل ، وتتبعنا الحوادث فى

---

(١) ارتد عن الإسلام فى عهد عمر .

حياة الرسول الكريم وحروبه ، لا يخالجنا أدنى شك فى أن الحرب المشروعة فى الإسلام ، هى حرب دفاعية يجب على المسلمين كافة المشاركة فيها ، طالما أنهم قادرون على القتال ، ومن هنا أصبحت فريضة الجهاد واجبة على كل مسلم ومسلمة .

ورغم أن الإسلام أباح القتال وأذن به ، إلا أنه قيد ردّ الاعتداء بالقدر اللازم دون مجاوزة أو تنكيل « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » (البقرة : ١٩٤) .

وكذلك حرّم الإسلام العدوان بغير حق ، واعتبره عدواناً غير مشروع كما دعا إلى مسالمة المسالم وإيقاف القتال إذا دعوا إلى ذلك ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ « البقرة : ١٩٠) .. و .. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (الأنفال : ٦١) ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ (النساء : ٩٠) ومعنى هذا أن الإسلام لا يبيح حرب الإعتداء ، وإنما يبيح الحرب الدفاعية لرد الإعتداء، الذى بدأه العدو أو للدفاع عن حق ثابت ، أو لتأمين الدعوة ، أو لنصرة المظلوم ، وهى فى كافة هذه الحالات تتصف بأنها حرب دفاعية .

نخلص من ذلك إلى أن أسباب الحرب فى الإسلام تختلف اختلافاً جوهرياً عن أسباب ودوافع الحروب الأخرى التى قامت فى عهود ماقبل الإسلام ، ومن هنا نستطيع أن نقول إن الإسلام ارتقى بفكرة الحرب وسما بأسبابها وهذّب دوافعها ، ذلك أن الحرب التى أباحتها الشريعة الإسلامية لم تكن حرب عدوان ، ولم تقم رغبة فى سيطرة ، ولم تسع إلى فرض نفوذ أو امتداد

حدود ، ولم تكن تبغى مجداً أو عزاً أو سلطاناً أو ملكاً ، وإنما كانت حرباً دفاعية دفاعاً عن الدين والنفس والعقيدة .

والحرب التى أباحتها الشريعة الإسلامية تقع استثناء للقاعدة العامة ، وهى السلم الدائم بين البشر والتعايش الأخوى من أجل حياة فاضلة ، والتعاون الصادق على البر والتقوى ، بما يعود على الإنسان بالخير والصلاح والاستقرار ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (البقرة : ٢٠٨) .

والحقيقة الثانية : هى أن الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهو أيضاً دين الحق والحرية والعدل والنظام ، وما دامت الحرب فى فطرة الناس ، فتهذيب فكرتها وأسبابها ودوافعها وحصرها فى أضيق الحدود التى تتفق وإنسانية الإنسان هو غاية ما تحتمل فطرة البشر ،وخير الوسائل لتحقيق ذلك هو ألا تكون الحرب إلا للدفاع عن النفس والعقيدة وعن حرية الرأى والدعوة إليه ، وأن تُرعى فيها الحرمات الإنسانية تمام الرعاية ، وهذا هو ما قرره الإسلام ، وما نزلت به آيات القرآن الكريم .

ولكن ...

كيف حقق الإسلام ذلك ؟

وكيف هذّب فكرة الحرب ؟

وضع الإسلام أسباباً محددة تقوم من أجلها الحرب ... منها دفع الظلم والبغى والاضطهاد ورد العدوان والدفاع عن النفس والمال والأهل والوطن

والدين ، واشترط الإسلام فى هذا الدفع أن يكون على قدر الاعتداء ، فلا يصح أن يجاوز حده ... ومنها حماية الدعوة حتى تصل إلى الناس كافة ويتحدد موقفهم منها ، إذ يجب ـ والإسلام رسالة إجتماعية إصلاحية شاملة ، تنطوى على أفضل مبادىء الحق والخير والعدل ـ أن توجه الدعوة إليه إلى الناس كافة ، وخاصة أنها جاءت وقد بلغت الإنسانية رشدها ، وأراد لها الله أن تستقل بوجودها وأن تستقيم على الطريق الذى يمليه عليها تفكيرها ، وأن تستهدف بما أودع الله تعالى فيها من عقل وفكر ، وبما حملت إليها السماء من وصايا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ : ٢٨) ، إذن ، فعلى الناس وقد عرضت عليهم أن يحددوا موقفهم منها ، فهى رسالة عقلانية تخاطب العقل والمنطق والفكر السليم الصحيح والحواس المتيقظة الواعية دون ضغط أو إرهاب ، فإذا وقف تفكير فئة عند حد معين ، ولم تقبل عقلا ومنطقا الدعوة ، فهى لها حرية مطلقة فى ذلك ، ولكن إذا حاولت أن تقف فى طريق الدعوة ، أعتبر هذا التصرف إعتداءاً يجب صده ومقاومته ... ومنها تأمين حرية الدين والعقيدة للمؤمنين الذين يحاول الكفار فتنتهم عن دينهم ... ومنها تأديب ناكثى العهد من المعاهدين الذين لم يستقيموا على الوفاء بالعهد ونكثوه ، وأطلقوا ألسنتهم ضد الإسلام والمسلمين بالسوء والكذب ، وآذوا المؤمنين ، وعندئذ يحل المسلمون أنفسهم من العقد أو العهد ، ويقاتلونهم بكل العنف والشدّة ، حتى يلزموهم عهدهم ، فلا نكث ولا تطاول ولا إعتداء ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (التوبة : ١٢) .. ومنها إغاثة المظلومين المؤمنين والانتصار لهم من

ظالميهم ، ففى ذلك انتصار للإسلام ، وفيه أيضاً تأكيد للأخوة الإسلامية التى أشار إليها القرآن فى قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، والتى وردت حديثاً عن رسول الله « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ، والمقصود بالإغاثة هو الإنتصار والتعاطف وتلاحم المشاعر فى ظل أخوة إسلامية صادقة أمينة ، امتثالا لقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ (الأنفال : ٧٢) .

وبجانب هذه الأسباب المحددة التى وضعها الإسلام وأباح من أجلها خوض غمار المعركة ، وضع أيضاً قواعد محددة واضحة يلزم المسلمون باتباعها ...

منها قتال الذين يقاتلون المسلمين فقط ، والاستمرار فى قتالهم إلى آن ينتهوا من موقفهم ، وتتوفر للمسلمين حرية الدين والدعوة إليه ، ولا تبقى فرصة لفتنتهم عن دينهم أو اصدهم عن الإسلام ، أو صد المسلمين عن الدعوة إليه ، وقد حرص الإسلام على أن تكون المواجهة ضد المقاتلين وحدهم ، وألا تمتد آثارها إلى غيرهم ... ومنها الاستجابة إلى السلم إن لاحت بارقة أمل فيه ، والكف عن القتال إذا كف عنه الأعداء ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ (الأنفال : ٦١) و ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٣) ... ومنها قصر الحرب على الجيش المقاتل ، فلا يجوز التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان ، رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ،

ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً » (أخرجه مسلم) ، وسئل رسول الله « أى الأعمال أفضل ؟ » فأجاب « إيمان لا شك فيه وجهاد لا غُلُول منه » ، وأوصى أبو بكر أسامة فقال « لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل » ... ومنها تحريم التمثيل بالقتلى والإحراق بالنار ، لأن النار على حد قول رسول الله «لا يعذب بها إلا الله» ، وهذه صورة للرحمة الإسلامية ومدى تعاملها الإنسانى ، مع الإنسان الذى أكرمه الله تبارك وتعالى ، وجعله فى مكان الصدارة من خلقه ، ولقد كان رسول الله بجانب أنه نبى الملحمة نبى المرحمة أيضاً . . . ومنها إتلاف الأموال ، والتخريب فى بلاد العدو ، وتجويع العدو ، والدعوة الصادقة الأمينة إلى الإحسان إلى الأسير ومعاملته بأدب ورقة وتعاطف ومنع إيذائه أو حرمانه من الطعام ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان : ٧) ، فإتلاف الأموال ضرر ، والتخريب شر ، وحاشا لله أن يكون الإسلام وهو خاتم رسالات السماء سبباً من أسباب الضرر ، أو أسلوباً من أساليب الشر ، وكيف يكون كذلك وهو رسالة الخير والصلاح ، وحرمان الأسير من التعاطف والتعامل الحسن أمر لا يقره الإسلام ولا يقبله ، كما أن حرمانه من الطعام يتعارض مع إنسانية الإنسان التى كرمها الإسلام كل تكريم ، هذا فوق أن الأسير وهو سجين فى أسره يصبح لا حول له ولا قوة ، فإن كان غنياً فلا سبيل له إلى ما يملك ، وإن كان قوياً فقد فى أسره كل مقوِّمات قوته ، فإذا ما انقطعت الصلة بينه وبين مصادر رزقه أو عمله ، وجب على آسره أن يكرمه ، ويحسن

إليه ولا يؤذيه بكلمة أو بحرمانه من طعام أو شراب ... ومنها مراعاة الجانب الإنسانى وتأكيد الرحمة فى الحرب والوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُم كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَاتَفْعَلُون * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُم دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِن أُمَّةٍ ...﴾ (النحل : ٩١/ ٩٢) ... ومنها عدم التفاخر بالنصر أو التظاهر بالقوة ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيَاءَ النَّاسِ﴾ (الأنفال : ٤٧) ، فهؤلاء الذين خرجوا لم يخرجوا دفاعا عن حق ، أو انتصاراً لمبدأ ، أو تحقيقاً لفكر محدد ، وإنما خرجوا كفراً بنعمة الله ، وتعالياً على الناس ، وقد ظنوا فى أنفسهم قوة لا تغلب وسيفاً لا يكسر ، لقد خرجوا بهذه الصورة فتحطمت قوتهم وهُزموا ، ولهذا فإن الله يضرب المؤمنين بهم المثل حتى لا يكونوا مثلهم ... ومنها التمسك بكل أسباب العدالة بعد الانتصار ، فليست الحرب فى الإسلام لإجبار الناس على أمر يكرهونه ، أو إلزامهم بما لا يريدون ، فالدعوة إلى الإسلام قامت على الحكمة والموعظة الحسنة ، والقرآن قرر صراحة ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة : ٢٥٦) ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُل أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِلذِينَ أُتوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُم فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٢٠) و ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾ (آل عمران : ٦٤) .

ولقد قرر الإسلام ضمن ما قرره من قواعد أن الحرب جهاد ، وأن الغنائم ليست هدفاً من أهداف الحرب ، فقد جاء رجل إلى رسول الله وقال « يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا » ، فأجابه الرسول « لا أجر له » ، ولقد حلا للبعض أن يدعي أن الغنائم كانت دافعاً أساسياً وحافزاً قوياً للجهاد ، وأن رسول الله كان يغري المسلمين ويعدهم الخيرات لحملهم على الإسهام في القتال ، ولكن الحقيقة والتاريخ والواقع تؤكد كلها أنّ القتال في الإسلام لم يستهدف الغنائم ، وأن هذا الادعاء باطل ، فالمسلمون كانوا يرجون بجهادهم وخروجهم رحمة الله ، والتقرب إليه ، مضحين بكل ما يملكون مالا أو حياة أو أسرة ، لم توقفهم أسباب الحياة عن حمل السلاح ومواجهة العدوان ، ومناشدة الله أن يكونوا من الشهداء الأبرار ، ولقد أوضحت ذلك الآيات الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ (النساء : ٩٤) ... و ... ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢١٨) ... و ... ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ٨٨/٨٩) .. و .. ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... ﴾ (التوبة : ١١١) .. و .. ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ

فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء : ٧٤) وهذه الآيات كلها وغيرها كثير تلقى الضوء على حقيقة مشاعر المسلمين ، وتجلى مافى داخل نفوسهم وهم يخرجون للقتال ، وواضح أنهم لم يخرجوا ابتغاء مكسب عاجل أو غنيمة دنيوية ، فإنهم من خلال إيمانهم بهذه الآيات والتوجيهات الربانية والمحمدية،يعرفون أن ثمن خروجهم أكبر من أى مكسب محلى مادى دنيوى ، وأى مكسب هذا الذى يرقى أو يتساوى مع ما وعدهم به ربهم من جنات وخيرات ﴿ أولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وانطلاقاً من أن قتال الأعداء ليس بقصد الإبادة ، وإنما بقصد حقن شوكة العدو وكسر مقاومته فقد وضع الإسلام أسلوباً مهذباً لمعاملة الأسرى ، فاق به من سبقه من المحاربين ، وبزّ به من لحق به منهم ، وكان فى منهجه رحيماً بهم وبإنسانيتهم ، وسوف نعرض لذلك فى جزء قادم من هذا الكتاب .

وقرر الإسلام نظام الجزية على غير المسلمين فى البلاد التى يفتحها المسلمون، نظير قيام الجند المسلمين بحمايتهم وحراسة بلادهم وثغورهم والدفاع عنها ، وكان الإسلام سمحاً فى أمر الجزية ، فقرر أن تسقط إذا وافق أهل البلاد من غير المسلمين على المشاركة فى القتال ، على أن يتكفلوا بالدفاع عن أنفسهم وأرضهم ، ولا يفوتنا أن نوضح بل نؤكد أن الجزية فى الإسلام لم تكن ضريبة كتلك التى يفرضها الفاتحون ويقررونها ويلزمون بها أعداءهم ، وإنما كانت فى مقابل ماتلتزمه الحكومة الإسلامية من دفاع عن أهل الذمة ، وإعانة للجند الذين يقومون على حمايتهم ، واشترط الإسلام فيها أن تكون صادرة عن

يد ، أى عن قدرة ، فلا يُظلمون ولا يُرهقون ، كتب خالد بن الوليد لنسطونا حين دخل الفرات « هـذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إنما عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلكم الذمة والمنعة ، وما منعنا كم فعليكم الجزية ، وإلا فلا » ، ومعنى هذا أن الجزية على المنعة والحماية تدوم بدوامها وتمتنع بزوالها ، ويؤيد ذلك ما ذكره البلاذرى فى « فتوح البلدان » والأزدى فى « فتوح الشام » من رد الصحابة لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية ، حين اضطروا إلى تركهم لخوض موقعة اليرموك بأمر من أبى عبيدة ، وعجب أهل حمص كلهم نصراهم ويهودهم من رد المسلمين أموالهم إليهم ، وأدركوا أن الجزية أخذت أساساً جزاء منعتهم فوجب ردها عند العجز عن المنع .

من ذلك نرى أن الإسلام قد هذّب فكرة الحرب ، وارتقى بأسبابها ، ولو كانت الأمم التى جاءت من بعده نهجت نهجه وسلكت سبيله لعاش العالم كله فى أمن ورخاء وطمأنينة ، ولاتجهت مساعى الناس وجهودهم إلى رفاهية البشر وسعادة الإنسان ، إلا أن الحقيقة المرّة التى تصدم الإنسان هى أن الأمم التى جاءت فى عهود ما بعد الإسلام ، تناست ما وضعه من أسس وقواعد وما شرعه من مبادىء وأصول ، وأعادت الأمم إلى سيرة الأمم التى سبقت ظهور الإسلام ، وأصبحت الحرب وسيلتها إلى السيطرة والامتلاك ، وآمن الناس بأن الحرب مظهر من مظاهر سيادة الدولة ، وأنها لذلك عمل مشروع تلجأ إليه الدولة متى شاءت ، ونتيجة لذلك تعددت الحرب سعياً وراء المصالح وانتهاز الفرص ، وتعللت كل دولة بسيادتها الوطنية ، وأصبح

الاحتكام إلى السلاح هو أساس العلاقات الدولية ، كما أصبحت الحرب ضرورة عملية ووسيلة مشروعة ، وفى ظل هذه المعانى قامت الحروب الاستعمارية ، وانتشر الظلم والفساد فى أنحاء العالم ، وأصبحت القوة هى السلطة العليا تحكم وتسود ، وعاش العالم فى اضطرابات نفسية ومجازر بشرية وأحداث دامية .

وكان السبق الكبير فى مضمار التسليح من أخطر الخطوات التى خطتها الدول ، وأصبحت أسلحة القتال مهلكة لكافة الأطراف ، وسيفنى الغالب والمغلوب ، وفى ذلك كتب برتراند رسل « لم يحدث أن كانت القنابل وسيلة لحماية الشعوب ، ولكنها كانت دائماً وسيلة لهلاكها . . . مجرمون أولئك الذين يواصلون التجارب العملية والعلمية لضمان استخدام الذرّة للقتل بدل أن يستخدمونها للحياة » .

حقيقة مروّعة يعيش فيها العالم ، وقد أعمته النزعة إلى السيطرة والامتلاك ، وليت القائمين على أمره يذكرون أن حمامة السلام مازالت تبحث عن موضع تستريح فيه وتطمئن إليه .

إنّ المدارس العسكرية التى جاءت بعد الإسلام اتّخذت الحرب وسيلة للحياة والبقاء ، فأشاعت فى العالم الظلم والخوف ، فليت المسئولين عن هذه المدارس يراجعون تاريخنا الإسلامى الحنيف ، ويطالعون صفحاته ويقفون على ما قرره بالنسبة للحرب . . . وليت المسئولين الآن عن سياسة العالم يطالعون تاريخ الإسلام ، ويدرسون خطوطه العريضة ، ليعرفوا

كيف ارتقى بالحرب ، وكيف هذب أسبابها ، ووضع لها الضوابط ، وجعلها وسيلة لخير الإنسان لا لضرره ، وكيف حصر أضرارها فى أضيق الحدود . . . ليتهم يفعلون ذلك فيسلكون مسلك الإسلام وينهجون نهجه ، فيكون فى ذلك رخاء البشرية وسعادتها وأمنها .

ليتهم يفعلون . . .

كان من الطبيعى أن يواجه المسلمون أعداءهم الذين يعتدون عليهم ، وأن يحملوا فى وجهم السلاح ، وأن يخوضوا ضدهم المعارك حفاظاً على دينهم وعقيدتهم ووجودهم ، ولقد كان من فضل الإسلام على البشرية والإنسانية أن وضع للحرب أصولا ومبادىء ، وحدد لها الأسباب والمبررات ، وجعل لها دستوراً يتفق مع إنسانية الإنسان ، يتضمن منهاجاً وأسلوباً يحصر ضررها فى أضيق الحدود ويمنع شرها من أن يتفاقم .

ولما كانت الحرب الإسلامية قد شغلت فترة هامة من التاريخ ، وكانت لها آثارها السياسية والاجتماعية فى مختلف البقاع والأقطار والأنحاء ، وامتدت هذه الآثار فى التاريخ حتى شغلت العالم كله مفكريه وعسكرييه ، أصبحت الحرب الإسلامية موضوعا له أهميته وحيويته ، تناوله الباحثون والمؤرخون بالدراسة والبحث والمقارنة ، واتفق كثيرون منهم مع ماجاء به الإسلام من نظم وما أحدثه من تطور وما وضعه من حدود وأساسيات ، واقتنعوا بكل ما أدخله الإسلام على الحرب وأساليبها ، إلا أن البعض من هؤلاء كان له موقف مخالف تماماً فأعلنوا آراءهم فى مؤلفات صدرت لهم بلغات مختلفة ، والشىء المؤسف حقاً أن هؤلاء فى كل ما كتبوا كانوا يستهدفون متعمدين تشويه الاطار الجميل الذى أحاط به الإسلام شئون الحرب ، وتلطيخه كذباً أو جهلا ، ليكون قذى فى عيون المتطلعين إليه .

ولما كنا نعرض فى هذا الكتاب لجهود الإسلام فى تنظيم الحرب والارتقاء بأسبابها وتعديل نظمها ، ونسعى إلى وضع الحقائق من التاريخ والواقع أمام الناس ، فمن حق بحثنا علينا وحتى يكون شاملا لكافة وجهات النظر ، ومن حق القارئ أيضاً لتكون الصورة أمام ناظريه متكاملة للموضوع ، رأينا أن نعرض للآراء التى هاجمت نظرية وأسلوب الحرب فى الإسلام ، ومع احترامنا الكامل لحرية الرأى ، فإننا نحس بأن هذه الآراء كانت وليدة عوامل أخرجت البحث العلمى عن طبيعته ، وابتعدت به عن أصوله ، فاتخذ أصحابها موقفاً متصلباً متعنتاً ، بدت فيه كراهيتهم للإسلام أصلا ورفضهم له أساساً ، فهاجموه بعنف فى كل ما قدموه للمكتبات ، وهم بذلك أبعدوا أنفسهم عن دائرة البحث العلمى السليم المفيد إلى دائرة العداء المستحكم والخصومة التى لا تحدها حدود .

ونحن إبراء للذمة وأداء للأمانة نتناول آراء هؤلاء ومزاعمهم فنعرضها ونشرحها ونعقب بالرد عليها ، ولكننا أولا وقبل أن نعرض الآراء نعرض لهؤلاء الذين رفعوا راية الهجوم على الإسلام ، وهم على وجه التحديد بعض من كتاب الغرب الذين أطلق عليهم اسم المستشرقين[1] ، وهؤلاء ينقسمون إلى طوائف ثلاث ...

• طائفة متعصبة لعقيدتها ، حجبها التعصب الأعمى فأعماها عن الحق . . كتابها فى كل ما كتبوا لم يخرجوا عما يمليه عليهم تعصبهم الذى

(١) المستشرقون جمع مستشرق والفعل استشرق ، والألف والسين والتاء فى أى فعل تدل على الطلب واستشرق أى أخذ فى دراسة كل ما يتعلق بالشرق من علم ودين ولغة .

يدورون في سجنه لا يستطيعون منه انطلاقاً ، فمنه يعبرون عن أفكارهم وبه يشنون حملاتهم ، ولا يتقيدون بأصول البحث العلمي وقواعده ، همهم الأكبر الإساءة إلى الإسلام وتغطية ما شرّعه الله وإخفاؤه ، خوفاً من أن يكون ظهوره على وجهه الحقيقي هدما لعقائدهم وسحقاً لمحاولاتهم .

● طائفة لا تهتم بالحقائق بمقدار اهتمامها بمخططات استعمارية ، فهم قد شرعوا أقلامهم لخدمة الاستعمار الذى يقف من ورائهم يدفعهم ويدفع لهم ، فالمنتسبون إلى هذه الطائفة هم أصلا رواد الاستعمار ومُؤَيِّدُوه ، يمهدون أمامه الطريق ، ويهيؤن له السبيل ، همهم الأكبر وواجبهم المكلفون به هو إضعاف الإيمان بالإسلام وزعزعة الثقة به وإثارة الشكوك من حوله ، فتضعف بالتالى المقاومة عند المؤمنين ، ويوطد الاستعمار بذلك أقدامه في أراضى المسلمين التى تمثل منذ زمن بعيد أمله وغايته .

● طائفة تمثل الإباحية ، وهذه لا تعتنق ديناً ولا تتقيد بعرف ولا ترتبط بقانون ، غايتها الكبرى أن تخضع المجتمعات البشرية لشهواتها وملذاتها وأغراضها .

هذه الطوائف الثلاث اجتمعت على مهاجمة الإسلام والنيل منه ، ومن عجب أنها في حمى التعصب نسيت البديهيات وحكمت الهوى ، وبعدت عن أصول البحث العلمى ، فزورت العلم والتاريخ والواقع ، وأقامت أسانيدها وادعاءاتها على أساس من التفكير القاصر غير السليم ، وهى بذلك تكون قد خالفت أصول التربية التى نادى بها رجال التربية فى العصر الحديث ،

والتي تدعو إلى غرس مادة التفكير السليم الصحيح وتثبيت جذورها .

يرى الفيلسوف هربرت سبنسر أن الجهل والتأثر بالعاطفة هما مصدر كل نقص يسود الأبحاث الاجتماعية ، وأن التأثر بالعقيدة الدينية يحول بين المرء وبين تفهم أية مشكلة مهما كانت واضحة ويسيرة .

ويرى لوك أن الباحث يخطىء إذا وضع تفكيره تحت أفكار الآخرين وخضع لها ، وإذا جعل عاطفته تسيطر على تفكيره فلا يقبل رأيا لا يتفق ومزاجه ، وإذا جعل تفكيره محدداً لقلة الاطلاع ، وإذا كان الباحث نفسه ضعيف التفكير لا يصلح أساساً لأن يقوم بمهمته .

ويقول الدكتور مظهر سعيد فى كتاب « علم النفس النظرى والتعليمى » « إن التميز الأعمى من عوامل فساد التفكير » .

هذه الآراء الثلاثة تلقى ضوءاً على نوع البحوث التى قامت بها الطوائف الثلاث التى أشرنا إليها ، وتجعلنا نلمس منذ الوهلة الأولى مدى التحامل والتزوير وتعمية الحقائق ، وهذا يؤكد لنا فى صراحة ووضوح ، أن بحوثهم ودراساتهم قامت على أساس غير علمى وعلى تفكير سقيم وعلى جهل تام بحقائق الإسلام ، كما سيتضح ذلك فى مناقشاتنا لآرائهم التى نقصرها على نقاط ثلاث كانت محور دراساتهم وبحوثهم .

الأولى ...

أن الإسلام قام بالسيف والتهديد والعنف ، وأنه لولا القوة ما وجد الإسلام من يؤمن به ويدخل فيه ، ومن القائلين بذلك الأب

« لا مانس » ، وهو راهب يسوعى لبنانى نشر كتاباً بالفرنسية اسمه « مهد الإسلام » ، عرض فيه وجهة نظره ، وقال إن الدعوة قامت على السيف وأنه لولا سطوة سيوف المسلمين وما فعلت فى رقاب الناس لما بلغ الإسلام هذا المدى الذى بلغته دعوته ولا بسط سلطانه على هذه الآفاق البعيدة شرقاً وغرباً .

الثانية ...

إن الغزوات والحروب التى قام بها المسلمون لم تخرج عن كونها عمليات سلب ونهب ، ومن القائلين بذلك « مارجوليوث الإنجليزى » فى كتابه « محمد ، وشروق الإسلام » وقال فيه إن غزوات المسلمين هى امتداد طبيعى للغارات التى كانت تقوم بها العصابات فى الجزيرة ضد القبائل التجارية فى العهد الجاهلى .

الثالثة ...

إن الرسول عقب ماأصاب المسلمين فى أحد ، وبعد أن رأى كثرة القتلى منهم فى هذه المعركة ، أراد أن يطيِّب قلوب أصحابه ، فأصدر ما سماه « ايرفنج » فى كتابه « حياة محمد » قانون الجبر .

هذه هى ادعاءات المهاجمين من زاوية الحرب فقط ، وهناك ادعاءات أخرى تتصل بزوايا الإسلام الأخرى ، حمل لواءها مستشرقون كثيرون منهم كازانوفا الفرنسى ، وكايتانى الإيطالى ، وجبير دى نوجان ، وليس هنا مجال بحثها والرد عليها .

* * *

النقطـة الأولى

أثارها القس لامانس ، وهى تخالف واقع التاريخ الإسلامى ، فثابت أن النبى عاش فى مكة ثلاث عشرة سنة ، دعا فيها إلى الدين الجديد سراً ثم جهراً ، وكان خلال هذه السنوات مضطهداً هو ومن آمن به ، وصبر الجميع وتحملوا الاضطهاد دون أن يقاوموا الاضطهاد أو يردوا العدوان .. وهاجر رسول الله إلى المدينة رغبة فى أن تبتعد فترة الصدام ، وفى أن يعطى الفرصة لقريش لتراجع موقفها من الدعوة ، وعاش المسلمون فى المدينة يشهدون تجمع قريش واستعداداتها ومحاولاتها اجتذاب اليهود والقبائل العربية الأخرى لتكوين جبهة متحدة ، تتضامن للقضاء عليهم ، فلما بلغ الأمر منتهاه ، أصبح على المسلمين واجب الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم ، وصدر الأمر الإلهى يأذن لهم بالقتال ويدعوهم إلى الجهاد وإلى الإقدام فى الحرب والثبات فى وجه الأعداء ومجّد الاستشهاد فى ميدان القتال وجعل منازل الشهداء مع النبيين والصديقين ، وهنا تبرز سمة من سمات الحرب فى الإسلام - وإن كان قد سبق لنا الإشارة إليها إلا أننا نعيد هذه الإشارة ليبقى البحث متصلا - فالحرب الإسلامية لم تكن حربا هجومية أو حرب اعتداء ، وإنما كانت حرب دفاع ووقاية وصد لدفع الأذى وتأمين الدعوة وحماية الداخلين فى الإسلام ، وكان الجهاد بالسيف فى سبيل الدعوة والدفاع عنها أمراً واجباً من نكل عنه أو تخاذل فى ميدانه فقد اقترف إثماً واستوجب غضب الله ، ويؤيد هذا الاتجاه الكاتب العملاق عباس العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » فيقول « إن الإسلام قد استخدم السيف فى أشد الأوقات حاجة إليه حين

كان السيف مرادفاً لحق الحياة ، وكل ما أوجبه الإسلام فإنما لأنه مضطر إليه أو مضطر للتخلى عن حقه فى الحياة وحقه فى حرية الدعوة وحرية الاعتقاد والعلاقة بين الناس فى دستور الإسلام علاقة سلم ، حتى يضطروا إلى الحرب دفاعاً على أنفسهم أو اتقاء لهجوم مبيت تكون المبادرة فيه ضربا من الدفاع ، وإلا لما حاربوا الفرس والروم فى الوقت الذى سالموا فيه الحبشة رغم عدم دخولها فى الإسلام » .

فالمسلمون إذن خاضوا غمار الحرب اضطراراً وليس اختياراً ، وكان شعارهم ﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ (البقرة ١٩٠).

والقرآن الكريم وهو دستور الإسلام أمر المسلمين بأن يترفقوا بالمشركين ، وأن تكون الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجدال الناس بالتى هى أحسن ، ولقد نزلت آيات كثيرة تأمر الرسول بأن يعلن على الناس أنه إنما جاء بالحق من الله ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها ، وأنه ليس جباراً على الدين ولا وكيلا عن الناس ولا مسيطراً عليهم ، وإنما هو منذر ومبشر ، وقد سلك رجاله مسلكه هذا فى رفق ولين ، دون تعنت أو إرهاق ، وتؤكد هذا السلوك الآيات التى وردت فى القرآن الكريم ونعرض منها ﴿لَاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٥٦) ... ﴿... فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغَ﴾ (آل عمران ٢٠) ... ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَاَّ نَعْبُدُ إِلَاَّ اللهُ وَلَاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا

بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ﴾ (آل عمران ٦٤) ... ﴿ ... أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس ٩٩) ... ﴿ ... قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس ١٠٨) ... ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل ١٢٥) .. ﴿ وَقُلْ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴾ (الكهف ٢٩) ... ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّر بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق ٤٥) ... ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية ٢١/٢٢) .

وتاريخ الإسلام يؤكد أن المسلمين التزموا بحدود القرآن ، فكانوا قبل كل حروبهم يعرضون الإسلام أو الجزية ، فإذا رُفض عرضهم حملوا سلاحهم وخاضوا المعارك ، وبذلك كانت القوة هى السهم الأخير الذى استخدمه المسلمون ، هذا هو ما التزم به قادة المسلمين على طول تاريخهم .. خالد بن الوليد فى بلاد الفرس ، ثم من بعده سعد بن أبى وقاص ، وعمرو ابن العاص فى مصر ، وأبو عبيدة فى بلاد الشام ، وطارق بن زياد فى الأندلس ، وغيرهم من القادة الذين قادوا الجيوش وحملوا دعوة الإسلام إلى مختلف البلدان .

وحتى اليهود على عهد رسول الله ، فما أن وصل عليه السلام إلى المدينة واستقر مقامه بها ، حتى عرض عليهم معاهدة حسن جوار ، وعاشوا مع

المسلمين فى المدينة لهم كل حقوقهم ، إلّا أنهم نقضوا العهد ـ وسيرد ذلك فيما بعد ـ وحالفوا أعداء الإسلام ، وتصدوا المسلمين ، فكان لابد من مواجهتهم ووقوع الصدام المسلح معهم .

وثمة أمر هام تناساه أو نسيه الأب لامانس ومن جرى فى فلكه ، وهو أن أساس الإيمان بالإسلام هو العقل والاطمئنان القلبى والحرية ، هذا الأساس لا يمكن أبداً أن يتفق مع الإكراه أو الخوف أو التهديد، فالإسلام كان يخاطب العقل والفكر ، فإذا استجاب العقل واقتنع الفكر ، دخل الإسلام إلى القلب يملؤه نوراً ، فلا يجد صاحبه سبيلا غير سبيل الإسلام .

ثم إن الله تبارك وتعالى وقد رضى الإسلام ديناً لخلقه وختاماً للأديان كلها، أبى أن يدخله خائف أو جبان ، ولم يرض له أن يصل إلى مستوى أن يكون من رجاله من يخالف عقيدته أو قلبه أو روحه ، ويؤمن به تحت التهديد والوعيد ، ويستجيب لدعوة يفرضها السيف .

فى هذا الصدد ، قال الكاتب الصحفى الأستاذ محمود فهمى عبداللطيف فى تعليق له على كتاب « عبقرية محمد » للكاتب العملاق مؤلف العبقريات الأستاذ عباس محمود العقاد « أى إرهاب هناك وأى سيف ، وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا فى الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحداً لسيوفهم ، وكانوا يلقون عنتاً ولا يصيبون أحداً بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذاً بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ولا يُخرِجون أحداً من داره ، ثم هم لم يسلموا على حد السيف خوفاً من النبى الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين ، ولما

تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الارهاب والوعيد ، ولم يحملوه ليبدأوا أحداً بعدوان أو يستطيلوا بالسلطان ، فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ، ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع ، وهكذا أمرهم محمد بأمر الله .

فالإسلام ليس دين حرب وقتال ، وما كان رسول الله رسول حرب وقتال ، يطلب الحرب للحرب ، أو يطلبها وله مندوحة عنها ، وما احتكم إلى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها ، والإسلام عقيدة ونظام ، وشأنه شأن كل عقيدة ونظام فى أخذ الناس بالطاعة ، ومنعهم من أن يخرجوا عليه » .

وفى هذا الصدد يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب « . . . الدعوة الإسلامية نفسها صريحة صرحة لا تقبل جدلا فى أنها لا تمتد بشىء حسناً كان أو سيئاً ، إذا جاء عن طريق الإكراه فمن آمن مكرهاً فلا إيمان له ... الدين إيمان ، ولا يكون إيمان تحت مؤثرات مادية تهدد الإنسان فى ماله أو دمه أو عرضه .. الدين إيمان ، والإيمان حب وتقديس وإجلال لما يقع الإيمان به فكيف بدين يدخل على الناس من طريق الإرهاب والتهديد ، إن النفس لا تفضح على مثل هذا الدين إلا الكره والمقت والازدراء ، وإنها ستلفظه كما تلفظ المعدة الطعام الفاسد ، وأمر الإسلام من أوله إلى آخره قائم على ألا إكراه فى الدين حتى تتفتح له القلوب وحتى يقع منها موقع الحب يخالطها مخالطة الروح للجسد »[1] .

---

(١) كتاب النبى محمد .

ونحن نضع أمام القراء بعض الأمثلة التى تمثل رداً مقنعاً على دعوى القسيس ، ودليلا ساطعاً على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وأن الداخلين فيه دخلوا عن إيمان وعقيدة واقتناع .

ونحن نسوق هنا قصة إسلام عمر بن الخطاب فهى دليل ليس فى حاجة إلى برهان ...

خرج عمر من بيته يوماً وقد اقتنع بأن فى القضاء على محمد إنقاذ لدينه ودين آبائه وأجداده ، فتقلد سيفه ، واتجه باحثاً عن محمد والشرر يتطاير من عينيه ، وبينما هو فى الطريق نحو الصفا حيث كان الرسول ، لقيه نعيم ابن عبد الله فسأله « أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ » ، فقال « أريد هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفَّه أحلامها وسبّ آلهتها وحقَّر آلهتنا ، سوف لا أهدأ حتى أقتله » ، فقال له « لقد غرَّتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً . . . أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم . . ختنك (زوج أختك) وابن عمك سعيد بن زيد وأختك قد أسلما ، فعليك »[1] .

وهكذا تدخلت الأقدار لتحول كره عمر للإسلام إلى حب وإيمان ، ولتجعل من عمر عدو الإسلام سنداً له وقوة .

---

(١) جاء فى بعض الروايات أن الذى لقيه هو سعد بن أبى وقاص فسأله «أين تريد يا عمر» فقال «أريد أن أقتل محمداً» ، فقال له « أنت أصغر وأصغر من ذلك ، تريد أن تقتل محمداً وتدعك بنو عبد مناف تمشى على الأرض» ، وعرف أن سعداً قد أسلم فسل سيفه ، وهاجمه فقال له سعد وقد رفع سيفه فى وجهه « مالك يا عمر لا تصنع ذلك بختنك وأختك » فسأله « صبئا » ، فقال له « نعم » .

دخل عمر بيت أخته ، فوجدها وزوجها يقرآن القرآن ، ومعهما خباب ابن الأرت ومعه صحيفة فيها سورة « طه » ، فقال « لقد أخبرت أنكما بايعتما محمداً على دينه » ، ثم بطش بسعيد، ثم ضرب أخته فشجها ، فقالت له « ياعدو الله ، أتضربنى على أن أوحد الله تعالى ؟ ، لقد أسلمت على رغم أنفك ، فاصنع ماأنت صانع » ، فطلب من أخته الصحيفة ليطالع ما بها «اعطنى هذه الصحيفة أنظر ما هذا الذى جاء به محمد » ، فقالت أخته « يا أخى أنت نجس ولا يمسه إلا الطاهر » ، فقام فى وداعة واغتسل ، ثم مسك بالصحيفة وقرأ ﴿ طَهَ . ماأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ ، حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا واتَّبعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ ولان قلبه ، واطمأنت نفسه ، وأخذه سمو الدعوة وإعجاز الآيات وجلالها ، فقال لأخته « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » .

وعرف عمر من خباب بن الأرت أن الرسول خصّه بدعوة « اللهم أيّد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » ، فخرج من عند فاطمة قاصداً رسول الله ، لاليقتله ، ولكن ليعلن إسلامه « دلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم » ، وأصبح عمر قوة تحمى الإسلام وتذود عنه ، عن ابن عباس رضى الله عنه « لما أسلم عمر رضى الله تعالى عنه ، نزل جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يامحمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر » ، وأفزع إسلامه القرشيين حين أعلنه عليهم جميل بن معمر الجمحى « يا معشر قريش أتيتكم بنبأ مريع ، إن ابن الخطاب قد صبأ » وكان تعليقهم « لقد انتصف القوم منا » .

ونضع بين يدى القارىء قصة إسلام عمير بن وهب ،فهى الأخرى دليل يهدم دعوى الأب لامانس ...

وعمير كان من شياطين قريش ممن يؤذون رسول الله وأصحابه بمكة ، وكان ابنه وهب أسيراً لدى الرسول بعد بدر ، أسره رفاعة بن رافع ، وأسلم بعد ذلك .

التقى عمير بصفوان بن أمية عند الكعبة بعد بدر ، فتذاكرا القليب ومصابهم ، فقال صفوان « مافى العيش والله خير بعدهم » ، ثم أغرى عمير بقتل الرسول أخذاً بثأر قتلى بدر ، فقال له عمير « لولا دين علىّ ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، كنت آتى محمداً حتى أقتله » ، فقال صفوان « علىّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقوا » ، ودفع إليه بسيف شحذه ثم سقاه سماً ، وأمره أن يذهب إلى المدينة كأنه يطالب بابنه أسير المسلمين ، ثم يقتل رسول الله ، فوافق عمير بشرط أن يظل الأمر سراً بينهما ، فلا يعرف به أحد غيرهما « فأكتم عنى شأنى وشأنك » ، وغادر عمير مكة ، واتجه صفوان إلى قومه يقول لهم « أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر » ، وكأنه قد وثق أن تدبيره سينجح ولم يخطر بباله أن أمراً سيحدث ..

قدم عمير المدينة ودخل على رسول الله فى المسجد وكان معه عمر ابن الخطاب ونفر من المسلمين يذكرون يوم بدر ، فلما رآه عمر قال « هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا بشرّ » ، وطلب رسول الله من عمر أن يتأخر ، ثم واجه عميرا وسأله عما أقدمه ، فقال « قدمت لهذا الأسير الذى فى

أيديكم (يقصد ابنه وهب) ؟ » ، فأعاد الرسول سؤاله «أصدقني ماأقدمك ؟»، فأعاد عمير إجابته الأولى ، فقال له الرسول « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ،فماذا شرطت لصفوان فى الحجر » ، ففزع عمير ، وقال «ماذا شرطت له !! » فأجابه الرسول « تحملت له بقتلى على أن يعول بنيك ويقضى دينك : والله حائل بينك وبين ذلك » فذهل عمير ، وقال « أشهد إنك رسول الله ، وقد كنا يا رسول الله نكذبك بما تأتى به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لا أعلم ماأتاك به إلا الله تعالى ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق » ، فأمر رسول الله أصحابه « فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا أسيره » .

وبينما صفوان ينتظر البشرى ويرتقب الخبر الذى سيهز الدنيا بأسرها ، جاءه من المدينة من يحمل إليه نبأ إسلام عمير ، الذى لم يلبث أن عاد إلى مكة محمدياً مؤمناً قوياً جلداً داعية للإيمان بالله ورسوله ، فأسلم على يديه كثيرون، وقد روى أنه نادى صفوان عند عودته « أنت سيد من سادتنا رأيت الذى كنا عليه من عبادة الحجر والذبح له ، أهذا دين ؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ، فلم يجبه صفوان وقال لقومه « قد عرفت حيث لم يبدأ بى قبل منزله أنه قد نكس وصبأ ولا أكلمه أبداً ، ولا أنفعه ولا عياله بنافعة » .

وقصة إسلام لبيد بن ربيعة دليل آخر ...

ولبيد شاعر مشهور ، كانت له مكانة مرموقة ، وكان يتمتع بتقدير وإعجاب العرب جميعاً ، حتى أنه علق مرة إحدى قصائده على باب الكعبة

فجالت شهرته وقدراته الشاعرية دون أن ينبرى له المنافسون ، وذات يوم عُلقت سورة من القرآن بجانب قصيدة له (ذكرت بعض المراجع أنها سورة البقرة ، وبعض المراجع أنها سورة الرحمن) ، فأعجب بها أيما إعجاب ، رغم أنه كان على دينه ، واعترف بأن الآيات القرآنية تفوق معنى وبلاغة وأصالة شعره ، ثم أسلم ، فلما عرض عليه المعجبون بشعره أن يجمعوه فى ديوان أجابهم « لم أعد أتذكر شيئاً من شعرى ، إذ أن روعة الآيات المنزلة لم تترك لغيرها مكاناً فى ذاكرتى » ، وبإسلام لبيد فقدت قريش واحداً من فحول شعرائها الذين أطلقتهم ليهاجموا الإسلام ويحطوا من قدره ... خسرته برغبته هو بعد اقتناعه دون تدخل أو تهديد .

وما حدث مع لبيد حدث مرّة أخرى مع الطفيل بن عمرو الدوسى ..

والطفيل كان شريفاً فى قومه ، قدم مكة فمشى إليه رجال من قريش وقالوا له « أبا الفضل ، هذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل أمره بنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين المرء وأخيه ، وبين الرجل وزوجه ، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ، فلا تكلمه ولا تسمع منه » ، ووجد الطفيل رسول الله يصلى عند الكعبة ويقرأ القرآن ، فقال له « سمعت كلاماً حسناً وأنا ما يخفى علىّ الحسن من القبيح » ، ثم توجه إلى بيته عليه السلام ، فتلا عليه الرسول القرآن ، وعرض عليه الإسلام ، فأجاب ، وعاد إلى المدينة ، وعرض الإسلام على قومه فاستجابوا له ، وأسلموا .

أسلم لبيد والطفيل بعد أن استمع كل منهما إلى آيات من القرآن ، وأحس بصدق كلماته ، وأدرك بوعيه وفكره وعقله أن مصدرها فوق

مستوى البشر ، لعجز البشر على أن يأتوا بمثله أو بسورة منه ﴿ وإنْ كُنتُم فى رَيْبٍ مما نَزّلْنا على عَبْدِنَا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثله وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ الله إنْ كنتُم صَادِقِينَ ﴾ (البقرة ٢٣) .

ولقد شاركهما التأثر بآيات القرآن كثير من المستشرقين منهم « الكونت هنرى دى كاسترى » فقد قال فى كتاب « الإسلام تأثرات ومباحث » « ... لقد شعرت بأن قلبي ينكسر بين أضلعى ، وارتعشت منى العظام ، وصرت كالنشوان ، وذلك لما غمرنى من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة » ، ومنهم « كلود فارير » عضو مجمع الخالدين قال « إن آيات القرآن جميلة ، وتحسن تلاوتها ، فيها نغمة طاهرة عجيبة ، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة ، وتدعو إلى حماية الضعيف وإلى عبادة إله واحد ... » ، ووصف « بارتملى شتيلر » القرآن فقال « إن القرآن قد بقى أجمل مثال للغة التى أنزل بها ، ولم أر ما يشبه ذلك فى جميع أدوار التاريخ الدينى للعالم الإنسانى ، وهذا الأمر يفسر لنا التأثير العظيم الذى أحدثه هذا الكتاب على العرب الذين اعتقدوا أن محمداً فى معارفه الساذجة لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب ، وأنه لابد من أن يكون قد أملاه عليه الملك جبريل من عند الله » ، وقال « جيمس متشنر » « من مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه ، وتزداد إيماناً وسحراً ... هذا هو القرآن الكريم معجزة نبى الإسلام » ، وقال « جوستاف لوبون » « حسب هذا الكتاب جلالة ومجداً ، أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف من أسلوبه الذى لا يزال غضا كأن عهده بالوجود أمس » .

المهم هو أن لبيد والطفيل وغيرهما دخلوا الإسلام بتأثير القرآن وليس تحت تهديد بالسيف أو بغيره .

ونواصل سرد بعض من الأدلة والبراهين التي تؤكد كذب ما ادعاه الأب لامانس ، فهناك قصص أخرى كثيرة لاتنتهي ولا حصر لها نشير إلى بعضها بإيجاز شديد .

قصة إسلام سعد بن أبي وقاص الذى هددته أمه «لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي » ، فقال لها « والله لو كان لك ألف نفس ، خرجت نفساً نفساً ، ما تركت هذا الشيء (يقصد الاسلام) » .

وقصة إسلام زيد بن حارثة الذى رفض أن يعود مع أبيه وعمه وفضّل أن يبقى بجانب رسول الله ، قالا للرسول « جئناك في ولدنا عندك ، فأمنن علينا ، وأحسن في فدائه فإنا سندفع لك » ، فقال لهما « أدعوه نخيّروه » ، فقال زيد « ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت مني مكان الأب والعم » .

وقصة إسلام خالد بن سعيد بن العاص الذى سمع أبوه يقول وقد مرض « إن رفعني الله من مرضى هذا لا يعبد إله ابن أبي كبشة بمكة أبداً (يقصد رسول الله) » ، فقال خالد مخاطباً ربه « اللهم لا ترفعه » .

وقصة إسلام حمزة بن عبد المطلب الذى سمع أن أبا الحكم بن هشام (أبا جهل) آذى رسول الله وسبّه وبلغ منه ما يكره ، فاتجه إلى حيث وجده بين قومه ، ورفع القوس وضربه فشجّه شجّة منكرة ، وقال « أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول » .

وأخيراً نعرض قصة من خارج الجزيرة ... فعندما حاصر المسلمون الهرمزان قائد الفرس في قلعة تستر ، قال لهم « إن في جعبتي مائة نشابة ، ووالله

ماتصلون إلىّ مادام معى نشابة ، ومايخيب لى سهم ، فما خير إسارى إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح ، إنى أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع بى ماشاء » .

وأجابه القوم ، فرمى بالقوس وسلّم نفسه ، فساروا به إلى أبى موسى الأشعرى قائدهم ، فبعث به بصحبة أنس بن مالك والأحنف بن قيس إلى الخليفة عمر ، فلما وصلا به وجدا الخليفة نائماً بالمسجد ، فسأل الهرمزان « أين حرسه وحجابه ؟ » فأجيب « ليس له حرس ولا حاجب ولا كاتب ولا إيوان » فعجب وقال « ينبغى أن يكون هذا الرجل نبياً ، فإلا يكن ، فإنه يعمل عمل الأنبياء » وأعلن إسلامه وعاش بالمدينة .

وسر الإصرار على ذكر هذه القصة أن بطلها رجل حرب من غير العرب واجه المسلمين فى معارك كثيرة ، وكانت القوة هى سبيله فى الحياة ، فلما وقعت عيناه على صورة حية من صور الإسلام الخالدة ، وأحس بالفارق الكبير بين الضلال الذى كان يعيشه وبين الحق والنور والهداية التى يعيش فيها المسلمون ، ترك دين قومه واعتنق الإسلام ، لا بالسيف ولا بالتهديد ، ولكن بالاقتناع العقلى والقلبى ثم بالإيمان .

والسؤال الآن بعد هذا العرض

هل أحس الأب لامانس بحلاوة القرآن كما أحس به زملاء له ، وأدرك أثره فى نفسية قارئه أو سامعه ؟

هل وقف الأب لامانس على ماتعرض له المسلمون الأوائل من تعذيب

وتنكيل وإرهاب دون أن يملكوا ما يصدون به هـذا العدوان ؟ .

هل طالع تاريخ الإسلام وعرف كيف دخل فيه وآمن به هؤلاء الذين باعوا الأهل والولد والمال ، واشتروا ديناً حنيفاً رأوا فيه الصلاح والهداية والأمان ؟

هل وقف على أسباب هجرات المسلمين المتعددة المتتالية إلى الحبشة وإلى المدينة ؟

إن دعواه بأن الإسلام انتشر بالسيف والتهديد إدعاء لا يقوم على أساس علمى أو واقعى أو تاريخى ، فالسيف لم يكن أمراً مقصوداً لذاته وإنما كان شيئاً عارضاً ليس من مقومات الدعوة ولا يحسب عليها ، وإنما كان الحارس الذى يحمى الدعوة ويدفع عنها حين لم يُجد النصح ولم تُغن البينات .

وهنا يعرض سؤال نفسه ؟

ما رأى الأب لامانس وقد أغمد سيف الإسلام منذ أكثر من ألف عام ومازال الإسلام يعمر القلوب فى ملايين من البشر ، ولا يزال الناس يدخلون فى الإسلام أفراداً وجماعات وليس للاسلام سيف ، بل إن الأمور تسير فى صورة عكسية ، فالسيوف اليوم تُشهر ضد الإسلام فى بقاع مختلفة ومازال المسلمون على دينهم وإيمانهم .

* * *

حمل لواءها « مارجوليوث » ، فقال إن الغزوات كانت عمليات سلب ونهب ، وإنها كانت امتداداً للإغارات التى كانت تقوم بها العصابات ضد قوافل التجارة .

ذكر مارجوليوث فى كتابه «محمد وشروق الإسلام» ، «قد عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته إلى المدينة على السلب والنهب ، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه ، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية فى المدينة ، فقد كان هناك على أى حال سبب ما حقيقى كان أو مصطنع يدعو إلى الانتقام منهم ، إلا أن خيبر التى تبعد عن المدينة كل هذا البعد ، لم يرتكب أهلها فى حقه ولا فى أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعاً ، لأن قتل أحدهم رسولا لمحمد لا يصح أن يكون سبباً يتذرع به للانتقام منهم » ، ورغم الأعذار التى أبداها بشأن أهل مكة واليهود ، فإن الثابت أن الغزوات كانت دفاعاً عن الإسلام وصدا للعدوان ودفعاً للايذاء وتمكينا للدعوة من أن تصل إلى الناس . . وكأنه وغيره وقد وصل بهم التفكير إلى هذا الحد من الهراء المفضوح ، كانوا يريدون من المسلمين أن يمدوا أعناقهم أمام قريش وأمام أعدائهم ليقطعوها ، أو أن يعودوا أدراجهم مستسلمين للقوة ويتركوا دينهم ويلفظوا حياتهم التى فرضتها عليهم الأقدار ، حتى لا يقال عنهم حين يدافعون عن أنفسهم أنهم حملوا سيوفهم وخاضوا المعارك رغبة فى النهب والسلب .

أسلوب رخيص يستهدف تشويه الصورة الجميلة للكرامة الإنسانية التى تتعرض للامتهان فتثور دفاعاً عن نفسها .

وإننا لنتساءل أى سلب وأى نهب هذا الذى تحدث عنه مارجوليوث وغيره .

لقد حارب المسلمون فى بدر بعد أن أفلتت تجارة قريش واستطاعت أن تبعد عن طريق المسلمين ، بعد أن غيّر أبو سفيان طريقها واتخذ الساحل طريقاً آخر باعد بينه وبين المسلمين ونجا بقافلته ، فقد صممت قريش على اللقاء والمواجهة رغم الأصوات التى ارتفعت تدعو إلى العودة إلى مكة بعد أن أفلتت القافلة « إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجّانا الله فارجعوا » ، وغضب أبو جهل وعارض الدعوة إلى العودة ، وصاح فى القوم « والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم عليها ثلاثاً ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها » ، وكان الصدام فى بدر .

وواضح أن خروج المسلمين لاعتراض القافلة والاستيلاء عليها لم يكن بقصد النهب أو السلب ، وإنما كان استرداداً لحقوق لهم سلبت فى مكة ، حيث تركوا بيوتهم وأملاكهم وأموالهم ، وهاجروا إلى المدينة استجابة لدعوة الرسول وهرباً من إيذاء قريش وجمعاً لكلمة المسلمين وتوحيداً لجبهتهم ، وكان من حقهم استرداد أموالهم ، فإذا رفضت قريش فلا مانع من وضع اليد على أية قافلة لهم ، وواحدة بواحدة .

ولعله لم يغب عن فكر مارجوليوث أن اعتراض المسلمين لقوافل قريش كان هدفاً عسكرياً استراتيجياً ، يستهدف تعطيل تجارتهم وتهديدهم فى مواصلاتهم ، بما نسميه فى عصرنا الحديث « بالحرب الإقتصادية » ، فإن ارتباك إقتصاديات قريش تؤثر دون شك على استعداداتها العسكرية المستمرة لمواجهة المسلمين ومحاربتهم ، فوق أنه يؤثر تأثيراً مباشراً على

معنوياتها ، بالإضافة إلى أن اعتراض القوافل دليل عملي على أن المسلمين في المدينة قد أصبحت لهم قوة تستطيع أن تثير المشاكل أمام قريش وتهدد مصالحها ، ولعل ظهور مثل هذه القوة على فترات زمنية يُلزم قريشاً بأن تعيد التفكير من جديد في علاقاتها مع الدعوة الجديدة والداخلين فيها ، سواء الذين يعيشون في مكة تحت الضغط والإرهاب ، أو الذين يعيشون في المدينة .

لقد نسي مارجوليوث ومن رأى رأيه ونطق بمنطقه أن رسول الله ترك ملوك العرب وأمراءها على إماراتهم وممالكهم ، وأنه عامل أعداءه وقت انتصاره معاملة طيبة نابعة من الخلق الإسلامي الكريم ، فيهود خيبر حين عرضوا أن يبقوا على أرضهم التي آلت للمسلمين بعد الفتح أبقاهم الرسول ، وكذلك فعل مع يهود وادي القرى ، فقد ترك الأرض والنخيل والبساتين في أيدي أهلها وعاملهم على نحو ما عامل به يهود خيبر .

أرسل رسول الله عمرو بن العاص إلى مملكة عمان ومعه كتاب إلى جيفر وعباد ابن الجلندى ملكا عمان جاء فيه « إن أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما » .

وما هو تعليق مارجوليوث على قرار العفو الشامل عن أهل مكة ، الذى صدر في وقت كان الرسول في قمة انتصاره ، وكانت قريش أمامه ذليلة منكسرة ، تفرّق عنها أعوانها ، ولم تكن تملك ماتدافع به عن نفسها ؟ ؟ كانت لاتعرف ماهو موقف المنتصر الذى قاسى منها في الماضي الكثير ، وماذا سيفعله بها وقد ملك زمام الموقف وأصبح سيده ، فلما فوجئت بالقرار الإنساني الحكيم لم تلبث أن قالت « أخ كريم وابن أخ كريم » .

لم يثبت فى تاريخ الإسلام فى الشام والعراق ومصر ، أن وضع المسلمون أيديهم على ممتلكات الناس فى هذه المناطق ، بل بقيت الأرض فى أيدى أصحابها يزرعونها ، وعارض عمر بن الخطاب بشدة فكرة توزيع أرض العراق على الجند ، وأصرّ على أن تبقى فى أيدى مزارعيها .

وخالد بن الوليد خاطب أهل الحيرة فقال لهم « إن تدخلوا فى ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا » ، وصالح بن نسطونا وقومه « إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا (من نواحى الكوفة) وباروسما (من سواد بغداد) على عشرة آلاف دينار . . . القوى على قدر قوته ، والمقل على قدر إقلاله » ، وكتب إلى مرازبة فارس « اسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدُّوا الجزية » .

وعمرو بن العاص تحدث إلى الأساقفة الذين بعث بهم المقوقس ليفاوضوه قبل موقعة بلبيس « نحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية و بذلنا له المنعة » ، ويقول لرسل المقوقس قبل موقعة بابليون « ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا ، وإما أبيتم فأعطيتم الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون ، وإما جاهدناكم بالصبر والقتال ، حتى يحكم الله بيننا وبينكم » .

وفى بلاد الشام طلب الأسقف صفرنيوس أن يسلم بيت المقدس للخليفة دون غيره ، وجاء عمر بنفسه وهو خليفة المسلمين ، وصالحهم ، وكان فى

إستطاعته أن يأمر قواته الإسلامية بدخول المدينة ، وكانت لديها إمكانيات التنفيذ ، وجاء فى كتاب الصلح « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ... إنه لا تسكن كنائسهم ولاتهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ، ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » ، وبذلك يكون عمر قد منح الأمن بالنسبة للنفس والعقيدة والرزق والمال .

ولقد نسى مارجوليوث ومن نطق بمنطقه أن الإسلام حمل عن الشعوب التى اندمجت فى دولته عبء الضرائب الباهظة الذى أثقل كاهلها يوم كانت تخضع لحكم الفرس وحكم الروم ، ورفع عنها الظلم الإجتماعى والنظام الطبقى ، ونشر فى أرجائها العدالة بأعمق وأوسع معانيها ، وهذب عواطف البشر ، وجعل الناس سواسية أحراراً فى عباداتهم ، إخوانا متساوين فى الحقوق متعادلين فى الواجبات .

ولعل خير ما نسوقه إلى مارجوليوث نظام الضرائب الذى أقره الإسلام فى مصر ، فقد كان هدف عمرو بن العاص نشر الرخاء فيها ومراعاة صالح الأهالى ، وإصلاح كافة النواحى الاجتماعية ، فوضع نظاماً طمأن القبط ، فأمنوا الحكم الجديد وسعدوا به ، واستعان عمرو بزعماء البلاد ، وكان يستشيرهم فى كل أمر ، وذكر ابن الحكم « إن زعماء الناس فى القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا فى حالة الزراعة ، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك » ، وكان إذا اجتمع شيء من المال فوق ما فُرض على قرية أو مدينة ، يُنفق هذا المال الزائد فى إصلاح أحوالها ، كما جعل فى كل بلد قطعة من الأرض

يخصص ريعها لإصلاح الأبنية والكنائس والحمامات والطرق ، وخفّض عمرو وطأة الضرائب ، وقيل إنه جبى اثنى عشر ألف دينار ، وقال المؤرخون إن هذا المبلغ كان أقل بكثير مما كان يجبيه المقوقس ومقداره عشرون ألف دينار ، وكان الروم يجبون من مصر ضرائب كثيرة متنوعة غير عادلة وفوق الطاقة ، ولكن عمرو بن العاص وحّد الضرائب ونظمها ، وجعلها فى ضوء قدرة دافعها ، وأعفى منها الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، والشيخ الفانى ، والنساء والرقيق والمساكين ، ونحن نضع أمام القراء وأمام مارجوليوث هذين القولين أحدهما للبطريق بنيامين الذى كان قد فرّ إلى الصحراء فبعث إليه عمرو وقد أحس بتعلق القبط به « ليأت البطريق الشيخ آمنا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين فى سواها ، لا ينالهم أذى ولا تُخفر لهم ذمة » ، وعاد بنيامين إلى الإسكندرية وقال لأتباعه « عدت إلى بلدى الإسكندرية فوجدت بها أمنا بعد خوف وإطمئنانا بعد البلاء » ، وثانى القولين لحنا النقيوسى وكان مشهوراً بكرهه للعرب وبغضه للمسلمين « لم يضع عمرو يده على شىء من ملك الكنائس ، ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغصب ، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة حياته » .

أما بالنسبة لما أثاره مارجوليوث عن أهل خيبر ، ففيه مجافاة لروح الصدق ، ولما ينبغى أن يتصف به العالِم من أمانة والباحث من دقة ، وحقيقة الموقف بين المسلمين ويهود خيبر كان يجب أن تكون تحت أنظار مارجوليوث وهو يدافع عنهم .. إن الواضح تاريخاً أن كبيرهم أسير بن رزام كان دائم الاتصال بقبائل اليهود فى الشمال والتى تسكن تيماء وفدك وأم القرى ، ليتعاونوا جميعاً للزحف على المدينة بعد أن فشل مسعاهم لدى غطفان

وكان يثير القبائل ضد المسلمين ويسعى لتأليب القوى ضدهم ، ودعا إلى تجميع قوى اليهود وتأليف جبهة منهم .

وأصبحت علاقة اليهود بالمسلمين تقوم على الضغائن والأحقاد التى لا تهدأ ولا تنتهى ، ولم يشأ رسول الله أن يسايرهم فى خصومتهم ، بل رأى أن يمد يده إليهم ، وأن يعطيهم فرصة مراجعة موقفهم ، وبعث وفداً عليه عبد الله بن رواحة ، ليفاوض زعيمهم أسير بن رزام ، وعرض عليه نبذ الحرب والتقارب بين الطرفين ، واستجاب أسير أول الأمر ، ثم خرج مع المسلمين فى ثلاثين من اليهود قاصداً رسولَ الله ، وفى الطريق غلبت طبيعة الغدر عندهم ، فهاجموا المسلمين ، ودار قتال قُتل فيه أسير وأصحابه إلا واحداً استطاع الهرب .

وتولى زعامة اليهود من بعده سلام بن مشكم ، فكان من رأيه ضرورة محاربة المسلمين ، وعلم رسول الله بما يدور فى خلدهم ، فما هو الدور المطلوب - من وجهة نظر مارجوليوث - من رسول الله ؟ ، إن الأمر يتطلب إعداداً وتحركا لمواجهة عدوان يُعد عليه .. إذن خيبر هى التى دفعت بالموقف إلى نقطة الصدام وكان لابد للمسلمين من أن يتجهزوا ويستعدوا ويخرجوا ، فإذا خرجوا للدفاع ولصد عدوان يدبر ضدهم اُتهموا بالخروج للسلب والنهب .. ثم أين مظاهر السلب والنهب بعد هزيمة يهود خيبر ، لقد تم الصلح على أساس أن يخرجوا منهـا ، ويخلوا بين رسول الله وبين كل ما كان لهم من أرض ومال وخيل وسلاح ، ولكنهم رغبوا عن الخروج ، فسألوا رسول الله أن يبقيهم ليعملوا فى الأرض ، وأن يكون لهم نصف الثمار وللرسول النصف ، قالوا « نحن أعلم بها منكم وأعمر لها » ، فأبقاهم الرسول

فى الأرض ، يعملون بها ، وصالحهم على النصف ، وبدات الشروط صالح رسول الله يهود فدك ووادى القرى وتيماء .

وكان المسلمون قد وضعوا أيديهم على صحائف من التوراة ، فطلبها اليهود من رسول الله ، فأمر بتسليمها لهم ، وعلّق على ذلك الدكتور إسرائيل ولفنسن « ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس الرسول من المكانة العالية ، مما جعل اليهود يشيرون إليه بالبنان ، ويحفظون له هذه اليد ، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ، لم يفعل رسول الله ما فعله الرومان حين فتحوا أورشليم سنة ٧٠ قبل الميلاد ، إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، ولم يفعل أيضاً ما فعله النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حيث أحرقوا صحف التوراة » .

لقد ذهبت المكابرة بهذا المستشرق إلى درجة أنه تجاهل كل ما كان للمسلمين من آثار إجتماعية وإقتصادية فى المناطق التى أصبحت جزءاً من دولتهم ، وتناسى كافة الحريات التى منحها المسلمون سواء فى العقيدة أو التجارة أو التنقل أو الرزق ، والمسلّم به منطقاً وعقلا أنه لا إستقرار لأى إنسان فى أى زمان أو مكان وهو لا يجد الأمن ولا يحس الحرية ويخشى على الرزق .

لقد سقنا فى مجال الرد على إدعائه بعضاً من الأمثلة ، وهى قطرة من محيط ، لو أنه طالعها ووقف على تفاصيلها ودقائقها ، ولم يكن سطحياً فى دراسته ، لكفى نفسه شر ارتكاب هذا الجرم فى حق الإسلام وحق المسلمين .

* * *

النقطة الثالثة

رأى قاله الكاتب الامريكى إيرفنج .

قال إن رسول الله أصدر ما أسماه بقانون الجبرية ، بعد هزيمة المسلمين فى أحد ، وكثرة القتلى فى صفوفهم . . وهذا الرأى ضعيف يبدو فيه التعصب الأعمى الذى حجب عنه الحقيقة فكأنما حجب عنه النور والضياء .

قال إن الرسول اعتمد اعتماداً كبيراً على الجبرية ضماناً لنجاح شئونه الحربية ، وبرر مذهبه هذا بأن كل حادث يقع فى الحياة قد سبق فى علم الله تقديره ، وكُتب فى لوح الخلد ، قبل أن يبرأ الله العالم ، وأن مصير الإنسان وساعة أجله قد حُددت ، ولا يمكن أن تتقدم أو تتأخر ، وقال إن المسلمين كانوا مؤمنين بهذا ، وإنهم خاضوا المعارك فى ظل هذه التعاليم ، دون أن ينال منهم خوف ، فما دام الموت فى المعارك هو عدل الاستشهاد ، فإن الثقة بالفوز فى حالتى الانتصار أو الاستشهاد هى التى كانت تدفع بهم إلى المعارك دون تردد ، وأوضح إيرفنج أن الرسول أوحى إليه بهذا المذهب فى الوقت المناسب بعد غزوة أُحد التى قتل فيها عدد غير قليل من المسلمين ومن بينهم حمزة ، والتى أدت هزيمتهم فيها إلى تحطيم معنوياتهم .

وإدّعى أن الرسول أنبأ قومه بأنه لا مفر من أن يموت الإنسان فى

---

(١) هو من مستشرقى القرن التاسع عشر وضع كتابا عن سيرة الرسول ، وكان منصفاً فى كثير من أجزائه ، ولكنه كان متحاملا فى بعض أجزائه ، وتحدث عن قواعد الإسلام كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأثار حديث الجبرية على أنها قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية .

ساعة أجله المحددة سواء فى ميدان القتال أو فى فراشه ، ومن خلال هذا المعنى ذهب إيرفنج إلى أن الرسول دفع بفئة من قومه جهلاء إلى الحرب تبغى الفىء إذا انتصرت والجنة إذا ماتت .

ولاشك فى أن إيرفنج قد أخطأ فى تفسيره ، ولم يعتمد على أبسط وسائل البحث العلمى ، فهو يعتبر الاستشهاد فى سبيل الحق هو الجبرية بعينها ، وهذا خلط وتشويه للحقيقة ، يؤكد أنه لم يتعمق فى دراسة روح الإسلام ، ولم يقف على أسس حضارته ، ونسى أن القرآن جعل من إرادة الإنسان وعمله مصدر مثوبته وعقابه ، وأن الناس مجزيون بعملهم وبالنية التى تصدر عنها هذه الأعمال ، فإن الله تبارك وتعالى دفع الناس ليسعوا فى الأرض وأمرهم بالجهاد فى سبيله .

وحاول إيرفنج أن يؤكد بهذا الرأى أن الإسلام دين تواكل وقعود ، لأنه لا فائدة من السعى طالما أن السعى معلق بإرادة الله ومشيئته ، وأن الإسلام يحب الزهد والخمول والقناعة والتواكل ، وينعى على الدنيا ومتاعها ، ويُعيب السعى فيها إدعاء بأن الله قد كفل الرزق ، وأيد وجهة نظره ببعض آيات من القرآن منها « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ، و « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ، و « ما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ، وإن الآيات التى استشهد بها إيرفنج آيات صحيحة فعلا ، وتدل حقاً على أن الرزق قد ضمنه الله ، ولكن هل فهم إيرفنج من تفسيره لهذه الآيات بأن الرزق يأتى المسلم وهو جالس دون عمل أو جهد أو بذل .. إن هذه الآيات لم تمنع المسلم من العمل الجاد المثمر سعياً وراء رزقه الذى يختلط بالعرق والجهد ، مثلها مثل آيات أخرى تقول « وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ

عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والْمُؤْمِنُونَ » [التوبة ١٠٥] ، و « فإذا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فى الأرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ » [الجمعة ١٩] ، و « هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » [الملك ١٥] ، و « فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ » [الشرح ٧] ، و « يا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ » [الانشقاق ٦] ، و « وإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ » [يونس ٤١] ، و « أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ » [آل عمران ١٩٥] ، و « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » [فاطر ١٠] ، و « فَنِعْمَ أَجْرَ العَامِلِين » [غافر ٧٤] .

ولا بد من التنبيه على الفرق بين التوكل والتواكل ...

فالمراد بالتوكل على الله أن يفوض المسلم الأمر إلى الله بعد أن يأخذ بالأسباب ويؤدى ما كلّف بأدائه فعليه أن يطيع الله عز وجل فى كل ما يأمره به وكل ما ينهاه عنه ، فعلا فى الأوامر وتركا فى النواهى ، دون مبالاة بالعواقب وسيتولى الله عز وجل تسديده وحفظه ما دام قد فوّض أمره إليه وأدّى ما فُرض عليه لأنه وكيله ، وحسبه وكالة الله عنه .

والتوكل بهذا المعنى يستلزم العمل وبذل الجهد بالأسباب ، أما التواكل فهو ينافى العمل وبذل الجهد ويقوم على انتظار النتائج دون الأخذ بالأسباب فالذى ـ والكلام هنا للكاتب العالم الأستاذ الدكتور مصطفى زيد[1] ـ

---

(١) كتاب سورة الأحزاب ط ١ (١٩٦٩) .

يزرع ويتعهد زرعه بالريّ والعناية ، ويسهر على مراقبته حتى ينضج فيؤتى ثماره ، متوكل على الله مفوض إليه النتائج ، والذى يلقى البذر فى الأرض ثم يدعه فلا يرويه ولا ينظفه ولا يرعاه من النباتات الطفيلية التى تعوق نموه ولا يسهر على مراقبته وحراسته ثم ينتظر أن يُؤتى أطيب الثمار متواكل مقصّر فيما يجب أداؤه .

إذن فالتواكل منهى عنه محظور على المؤمن ، لأن الإسلام دين حياة وعمل ، فلا نتيجة بلا أسباب ولا ثمار دون غرس وجهد وعرق .

ولا يختلف اثنان فى أن الإنسان لا يُخلى من مسئولياته إزاء الحياة والتكاليف المنوطة به فيها ، فهو إذن مطالب بأن يجهد جهده ويبلى بلاءه ، وأن يقدر ويفكر ويدبر ، ويعمل بالقدر الذى يسعفه به تفكيره ويحتمله جهده ، وفى الحديث الشريف كما رواه مسلم « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل قدّر الله وماشاء الله فعل » .

عاش رسول الله وهو القدوة والمثل طول عمره عاملا مجداً صادقاً أميناً ، عمل بالتجارة ، وسافر خارج مكة ، ومشى فى الأسواق ، وكان يدعو رجاله إلى العمل بمختلف أنواعه زراعة أو تجارة ، ورُوى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » ، و « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده » ، و « باكروا الغد فى طلب الرزق فإن الغدو بركة ونجاح »

وكذلك كان الصحابة الأولون يسعون فى طلب الرزق ، فكان أبوبكر يعمل فى تجارة الأقمشة ، وخرج بعد توليه الخلافة إلى السوق فمنعه عمر والصحابة فسألهم « وممأنفق على أهلى ؟ إنى إن أضعتهم فأنا للمسلمين أضيع » ففرضوا له من بيت المال مايغنيه عن التجارة ويكفى أهله حتى يتفرغ لمسئولياته .

وكان عمر يعمل ويقول « لايقعد أحدكم عن طلب الرزق » ، ويقول « اللهم ارزقنى ، فإن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة » .

وكان عثمان تاجراً جمع من تجارته مالا كثيراً كان ينفقه على المسلمين ، فجهّز جيش العسرة ، واشترى بئر رومة من يهودى ووهبها للمسلمين .

وكذلك كان علىّ ، وكان المسلمون جميعاً ، لم يرضوا لأنفسهم الكسل والخمول والعجز والتخاذل .

وإذا كان هذا هو منهج المسلمين فى حياتهم الخاصة ، فما لاشك فيه أنهم فى حياتهم العامة التى تتصل بالإسلام ، كانوا أكثر إقبالا وتحمساً وجرأة ، فإن الجهاد فى سبيل الله تجارة ربحها كبير ومكسبها وفير ، ولهذا كانوا يتسابقون إلى الخروج حتى المرضى والنساء ومن لم يبلغ الحلم ، كانوا جميعاً يحسون بواجبهم حيال دينهم ورسالة ربهم ، كانوا يسعون إلى الجهاد أملا فى نصر يعز به الإسلام أو شهادة ينالون بها الجنة ، كانوا يرجون التضحية بالنفس من أجل إعلاء كلمة الله ، لم يرهبوا الموت ، ولم يبخلوا بمال فى تعزيز الحق ، وتشييد المجد ، وإقامة البنيان الإسلامى شامخاً عزيزاً كريماً .

كانوا إذا دُعوا للخروج خرجوا مسرعين فرحين مؤمنين كل الإيمان بقول الحق تبارك وتعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ » [الصف ١١-١٢] و « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ والقُرْآنِ * وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ » [التوبة : ١١١] .

إذن أمام هذه المكاسب العظيمة التى وعد الله بها عباده المؤمنين ، لم يكن المسلمون فى حاجة أبداً إلى الجبرية ، لأنهم دخلوا الإسلام عن إيمان واقتناع وبعد دراسة وتفكير ، ولأنهم مطالبون بالعمل الجاد المثمر ، ومكلفون بالجهاد الشريف من أجل نشر تعاليم الإسلام والدفاع عنها حتى تبلغ الناس كافة ، ومن أجل المحافظة على وجودهم وكيانهم .

قال أنس بن النضر « يارسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، والله لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرينّ الله ما أصنع » .

وقال النعمان بن مالك « يارسول الله لاتحرمنا الجنــة ، فوالذى نفسى بيده لأدخلنها » .

وقال عبادة بن الصامت « إنى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله وفى اتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلب للاستكثار منها ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يسد بها جوعه وشملة يلتحفها، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة » .

والأقوال كثيرة .

ولكن فى قول هؤلاء رد كاف على إدعاء إيرفنج .

* * *

وقبل أن ننهى ردنا على هؤلاء المستشرقين لابد لنا من أن نشير إلى أن بعضاً منهم قد أطلق اسم آية السيف على قول الله تبارك وتعالى فى سورة التوبة (٣٦) « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » ، وقالوا إن هذه الآية أوجبت القتال إطلاقا ، وأنها نسخت كل الآيات التى منعت العدوان من جانب المسلمين ودعت للقتال حين تقوم دواعيه ، وقالوا فيما قالوه إن هذه الآية جعلت المشركين جميعاً جبهة واحدة معادية وجب قتالها والتصدى لها بصفة دائمة ومستمرة ، وتغافل هؤلاء عن حقيقة واضحة وهى أن المشركين كما جاء فى الآية الكريمة كانوا يقاتلون المسلمين بكافة قواهم ، ويبذلون كل جهد ممكن ومستطاع من أجل تكتيل القوات المعادية لتكون الضربة قاصمة قاضية ، ومن هنا أصبح من حق المسلمين أن يجمعوا شملهم، ويوحّدوا قواهم ، ويقابلوهم كافة ، ويقاتلوهم بكل ماملكت أيديهم وماتوافرت لديهم من قوى

وعزائم ، على أن يلتزموا فى قتالهم بكل ما جاء من توجيهات فى آيات القرآن ، لأن هذه التوجيهات ليست من وضع بشر ، ولكنها صادرة من الله تبارك وتعالى ، لحكمة أرادها سبحانه ، ولهذا وجب على كل مسلم الالتزام بها ، والعمل فى حدودها وعدم الخروج عليها .

* * *

وأخيراً ..

إذا كنا قد عرضنا الآراء المناهضة للإسلام التى نادى بها عدد من المستشرقين الذين جعلوا أقلامهم أداة لهدم الإسلام كما صوّر لهم تفكيرهم القاصر وتعصبهم الأعمى ، فإننا لا ننكر أبداً ـ كما سبق القول ـ جهوداً أخرى قام بها عدد من المستشرقين وقفوا إلى جانب الإسلام ، ودافعوا عنه ، وردّوا على مزاعم الآخرين ، واعترفوا فى مؤلفاتهم العديدة بقيمة وعظمة وروعة ما دعا إليه ديناً ومنهجاً وحياة ..

وعلى رأس هؤلاء توماس كارليل ، ووليم موير ، وجوستاف لوبون ، وإميل درمنجم ، وليون روش ، وريتشارد وود ، وتوماس أرنولد ، وجيمس متشنر ، وبارتملى شتيلر ، وكلود فارير ، والكونت هنرى دى كاسترى ، وجان جاك روسو ، وآخرون » .

كانوا هؤلاء صادقين مع أنفسهم ومع بحوثهم ، فكتبوا بصدق ما يؤكد إخلاصهم للبحث العلمى وكتابة التاريخ .

ونحن نكتفى بسرد بعض من أقوال هؤلاء ، مركزين على ما أثاره

الأب لامانس ، من أن الإسلام انتشر بالسيف ، لأننا نرى فى هذا الادعاء ركيزة الهجوم الرئيسى على فكرة الحرب فى القرآن

قال جوستاف لوبون

« وسيرى القارىء حين نبحث فى فتوح العرب وأسباب انتصارهم أن القوة لم تكن عاملا فى انتشار القرآن ، فقد ترك العرب الفاتحون المغلوبين أحراراً فى أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام من النصارى الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم ، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التى لم يعرفوها من قبل ، والتاريخ أثبت أن الأديان لا تُفرض بالقوة ، فعندما قهر النصارى عرب الأندلس فضّل هؤلاء الطرد والقتل عن آخرهم على ترك الإسلام ... إن الإسلام لم ينتشر بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها » .

وقال ويفالنج لنجرميش

« إن القرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة ، والدليل قوى على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ، مادام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية ، ولاشك فى أن حروباً قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود ، وفى بعض الأحيان كان سبب ذلك أن أهل الديانات الأخرى أصروا على القتال ، وفى القرآن آيات تصور العنف الذى استخدم فى هذه الحروب ، ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة وكانوا أحراراً فى عباداتهم » .

وقال السير ريتشارد وود

« إن من أكبر بواعث سوء التفاهم بين أوربا والإسلام ، هو انتشار الظن فى أوروبا بأن الإسلام دين القوة والسيف ، ولكن هذا الظن مخالف فى الواقع لماجاء فى القرآن « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا » [البقرة : ١٩٠] .

وقال ريفونويت

« إنه من الحماقة أن نظن أن الإسلام قام بحد السيف وحده ، لأن هذا الدين الذى يهدى للتى هى أقوم ، يحرّم سفك الدماء ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر » .

وقال جان جاك روسو

« من الناس الأوربيين من لو سمع محمداً يمليه (يقصد القرآن) على الناس بتلك اللغة الفصحى ـ لغة القرآن ـ وبصوته المشع المقنع الذى يطرب الآذان ويؤثر فى شغاف القلوب ، ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان وما أوتى من بلاغة اللسان ، لخرّ ساجداً على الأرض ، وناداه قائلا : أيها النبى رسول الله خذ بيدنا إلى موقف الشرف والفخار ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار »

وقال غاندى

« قد غدوت مقتنعاً كل الاقتناع أنه ليس السيف هو الذى جعل للإسلام مكانة فى معترك الحياة ، بل إن بساطة النبى التامة ، وإنكاره الكلى لذاته ،

واحترامه الدقيق لعهوده ، وإخلاصه الشديد لأصدقائه وأتباعه ، وشجاعته وبساطته وثقته الكاملة بالله ورسالته ، هذه هى التى جرفت كل شىء أمام المسلمين لا السيف » .

وقال برنارد شو

« إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد ، وبدأت تعشق دينه ، كما أنها ستبرىء العقيدة الإسلامية مما اتهمتها بها من أراجيف أوروبا فى العصور الوسطى ، وسيكون دين محمد هو النظام الذى تؤسس عليه دعائم السلام والسعادة ، ويستند على فلسفته فى حل المعضلات وفك المشكلات وحل العقد ، إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم الحكم المطلق فى العالم بأجمعه اليوم ، لتم له النجاح فى حكمه ، ولقاد العالم إلى الخير ، وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة » .

وصدق هؤلاء

وكذب الآخرون .

من هم الأعداء الذين واجهوا المسلمين ؟

ولماذا واجهوهم ؟ وكيف ؟

وما هو أسلوب المسلمين فى هذه المواجهة ؟

كان أول هؤلاء الأعداء

قريش

ثم . . القبائل العربية فى الحجاز ونجد

ثم . . اليهود

ثم . . الأعداء خارج الجزيرة

ثم . . المرتدون

أولا . . . . قريش

بدأت الدعوة الإسلامية فى مكة .

بدأها الرسول سرا ، وكانت السيدة خديجة أول من أسلم ، ثم على ، ثم زيد بن حارثة ، وأبو بكر ، ثم خمسة عشر رجلا من أشراف قريش ، منهم عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير ابن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبيد بن الحارث ، وجعفر بن عبد المطلب .

ثم جاء الأمر الإلهى « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ » و « أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ »   [الشعراء ٢١٤ / ٢١٦]

وبدأ الرسول يدعو جهراً « ما أعلم إنسانا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني على القيام به ؟ »

وثارت قريش . . وقاد ثورتها عبد العزّى بن عبد المطلب عم النبي « أبو لهب » وهو رجل من سراة قريش ، كثير المال مسموع الكلمة شديد التعصب لدين قريش ولتقاليدها ، حريص على أن يظل هذا الدين مرعيّ الجانب موفور الكرامة .

ثار أبو لهب وصاح في قومه ـ وكان رسول الله قد دعاهم ليعرض عليهم دعوته ـ قائلا « هذه والله السوأة (العار) ، خذوا على يديه (أى امنعوه مما يريد) قبل أن يأخذ على يده غيركم ، فإن اسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قُتلتم » .

وحاولت أخته صفية ـ إحدى عمات النبي ـ أن تهدىء من ثورته فسألته « أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟ ألا يسرك أن يخرج من ضئضئ (أصل) عبد المطلب نبي ؟ » فثار عليها وقال « هذا والله الباطل والخيال ، كلام النساء في الحجال (في مراجع أخرى وكلام ربات الحجال) » .

ثارت إذن قريش ، وقريش حين تثور يكون لذلك الأثر الكبير لا في محيط قريش وحدها ، ولكن في محيط العرب جميعاً ، ذلك أن قريشا هي القبيلة القوية صاحبة القوة والسلطان في مكة ، وهي كما استقر في أذهان العرب جميعاً أهل الحرم ، وللحرم مكانة في نفوس العرب جميعاً ، ولهذا كان العرب

يعظمون قريشا ويعترفون لها بالسيادة ، ومن ثمّ أصبحت لها سيادة مطلقة ومكانة مرموقة وحياة آمنة مطمئنة .

وفى ظل هذا الوضع الاجتماعى اشتغل أهلها بالتجارة ، وإشتهروا بأنهم تجار العرب ، وعن طريق التجارة أثرت بيوت كثيرة ، وأكسبتهم التجارة علما بالأحوال السياسية والاجتماعية للأمم المجاورة ، كما أكسبتهم خبرة وجرأة ودراية بالطرق والمسالك .

ونظرا لمكانتها بين القبائل فقد تقاسمت البطون الكبرى منها المناصب فى مكة ، فاختص بنو هاشم بالسقاية ، وبنو سهم بجباية الأموال، وبنو عدى بالسفارة ، وبنو مخزوم بالقبة يضربونها ليجمعوا فيها ما يجهزون به الجيش وكانت لهم أيضاً الأعنّة أى قيادة الفرسان ، وبنو أمية بالعقاب ، وبنو تيم بالديات والمغارم ، وبنو نوفل بالرفادة (أى إعانه الحاج بالمال) ، وبنو عبد الدار بالسدانة والحجابة والندوة واللواء ، وبنو أسد بالمشورة ، وبنو جمح بالأزلام والأيسار .

وكانت لقريش قوة لا يستهان بها ، وكان فى استطاعتها أن تعبئ خمسة آلاف مقاتل كاملى الاستعداد بالسلاح مزودين بقوة كافية من الفرسان فضلا عن وفرة المؤن ووسائل الإنتقال ، ومعاهدات الصداقة التى كانت بينها وبين القبائل العربية التى عُهد إليها تأمين طرق التجارة فلا تتعرض قوافلها للسلب أو للنهب .

وكانت لقريش قوة أخرى تمثلها طبقة العبيد ، وهؤلاء يعملون فى خدمة سادتهم دون مقابل ، ليس لهم حق فى أية حرية شخصية ، لأنهم ملك خالص

للسادة ، يعيشون فى ظلهم ويتبعونهم دون رأى ، ويطيعونهم فى كل أمر .. وهؤلاء العبيد كانوا رجال حرب ، فهم إذن قوة مقاتلة لها شأنها ويحسب حسابها ، ومنهم أبو رافع ، وبلال ، وعامر بن فهيرة ، ووحشى قاتل حمزة ، وصؤاب الذى حمل لواء قريش يوم أحد .

وكانت هناك قوة أخرى متحالفة مع قريش ولها وزنها القتالى هى قوة الأحابيش ، وكانت قريش تستخدم هذه القوة للدفاع عن نفسها وقوافلها ، وذكر ابن إسحاق أن الأحابيش هم حلف قوامه أحياء من عرب كنانة والهون بن خزيمة ، وأنهم ينزلون فى تهامة غرب الحجاز ناحية البحر ... وكانت قريش تحترم الأحابيش لحاجتها إلى قوتهم ، وكانت تعاملهم معاملة الحليف .

قلنا إن قريشاً ثارت حين علمت بأمر الدعوة الجديدة .. ثارت وغضبت ، وقررت أن تقاومها وتناهضها ، وأن تعمل على تقويضها وتدميرها ، وأن تثير أمامها الصعوبات ، وأن تعامل المؤمنين بها بقسوة وعنف ، واتخذت فى سبيل ذلك وسائل كثيرة وأساليب متعددة ، فلجأت إلى الإيذاء والتعذيب والتنكيل ومصادرة أموال المهاجرين منهم ، هذا فوق أنها أثارت القبائل ضدهم ، واستأجرت الشعراء لمهاجمة المسلمين وتجريح الإسلام ، وإثارة الناس ضد الرسول وصحبه ... وبلغ عداء قريش حد التفكير فى قتل رسول الله والتخلص منه .

ويقفز إلى الأذهان سؤال ...

لماذا وقفت قريش هذا الموقف من الإسلام ؟

ونحاول أن نستخلص الإجابة من واقع التاريخ ...

١ — عاشت قريش فترة طويلة من حياتها غارقة فى الشرك تعبد الأصنام والأوثان ، عاكفة على شرب الخمر ولعب الميسر ، وقد وصف موزورث سميث حياتها فقال « كان القرشيون ماديين على مبدأ كل واشرب ، لم يكن لديهم إيمان أو شعور بالمسئولية ، تفشى الجهل بينهم حتى إن أعرق الناس شرفاً كان يعد الجهل مفخرة ، وكانت الرذيلة متفشية والروابط الجنسية منحلة ، وما كان الزانى يلقى عقاباً ، ولم يكن للمعنويات عندهم معيار ، ولم يكن البغاء بالأمر الذى يخدش الشرف ، إلى حد أن رجالا من الأعلام البارزين لم يجدوا غضاضة فى إدارة المواخير ، وكانت النساء فى الدرك الأسفل من الحطة ، فلم يقم لهن وزن إلا من ناحية أنهن متاع » .

إن موزورث يرسم صورة حقيقية للحياة التى كانت تعيشها قريش قبل الدعوة ، فلما جاء الإسلام هادياً ومبشراً ومصلحاً يقودهم إلى حياة جديدة نظيفة مشرقة ، لا فسق فيها ولا فجور ولا إثم ولا عدوان ، ويأخذ بأيديهم إلى طريق قويم فيه تقوى وهدى وصلاح ، ويحفظ لهم كرامتهم وكيانهم ووجودهم ، ويطهر حياتهم من العادات الذميمة ، ويرتقى بهم إلى مستوى الحب والأخوة والسلام ، لم يكن من السهل أن يجد لديهم قبولا ، لأن الجديد سيطغى على القديم ، فتتغير حياتهم التى يعيشونها وتتجدد ، بينما هم قد تعودوا على المجتمع الفاسد المنحل الذى لا ضابط فيه ولا رابط ، ولا مكان فيه للضمير ، ولا وجود فيه للقيم .

وكان لا بد أن يقع الصدام بين عاداتهم وتقاليدهم ، وبين المبادىء الجديدة التى حملها إليهم الإسلام ودعاهم إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ — وقريش كانت تعيش فى مجتمع يقوم أساساً على فئتين سادة وعبيد ، وانتشر الرق والعبودية فى هذا المجتمع بصورة تبعد عن الإنسانية وتتعارض مع طبيعة البشر ، فالعبيد يعيشون فى ظل سادتهم لا إرادة لهم ولا رأى ولا كيان ولا وجود ولا شىء على الإطلاق ، السيد هو كل شىء وعبده لا شىء ، ليس عليه سوى الطاعة العمياء لمن يملك حياته ويتصرف فيها حسب إرادته دون رقيب أو حساب .

وجاءت دعوة الإسلام لتصحح هذا الوضع الخاطىء فى المجتمع العربى ، فنادت بالمساواة المطلقة بين الناس ، وبإلغاء الطبقية وتحقيق العدالة ، فلا وجود لسيد أو عبد ، والكل سواسية كأسنان المشط ، لا فرق بين هذا وذاك إلا بالتقوى والعمل الصالح ، لكل حقه وعليه واجبه ، يأخذ حقه ويقوم بواجبه ، يتميز الواحد بمدى إيمانه وصدق خضوعه لله ، لا بمال أو جاه أو سلطان .. أراد الإسلام أن يشعر الناس بأن الإخاء الصادق هو الذى يجمعهم ويؤلف بينهم ، إخاء يقوم على تقدير سليم ونظر حر وتدبر يفرضه القرآن .

وأذهلت هذه الدعوة إلى المساواة قريشا ، وهالهم أن يسمعوا « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُم » (الحجرات : ١٣) ، ورنت فى آذانهم كنغمة نشاز .. ولم ترق الصورة الجديدة لتشكيل المجتمع إلى مستوى القبول ، فكيف يتصور قرشى أن يعيش مع الآخرين أخوة متساوين فى صعيد واحد ، لا فرق بين سيد وعبد ؟ وكيف يقتنع بأن يعيش السادة مع عبيدهم دون سلطان أو أوامر

أو فارق ؟ وكيف يرضى أن يكون للعبد ما لسيده من حرية ورأى وحياة وعقيدة وحقوق ، يقول نعم إذا أراد ، ويقول لا إذا أراد ، دون خوف من عذاب أو تنكيل ؟

وكان لابد من أن يقع الصدام بين مجتمع الطبقية ومجتمع المساواة

٣ — وكانت قريش ومعها العرب جميعاً ينتظرون نبياً جديداً ، وكانوا يعلمون أن إسمه هو محمد .. وكانت غاية آمال سادة قريش أن يكون النبي المنتظر منهم ، وأن تكون النبوة فيهم ، وتمنى كل واحد منهم أن يكون النبي القادم من نسله وذريته ، ولهذا كان كل واحد منهم ، يطلق اسم محمد على من يرزق به من أبناء على حد قول صاحب الروض الأنف .. « لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم وبقرب زمانه وأنه يبعث من الحجاز أن يكون ولداً لهم وهم محمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن الجلاح ابن الحريش ، ومحمد بن ربيعة ... كان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده من علم الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبي وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف إمرأته حاملا ، فنذر إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً ، وفعلوا ذلك » .

فلما نزل الوحى على رسول الله محمد بن عبدالله وهو يتيم الأب والأم ، فقير في المال لا حول له ولا قوة ، ثارت قريش وهاج سادتها ... أمية بن الصلت كان يطمع في النبوة وحين لم ينزل عليه الوحى أكلت الغيرة قلبه فعارض الدعوة .. الوليد بن المغيرة أفصح عن حقده الدفين بقوله « أينزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود بن عمرو الثقفي سيد

ثقيف ونحن عظيما القريتين » . . . وأبو جهل غضب حين سمع برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقال « والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه » .

ووقفت قريش ضد الرسول لأنه خرج من فرع فقير وهم أغنياء

٤ — وكانت قريش تستمع إلى ما جاء به الرسول وتناقشه فيما بينها . . وكان من الأمور الجوهرية التى ناقشتها موضوع الحساب والعقاب ، فقد فزع القرشيون من فكرة البعث وعذاب جهنم يوم الحساب، وأدركوا أنهم مطالبون بتحريم كل شيء فى حياتهم .. الربا .. السلب .. النهب .. الفحشاء .. الموبقات . . الخمر . . الميسر . . كل الرذائل التى كانوا يزعمون أن أصنامهم حين يتقربون إليها تكفر لهم عنها .

وكانت فكرة البعث ثم الحساب والعقاب جديدة على تفكيرهم ، ففزعت قلوبهم ، وارتعدت فرائصهم ، وهالهم ذكر النار التى أعدت للكافرين ، وأغضبهم أن عملهم فى الحياة محسوب عليهم .

هذه المبادئ الجديدة التى أعلنها الرسول فى يقين حازم كانت تبعث فى قلوبهم القلق والاضطراب ، ولكنهم رغم هـــذا أخلدوا إلى ما كانوا فيه من ضلال ، وظل الرسول يدعو بدعوته وينذر القوم ويلقى فى مسامعهم بآيات القرآن وتوجيهات الله تبارك وتعالى ، ﴿ القَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالفَرَاشِ المَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالعِهْنِ المَنفُوشِ ﴾ (القارعة ١/٤) . . و﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج : ١) . . و ﴿ فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ • يَوْمَ يَفِرُّ

المَرْءُ مِن أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ ﴾ (عبس ٣٣ / ٤٢) . . . و ﴿ وَيَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَالَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ العَظِيمِ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ . فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ . وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ . لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخَاطِئُونَ» (الحاقة ١٨ / ٣٦) ... و « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ . وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَالَدَيَّ عَتِيدٌ . أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي العَذَابِ الشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ . قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالوَعِيدِ .

مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » (ق ٢١ /٣٠) و « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهَا جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً » (النساء ٥٦ /٥٧)

كانت الحياة عند القرشيين غاية ليس وراءها غاية ، فكانوا يستمتعون بها قدر ما يستطيعون ، وكان المستقبل غيباً محجوباً عنهم ، ولهذا كانوا ينحرون للأوثان ويتقربون إليها أملاً فى العفو والسماح ونسيان المعصيات التى يرتكبونها والتكفير عنها ، ولهذا كانت الآيات وكانت فكرة الحساب كالسياط تهوى على أجسادهم تفزعهم وتروعهم ، ولهذا عارضوا الدعوة حتى لا تظل قلوبهم فزعة من هول ما يسمعون .

ومن هنا كان لابد من أن يقع الصدام بين الحفاظ على حياة يعيشونها وبين الخوف من حساب يخشونه .

٥ — وكانت قريش تعبد الأصنام وتعظمها ، ولم يكتف القرشيون بالأصنام التى امتلأت بها جوانب الكعبة ، بل كان الواحد منهم يحتفظ فى بيته بصنم ، وكانت لهم فى عبادة الأصنام أفانين شتى .. كان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة ، وكانت هذه الأصنام تختلف ما بين الصنم والوثن والنصب ، وكان هُبل هو كبير آلهة العرب ، وكان مقره فى الكعبة ، وكان

الناس يحجون إليه . . وكانت هذه الأصنام هي الوسيط بينهم وبين الإله الأكبر ، وكانوا مع هذا يعتبرون عبادتها زلفى يتقربون بها إلى الله ، وإن كانوا في غمرة عبادة الأصنام نسوا الله ونسوا عبادته . . . دخل أبو لهب على أبي أحيحة عندما مرض مرضه الأخير فوجده يبكي فسأله « ما يبكيك ؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه » ، فأجابه « لا ، ولكني أخاف ألا تعبد العزى بعدي » ، فقال له أبو لهب « والله لا تُترك عبادتها لموتك » .

وجاء الإسلام ليهدم هذه العبادة ويقضي عليها ، ويزيل الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق لا ترزق ، ودعا إلى عبادة الله الواحد القهار وترك عبادة الأصنام التي استوردها عمرو بن لحي الخزاعي من مدينة البلقاء بالشام . فكانت الدعوة الجديدة تقوم على أنقاض الديانة السائدة التي آمنت بها قريش ، وآمن بها من قبل آباؤهم وأجدادهم ... ووقف القرشيون يدافعون عن دين الآباء والأجداد ويذودون عن أصنامهم ويعارضون الدين الجديد الذي عاب آلهتهم .

وكان لا بد من أن يقع الصدام بين دين يتمسك بالأصنام ودين يدعو إلى عبادة الله الواحد القهار

ووقع الصدام فعلا بين قريش والمسلمين منذ اللحظة الأولى للدعوة .

بدأ بالهجوم على الإسلام وتسفيه ما جاء به ، بالتعذيب والعدوان على المسلمين ، ثم بالتعرض للرسول وإيذائه ، بالمقاطعة ، ثم بالإتفاق على قتله ، فلما هاجر الرسول إلى المدينة لم يعد هناك مناص من الصدام المسلح الذي بدأ في بدر . . . وانتهى بدخول المسلمين مكة .

وكانت مراحل الدعوة تقوم على ثلاثة أحوال بدأت بالسلبية المطلقة المتمثلة فى تحمل التعذيب والصبر على الإيذاء ، وتطورت إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة ثم إلى المدينة بحثاً عن الجو الملائم ، وانتهت بالاقتناع بضرورة الدفاع عن النفس والعقيدة ... فكان الإذن بحمل السلاح والمواجهة ، وكان الصدام المسلح .

ثانياً ... القبائل العربية الأخرى

كانت هناك قبائل عربية أخرى تنتشر فى أرجاء الجزيرة العربية .

وكانت هذه القبائل تخشى قوة قريش وتضعها فى الحسبان .

وكانت هى الأخرى تعبد الأوثان ، وبلغ مسامعها نبأ الدعوة الجديدة التى قامت فى مكة ، وبلغ مسامعها أيضاً الصراع العنيف بين الدعوة الجديدة وبين قريش ، وكانت تتابع الأنباء فى حذر ، وترقب الأحداث فى حيطة ، فإن ما يصل إلى أسماعهم من تعاليم الدين الجديد ومبادئه لم يكن واضحاً إلى الحد الذى يجعلهم يؤمنون به ويدخلون فيه ، هذا فوق أنهم كانوا يحرصون على أن تبقى علاقاتهم مع قريش طيبة .

وكان العرب من هذه القبائل يترددون على مكة فى مناسبات مختلفة ،

وفى مواسم متعددة ، وكان يتم فيها لقاؤهم مع رسول الله ، فيعرض عليهم الدين الجديد ويدعوهم إليه ويسألهم أن يؤمنوا به وأن يصدقوه ، إلا أن رجالات قريش كانوا لهم بالمرصاد ، خشية أن تؤدى اتصالاته بهم إلى استجابة تزيده قوة وتضعف مركزهم ، وكان أبو لهب أكثر قريش نشاطا ، يحرض الناس حتى لا يستمعوا إليه ، ويدعوهم أن يسدوا آذانهم لما يقوله محمد وأصحابه ، وأن يغلقوا قلوبهم لما يدعو إليه .

ولقد أشرنا من قبل إلى قصة حضور الطفيل وتحذير قريش له وتشويهها لدعوته وإساءتها إلى دينه .

روى ابن إسحاق عن ربيعة بن عباد الدؤلى أنه قال « إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ماتعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى ، وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به ، قال : وخلفه رجل وضىء له غديرتان عليه حـلّة عدنيّة ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ، قال ذلك الرجل : يا بنى فلان إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللّات والعُزّى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أُقيس إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه ، قال: فقلت لأبى: ياأبت من هذا الذى يتبعه ويرد عليه مايقول ؟، قال: هذا عمه عبد العزّى بن عبد المطلب أبو لهب » .

وروى البيهقى عن رجل من كنانة قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسوق ذى المجاز وهو يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وإذا رجل خلفه يسفى عليه التراب ، فإذا هو أبو جهل وهو يقول: ياأيها الناس لا يغرّنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللّات والعزّى » .

وقال موسى بن عقبة عن الزُّهْرى « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤوه ويمنعوه ، ويقول: لا أكره أحداً منكم على شىء ، من رضى منكم بالذى أدعو إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه ، إنما أريد أن تحرزونى فيما يراد لى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى ، وحتى يقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء » .

ولم ينتظر رسول الله أن تأتى القبائل إلى مكة ، فكان يخرج إليها فى مواقعها ، يعرض عليهم دعوته ، ويدعوهم إلى نصرته ... قصد كندة ، وكلبا ، وبنى حنيفة ، وبنى عامر بن صعصعة ، وتأثرت كافة القبائل بسعى قريش ، فكل قبيلة عرض عليها الرسول دعوته رفضتها ، اللهم إلا بنى عامر من صعصعة فقد أرادت أن تقبل الدعوة بشرط رفضه رسول الله ، قال ابن إسحاق : وحدثنى الزهرى أنه قال : أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم يقال له بَيْحَرة بن فراس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر

من بعدك ؟ ، قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، قال فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه » .

وكانت ثقيف أشد القبائل عنفاً مع رسول الله ، فقد لجأ إليهم يلتمس عندهم النصرة والمنعة ، ويرجو إسلامهم ، وكانت الطائف - مقرهم ومنزلهم - مركزاً لعبادة اللّات ، وكان يحج إليها ، فلو أنها تابعت الرسول فقدت اللّات مكانتها ، وقامت بين ثقيف وقريش عداوة يكون لها أثر يضر باقتصاديات الطائف ، لأنها مصيف أهل مكة ، لهذا أبت ثقيف أن تسمع منه ، فقد عمد رسول الله إلى عبد ياليل بن عمرو وأخيه مسعود بن عمرو وأخيه الثانى حبيب بن عمرو ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جُمَح ، وجلس إليهم وتحدث معهم وكلمهم فيما جاءهم به من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم « هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك » ، وقال الثانى « أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! » ، وقال الثالث « والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك » . وتركهم رسول الله وهو يائس منهم « إذا فعلتم مافعلتم فاكتموا عنى » ولكنهم لم يفعلوا بل أغروا سفهاءهم وعبيدهم فسبوه وصاحوا به وآذوه ، فاتجه وهو فى هذا الموقف العصيب إلى ربه يخاطبه قائلا « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو

ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكنّ عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولاحول ولاقوة إلا بك » .

وإذا كانت ثقيف قد أساءت إلى رسول الله ، فإن وفداً من الخزرج لقيه عليه السلام ، وكأن الله أراد أن يعوضه خيراً من ثقيف ، عرض الرسول على الوفد الإسلام ودعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض « يا قوم تعلموا والله إنه للنبى الذى توعّدكم به يهود[1] ولا يسبقنكم إليه » ، فأجابوه وصدّقوه وقبلوا دعوته ، وقالوا له « إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك » .

وكان هذا القبول بداية لحياة أرحب وأعظم للدعوة وللداعى وللمسلمين جميعاً ، إذ أنهم بعودتهم إلى المدينة ذكروا لقومهم لقاءهم لرسول الله ، ودعوته لهم إلى الإسلام فلم تبق دار من دور الأنصار فى المدينة إلا وفيها ذكر رسول الله ، ثم كانت بيعة العقبة الأولى ، وسفارة مصعب بن عمير ، وإسلام أسيد ابن حضير ، وسعد بن معاذ وهما يومئذ سيدا قومهما .

---

(١) كان يهود المدينة إذا وقع خلاف بينهم وبين الأنصار يقولون لهم « إن نبيا مبعوثا الآن ، قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

ثم كانت البيعة الثانية بالعقبة التى حضرها ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، وبايعوا فيها على حرب الأحمر والأسود ، وجعل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوفاء بذلك الجنة ، ثم كانت الهجرة ، ثم تتابعت بعد ذلك الأحداث ، حتى عمّ الإسلام الجزيرة كلها . . .

وهناك سؤال يطرح نفسه

لماذا كان هذا الموقف من القبائل العربية الرافضة ؟

وماذا استفادت الدعوة من عروض الرسول المستمرة ؟

الحقيقة إن أكثر القبائل كانت تميل إلى موادعة قريش ومجاملتها ، وخشيت إن هى قبلت الدعوة أن تثور العداوة بينها وبين قريش ، وخاصة أن جهود قريش كانت مكثفة ومركزة وعنيفة ، حتى أن أكثر القبائل كانت تنظر إلى رسول الله كعدو لها .

ولكن لكل عملة وجهين ، فإذا كان تأثير قريش على القبائل أدى إلى رفضها دعوة الرسول ، فهذا وجه ، أما الوجه الآخر ، فإن جهود قريش رغم أنها كانت ذات آثار وقتية ، إلا أنها لم تستطع أن تحول بين الدعوة وبين الظهور ، فإن المناقشات التى دارت خلال اللقاءات لم تنته بانتهاء هذه اللقاءات ، بل استمرت واستكملت حين انفردت القبائل بنفسها ، فكانت تناقش الدعوة والداعى ، لم يكن إذن كيد قريش ومسعاهم شراً بل كان شراً

يحمل خيراً . . قلنا إن بنى عامر بن صعصعة أبوا ماعرضه عليهم الرسول ، وقد حدث أن رجعوا إلى شيخ لهم كبير السن ، فقالوا له كما جاء فى رواية ابن إسحاق « جاءنا فتى من قريش يزعم أنه نبى ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، فوضع الشيخ يديه على رأسه ، ثم قال : يا بنى عامر هل لها من تلافٍ ؟ هل لذُنابها من مطلب ؟ ، والذى نفسى بيده ما تقوّلها إسماعيلى قط ، وإنها لحق ، فأى رأيكم كان لكم » .

حقيقة أخرى تضع إجابة على السؤال ، فإن موقف القبائل يشبه إلى حد كبير موقف قريش . . . فهذه القبائل الضاربة فى أنحاء الصحراء تعيش حياتها كما تعيشها قريش ، تعبد الأصنام وترتكب المعاصى وتعيش فى فساد إجتماعى ، ومن هنا أصبحت هذه القبائل ـ حتى تبقى حياتها على ما هى عليه ـ ملزمة برفض الدعوة ، وبذلك أصبحت طرفاً فى الصراع ، وكانت قريش تشجعها وتدفعها إلى ذلك دفعاً ، وتفرض رأيها فرضاً ، وتهددها بقطع علاقاتها ...

وظلت هذه القبائل حبيسة هذه الظروف .. ولكن إلى حين .. فعندما استقر الأمر للمسلمين فى المدينة ، وبدأ الصراع مع قريش ، اتخذت هذه القبائل موقف الحياد الكامل ، إلا أن بعض هذه القبائل كان يمارس من وقت لآخر عادة الجاهلية فى شن الإغارات على المسلمين فى المدينة ، وكانت هذه الإغارات تسبب خسائر للمسلمين ، فوق أنها تعطل استعداداتهم لملاقاة قريش ، ولهذا رأى رسول الله أن يتخذ موقفاً حاسماً ، وأن يحدد موقف هذه القبائل منه حتى يضع حداً لهذه الإغارات ، واتخذ الرسول فى سبيل ذلك خطوتين هامتين ...

الأولى ... بالنسبة لعرب الحجاز

فقد دعاهم الرسول إلى المسالمة والمحالفة ، وعقد معهم حلفين دفاعيين فى السنة الثانية للهجرة أثناء غزوتى الأبواء والعشيرة ، فى الأولى حالف الرسول بنى ضمرة ، وفى الثانية حالف بنى مدلج .

وكانت هذه المحالفات ذات أهمية بالغة بالنسبة للمسلمين ، لأنهم ضمنوا بقاء هذه القبائل على الحياد ، وبالتالى ضمنوا استقرار الأمر لهم فى المدينة ، فأصبحوا قادرين على مواجهة شئونهم وتدبير وسائلهم فى مقاومة العدوان القرشى دون تدخل من جانب آخر ، ودون أن يشغلوا أنفسهم فى مواجهتين أو ضد عدوين فى وقت واحد ، هذا فوق أنه قد أصبحت لهم السيطرة الكاملة على الطرق التجارية التى تتجه إلى الشمال والتى كانت تستخدمها قوافل قريش فى رحلاتها كل عام ، وبذلك يكون هذا التحالف قد أعطى المسلمين قوة تهدد قوافل قريش وتسد عليها المنافذ وتتحكم فى حصارها الاقتصادى .

الثانية ... بالنسبة لعرب نجد

وهؤلاء كانوا يتميزون بالخشونة والجرأة ، وكانوا يشنون الغارات على المدينة ، ورأى رسول الله أن تهاجم هذه القبائل ، ولكن عندما تكون فى وضع الاستعداد للغارة انطلاقا من المبدأ العسكرى المعروف « إن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع » ، فكان الرسول إذا بلغه تجمع ما فى أى مكان يجمع سراياه ويهاجم هذا التجمع ويفرقه ...

مثلا تجمع رجال بنى سليم بقصد مهاجمة المدينة ، وعرف الرسول بنيتهم فخرج إليهم فى ثلاثمائة من أصحابه فهربوا ...

وخرج جمع من غطفان وعلى رأسهم أشجع رجالهم دعثور بن الحارث للإغارة على المدينة ، فخرج إليهم الرسول فى أربعمائة وخمسين رجلا فهربوا ...

وخرج جمع من ثعلبة ومحارب بقصد إصابة أطراف المدينة فخرج إليهم الرسول ولكنهم هربوا ، ولما سأل عنهم قيل له « إنهم سمعوا بمسيرك فهربوا فى رءوس الجبال » .

هذا الأسلوب الذى اتبعه الرسول الكريم يقوم على ركيزتين هما مهاجمة القوة الضاربة وقت تجمعها ، وقبل إتمام استعداداتها ، ثم مفاجأة هذه القوة والقضاء عليها .

وهكذا يكون الرسول الكريم قد أمن القبائل العربية فى الشمال وفى الشرق ، وذلك باتباع سياستين كان لهما أكبر الأثر فى تدعيم مركز المسلمين فى المدينة وهما :

- سياسة سلمية تقوم على التعاقد والتحالف وهى تؤدى إلى تحييد بعض القوى فى أى صراع ، وهذا مكسب للمسلمين دون ريب .

- سياسة دفاعية وقائية تقوم على الهجوم المفاجىء وشل قوى العدو قبل أن يجمع قواته ويستعد للمواجهة والقتال .

ثالثاً . . . اليهـــود

بعد أن احتل الفرس بابل عاد أربعون ألف يهودى إلى فلسطين ، وتحت حكم الفرس ثم الرومان انتهى الوجود اليهودى فى فلسطين ، ونفذت اليهودية إلى الجزيرة العربية بهجرة عدد منهم إليها طلبا للحياة الهادئة وبحثاً عن القوت[1] ، واستقرت هذه الهجرة فى شمال يثرب ، ثم فى جنوبها ، فهم إذن أجانب دخلاء ، لم تكن لهم حاجة بالدعوة إلى دينهم ، وكانوا يتظاهرون فقط بالانتماء إلى الدين الموسوى ذريعة استغلال ، وكان فيهم أحبار شغلوا عن الدين بالدنيا وعن كسب القلوب بكسب الجيوب ، ونجحوا فى جمع أموال وفيرة اكتسبوها من الزراعة والتجارة ، فزادتهم هذه الأموال عزلة عن العرب ، فبنوا القصور والحصون فى قمم الجبال واعتصموا بها ، وكونوا لأنفسهم مجتمعاً منفصلا لا يرى فى بقية الناس إلا أداة لكسب المال عن طريق الربا والخداع فى المتاجرة والزراعة .

وكان أكثر العرب الذين يسكنون يثرب ينتمون إلى قبيلتى الأوس

---

(١) جاء فى كتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى (الطبعة الثانية ، ص ٨٥) « وفد اليهود على يثرب من قديم ، يروى أبو الفرج أن سيدنا موسى عليه السلام كان قد بعث جيشاً من بنى إسرائيل إلى العماليق — سكان يثرب — فانتصر عليهم وأفناهم ، ثم أقام بنو إسرائيل بيثرب بعد وفاة موسى واتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع ، ثم لما ظهر الروم على بنى إسرائيل فى الشام ، فوطئوهم ، وقتلوهم ، واعتدوا على نسائهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين منهم إلى إخوانهم بالحجاز ، وكان ذلك بعد ظهور النصرانية وانتصار القياصرة لها ، فتوافدوا على يثرب عشائر وأفراداً ، وتكاثروا بها » .
وجاء فيه أيضاً « ويرى ياقوت أن سكان يثرب الأولين من اليهود عرب تهودوا »

والخزرج ، وهؤلاء كانوا ينظرون إلى اليهود نظرة حسد لأنهم يجدون في أنفسهم فقراً ، وفي اليهود غنًى ، يصنعون السيوف والدروع ويكنزون الذهب والفضة ، وكانوا إذا دبّ الخلاف بين اليهود وأهل يثرب ، يقول اليهود « إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

وكان اليهود يسعون إلى الإيقاع ما بين الأوس والخزرج ، فتقتتل القبيلتان ، ويسقط القتلى وتصابان في رجالها ، فيزيدان ضعفاً ووهناً ، بينما تبقى لليهود قوتهم وسيطرتهم وسيادتهم .

وكان اليهود يعيشون فيما بين المدينة وتيماء ، وكانت لهم قوة تقارب قوة قريش ، ولكنهم كانوا يفوقونها غنى وثروة وسلاحاً ، وكانت بلادهم محصنة قوية .

وكانوا يمثلون في المدينة كثرة عددية ، يقيم بها بنو قينقاع (١٤٠٠) ، وفي جنوبها الشرقي يقيم بنو قريظة (١٥٠٠) ، وفي غربها يقيم بنو النضير (١٥٠٠) ، وفي منطقة خيبر شمال المدينة كان يعيش يهود بني خيبر (٣٠٠٠) ، وهم أشد اليهود وأوسعهم ثراء ، وكان يسكن وادي القرى (٥٠٠) ، وفدك (٥٠٠) وكان لهم في هذه المناطق الزعامة الإقتصادية والسياسية .

وكان اليهود يمثلون عدواً خطيراً للإسلام ، حتى إن الراهب بحيرى حين عرف أن محمد بن عبد الله هو النبي والرسول الذى بشرت به الكتب المقدسة ، نصح عمه أبو طالب ، وكان قد صحبه معه إلى تجارة بالشام « ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه

ما عرفت ، ليبغونه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم » (كان عند بحيرى علم من الكتاب ، وكان يقرأ فى التوراة والإنجيل أن نبياً سيبعث فى بلاد العرب ، وأنه قد آن أوانه ، وكان مكتوباً عندهم صفة هذا النبى وعلاماته ، فلما رأى الراهب الدلائل والشارات أيقن أنه النبى المنتظر الذى بشر به موسى وعيسى عليهما السلام) .

وبلغت أنباء دعوة الرسول أهل يثرب عرباً ويهوداً ، وتلقى اليهود النبأ بقلق ، وحسبوا لهذا الدين ألف حساب ...

فلما توالت الأحداث وتمت هجرة الرسول إلى المدينة ، دخل الأوس والخزرج فى الإسلام ، ووحّد الرسول جبهة المسلمين بالمدينة فأصبحوا قوة لا يستهان بها ، وظل اليهود يرقبون الأحداث مشفقين ، ورأوا أنهم أمام حدث جديد يوشك أن يبدل معالم الحياة ، وبدأ زعماؤهم يفكرون فى كيفية مواجهة الموقف ، وتؤكد الروايات المختلفة أنهم بادروا بادىء الأمر إلى حسن استقبال الرسول أملاً فى استمالته ، إدخاله فى حلفهم ، والاستعانة به لمواجهة النصرانية التى أجلتهم من فلسطين .

وإزاء طيب استقبالهم بادلهم الرسول صلى الله عليه وسلم شعوراً طيباً ، وسعى إلى توثيق صلاته بهم ، على أساس أنهم أهل كتاب موحدون ، فتحدث إلى رؤسائهم ، وربط بينه وبينهم برابطة المودة ، فكان عليه السلام يصوم يوم عاشوراء وهو من أيام اليهود ، واتجه فى صلاته إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بنى إسرائيل جميعاً ، وأحلّ للمسلمين الأكل من طعام اليهود كما أحلّ لهم التزوج من بناتهم ، طبقاً لما جاء فى قول الحق تبارك تعالى

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥].

وعقد رسول الله معهم معاهدة صداقة وتحالف، فأقرهم على دينهم وأموالهم، واتفق معهم على حرية العقيدة والرأى، وحرمة المدينة والمال، وتحريم الجريمة، ووقّع اليهود خارج المدينة معاهدات مثلها مع الرسول.

وعاش المسلمون فى المدينة مع اليهود فى ضوء ما قررته المعاهدات المبرمة بين الطرفين، أما اليهود فقد عاشوا فى ظل هذه الاتفاقيات يرقبون الغد فى حذر وحيطة .

وبدأ النفوذ الإسلامى ينتشر ويقوى ويشتد، وكان ذلك على حساب النفوذ الذى كان لليهود من قبل، وأخذ المسلمون يسيطرون على إقتصاديات المدينة بعد أن كانت الزعامة الاقتصادية لليهود، وازدادت قوة المسلمين حتى أصبحوا أكثر قوة منهم .

وقربت نقطة الخطر ...

فقد تأثر بعض اليهود بما فى الإسلام من روعة وبما فيه من حجج، ودخل الإسلام إلى قلوبهم واقتنعوا به عقلا وحسا ووجدانا، فآمنوا به ، وكان أول المؤمنين منهم عبد الله بن سلام ، وكان إسمه أصلا الحصين بن سلام ، فلما أسلم تسمى عبد الله ، وأسلمت معه أسرته ، وعبد الله هو حبر من أحبارهم،

وعالم من علمائهم ، جاء إلى الرسول وطلب منه قبل أن يعلن إسلامه أن يسأل اليهود رأيهم فيه ، قال « يا رسول الله ، إن يهود قوم بهت ، (أى يكذبون بالباطل) ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك ، وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى » ، وأخفاه رسول الله ، ثم سأل بعض اليهود « أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ » ، فقالوا « سيدنا ، وابن سيدنا ، وجدنا ، وعالمنا» ، فأعلن عبد الله إسلامه ، ودعاهم إلى الإسلام « يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به » ، فقالوا له « كذبت » ، ثم عابوه وسبّوه .

ثم جاء إسلام مخيريق مخيباً لآمال اليهود ، فهو من أغنيائهم وكبار أحبارهم ، وعلما من أعلامهم ، وكان يعرف رسول الله بصفته من التوراة ، فأشعل إسلامه الثورة المكبوتة ، وأثار حقدهم وغضبهم ، فبدءوا يتحركون على الطريق إلى الصدام المسلح ، ويهمنا هنا أن نذكر أن مخيريق خرج للقتال فى أحد مع المسلمين ، وأوصى بأن تكون أمواله لرسول الله إذا قُتل ، وقد ورث الرسول أمواله ونخله ورصدها لصدقات أهل المدينة ، وكان يدعو اليهود إلى الدخول فى الإسلام « يامعشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق » .

وهكذا نسفت المعاهدات والمخالفات .. وأصبح الطرفان فى وضع الاستعداد ، وبدأ اليهود الحملة ضد الإسلام والمسلمين واتخذوا فى ذلك وسائل شتى . .

• بدءوا أولا بحرب الجدل . .

واستخدموا فيها كل مالديهم من العلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين لمحاربة الإسلام ، والتشكيك فى أصوله وأسسه ومبادئه ، وطعنوا فى رسالته ، وهاجموا المسلمين مهاجرين وأنصاراً ، واشتدوا فى هذه الحرب حتى قيل إنها كانت أخطر وأشد من حرب الجدل التى شنها القرشيون ضد الإسلام والمسلمين .

وكان من أهم ما أثير أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً ، ورد القرآن على ذلك رداً قوياً جازماً إذ قال الحق تبارك وتعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران ٦٥/٧١] .

وفى هذه الآيات ينكر الله سبحانه وتعالى على أهل الكتاب يهوداً ونصارى دعواهم فى إبراهيم عليه السلام ، إذ تدعى اليهود أنه على دين اليهودية ، وأن اليهود على دينه ، كما يدعى النصارى أنه كان على النصرانية ، وأنهم على دينه ، وأنكر الله ذلك تأسيساً على أن التوراة جاءت بعد إبراهيم عليه السلام بزمن طويل ، وأن الله يعلم علماً مطلقاً وهم لا يعلمون شيئاً ، ووصفته بأنه كان حنيفاً مسلماً ، والحنيف هو المتعبد لله الراكع الساجد لعزته وجلاله ، والمسلم هو من أسلم وجهه لله دون أن يلتفت إلى سواه ، وأوضحت أن أولى الناس به هو النبى صلى الله عليه وسلم . والذين آمنوا ، ذلك أن دين محمد هو الإسلام لله والإقرار بوحدانيته ، وكذلك إيمان المؤمنين بمحمد فكل من كان على إيمان بالله كهذا الإيمان فهو أحق الناس بإبراهيم ، وأقربهم نسباً له وأكثرهم صلة به ، وأبانت أن جهد اليهود كان منصرفاً إلى التشكيك فى رسالة الرسول وفى الكتاب الذى أنزل عليه ، ولو أنهم نجحوا فى ذلك لكان ذلك نصراً لهم ولا حاجة لهم بعد ذلك بأى تدبير آخر ضد الإسلام ، حيث لا يكون هناك إسلام ولا مسلمون متى قام الدليل على بطلان دعوة محمد ، وبطلان ما نزل عليه من عند الله ، وعاتبتهم لأنهم يكتمون الحق الذى يعرفونه من أمر محمد والقرآن لا عن جهل منهم يعرفونه ويعلمونه ، ولكنهم يسعون إلى إضلال من استقام أمرهم ، وهم فى الحقيقة إنما يضلون أنفسهم .

وكثر جدل اليهود للنبى وللمسلمين ، واشتد عنادهم حتى ضاقت الصدور بما يدعون كذباً ، وبدأت آيات القرآن تنزل تباعاً ترد عليهم وتزجرهم زجراً شديداً لعلهم ينتبهون ، ولكن هيهات .

قال تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ

الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء ١٥٣] ، والآية تعرض لطلب اليهود أن ينزّل النبي كتاباً من السماء يرونه رأى العين ، كما رأوا المائدة التى أنزلها الله على عيسى عليه السلام بناء على طلبهم ، ومع هذا لم يؤمنوا به ، ولم يصدقوا رسالته ، وقد أوضحت الآية أنهم لا يسألون ليعلموا فتتضح أمامهم الرؤية فيؤمنوا ، ولكنهم يسألون للتطاول والعناد ، فقد سألوا موسى سؤالا أكبر ، وطلبوا أن يروا الله جهرة ، فعاقبهم الله على تطاولهم وتجلّى لهم فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، فلم يرجعوا عن غيهم وضلالهم ، ولكنهم ظلوا على ماهم فيه من غى وعناد ، واتخذوا العجل إلهاً لهم يعبدونه من دون الله .

عن ابن عباس قال « حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن ، لا يعلمهن إلا نبى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلوا ماشئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعُنى على الإسلام ، قالوا : لك ذلك ، أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن ، أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ ، وأخبرنا كيف ماء الرجل وماء المرأة ؟ ، وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ ، وأخبرنا بهذا النبى الأمىّ فى النوم ووليه من الملائكة ؟ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه

فنذر لله نذرا لئن عافاه الله من سقمه ليحرمنّ أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وأحبّ الشراب إليه ألبانها ، فقالوا : اللهم نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أشهد عليهم وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله ، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرا بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله ، قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم أشهد ، وقال : وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه ، قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد قالوا : فحدثنا عن وليّك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك ، قال : فإن وليي جبريل ولم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليه ، قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك إنه عدونا ... وأنزل الله تبارك وتعالى قوله فى ذلك : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة ٩٧/٩٨] .

ونكتفى بهذا المثل .

وكان الجدل يصل إلى حد التماسك والإعتداء ، فمثلا التقى أبو بكر برجل يهودى يدعى فنحاص ، فدعاه إلى الإسلام ، فقال الرجل « والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه أغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم

صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنياً ما أعطانا » ، وكان يعنى بقوله هـــذا قول الحق تبارك وتعالى ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ، [البقرة : ٢٤٥] وغضب أبو بكر مما سمع ، فضربه فى وجهه ، وقال « والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك ياعدو الله » ، ونزل قول الله تعالى ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَاقَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ، [آل عمران : ١٨١] .

وكانوا يترددون على مجالس المسلمين ويوجهون إليهم أسئلة كانوا يتوقعون ألا يجد المسلمون وفى مقدمتهم رسول الله إجابة لها ، فيثير ذلك القلق والشك ، ويتزعزع إيمانهم ، وكانوا يأملون أن يعجز رسول الله عن الإجابة فيتخذون ذلك ذريعة للتشكيك فى قلوب المؤمنين .. سألوا الرسول عن الروح والساعة وعن ذى القرنين وعن القرآن « أحق يامحمد ، هذا الذى جئت به الحق من عنـد الله ، فإنا لانراه متسقا كما تتسق التوراة » ، وسألوه عن الله « يامحمد ، إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ » .

وتمادوا فى سؤالهم فقالوا « صف يامحمد كيف خلقه » ، وتلا عليهم رسول الله الإجابة وهى قول الله تبارك وتعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص] .

ولما فشلت حرب الجدل ولم تؤت ثمارها المرجوة ، لم يستسلموا لليأس والقنوط ، وإنما بدءوا جولة ثانية بمنهج جديد وأسلوب حديث .

• أعلنوا حرب الدسيسة والنفاق

فدفعوا ببعض من رجالهم من بينهم بعض أحبارهم إلى صفوف المسلمين يظهرون إسلامهم وإيمانهم بالدين الجديد ، على أن يكون ذلك ستاراً لعمل مضاد للإسلام والمسلمين ، فكانوا يحضرون إلى مسجد الرسول ويستمعون إلى أحاديث المسلمين ويسخرون منها ويستهزئون بها ويبثون الشك فى قلوب المؤمنين .

رآهم رسول الله مرّة فى المسجد يتحدثون فيما بينهم ، خافضى صوتهم وقد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم فأُخرجوا من المسجد خروجاً عنيفاً ، والمسلمون يصيحون فيهم « أُفٍ لك منافقاً خبيثاً » و « أدراجك يامنافق من مسجد رسول الله » و « لاتقربنَّ مسجد رسول الله فإنك نجس » .

وسعى اليهود إلى الدس بين الأوس والخزرج ، أرادوا بذلك إثارة المنازعات القديمة ، فتثور النفوس وتطل الفتنة ، ويعود القوم إلى العراك ، فتضعف بذلك وحدة المسلمين ويشتد بأس اليهود ويقوى .

مرّ يهودى يُدعى شاس بن قيس وهو من شيوخ اليهود بقوم من الخزرج يجالسون قوماً من الأوس ، وقد صفت قلوبهم وصلح ذات بينهم ، فضاق صدره بما رأى « قد اجتمع ملأُ بنى قيلة بهذه البلاد ، ومالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم من قرار » ، ودفع بمن ذكر يوم بُعاث[1] الذى انتصر فيه

(١) وقعت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج وانتصر الخزرج وفر الأوس إلى نجد فغضب زعيمهم وطعن نفسه فى فخذه وقال « واعقراه !! والله لا أريم حتى أقتل ، فإن شئتم يامعشر الأوس أن تسلونى فافعلوا » ، فعادت الأوس إلى القتال ، وانتصرت ، وهدمت منازل الخزرج حتى أجارها سعد بن معاذ .

الأوس على الخزرج ، وثارت النفوس ، وقال بعضهم لبعض « إن شئتم عدنا إلى مثلها » ، وعلم رسول الله فأسرع إليهم ، واستطاع بحكمته البالغة فى الوقت المناسب أن يمنع الصدام الذى كان وقوعه ضرراً بالغاً بالمسلمين ، خاطبهم رسول الله وقد أدرك أنها فتنة يهودية فقال « يامعشر المسلمين الله ! الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم به أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم » ... وأدرك الناس خطأهم ، وعرفوا أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق بعضهم بعضاً ، وانصرفوا مع رسول الله وقداستغفروا ربهم ، وأنزل الله تعالى فيهم قوله الحق ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ ، [آل عمران : ١٠٢ ، ١٠٣] .

وحاول اليهود أن يفتنوا رسول الله ، فذهب وفد منهم إليه عليه السلام وقالوا « إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وإنا إن تبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم إليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك » ، وجاء الوحى الإلهى يحذر رسول الله ويحميه ويوجهه أن يحكم بينهم بالعدل ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ، [المائدة : ٤٩] .

وجاءه عليه السلام قوم منهم حاولوا إقناعه بترك المدينة والإتجاه إلى بيت المقدس ، ونزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ، [البقرة : ١٤٤] ، وصرف الناس قبلتهم نحو الكعبة ، قبلة إبراهيم بدلا من أن يتوجهوا إلى بيت المقدس ويستدبروا الكعبة ، وأغضب هذا التحول جمهور المدينة فأنكروه ، وعرضوا على الرسول أن يعود فيتجه إلى بيت المقدس فيتبعوه ، وكان من الطبيعى أن يرفض رسول الله هذا العرض .

وصرح القرآن بأن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين وساواهم بالمشركين ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [المائدة : ٨٢] .

وأمر رسول الله أصحابه ألا يرتدوا مثل لباس اليهود ، وألا يصففوا مثلهم شعورهم ، وأن يحذروهم فى السلام عليهم والرد على سلامهم ، وعدل عليه السلام من استخدام البوق كوسيلة لدعوة المسلمين إلى أداء الصلاة ، وذلك لأن اليهود كانوا يستخدمونه .

ولما ضاقت بهم السبل وتعثرت خطواتهم ، قرروا أن يتخلصوا من الرسول عليه السلام ، وفكروا فى قتله ،قال ابن إسحق « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير يستعينهم فى ديّة ذينك القتيلين من بنى عامر للجوار الذى كان رسول الله عقد لهما ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف ،فلما أتاهم

رسول الله يستعينهم فى ديّـة ذينك القتيلين ، قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ماأحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هـذه (رسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد) ، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش فقال : أنا لذلك .. فصعد البيت ليلقى عليه صخرة كما قال ورسول الله فى نفر من أصحابه فيهم أبو بـكر وعمر وعلىّ رضى الله عنهم ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، وبعد أن سلم رسول الله بعث إليهم محمد بن سلمة ومعه رسالة فيها : اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لـكم بما هممتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشراً فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه » .

وكانت هذه الحادثة خطوة عاجلة سريعة إلى نهاية الطريق حيث الصدام .

وتعرض الرسول لمحاولة أخرى فقد أسند يهود خيبر إلى امرأة منهم مهمة قتل رسول الله ، فقدمت زينب ابنة الحارث امرأة سلام من مشـكم إلى رسول الله شاة مشوية ، وسألت « أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ؟ » ، فقيل لها « الذراع » ، فأكثرت فيها من السم ، ثم سمّت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فتناول رسول الله الذراع ولاك منها مضغة فـلم يسغها ولفظها وقال « إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » .

وكلما فشلت محاولة يهودية ازداد خوفهم من المستقبل .

وكثرت حوادث الإعتـداء على المسلمين من جانب اليهود ، كاعتداء

بنى قينقاع على سيدة عربية جلست إلى صائغ منهم فتعرضت لأشنع المجون ، إذ عمد يهودى إلى ذيل ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما نهضت واقفة انكشفت سوأتها أمام يهود الحانوت فأضحكهم المنظر ، وغضب إعرابى لكرامة أخته العربية ، فضرب اليهودى بعصاة غليظة ضربة ألقته صريعاً ، فثارت حمية أهل اليهودى وانقضوا على العربى فقتلوه ، وهرع العرب إلى المكان يطلبون ثأر أخيهم ، وبعث الرسول إلى اليهود محذراً ومتوعداً « يامعشر يهود ، احذروا من الله مثل مانزل بقريش من النقمة » .

وهكذا كانت لحظة الصدام بين المسلمين واليهود تقترب ، وكان لابد من أن يقع الصدام ، وأن تشهد الجزيرة العربية قتالا عنيفاً بين الطرفين .

وقد كان .

واتخذت الحرب بين الطرفين صورتين :

● **الأولى . . . المحالفة**

فقد تحالف اليهود مع قريش ضد الرسول فى غزوة الأحزاب . . قال حيى ابن أخطب لقريش « تركتهم (يقصد أهله) بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسير معكم إلى محمد وأصحابه » ، وقال « أقاموا (يقصد بنى قريظة) بالمدينة مكراً بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم » ، وخرج حيى بن أخطب وسلام ابن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس وطافوا بكل من له عند المسلمين ثأر ، يحرضونهم ويعدونهم النصر ، وخاطب حيى كعب بن أسد فى شأن نقض عهده مع المسلمين ، ومازال به يثير يهوديته حتى

قبل ، وخرج عن عهده ، وكوّن ثلاث كتائب انضمت إلى القوات المتحالفة ضد المسلمين .

● الثانية ... المواجهة

لم يعد هناك مفر بعد أن ساءت العلاقات بين المسلمين واليهود من أن تقوم الحرب وأن تتم المواجهة .

فبعد بدر كان اللقاء مع بنى قينقاع ، وكان هؤلاء قد نشطوا فى حرب الدعاية وإذاعة الأكاذيب ، كما آووا بينهم المتآمرين ، وتعاهدوا على العمل مع كبير المنافقين عبدالله بن أبى بن سلول ، وكان هؤلاء قد أعماهم الغرور فبعثوا إلى الرسول « لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب (يقصدون قريشا) فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس . . . » ، وحاصرهم رسول الله خمسة عشر يوماً ، ثم صادر أسلحتهم وأموالهم وأمرهم بالخروج فخرجوا إلى بلدة أذرعات .

وبعد أحد كان اللقاء مع بنى النضير ، وهؤلاء كانت لهم فى ظاهر المدينة حصون منيعة ، وكان كبيرهم كعب بن الأشرف من أكثر الناس كيداً للإسلام (استدرجه بعض المسلمين وقتلوه) .. بعث إليهم رسول الله يطلب جلاءهم وأمهلهم عشرة أيام ، فقال لهم عبدالله بن أبى « لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم » ، وقال كبيرهم حيى بن أخطب « أنا مرسل إلى محمد إنا لن نخرج من ديارنا وأموالنا فليصنع ما بدا له » ، وحاصرهم رسول الله ، ثم تبين قوة حصونهم

فهددهم بحرق زراعاتهم ، وأمر بإشعال النيران فى النخيل الذى يحيط بالحصون ، فلما رأوا النيران دب الرعب فى قلوبهم وآثروا النجاة ، وبعثوا بالأمان حتى يغادروا حصونهم ، وغادروها فعلا تاركين سلاحهم ، ونزل فيهم قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ . وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . [الحشر ٢/٤]

وبعد الخندق كان اللقاء مع بنى قريظة ، وهؤلاء كانوا فى حلف مع المسلمين ، ثم نقضوا اتفاقهم فى أحلك ساعات الشدة ، ولولا يقظة الرسول لانهار الدفاع عن المدينة يوم الأحزاب ، وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت إنه « لما رجع الرسول يوم الخندق دق الباب ، فارتاع الرسول وخرج فخرجت فى أثره ، فوجدته يحادث رجلا على دابة ، فلما رجع سألته عن الرجل ، قال : إنه جبريل أمرنى أن أمضى إلى بنى قريظة » ... وأمر الرسول مؤذناً فأذن فى الناس « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة » ، وتجمع المسلمون ثم دنا الرسول ورجاله من حصونهم وصاح فيهم « يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته » ، ثم أمر بحصارهم واستسلموا بعد خمسة وعشرين يوما على أن ينزلوا على حكم رجل

اختاروه حكماً هو سعد بن معاذ الذى حكم بقتلهم ما عدا النساء والأطفال والشيوخ وبأن تسلم ديارهم للمهاجرين فقط دون الأنصار ، فقتلهم رسول الله .

ثم كان اللقاء مع يهود بنى خيبر ، وكان أشد اللقاءات ، فهم أصحاب حصون قوية منيعة ، وكانوا أكثر اليهود عدداً وأعزهم نفراً وأوفرهم مالا وأشدهم جلداً على القتال . . . قال لهم سلام بن مشكم « ادخلوا أموالكم وعيالكم حصنى الوطيح والسلالم ، وادخلوا ذخائركم حصن ناعم ، وليدخل المقاتلون حصن نطاة » ، وقال رسول الله لقومه « خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » ، وشهد هذا اللقاء بطولة علىّ ابن أبى طالب الذى نازل مرحب اليهودى الذى كان يطلب الثأر لمقتل أخيه الحارث (قتله علىّ) ، وكان مرحب جَدُّ مهيب بقامته الهائلة ودرعه المزدوج وسيفه ورمحه ذى الأسنة الثلاث وعمامته السميكة وخوذته التى يعلوها حجر كريم فى حجم البيضة ، وكان الغرور يملأ صدره فوقف يرتجز :

قد علمت خيبر أنى مرحب
شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب
إذا الليوث أقبلت تحزب

ودعا الرسول علىّ بن أبى طالب وقال له « خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ، والذى نفسى بيده إن معك من لا يخذلك ، هذا جبريل عن يمينك بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها » ، وواجه علىّ مرحباً وهو يرتجز :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره
كليث غابات كريه المنظره
أكيلكم بالسيف كيل السندره

وبعد مقتل مرحب خرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوام ، وشن المسلمون الهجوم العام، فسقطت الحصون الواحد تلو الآخر ، وصالحهم رسول الله على البقاء لخدمة الأرض وزراعتها ، وعلى هذا أيضاً صالح الرسول يهود فدك ووادى القرى .

نخلص من هذا كله إلى أن الرسول أبدى روح السلام لليهود منذ قدم المدينة ، وأراد أن يعيش معهم فى أمان ، وعقد معهم اتفاقية لم يلبثوا أن نقضوها وخالفوا نصوصها ، وأثاروا المتاعب فى طريق العلاقات بين الطرفين حتى وصلوا بها إلى طريق مسدود ، ولقد ظل رسول الله على منهجه ، فكان بعد كل إثارة من جانبهم يبعث إليهم ناصحاً ، فلا يقبلون نصحه ، وغلب الغرور على تفكيرهم ، وظنوا أنهم قادرون على مواجهة المسلمين وهزيمتهم ، واتجهوا إلى التحالف مع القبائل الأخرى وإثارتها وتشجيعها على محاربة الرسول ، وعقدوا اتفاقيات سرية تضر بالمسلمين . . . كل هذا كان يدفع بالطرفين دفعاً إلى وقوع الصدام المسلح .

وكان لابد من القتال والمواجهة .

ولم يكن الإسلام فى كافة اللقاءات هو البادئ .

وإنما واجه اليهود دفاعاً عن نفسه ووجوده .

ولهذا كانت حروب المسلمين ضد اليهود حرباً دفاعية وقائية .

رابعاً ... الفرس والروم

لم تكن مهمة الرسول قاصرة على الدعوة إلى الإسلام فى الجزيرة العربية وحدها ، وإنما كان عليه السلام مكلفاً بأن تبلغ الدعوة إلى الناس كافة ، امتثالا لما جاء به الوحى على لسان جبريل « يا محمد ، إن الله تعالى أمرنى أن أقرأ عليك منه السلام ، ويقول لك أنت رسول الله إلى الجن والإنس ، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله »

كانت هناك دولتان كبيرتان تحيطان بجزيرة العرب تدين الأولى وهى فارس بالمجوسية ، وتدين الأخرى وهى الروم بالنصرانية ، وكان المشركون يميلون إلى الفرس لأنهم أصحاب أوثان ، بينما المسلمون يميلون إلى الروم لأنهم أهل كتاب .

وكانت هناك إمارتان عربيتان تمثلان خط الدفاع الأول عن الدولتين .. إمارة الحيرة التى قامت على حدود فارس ، وإمارة الغساسنة على حدود الشام التى كانت تحت حكم الروم .

جمع رسول الله أصحابه وقال لهم « أيها الناس ، إن الله بعثنى رحمة للناس كافة ، فأدّوا عنى يرحمكم الله ، فلا تختلفوا علىّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم » ، فسأله أصحابه « وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ » ، فأجاب « دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه ، فأما من بعثه قريباً فرضى وسلم ، وأما من بعثه بعيداً فكره وجهه وتثاقل » ، وأخبرهم

أنه عليه السلام اعتزم توجيه رسله برسالات منه إلى هرقل وكسرى والحارث الحميرى ونجاشى الحبشة ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، فوافقه أصحابه ، وشرع رسول الله يكاتب الملوك والأمراء من حوله بعد صلح الحديبية .

وحين عزم رسول الله على ذلك الأمر ، اتخذ لنفسه خاتماً من فضة نقشه « محمد رسول الله » ، وكتب لكل ملك كتاباً يعرض عليه الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ويكلفه أن يبلغ هذه الدعوة إلى أمته كلها .

●● حمل دِحْيَة بن خليفة الكلبى رسالة النبى إلى هرقل فى وقت انتصاره على الفرس واستعادته الصليب الأعظم الذى كان قد أُخذ من بيت المقدس، وكان يستعد أيضاً للحج إلى بيت المقدس ماشيا ليرد الصليب إلى مكانه ، وتسلم الرسالة وهو فى حمص وقرأها « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد . فاسلم تسلم . يؤتك الله أجرك مرتين . فإن أبيت فإن إثم الأكاريين (الفلاحين) عليك » ، وأراد هرقل أن يستوثق من أمر هذا الرسول ويعرف حقيقته ، فبعث إلى جماعة من تجار العرب كانوا بالشام وقتها ، وكان معهم أبو سفيان ابن حرب فجعل يسأله عن رسول الله :

— هل كان من آبائه ملك ؟

— هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

— هل قال أحد منكم هذا القول ؟ ... — هل يغدر ؟

وكانت إجابات أبى سفيان تحمل لفظاً واحداً هو : لا ، فعاد وسأله سؤالين هامين :

— أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

— بم يأمركم ؟

وأجاب أبو سفيان أن ضعفاءهم اتبعوه ، وأنه يأمر أن يعبدوا الله ولا يشركوا به ، وينهاهم عن عبادة الأوثان ، ويأمرهم بالصلاة والصدق والعفاف .

ووضحت الرؤية أمام هرقل ومثلت الحقيقة الخالدة أمام عينيه ، فقال « إذا كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه » .

وجمع هرقل عظماء الروم وقال لهم « يامعشر الروم ، إنه قد جاءنى كتاب أحمد وإنه والله الذى كنا ننتظر ، ويجل ذكره فى كتابنا نعرفه بعلاماته وزمانه » ، ثم أمر بأن يرد على الرسالة رداً حسناً .

• • وفى ذات الوقت كانت رسالة مماثلة قد سلمت إلى الحارث الغسانى[1] ، حملها إليه شجاع بن وهب ، فبعث يستأذن هرقل فى أن يقوم على رأس جيش لمعاقبة مدعى النبوة فى المدينة ، ولكن هرقل رفض طلبه ، وأمره ألا يفعل ، فرمى الحارث برسالة الرسول ، وأمر بشجاع فقُتِل …

وكان هذا التصرف من جانب الحارث تصرف شائن لا يتفق مع دعوة السلام التى حملها إليه وكان سلوكه معيبا ، لأنه اعتدى على الرسل وهؤلاء

---

(١) الغساسنة قوم من العرب هاجروا إلى الشمال وانتهوا إلى ماء غسان فنسبوا إليه وأقاموا دولة فى حماية الروم .

لا يُعتدى عليهم ، وكان عمله هذا عدوانياً يتطلب رده ، ولهذا أعد الرسول فى السنة الثامنة للهجرة جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل على رأسهم زيد بن حارثة ورتب عليه السلام قيادة الجيش فقال « إن أصيب زيد ، فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » ، وودع الناس الجيش توديعاً حاراً ، فقد كان فى طريقه إلى مواجهة جديدة وخطيرة ، إذ تعاون هرقل والغساسنة وأعدّوا جيشا ضخما كثيفا ، قيل فى بعض المصادر إنه فاق فى عدده المائتى ألف (مائة ألف من الروم ومائة ألف من القبائل العربية) .

وكانت مؤتة أول لقاء مسلح للمسلمين مع أعدائهم خارج الجزيرة ، وكانوا فى هذا اللقاء يمارسون حقاً مشروعاً ، ولهذا كانت الحروب التى وقعت دفاعية وقائية ، فهم يدافعون عن دين دعوا إليه فى لين ، فقُتِل حامل الدعوة ، وتطلّب الأمر الأخذ بالثأر والدفاع عن الدعوة حتى تصل إلى الناس ، ورغم الهزيمة التى لحقت بالمسلمين ، ورغم استشهاد القادة الثلاثة ، فإن هذه الغزوة كانت علامة بارزة فى تاريخ الحرب الإسلامية ، تؤكد ما تميز به المقاتل المسلم من إيمان وجسارة وشجاعة وبطولة وفداء .

وعلم رسول الله أن هرقل يعد جيشا يغزو به حدود العرب الشمالية ، بعد أن ضايقه الانسحاب الرائع فى مؤتة دون أن تقع بهم خسارة ، هذا الانسحاب الرائع الذى تولاه سيف الله خالد بن الوليد فأكد عبقريته العسكرية وقدراته الفنية فى مجالات الحرب والقتال ، ودعا رسول الله للتهيؤ ، وطلب من أثرياء المسلمين المشاركة فى تجهيز الجيش بما أتاهم الله من فضله ، وتجمع لديه عليه السلام ثلاثون ألفا وعشرة آلاف فرس ، فخرج بهم إلى تبوك ،

فلم يجد للروم أثراً ، وقيل إنهم انسحبوا إلى داخل حدودهم ليحتموا فى حصونهم ، وليقاتلوا فوق أرضهم ؛ ورجع الجيش الإسلامى دون قتال ، ولكن بعد أن عقد صلحاً مع ملك دومة أكيدر بن عبد الملك ، ومع صاحب أيلة يوحنا بن رؤبة ، ومع أهل الجرباء وأذرح وهما قريتان بالبلقـــاء من أرض الشام .

وكان الرسول يحسب للروم حساباً ، ويرى ضرورة توطيد سلطة المسلمين على حدود الشام ، ولهذا دعا بعد حجة الوداع إلى تجهيز جيش تولى قيادته أسامة بن زيد ، وكان حدثاً لا يكاد يعدو العشرين من عمره ، ولكن الرسول أراد أن يقيمه مقام أبيه الذى استشهد فى مؤتة ، إلا أن الجيش لم يخرج ، فقد اشتد المرض بالرسول ، روى عن أسامة « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هبطت وهبط الناس معى إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله وقد أصمت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علىّ ، فأعرف أنه يدعو لى » .

هذا الإعداد والتحول الذى تم قبله إلى تبوك ، يعنى أن رسول الله أراد أن يحمى المسلمين من اعتداءات الروم ، وفى ضوء هذا المعنى يكون التحرك لمواجهة الروم عملا دفاعياً شرعياً ، يهدف إلى حماية الدعوة والناس ، وليس عملا هجومياً يهدف إلى عدوان .

وبعد أن تمت بيعة أبى بكر قرر أن يوفد جيش أسامة « والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لانفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيره لأنفذته » ، وخرج

الخليفة بنفسه يودع الجيش وخطب فى رجاله خطاباً حوى أعظم ماقررته المدرسة العسكرية الإسلامية من مبادىء إنسانية تهيمن على ميدان القتال حيث الطعن والقتل والتدمير ... « قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عنى :

- لاتخونوا
- ولا تغلوا
- ولا تغدروا
- ولا تمثلوا
- ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيراً ولا امرأة
- ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه
- ولا تقطعوا شجرة مثمرة
- ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكل
- وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا لأنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له
- وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه .

وكانت لهذه الحملة آثار بعيدة المدى فقد ...

* أمن المسلمون حدود بلاد الشام فى شمال شبه الجزيرة .

* عرف أعداء الإسلام الذين كانوا يخفون مقتهم وغضبهم وعداءهم أن المسلمين أصبحت لهم قوة لا يستهان بها وأنهم يستطيعون تجييش الجيوش

المكثفة ، « لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية » .

* * تعود الجيش الإسلامى عبور الصحراء من المدينة إلى حدود الشام فأصبحت هذه المسافة سهلة مجربة لايخشى فيها طول الطريق أو قلة الماء أو ندرة الطعام ، وعرف المسلمون فوق ذلك معالم الطريق مما كان عوناً لهم وللجيوش التى تحركت فى عهدى أبى بكر وعمر إلى بلاد الشام .

* * حسب العرب والروم حساب المسلمين بعد هذه الغزوة ، فعرب الشمال تعمدوا عدم التحرش بالمسلمين ، وهرقل انزعج حين بلغته أنباء هذه الغزوة وتغيرت نظرته إلى المسلمين فوضعهم فى مصاف الأعداء الأقوياء .

* * كانت هذه الغزوة بداية للتحرك الإسلامى الكبير فى عهد أبى بكر ثم فى عهد عمر ، حيث واجه المسلمون جيوش هرقل فى داخل حدوده وفوق أرضه ، وحيث تم أعظم انتصار فى تاريخ العهد الإسلامى فى اليرموك ثم فى غيرها من المعارك فى دمشق وفحل وحمص وقنسرين ، واضطر هرقل إلى الفرار من البلاد دون رجعة ، وأصبحت الشام جزءاً من أمة الإسلام .

* * حمل عبد الله بن حذافة السهمى رسالة رسول الله إلى كسرى فارس يقول له فيها « من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس .. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . وأدعوك بدعاية الله عز وجل . فإنى رسول الله إلى الناس كافة . لأنذر من كان حياً . ويحق القول على الكافرين . أسلم . تسلم . فإن توليت فإن إثم المجوس عليك » .

وغضب كسرى فكيف يدعوه فرد إلى دين جديد وهو الذى ورث الحق المقدس عن أجداده من آل ساسان ، وكيف يقبل أن يخضع لسلطة دينية فى يد غريبة ، هذا فوق أنه خشى على عرشه وسلطانه ونفوذه من الدين الجديد .

مزّق كسرى الكتاب وكتب إلى بازان حاكم اليمن من قبله « ابعث إلى هذا الرجل (يقصد رسول الله) الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به » .

علم رسول الله مافعله كسرى فقال « مزّق الله ملكه » .

ثم إن بازان بعث برجلين إلى الرسول تنفيذاً لأوامر كسرى ، فقالا للرسول « إن كسرى قد بعثنا إليك لتنطلق معنا » ، فأمهلهما إلى الغد ، وفى الغد دعاهما وسألهما « من أمركما بهذا ؟ » ، أجابا « ربنا (يقصدان كسرى) » ، فقال لهما الرسول « أبلغا صاحبكما أن ربى قتل ربه كسرى فى هذه الليلة » ، وأوضح لهما الرسول ماتعنيه كلماته ، فإن شيرويه ابن كسرى ثار على أبيه وقتله ، وتولى الملك من بعده ، ثم حملهما الرسول رسالة إلى بازان « قولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك وملّكتك على قومك من الأبناء » .

رجع الرجلان إلى بازان ، وأخبراه بما قاله الرسول ، وما هو إلا أن أتاه الخبر بقتل كسرى على يد ابنه شيرويه ، ووصلته رسالة من شيرويه يقول فيها « إنى قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما استحل من قتل أشرافهم فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى بالطاعة من قبلك ، وانظر الرجل (يقصد الرسول) الذى كان كسرى كتب فيه إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى

فيه » ، (كان كسرى قد اشتد عليه المرض فانتقل مع زوجته شيرين وولديه منها مردانشاه وشهريار إلى المدائن ليرتب وراثة العرش ، وكان فى نيته تثبيت مردانشاه ، فعلم بذلك ابنه قباذ المعروف باسم شيرويه ، فهاجم قصر أبيه وقبض عليه وسجنه ثم قتله ، وأمر بقطع أيدى إخوته السبعة عشر وأرجلهم حتى يفقدوا صلاحيتهم للملك ، ثم قتلهم بعد ذلك) .

عندما بلغت هذه الأنباء بازان قال « إن هذا الرجل لرسول » وأعلن إسلامه ومعه قومه ، وكان إسلامه نقطة ارتكاز قوية للإسلام فى شبه الجزيرة فقد آمن القوم من سكان المنطقة كلها .

ولم ينس المسلمون الرد القبيح والتصرف المعيب الشائن الذى كان من كسرى فارس ، فلما تولى أبو بكر الخلافة بدأ يفكر فى أمر فارس ، وبلغه أن العرب هناك يتاخمون الفرس ويتعرضون للإيذاء والظلم ، وبدت له فارس كعدو للإسلام يهدد أمن الجزيرة ، ورأى أن الموقف يتطلب مواجهة صريحة معهم وجاءه المثنى بن حارثة يدعوه إلى تدخل الحكومة الإسلامية فى القتال الدائر فوق أرض فارس بين العرب والمسلمين بقيادته وبين الفرس ، وعرض أبو بكر الأمر على أصحابه واستقر الرأى على أن يتولى خالد بن الوليد قيادة الجيش العربى ، وأصدر إليه تعليمات كانت فى جوهرها تهذيبا لأسلوب القتال الذى حرص عليه الإسلام ، أمره بعدم التعرض لمن يزرع الأرض لايقتل منهم أحداً ولا يأخذ منهم أسرى ولايسىء إليهم فى أمر ، وأن يزيل الظلم الذى يتعرضون له من جانب الفرس ، وأن يعمم العدل الذى دعا إليه الاسلام ، وكانت الأوامر صريحة فى أن يسلك مسلك الرسول الكريم ، فيعرض قبل القتال رسالة الإسلام ويدعو إليه ، فإذا أجيب كفّ يده عن القتال وجنح إلى السلم .

ونفذ خالد هذه التعليمات التى تعد منهاجاً عظيما ، وضعت أصوله وقواعده وأسسه المدرسة العسكرية الإسلامية فى ضوء تعاليم القرآن ، فبعث برسالة إلى هرمز قال فيها « اسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، أو أقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك » .

وفى الحيرة دعا خالد زعماءها إلى إحدى ثلاث : الإسلام أو الجزية أو المنابذة ، فاختاروا الأخيرة ، ولما اشتد القتال ورأوا أن المقاومة لا تجدى نادوا « يامعشر العرب ، قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً » ، وعقد خالد معهم صلحاً وكتب بينه وبين الزعماء عدىّ بن عدىّ وعمرو بن عدىّ ، وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أطال كتاباً عاهدهم فيه على الجزية على أن يمنعهم ، فإن لم يمنعهم فلاجزية عليهم ، فإذا غدروا بقول أو فعل برأت ذمته .

وبعث خالد إلى حكام فارس «أدخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم» ، وكتب إلى مرازبتها « اسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية » .

وعندما تولى سعد بن أبى وقاص «الأسد فى براثنه» قيادة الجيش الإسلامى طلب منه الخليفة عمر أن يعرض على يزدجرد الإسلام أو الجزية أو المناجزة ، فبعث وفداً فيه النعمان بن مقرن وفرات بن حيان والأشعث بن قيس وعمرو بن معديكرب والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة ، وتولى النعمان مخاطبة يزدجرد (استقر له الملك بعد صراعات دامية داخل البلاط الفارسى ، تولى خلالها الملك عدد كبير ، ولم يستمر أحد فى الملك فترة طويلة ، حتى أن شهر براز بقى ملكا لمدة أربعين يوماً فقط) .

قال النعمان « إن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا كم عليه على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم ، وإن أتيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم » ، وأساء يزدجرد معاملتهم ، وأمر بأن يحمل أشرفهم وقراً من تراب ، فحمله عاصم بن عمرو ، فلما رآه سعد قال « أبشروا فقد والله أعطانا الله مقاليد ملكهم » ، بينما بعث رستم برجل في إثرهم « أدرك التراب فرده ، وإن ذهبوا به إلى أميرهم غلبونا على أمرنا » ، لأن النجوم كانت قد دلته على أن الذين يخرجون من المدائن بترابها إنما يخرجون بأرض فارس معهم .

والتقى زهرة بن الحوية برستم وتحدث معه ؛ فدعاه إلى الاسلام ، فسأله رستم « أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم عليه ومعى قومى كيف يكون أمركم » ؛ فأجابه « والله لانقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أوحاجة » .

لقد خضع الصدام بين العرب المسلمين والفرس لعوامل عدة وهامة :

* * تأمين شبه الجزيرة من مؤامرات الفرس وتهديداتهم .

* * إبلاغ الدعوة إلى أهل فارس وعرض الدين الجديد عليهم .

* * رفع الظلم الذى يتعرض له العرب من جانب الفرس .

وعندما وقع الصدام كان أسلوب المسلمين خاضعاً لتعاليم القرآن فلاعدوان ولا قتل ولا تخريب ؛ ولكن دعوة سلمية رفضها الفرس غروراً وكبرياء ، حتى تم الفتح وارتفعت راية الإسلام فوق أرض فارس وأصبح الدين هو الاسلام .

●● قال حاطب بن أبى بلتعة مبعوث رسول الله إلى المقوقس

« بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ملك الإسكندرية ، فجئته بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلنى فى منزله وأقمت عنده » ، وكان رد المقوقس على الرسول ردا جميلا ، فقد بعث يقول إنه يعتقد أن نبياً سيظهر ، ولكن فى الشام وليس فى الجزيرة العربية ، وأنه أحسن استقبال رسوله بما يجب له من إكرام ، وأرسل معه هدية وحرساً يحرسه إلى مأمنه ، وكانت الهدية جاريتين هما مارية التى تزوجها الرسول وكان له منها ابنه إبراهيم ، وسيرين التى وهبها الرسول لحسان بن ثابت الأنصارى ، وبغلة أسماها النبى دلدل ، وحماراً سمى عفير أو يعفور .

وهنا يفرض سؤال نفسه .

إذا كان المقوقس قد أحسن استقبال المبعوث وأكرمه ، واحتفظ برسالة الرسول — كما جاء من بعض الروايات — داخل وعاء من عاج وختم عليه ، وأرسل إلى الرسول بهدية تقبلها عليه السلام ، فلماذا كان الغزو الإسلامى لبلاد مصر .

لقد كان المسلمون جميعاً يدركون منذ عهد الرسول أن مصر ستكون جزءاً من الأمة الاسلامية . فقد قال الرسول « ستفتحون مصر ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإنَّ لهم ذمة ورحماً » .

وبعد أن صالح عمر بن الخطاب أهل بيت المقدس فى السنة السادسة عشر من الهجرة ، أخبره عمرو بن العاص أن أرطبون الروم قد انسحب بقواته من فلسطين إلى مصر ، وأن وجهة النظر العسكرية تحتم مطاردته للقضاء عليه

حتى لا يستفحل أمره ويكون شوكة فى جنب الدولة الإسلامية فى فلسطين والشام ، وخاصة أنه تتوافر له فى مصر وسائل الإعداد والتجهيز والقوة التى يرتكن عليها .

وعاد عمرو مرة أخرى يعرض الأمر على عمر ، وكانت وجهة نظره أن المسلمين إذا قنعوا بالاستقرار فى البلاد التى أخضعوها ، صُور ذلك من جانب أعدائهم بالضعف ، وأغراهم على مهاجمتهم ، هذا فوق أن أرطبون ، يجد فى جمع الجموع ليسير بها إلى فلسطين ، وأكد للخليفة أن الهجوم على مصر فى ضوء هذ المعنى يكون دفاعياً وقائياً .

وجمع عمر أولى الرأى فى المدينة ، وعرض عليهم الأمر ، ثم بعث إلى عمرو « اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر » .

إن وجهة نظر عمرو سليمة من وجهة نظر القائد المحارب المحنك الذى يقدر الموقف العسكرى تقديراً سليما صحيحاً ، ولعل فى الأسباب التى ذكرها للخليفة الرد الوافى على السؤال الذى فرض نفسه .

والذى نريد أن نركز عليه هنا هو أن المسلمين فى مسيرتهم إلى مصر نهجوا النهج الإسلامى الذى أقرته المدرسة العسكرية الإسلامية ، فكان عمرو يعرض على الناس الإسلام أو الجزية أو القتال ، فبعث مثلا بعبادة بن الصامت إلى المقوقس يقول له « انظر الذى تريد فبينه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها ، إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، بذلك أمرنى الأمير وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا » .

وعندما تم الصلح بين المقوقس وعمرو تقرر أن يُفرض ديناران على كل نفس إلا الشيخ والصغير والنساء .

وفى صلح عمرو والمقوقس اتفق على خروج الروم من مصر نهائيا وأن تُترك الكنائس للمسيحيين ، وألا يتدخلوا فى شئونهم ، وأن يسمح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية .

وهكذا كان دخول المسلمين مصر دخولا مشروعا لايحمل معنى الاعتداء أو العدوان ، ولاينشد رقعة أرض أو فرض سلطان ؛ وإنما كان لتأمين حدود الدولة ، ولكسر شوكة الروم فى مصر ، ولرفع الظلم عن المصريين الذين تربطهم بالمسلمين مصاهرة كريمة ، ولإباحة الحريات الدينية ، ولنشر العدل والمساواة .

خامساً . . . المرتدون

ما أن حمل النعاة نبأ وفاة الرسول حتى تعرضت الجزيرة العربية لهزة خطيرة ، فقد رأى كثيرون الفرصة سانحة للعودة إلى القديم أو للتخلص على الأقل من سلطان المدينة التى كانت لها مقاليد العرب وكانت ترسم فيها السياسة العامة فى عهد رسول الله .

انقسم المسلمون بعد وفاة الرسول إلى مؤمن موقن ومؤمن مفزع وكافر عنيد ومنافق مفضوح النفاق ومتماوج تتطارحه الأهواء .. وخلال هذا الجو القاتم الذى خيم على الجزيرة ، رفع النفاق رأسه وأعلن كثيرون تمردهم وعصيانهم ؛ ووصف الطبرى الأمر فقال « نجم النفاق واشرأبت اليهود

والنصارى والمسلمون كالغنم فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم؛ وقلتهم وكثرة عدوهم » .

وترددت على ألسنة الكثيرين أقوال كانت شعاراً لهم ومبرراً لمواقفهم مثل قولهم « لو كان نبياً ما مات » ؛ وقولهم « انقضت النبوة فلا نطيع أحداً بعده » . وقولهم « نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله ونصلى ، ولكن لانعطيهم أموالنا » ، ولم يحفل هؤلاء بقول أبى بكر الصديق يوم مات رسول الله « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت » ؛ وتجاهل هؤلاء لغرض فى أنفسهم قول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُم عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكرين ﴾ ، [آل عمران ١٤٤] ؛ ولعل بعضهم قد نسى قول رسول الله « إن عبداً من عباد الله خيَّره بين الدنيا وبين ماعنده فاختار ماعند الله » .

ظهرت فى الجزيرة عقب وفاة رسول الله تيارات ثلاث

● الردّة عن الإسلام

● ● الامتناع عن دفع الزكاة

● ● ● إدعاء النبوة

وكان لابد للسلطة فى المدينة أن تواجه هـذه التيارات الثلاث التى أصبحت تمثل أحد أطراف القوى المضادة للإسلام .

وكان المجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة قد بايعوا أبابكر ـ الذى يعدل بإيمانه إيمان أمة ـ خليفة لرسول الله ، قال عبد الله بن مسعود « لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه ، لولا أن الله منّ علينا بأبى بكر »

وأصبح أبو بكر مسئولا عن معالجة الموقف المتدهور الذى نشأ داخل المجتمع الإسلامى حفاظاً على الإسلام ومتابعة لمسيرته وصوناً لوجوده واستكمالا لرسالته . ولقد أحس بمسئوليته أمام الله والتاريخ والناس فقرر أن يتصرف بحكم مسئوليته هذه بعقل المؤمن وقلب المسلم ، ورأى أن يكون منهاج الدعوة الإسلامية هو منهاجه فى معالجة هذا الموقف ، فأصدر كتاباً عاماً يدعو فيه الناس إلى الرؤية السليمة للأمور والعودة إلى صحيح الاسلام ، ونبذ الأفكار التى سيطرت على بعض العقول ، والتمسك بالإسلام ديناً ، وبعد هذه الدعوة السليمة لإنقاذ الموقف ، أبان أن من استجاب فقد أحسن ، أما من بقى على موقفه وأصر على انحرافه وردته ، فليس له إلا القتل ؛ وأعدّ عدة ألوية لمواجهة العاصفة ، ونؤجل الحديث عنها قليلا لنرى كيف دبر أبو بكر لمواجهة هذه الفتنة ، وكيف استطاع أن يتغلب عليها وأن يجمع كلمة العرب .

ماذا فعل أبو بكر مع

١ ــ المرتدين

كان تيار الردّة قوياً عمّ الجزيرة كلها فى كافة أنحائها ، حتى أهل مكة أنفسهم همّوا بالردّة ، وخانهم عتّاب بن أسيد عامل رسول الله على مكة

فتوارى عنهم ، إلا أن سهيل بن عمرو خطب فيهم وقال بعد أن ذكر وفاة الرسول « إنّ ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فتهيبوا الموقف ورجعوا عن ردّتهم وبقوا على إسلامهم .

وهمت ثقيف بالطائف أن ترتد ، فخاطبهم عثمان بن العاص عامل النبي عليهم « يا أبناء ثقيف ؛ كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتد » ، فاستمسكت بإسلامها

أما القبائل القائمة بين مكة والمدينة والطائف مثل مُزينة وغفَار وجُهينة وبلىّ وأشجع وأسلم وخزاعة ، فقد ظلت على إسلامها

أما سائر العرب فقد كان عهدهم بالإسلام قريبا ، ولم يكن الإسلام قد تمكن من قلوبهم وعقولهم ونفوسهم ، فارتدوا وانتفضوا على الدين وأهله ، ورغبوا فى أن يعودوا إلى استقلالهم السياسى والدينى ، أما القليل منهم الذين رأوا أن يبقوا على إسلامهم فقد انضموا إلى مانعى الزكاة .

ونصحهم أبو بكر فلما لم يقبلوا نصحه حاربهم .

٣ — مانعى الزكاة

قبائل أخرى بقيت على إسلامها ، ولكنها أبت إيتاء الزكاة ، وهى القبائل القريبة من المدينة مثل عبس وذبيان ؛ وانضم إليها بنو كنانة وغطفان وفزارة وهؤلاء كانوا أسرع تحركاً من أبى بكر ، فجمعوا جموعهم ودفعوا بها

إلى مشارف المدينة ، ثم قسّموا قوتهم قسمين . أقام الأول بالأبرق من الرّبذة وتحرك الآخر إلى ذى القصّة وهو أقرب موقع إلى المدينة على طريق نجد .

جمع أبوبكر كبار الصحابة وعرض عليهم الموقف وانتهى إلى ضرورة قتال مانعى الزكاة ، فرفض عمر واعترضت طائفة من المسلمين وكانوا يمثلون أغلبية الأصوات ، وكانت وجهة نظرهم أنهم مسلمون حتى مع امتناعهم عن أداء الزكاة ، وقال عمر « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

وكان أبوبكر ومعه آخرون يرون ضرورة قتالهم ، وقال فى ذلك « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » ، ثم حسم الموقف قائلا « والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال وقد قال إلا بحقها » .

ورغم اعتراض عمر فإنه عاد وأيد أبابكر وقال « فوالله ماهو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

بعثت قيادة جموع مانعى الزكاة نفراً منهم إلى المدينة يستطلعون الأمر ويحاولون فى ذات الوقت إثارة الناس على أبى بكر ، فلما لم يجدوا فرصة لذلك عادوا أدراجهم وهم يرددون قول أبى بكر « والله لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه » .

وجمع أبوبكر الناس وقال لهم مشيراً إلى هـذا النفر الذى دخل المدينة

« إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لاتدرون أليلا تؤتون أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم فاستعدوا وأعدوا »

إذن فأبوبكر توقع أن تتعرض المدينة لهجوم مفاجيء يقوم به الممتنعون عن دفع الزكاة بقصد إرغام السلطة فى المدينة وإجبارها بالقوة على الرضوخ لطالبهم ، واتخذ على الفور قرارين هامين لمواجهة أى هجوم مفاجيء على المدينة :

- أمر بحراسة مداخل المدينة وكلف بها علياً والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود .
- أمر بأن يجتمع سائر الناس فى المسجد فى عدّة القتال .

وكان توقعه سليما ، فقد هاجم القوم المدينة ، وخرج أبوبكر ومعه الناس لمواجهتهم ، ففروا ولكن كميناً لهم فى موقع ذى حُساً باغت المسلمين ، وكان هذا الكمين قد جاء بأوعية من جلود يسمونها أنحاء (جمع نحى) ونفخوها وربطوها بالحبال وضربوها فى أوجه الإبل التى امتطاها رجال أبى بكر فنفرت براكبيها فى اتجاه المدينة حتى دخلتها .

وسعد القوم بهذا النصر المفاجيء فاجتمعوا وقرروا إعادة مهاجمة المدينة ودعوا قواتهم فى ذى القصّة فانضمت إليهم ، ولم يدروا ماذا يخبئه لهم الليل وماذا يحمل إليهم ، ذلك أن أبابكر بات يتهيأ ويعبيء القوى ، وفى الثلث الأخير من الليل خرج إليهم وعلى ميمنته النعمان بن مقرن ، وعلى ميسرته

عبد الله بن مقرن ، وعلى الساقة (المؤخرة) سويد بن مقرن ، وفاجأ القوم فى الفجر وهم مطمئنون ، ووضع السيف فيهم ، فأخذتهم المفاجأة وأسقط من أيديهم ، فارتدوا إلى ذى القصّة ثم عاودوا انسحابهم وانضم الهاربون منهم إلى قوات طليحة فى بزاخة ، وعادت القبائل تدفع الزكاة .

٣ — الذين ادّعوا النبوة

كان أولهم طليحة الأسدى من بنى أسد وقد تنبأ فى العهد الأخير من حياة رسول الله وتبعه بعض العرب واليهود ؛ فاتخذ سميراء من بلاد بنى أسد مقراً لحركته ومركزاً لدعوته وهو لم يدع العرب إلى العودة لعبادة الأصنام وإنما ادعى أنه يُوحى إليه كما يُوحى إلى رسول الله، وأن الملك يأتيه كما يأتى محمداً من السماء ، وحاول محاكاة القرآن موهما الناس بأنه يوحى إليه به مثل قوله «والحمام واليمام. والصرد الصوام. قد صُمن قبلكم بأعوام. ليبلغن ملكنا العراق والشام » ، وأنكر الركوع والسجود فى الصلاة وقال فى ذلك « إن الله لم يأمر بأن تقوس الظهور فى الصلاة » و « إن الله مايصنع بتعفر وجوهكم وتقبيح أدباركم شيئاً واذكروا الله واعبدوه قياما »

وانضمت إليه فلول قبيلتى عبس وذبيان بعد هزيمتهم فى ذى القصة ؛ وكذلك بنو أسد وغطفان ؛ وظل طليحة على ادعائه حتى مات رسول الله. فاجتمع بقومه فى بزاخة وأعلن خروجه على سلطان المدينة وعدم اعترافه بها.

ثم كان مالك بن نويرة وهو سيد من سادات تميم وكان رئيس قومه بنى يربوع وفارسهم وشاعرهم ، وقيل إنه كان تياهاً مغروراً حلو الحديث حسن المحاضرة ، وكان أحد ستة رجال أقامهم رسول الله على بنى تميم ، فلما

مات رسول الله جمع القوم زكاتهم ليرسلوها إلى أبى بكر ، إلا أنه رفض وأعاد المال إلى أصحابه .

وكان ثالثهم مسيلمة الحنفى من بنى حنيفة باليمامة ، واسمه هارون ابن حبيب ويكنى أبو ثمامة ، ولقبه مسيلمة ، ادعى النبوة فى عهد رسول الله وبعث إليه عليه السلام يقول إن جبريل نزل عليه وأخبره بأن الله قد قاسمه النبوة معه وشاطره الملك والسيادة فى جزيرة العرب « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد ، فإنى قد اشتركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون » ، وأراد رسول الله له الهداية فبعث بأحد وجوه بنى حنيفة من المسلمين وهو نهار الرجال (ذُكر فى بعض المراجع نهار الرحال) ليفقه أهل اليمامة فى الدين ويقرئهم القرآن ، إلا أن مسيلمة استطاع أن يؤثر فى نهار الرجال ، فانسلخ عن دين محمد ، وأنكر نبوته ، وانضم إلى مسيلمة ، فكان أشد فتنة على الإسلام من مسيلمة ذاته ، وعظم أمر مسيلمة بعد وفاة الرسول ، وتبعه قوم كثيرون قيل ما بين أربعين ألفا وستين ألفا .

وكانت سجاح بنت الحارث من بنى يربوع الأنثى الوحيدة التى ادّعت النبوة ، وكانت امرأة ذكية تدّعى الكهانة ، وتعرف كيف تقود الرجال ، فتبعها قوم كثيرون من قبائل تغلب وربيعة والنمر وإياد .. كانت تنقم من رسول الله ، فلما سمعت بوفاته ارتدت وتنصرت ، وقادت قومها فى حملة ضارية تريد أن تغزو المدينة وتقاتل أبا بكر ، والتقت بمالك بن نويرة وتحالفت معه ، ثم التقت بمسيلمة فحالفته وتزوجته ، ثم تركته إلى

قومها ، وعادت إلى العراق ، حيث يعيش أخوالها فبقيت بها حتى ماتت .

نعود إلى موقف أبى بكر الذى اتسم بمبدأين أساسيين من مبادىء الإسلام فى الحرب

أولها .. مجادلة هؤلاء وهؤلاء بالتى هى أحسن وتقديم النصح لهم .

ثانيهما .. القتال حتى العودة إلى صحيح الدين أو القتل .

جهز أبو بكر أحد عشر لواء وولى كل لواء قائداً من رجالات الإسلام المعروفين بعمق الإيمان وصدق العزيمة والشجاعة ، وحدد لكل واجبه ومهمته القتالية ، وأمر أن يُخطر بعد كل عملية وأن يضعه كل قائد فى الصورة كأنه معه فى قطاع عملياته ، ولا عجب فى هذا فهو يمثل القيادة العامة ، ولا بد من أن تصدر الأوامر منه ، وأن تعرض المشكلات والنتائج عليه ، وأن يبلغ بسير العمليات حتى يمكنه تدارك المواقف وتعديل الخطط وتدبير الأمور وإصدار الأوامر السليمة التى تخدم الخطة العامة .

أعد أبو بكر منشوراً سلمياً نشره على كافة القبائل ، يعرض عليهم الموقف ، ويدعو المرتدين على مختلف اتجاهاتهم إلى العودة إلى الإسلام ، وتوحيد جبهة المسلمين بدلا من الفرقة والإنقسام ، وجاء فى هذا المنشور :

« إن الله تعالى أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه ، وسراجا منيرا لينذر من كان حياً ، ويحق القول على

الكافرين ، فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذنه من أدبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعا أو كرها ، ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذى عليه ، وكان الله قد بيّن له ذلك ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزله ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (الزمر ٣٠) و ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٤) و ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران ١٤٤) ، فمن كان يعبد محمدا فإنّ محمدا قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد حى قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه يجزيه .

وإنى أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأن تعتصموا بدين الله ، فإن كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم يعنه مخذول ، فمن هداه الله كان مهتديا ، ومن أضله كان ضالا ، قال الله تعالى ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ (الكهف ١٧) ولم يُقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقر به ، ولم يقبل منه فى الآخرة صرف ولا عدل .

وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان ، قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (الكهف ٥٠) وقال ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (فاطر ٦) .

وإنى بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته أن لا يقاتل أحدا ولا يقتله ، حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكفّ وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه ؛ وأن يحرقهم بالنار ؛ ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبى النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله .

وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الآذان » .

وبمراجعة كتاب أو منشور أبى بكر نجد أنه

- استعرض الموقف العام منذ بدء رسالة الرسول حتى وفاته عليه السلام وأوضح أن وفاة الرسول لا تعنى نهاية الرسالة ، لأنها رسالة الله والله حى لا يموت .

- دعاهم إلى تقوى الله والتمسك بما جاءهم من عند الله ، ففى ذلك الهداية والخير والصلاح ، أما الخروج عن طاعته ومخالفة أوامره فهو الضلال كل الضلال .

- عرض لمواقفهم بعد وفاة رسول الله ، وأرجع ذلك إلى أنهم تركوا أنفسهم للشيطان يوجههم ويسيطر على تفكيرهم وهو عدو لهم ، وفى ذلك ضرر ومشقة .

- أعلنهم أن جيوشه ليست موجهة أصلا لقتالهم ، ولكن لدعوتهم إلى الله ، فإن استجابوا حقنوا دماءهم ، وإن أبوا ورفضوا دعوة السلم فلا بد للقوات المسلحة أن تؤدى واجبها فى حماية الدين والدولة بقتالهم وليكن القتال وقتها بعنف وشراسة تصل إلى حد الحرق بالنار .

تحددت اللواءات والأهداف والقيادات على الوجه التالى :

- اللواء الأول : يقوده خالد بن الوليد

يقاتل طلحة فإذا فرغ منه يقاتل مالك بن نويرة .

- اللواء الثانى : يقوده عكرمة بن أبى جهل

ويقاتل مسيلمة الكذاب .

- اللواء الثالث : يقوده شرحبيل بن حسنة

لواء مساعد لعكرمة فإذا فرغ من عملياته لحق بلواء عمرو فى قضاعة لمعاونته .

- اللواء الرابع : يقوده المهاجر بن أمية

يقاتل قوات العبسى فى اليمن وحضرموت .

• اللواء الخامس : يقوده سويد بن مقرن
ويقاتل أهل تهامة باليمن

• اللواء السادس : يقوده العلاء بن الحضرمى
ويقاتل الحطم بن ضبيعة فى البحرين .

• اللواء السابع : يقوده حذيفة بن محصن
ويقاتل ذى التاج لقيط بن مالك .

• اللواء الثامن : يقوده عرفجة بن هرثمة
ويقاتل أهل مهرة .

وهذه الألوية الثمانية تعمل كلها فى قطاع جنوب الجزيرة لبأس أهله وإلحاحهم فى الردّة ، أما القطاع الشمالى فقد توجهت إليه ثلاث لواءات هى :

• اللواء التاسع : يقوده عمرو بن العاص
ويحارب قضاعة ووديعة والحارث

• اللواء العاشر : يقوده خالد بن سعيد
وتكون وجهته مشارف الشام

• اللواء الحادى عشر : يقوده معن بن حاجز
ويحارب بنى سليم

وبقى أبو بكر بالمدينة ، واستبقى معه عليا وطلحة والزبير وعمراً ، ليكونوا مجلس شوراه فى مركز القيادة العامة يضعون معه الخطط ويدبرون معه الأمور .

وأبقى أبوبكر الأنصار فى المدينة ، فلم يول أحداً منهم قيادة ، بل جعل الألوية كلها للمهاجرين ، وكانت له فى ذلك وجهة نظر هى أن يبقى أهل المدينة وهم أعلم بأمرها كقوات دفاع عنها تذود عن حياضها .

وخرجت الألوية كل إلى قطاعه ينفذ هدفه الاستراتيجى .

وكان القتال فى كافة القطاعات دفاعاً عن الإسلام وحماية للمسلمين .

ولقد انتهى القتال بانتصار المسلمين وعودة القبائل إلى الإسلام ، وقد أخلص العائدون التائبون وحسن إسلامهم ، نعفا عنهم أبوبكر ولكن منعهم من الخروج فى أية عمليات عسكرية ، وظل هذا المنع سائداً طوال عهده ، وفى عهد عمر أذن لهم لحسن جهادهم وأسهموا فى باقى الفتوحات التى شملت الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا .

كلمة أخيرة

الثابت من هذا العرض أن الحرب الإسلامية ضد المرتدين ومانعى الزكاة ومدعى النبوة كانت حرباً دفاعية وليست هجومية عدوانية ، فالردّة والامتناع عن دفع الزكاة وادعاء النبوة وإعداد الجيوش ووضع الخطط للهجوم على المدينة مرّة بمعرفة مانعى الزكاة ومرّة بمعرفة سجاح تهديد واضح وصريح للحكومة المركزية فى المدينة واعتراض على سلطتها وخروج على مقتضيات الصالح العام ، كما أنه تهديد واضح وصريح للدين الإسلامى ولمصالح المسلمين والمجتمع الإسلامى وخروج على تعليمات الله تبارك وتعالى وانحراف بالخط النبوى ، لهذا فإن الموقف ـ وقد فشلت كافة وسائل معالجة الأمر بالسلم والتفاهم ـ يلزم القيادة العامة والسلطة العليا باتخاذ كافة إجراءات الحماية والأمن وتوفير مناخ الحرية والعدل والسلام

قامت الحرب فى الإسلام ... هذه حقيقة

فالمسلمون حملوا سلاحهم وخاضوا غمار معارك كثيرة امتلأت بها صفحات تاريخهم منذ بدر ، حاربوا قريشاً ، ثم القبائل المنتشرة فى أنحاء الجزيرة ، ثم اليهود الذين عاشوا فى يثرب وحولها ، ثم الروم فى الشام ومصر وشمال أفريقيا ، ثم الفرس فى أرض العراق ، وحاربوا أيضاً المرتدين الذين تركوا الإسلام وعادوا سيرتهم الأولى .

فهل معنى هذا أن الإسلام دين حرب أم أنه دين سلام ؟

إن الحكم المنصف البعيد عن التعصب والذى يزن الأمور بميزان الصدق والعدل والفهم يستطيع مطمئناً أن يصدر قراراً صحيحاً يؤكد به أن الإسلام دين سلام وليس دين حرب ، وأن المسلمين خاضوا غمار المعارك وهم كارهون .

ففى الوقت الذى تعددت فيه الطوائف والأديان فى الجزيرة العربية ؛ وزادت فيه المنازعات بين القبائل العربية ، وتحكمت العصبية فى أمور المجتمع ، جاء الإسلام ليعلن الأخوة الإنسانية ويبشر بالدعوة إلى التضامن والمحبة ، ويبطل كل عصبية ، ويسلك بالعرب طريق الخير والعزة ، ويقرب بين النفوس المتنازعة والقلوب المتطاحنة والمشاعر المختلفة المتضاربة ، ويجمع الناس جميعاً

فى وحدة لاتفرق ، وفى حقوق وواجبات متساوية . ويقول الله تعالى فى هذا المعنى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (آل عمران ١٠٣) .

ولقد قام منهج الإسلام فى دعوته على الحكمة والموعظة والكلمة الطيبة والإيضاح الجميل ، وهذه كلها وسائل تخاطب العقل والفكر فى هدوء بعيداً عن التعصب أو التهديد .

ثم إن كلمة الاسلام مشتقة من السلام ، فهو إذن يدعو إليه ويستمد وجوده منه ويرى فى استقراره استقراراً له ، ومن هنا كانت رسالة الإسلام تقوم أولا على تحقيق السلام وتأكيده وإرسائه ، فالإسلام مرتبط بالسلام متصل به .

والمؤمنون الذين دخلوا فى الإسلام عن عقيدة وثقة واقتناع لم يجدوا لأنفسهم إسماً أفضل من المسلمين ، فهو إسم يعبر عن مشاعرهم وأمانيهم ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج ٧٨) ، ولقد اختار سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل لفظ المسلمين بالذات ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ (البقرة ١٢٨) . والداعيان هما أبو الأنبياء وابنه ، ودعوتهما أن يكونا مسلمين لله ، وأن تكون من ذريتهما أمة مسلمة ، وأبناء إبراهيم من ذرية إسماعيل هم الأمة المسلمة ، وهم الدعوة المستجابة لإبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة ١٢٩) ، والنبى محمد بن عبد الله الذى حمل رسالة الإسلام هو دعوة إبراهيم كما قال عليه السلام « أنا دعوة إبراهيم » ، وهذا النبى الذى دعا إبراهيم ربه ليبعثه رسولا جاء يتلو على الناس آيات الله ويعلمهم الحكمة ، ولم يأت ليحمل الناس بالتهديد على الإيمان برسالته ، ولم يأت بالسيف يقطع به الرقاب ، ولكنه جاء بكتاب من عند الله أحكمت آياته لا ريب فيه هدى للناس ، وكُلف برسالة هى رسالة خير ورحمة ، فلا يكون فيها للناس جميعاً إلا الخير والرحمة ، حتى لأولئك المشركين الذين تصدوا للرسالة وأعنتوا صاحبها ، حيث لم يأخذهم الله بما أخذ به الأمم السابقة ، الذين تحدوا رسل الله وكفروا بهم وبما يدعونهم إليه ، وهى رسالة ترسم للناس الحدود وتأخذ بهم على طريق الهداية والرشد ، وتوضح لهم المعالم بين الخير والشر والحق والباطل ، وهى رسالة إنسانية تحترم الوجود الإنسانى وتلتقى بالناس وتتعاطف معهم وتسعى إلى تحقيق السعادة والأمن والسلام لهم ، والمسلمون هم حملة هذه الرسالة ، يؤمنون بالسلام ، ويسعون من أجل أن ينتشر فى العالم ، فيظل بمظلته الخلق جميعاً فى كافة البقاع وفى كل الأزمنة .

وتحية الإنسان المسلم لأخيه المسلم عند كل لقاء أو فراق هى « السلام عليكم » وهى دعوة صادقة مخلصة تلقى فى كل مناسبة ، وتصدر عن قلب مؤمن يعرف أبعادها ، وعقل متفتح يدرك حدودها ، ووجدان حى يفهم معناها .

وختام صلاة المسلمين سلام على اليمين وسلام على الشمال ، والسلام هنا أمنية كريمة يتمناها كل مصلٍ لأخيه الذى يشاركه الصلاة .

والقرآن نزل فى ليلة كلها سلام ، تحف به ملائكة السلام ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (القدر ١ / ٢) ، فهذه الليلة الكريمة ولد فيها الأمن والسلام من بدئها إلى ختامها ، وهى ليلة القرآن ، والقرآن من مبدئه إلى ختامه سلام وأمن كله ، ورسالة القرآن هى الإسلام الذى هو السلام .

والسلام خير تحية يلقى الله بها عباده ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ (الأحزاب ٤٤) ، وهذا القول بيان لرحمة الله بالمؤمنين وإحسانه إليهم ، فهم حين يلقون الله يوم القيامة تلقاهم الملائكة لقاء كريماً بهذه التحية التى تسعدهم « سلام عليكم » ، وتذهب عنهم الوحشة ويزايلهم الخوف فى موطنهم الجديد بعد مفارقتهم الحياة الدنيا ، وهذا مايشير إليه قول الحق تبارك وتعالى ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (النحل ٣٢) ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ (الرعد ٢٤) .

وسميت الجنة التى وعد الله بها المتقين دار السلام ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (الأنعام ١٢٧) ، و ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ (يونس ٢٥) ، فهؤلاء الذين دعوا إلى الإيمان فأجابوا ورأوا الهدى فاهتدوا لهم عند ربهم دار الأمان ، والعافية من كل سوء ، والنجاة من كل شر ، والفوز بنعيم الجنات وبرضوان الله .

والسلام اسم من أسماء الله ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الحشر : ٢٣) ، فالله هو السلام ، هو من سلمت ذاته وصفاته وأفعاله ، والله مسمى بكل حسن يليق به ، لأن حسن الإسم من حسن المسمى ، حيث يسمى الشيء عادة بالاسم الذى يدل على أوضح صفة فيه ، وإذا تعامل الإنسان مع ربه بأسماء يدعوه بها ، وجب أن تكون هذه الأسماء دالة على ما لله سبحانه من كمال وعظمة وجلال وسلطان قائم على الوجود ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف ١٨٠) .

والإسلام جاء مؤكداً لمعانى السلام ، وعمل على استقراره ، وأرسى قواعده ، ودعا الناس إلى العمل بها ... قرر مثلا مبدأ الإخاء بين الناس ، ودعا إلى القضاء على روح التعصب ، وأشار بفضل السلام وطبع النفوس بروح التسامح الكريم ، وأمر بالوفاء ، وحرم الغدر ، وطالب باحترام العهود والمواثيق ، وحصر فكرة الحرب فى أضيق حدودها ، وحرم العدوان ، وأشاع العدل والرحمة واحترام الحقوق .. لقد سعد رسول الله بحلف الفضول لأنه كان يحمل معنى السلام « لقد شهدت فى بيت عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حُمْر النَّعم ، ولو سئلت به فى الإسلام لأجبت » ، وهذا الحلف تداعت إليه قبائل من قريش ، وشهده بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزّى وزهرة ابن كلاب وتَيْم بن مرّة ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ، حتى ترد عليه مظلمته .

وأمر القرآن بالتدخل لفض أى نزاع مسلح أملا فى إقرار السلام، ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ﴾ (الحجرات ٩) ، وهذه الآية تضع أساسا للتعامل الأخلاقى فيما بين المسلمين ، فالقرآن يسلم بإمكانية وقوع صدام بين المؤمنين ، ولكنه يدعو إلى فضه بسرعة ، ويطلب من المسلمين أن يسهموا فى ذلك قبل أن يتسع ويستغلظ ، والقتال بين المؤمنين لا يعنى أنهم خرجوا عن حدود الإيمان ، فهم مؤمنون مقبلون على عمل مكروه أساسا فى الإسلام ، إذن فالإسلام يكره أن يقوم قتال بين رجاله وقومه ، ويدعو فى حالة قيامه باقى المسلمين للعمل فورا ودون انتظار إلى إصلاح ذات البين ، وأن يلزموا المتقاتلين بما يقضى به كتاب الله وسنة رسوله ، فإذا بغت طائفة ورفضت أن تقبل النزول على حكم الله ورسوله وجب على المؤمنين مناصرة الطائفة الأخرى المعتدى عليها ، حتى يعود المعتدى تحت الضغط إلى حكم الله .

وأوصى الإسلام الناس بالحق والصبر والرحمة والتضامن والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران ١٠٤) ، وبهذه الدعوة الإلهية يصبح المسلمون رعاة الدولة الإسلامية أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتحارب الموبقات والمفاسد ، وتصلح المعوج والمنحرف ، وتأخذ بيد الجميع إلى مستوى اجتماعى وفكرى أعلى وأكبر ، وأعظم وأجل .

ورأى الإسلام أن الحد من البغى والقضاء على الظلم ومحاربة الفساد هو

أحد خطوط الاصلاح الإجتماعى الذى يحرص عليه ويخطط له ، كما رأى أن الدعوة إلى مكارم الأخلاق دعوة تخلق جواً من السلام يعيش فيه الناس آمنين مطمئنين وقوله تعالى ﴿ يا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ (لقمان ١٧) ، دعوة كريمة فى معناها وهدفها ونتيجتها .

لقد كانت غاية الإسلام إذن أن ترقى النفوس ، وأن تمتلىء القلوب بالايمان ، وأن تعمر بالاخلاص والمحبة ، وهذا النوع من السلوك يقضى على نزعات الشر عند الإنسان ، وبالتالى تحد من الرغبة فى الحرب والميل إليها ، فيعم السلام ، ويعيش الناس فى أمان ووئام ومحبة وسلام .

ولقد أشرنا من قبل إلى أنّ الإسلام هذب صورة الحرب ورسم لها حدودها حتى لا تتعارض مع إنسانية الإنسان ، ولا بد الآن من الإشارة إلى حقيقة هامة ، وهى أن الإسلام من أجل تحقيق السلام دعا إلى الاستجابة الفورية لأية دعوة إلى السلام ﴿ وإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ (الأنفال ٦٢) ، فالحق تبارك وتعالى يشير على النبى الكريم أن يميل إلى الموادعة والسلام ، إن مال إليهما الأعداء ، وأن يرغب فيهما إذا رغبوا ، ذلك أن الدعوة إلى السلام هى دعوة إلى خير وأمن وعافية ، ولا ينبغى حقا وعدلا ومصلحة رفضها والتأبى عليها .

ولقد استجاب رسول الله لتعليمات الله فى شأن الاستجابة إلى دعوة السلام ، وكذلك المسلمون من بعده ، والأمثلة كثيرة لاسبيل إلى حصرها ، ونحن نقدم مثلا واحدا حيا يؤكد صدق ما نذهب إليه ، ونعنى به صلح

الحديبية الذى تم فى عهد رسول الله .

فقد كان من الطبيعى أن تصد قريش الرسول وأصحابه ـ منذ هجرتهم ـ عن المسجد الحرام ، وكان من الطبيعى أيضاً أن يزداد حنينهم وشوقهم إلى أداء واجب الزيارة ، وكان هذا حرمان غير مشروع أو مقبول فقريش لا تملك البيت ، وهى بالتالى لا تملك سلطة الحرمان .

وعاش المسلمون فى المدينة ست سنوات يتحرقون شوقا إلى الزيارة وأداء فريضة الحج ، وأحس الرسول برغبتهم وشوقهم وبصبرهم على الحرمان ، فدعا إلى التحرك إلى مكة حجاجا لا غازين ، وتأكيدا لهذا المعنى دعا بعض القبائل الأخرى لتسير معه ، لتكون شاهدا على تحركه السلمى ، الذى لا يتسم أبدا بسمة الحرب .

وخرج الجمع يتقدمه الرسول ، وساق أمامه سبعين بدنة .

وعلمت قريش بأمر التحرك ، فجمعت جيشا يقوده خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل تصد به القادمين ، وقال رجل من بنى كعب للرسول « قد سمعت (يقصد قريشا) بمسيرك ، فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور ، ونزلوا بذى طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد ابن الوليد فى خيلهم وقد قدموها إلى كراع الغميم » ، فقال رسول الله « ياويح قريش ، لقد أهلكتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب » .

هذا موقف يتحكم فيه إتجاهان . . أحدهما سلمى وآخر يبغى العدوان .

ويرى رسول الله فرسان قريش أمامه على مرمى البصر ، فيسأل الناس « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم ؟ » ، وفى هذا التساؤل معنى الإصرار على السلام .

وتتحرك جموع المسلمين حتى منطقة الحديبية ، وهناك بركت القصواء ، وقال الرسول لأصحابه « إنما حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم ، إلا أعطيتها إياها » .

وبعثت قريش الحليس سيد الأحابيش ليقف على نوايا المسلمين ، وتبينت له حقيقة مسيرتهم ، وأطلق الرسول أمامه الهدى ، فاقتنع وصدّق .

وبعثت قريش عروة بن مسعود ، فالتقى بالرسول وتحدث إليه ، ثم عاد إليهم قائلا « إنما جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه ، والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه » .

ورغبة فى إظهار نية السلام بعث رسول الله مبعوثا إليهم ، فعقر القرشيون جمله ، وأرادوا قتله لولا أن منعهم الأحابيش .

وخرج نفر من سفهاء قريش ليلا إلى معسكر المسلمين وقذفوه بالحجارة فأصابوا بعض أصحاب الرسول ، ووقع بعضهم فى يد المسلمين ، إلا أن الرسول عفا عنهم وأخلى سبيلهم كدليل واضح على الرغبة فى السلام .

وبعث الرسول سعد بن أبى وقاص إلى قريش يقول لهم « إنما جئنا

لنزور البيت العتيق ، ولنعظم حرمته ، ولنؤدى فرض العبادة عنده ، وجئنا بالهدى معنا ، فإذا نحرناها رجعنا بسلام » .

ورفضت قريش أن يدخل المسلمون مكة عامهم هذا .

وخشيت قريش نتيجة تشددها فبعثت بسهيل بن عمرو « إئت محمداً فصالحه ، ولايكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا » .

واستجاب الرسول ، وقرر أن يعود إلى المدينة ، على أن يأتى وأصحابه فى العام الثانى ، وتم الاتفاق بين الطرفين ، وعقد بينهما عهد أو صلح الحديبية وجاء فيه :

— قيام هدنة بين المسلمين وقريش مدتها عشر سنوات .

— من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم .

— من جاء قريشاً من رجال محمد لا يردوه عليه .

— من أحب من العرب محالفة محمـد فلاجناح عليه ، ومن أحب محالفة قريش فلاجناح عليه .

— أن يرجع محمد وأصحابه عن مكة على أن يعودوا فى العـام الذى يلى هذا العام ، فيقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم السيوف فقط فى قربها على أن تترك قريش مكة خلال هذه المدة .

ولقد ثار بعض المسلمين وأرادوها حرباً ضد قريش ، وكان فى مقدمتهم عمر بن الخطاب الذى سأل أبا بكر « علام نعطى الدنيّة فى ديننا » ، ثم اتجه إلى رسول الله وهو مغيظ محنق ، وأراد أن يثير الأمر معه عليه السلام فقال له

الرسول « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيّعنى » وأنهى قول الرسول الموقف ، وأزاح غضب عمر والثائرين معه .

وكان واضحاً أن الرسول لا يبغى صداماً مع قريش التى اختارت « سهيلا » لصياغة العقد ، فكان يصر على فرض رأيه والرسول يستجيب والصحابة والمسلمون فى ضيق وكدر ، فقد طلب سهيل ألا يكتب « باسمك اللهم » ، و « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » بل طلب أن يكتب اسم الرسول واسم أبيه فقط .

ووضع رسول الله بنود العهد موضع التنفيذ الدقيق حرصاً منه على استمرار السلام وإظهاراً لنيات المسلمين ، وقد حدث أثناء كتابة العقد أن أسلم أبو جندل وهو ابن سهيل بن عمرو مندوب قريش فى المفاوضة ، وأراد أبوه أن يصحبه معه ويرده إلى قريش ، فاستغاث بالمسلمين وبرسول الله ، فأبى رسول الله إغاثته تنفيذاً لما اتفق عليه فى العقد المبرم بينهما ، وقال له الرسول « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

وحدث الأمر ذاته مع أبى بصير عبيد الله بن أسيد حين فر مهاجراً من عذاب قريش يريد اللحاق بالمسلمين فى المدينة ، وأرسلت قريش فى طلبه ، فقال له الرسول « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك » ، وحزن أبو بصير حزناً شديداً ،

والتمس من الرسول البقاء حتى لايفتن فى دينه ، فما زاد الرسول على تكرار قوله وأمره بالصبر .

وعاد المسلمون إلى المدينة دون أن تتحقق رغبتهم ، وبينما هم فى طريقهم نزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح ١/٢) .

* * *

وهنا يبرز سؤال هام :

قلنا إن المسلمين خاضوا غمار المعارك مدفوعين إليها مرغمين عليها نافرين منها .

وقلنا أيضاً إنهم أمروا بأن يستجيبوا لأية دعوة إلى السلام ، وإنهم كانوا يستجيبون فعلا ، ويلتزمون بما تعاهدوا عليه حرصاً منهم على السلام ورضاء به .

ولكن هل كان المسلمون يقبلون السلام ويرضون به تحت أية ظروف ؟

إن تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية يؤكد أن المسلمين كانوا يرفضون السلام فى حالات ثلاث ، وكانوا فى كافة هذه الحالات يحملون السيف ويخوضون المعارك مكرهين مجبرين ، دفاعاً عن أنفسهم والدعوة والداعى .

● الحالة الأولى ...

عند ثبوت النية فى مقاتلتهم والإعتداء عليهم

فقد أثار نجاح الدعوة الإسلامية فى المدينة واستقرار أمرها واتساع رقعتها ، حقد بعض القبائل العربية التى تقطن مناطق مختلفة فى الجزيرة فأخذت تعد العدة لمهاجمة المدينة الوادعة المسالمة ، وكان الإعداد يتم فى سرية تامة أملا فى وقوع المفاجأة فلا يستعد المسلمون ولا تكون أمامهم فرصة التأهب للمقاومة والردع ، وكانت أخبار هذه التجمعات رغم سريتها تصل إلى رسول الله ، فكان عليه السلام يقوم بإعداد قواته ويخرج بها لضرب هذه التجمعات فى مواقعها وحقق رسول الله بهذا الإجراء هدفين :

● مفاجأة هذه التجمعات قبل إتمام استعداداتها .

● وقوع الاشتباك خارج نطاق المدينة وحدودها .

ومن أمثلة ذلك أن رسول الله بلغه أن جمعاً من بنى سليم وغطفان بقرقرة الكدر يريدون الإغارة على المدينة فسار إليهم فى مائتين من أصحابه ، وحمل لواءه علىّ بن أبى طالب .

ومن أمثلة ذلك أن رسول الله بلغه أن دعثور بن الحارث جمع جمعاً من ثعلبة ومحارب بذى أمرّ ، يريد أن يصيب بهم أطراف المدينة فخرج إليهم فى أربعمائة وخمسين رجلا .

ومن أمثلة ذلك أن رسول الله بلغه أن جمعاً من بنى سليم قد استعد فى بحران لمهاجمة المدينة فخرج إليهم فى ثلاثمائة من أصحابه .

ومن أمثلة ذلك أن رسول الله بلغه أن غطفان قد تجمعوا بذات الرقاع ، يريدون إصابة المدينة ، فخرج إليهم فى أربعمائة من أصحابه .

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى غزوات دومة الجندل ، وبنى المصطلق ، وبنى لحيان ، وذى قرد .

ولما سمعت هوازن نبأ فتح رسول الله مكة ، جمع مالك بن عوف الجيوش والقبائل للسير إلى المدينة ، لمواجهة رسول الله والمسلمين ، فلما بلغ النبأ رسول الله ، جمع قومه ، وقرر أن يتحرك إلى هوازن ليلقاهم ، وكانت غزوة حنين .

وكان تجمع الروم فى شمال الجزيرة الدافع الأكبر لخروج جيش زيد ابن حارثة لمقابلتهم فى مؤتة ، حيث دارت أولى المعارك ضد الروم والتى استشهد فيها الأبطال الثلاثة زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة ، ولقد أدت هزيمة المسلمين إلى إعداد جيش أسامة بن زيد على عهد رسول الله ، إلا أنه لم يخرج إلا فى بداية عهد أبى بكر ، ثم كانت المسيرة الإسلاميه الكبرى بالجيوش الأربعة التى بعث بها أبو بكر إلى بلاد الشام ، حيث بدأ عهد من القتال العنيف بين المسلمين والروم ، بداية بموقعة اليرموك ، ونهاية بخضوع الشام كلها للإسلام .

- الحالة الثانية ...

عند وقوع الغدر والتعرض للخيانة

فبعد أن استقر الأمر للرسول بالمدينة ، عقد معاهدة مع يهودها ، وكان عليه السلام يترضاهم ويتودد إليهم ، فهم أهل كتاب وكانوا أولى الناس بأن

يؤمنوا به ، وأن يصدقوا بما جاء به إلا أنهم كانوا يترقبون فرصة إصابة المسلمين والقضاء عليهم ، فقد كانت نار الحسد تغلى فى صدورهم ، وكانت عداوتهم كامنة فى قلوبهم ، فلما تمكن سلطان الرسول فى المدينة ، وازداد الإسلام قوة ومنعة ، جاهروا بالكفر والعداوة ، ولجأوا إلى المكر والكيد ، وضربوا بما بينهم وبين رسول الله من عهود ومواثيق عرض الحائط .

وكان يهود بنى قينقاع أول من خان العهد ، حين اعتدوا على امرأة مسلمة ذهبت إلى سوقهم ، ثم قتلوا مسلماً أراد الدفاع عنها ، فأرسل إليهم رسول الله « يامعشر يهود .. احذروا من الله مثل مانزل بقريش من النقمة » ، وكان ذلك بعد هزيمة قريش فى بدر ، فقالوا « يامحمد أرأيت أنّا قومك ؟ ، لايغرنك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا ـ والله ـ لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » ، وكان لا بد من أن يتصدى لهم رسول الله ويواجههم .

وبعد أحد ، فرح اليهود لما أصاب المسلمين ، وأكثروا القول فى رسول الله ، وحدث أن خرج رسول الله إلى يهود بنى النضير يستعينهم فى دية رجلين من بنى عامر قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ، وكان بين بنى عامر وبنى النضير عقد وحلف ، ثم تآمر اليهود على قتل رسول الله ، فقد قالوا له « نعم يا أبا القاسم ، حتى تطعم وترجع بحاجتك » ، وجلس رسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم فقالوا « إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هـذه الحالة ، فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ » ، وتطوع لهذا العمل عمرو بن جحاش ، وتدخلت السماء ، وحفظت رسول الله الذى بعث إليهم محمد بن مسلمة قائلا « اخرجوا من بلدى ، فلا تساكنونى بها وقد هممتم بما هممتم به من الغدر » ،

وأمهلهم عشرة أيام ، فمن وجد منهم بعدها ضربت عنقه ، فرفضوا الخروج « إنا لانخرج من ديارنا فاصنع مابدا لك » ، وكان لابد من قتالهم .

● الحالة الثالثة

نقض العهود والمواثيق والتحالف ضد المسلمين

كان ليهود بنى قريظة دور خطير خلال غزوة الخندق ، ففى الوقت الذى آمن رسول الله جانبهم ، بمقتضى مابينه وبينهم من عهد وميثاق ، كانوا يدبرون أمراً ضده عليه السلام ، وتحالفوا مع الأحزاب ليكونوا عليه وقت القتال فيطعنونه من الداخل وقت انشغاله بمواجهة قريش ومن معها من الأحلاف . . كان المسلمون مقيمين على الوفاء والصدق فى عهدهم لبنى قريظة ، بينما كان هؤلاء يستجيبون لدعوة حيي بن أخطب وهو يدعوهم إلى نقض العهد مع الرسول ، ولولا أن السماء تدخلت فى غزوة الأحزاب ، وأنقذت المسلمين من الجموع الغفيرة المتحالفة التى أحاطت بالمدينة لكان فناء المسلمين أمراً واقعاً ، بسبب انضمام بنى قريظة ـ وهم يسكنون المدينة ـ إلى الأحلاف ، لأن نقضهم للعهد كان الثغرة التى تنفذ منها هزيمة المسلمين . . ومن أجل هذا رأى رسول الله أن يصفى حسابه معهم ، كما قال أميل درمنغم « الحق إنه كان من الصعب ألا يصفى المسلمون حسابهم مع يهود بنى قريظة الذين انحازوا إلى العدو أيام غزوة الأحزاب » ، وكان ما كان من أمرهم فقد احتكموا إلى سعد بن معاذ فأمر بقتل الرجال وسبى النساء وأن تكون ديارهم للمهاجرين وحدهم .

وقريش كان لها موقف مماثل . . فقد دخلت خزاعة فى عهد رسول الله

ودخلت بكر فى عهد قريش ، تنفيذاً لبنود صلح الحديبية . . ووقع الصدام بين خزاعة وبكر ، وساندت قريش بكراً على خزاعة ، فنقضت بذلك عهدها مع رسول الله ، فلما استعانت خزاعة برسول الله ، قرر أن يعينهم قائلا لزعيمهم عمرو بن سالم الذى جاءه مستصرخاً ومستنصراً « نصرت ياعمرو ابن سالم » ، وتهيأت الفرصة لفتح مكة . . وكان الإعداد ثم التحرك ثم الفتح .

وهاهو ذا مثل من مصر .

فبعد أن تم الصلح بين عمرو بن العاص وتيودور قائد قوات الروم بعد هزيمة الروم فى الاسكندرية ، أعد امبراطور الروم أسطولا ضخماً من ثلاثمائة سفينة حربية ، ليعود به إلى الاسكندرية لطرد المسلمين منها وإعادتها إلى حكمه ، وتولى منويل قيادة الحملة ، التى تم إعدادها فى كتبان وسرية ، ثم تحركت القوات إلى الاسكندرية ، وفوجىء المسلمون بالروم يحتلون الإسكندرية ، ثم بدءوا التحرك جنوباً ، وبلغت الأنباء الخليفة عثمان ابن عفان ، فأمر عمرو بن العاص بالتصدى للحملة ، ومواجهتها ، وفى نقيوس كان اللقاء عنيفاً ، هزم فيه الروم ، وتم جلاؤهم عن البلاد . . كان تصرف الروم خرقاً للاتفاق ونقضاً للعهد فكان لابد من مواجهتهم وقتالهم .

* * *

ننتهى من هذا إلى أن الإسلام كان حريصاً على السلام الذى يقوم على العدل والتفاهم والصدق دون الإضرار به أو الاساءة إليه ، وكان يسعى إلى السلام بالقلب المفتوح والعقل الواعى والنية الصادقة ، ولكنه كان يرفض السلام القائم على الغدر أو الخيانة أو الخداع .

كان من أهم ماتميز به الجند المسلمون هو الرغبة فى نيل الشهادة .

وكان الاستشهاد هو غايتهم القصوى وأملهم المرتجى .

خطب مالك بن سفيان فى المسلمين يوم أحد فقال « نحن والله بين إحدى الحسنيين .. إما أن يظفرنا الله بهم فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى أن يرزقنا الشهادة ، والله ما أبالى أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير » .

وجاء رجل من أهل الشام إلى عبد الله بن يزيد وقال له « والله لا أبرح حتى أقتلك » ، فقال له عبد الله « شر لك وخير لى » .

وكان الجند المسلمون ـ كما ثبت من تاريخ المعارك والوقائع والحروب ـ أكثر الجند سعياً إلى الموت فى سبيل الله ، وكانوا يأملون أن يكونوا من أصحاب الجنة حيث يعيشون فى ظل العناية الإلهية والرعاية الربانية ، فرحين بما آتاهم الله .

كان الواحد منهم يخرج من بيته ويخلف وراء ظهره مصالحه وأفراد أسرته وكل ماملكت يداه ، لايفكر فى عودة ، ولايجذبه حنين ، ولاتقعده مصلحة . . كانت مصلحة الإسلام أمام ناظريه ولا شىء غيرها ، فيخرج وروحه على كفه ، لايخاف الموت ولا يهاب مواقفه ، يندفع بكل أحاسيسه

إلى المعركة ، مؤمناً بالنتيجة ساعياً إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار يخلد فيها راضياً مطمئناً .

كان الواحد منهم يخوض غمار المعركة وهو يعلم عن يقين أنه صاحب رسالة وداعى حق ، وأن القتال فى سبيل الله واجب ، وأن الجهاد فى سبيل الله أمانة ، وأن الموت فى الميدان شرف لايرقى إليه شرف ، وأن الحياة الآخرة خير وأبقى .

من خلال هذه المعانى كان الجند المسلمون يندفعون إلى القتال فى شدة وصلابة وعنف وغلظة ، يواجهون الشدائد بقلوب ثابتة لاتهتز ولا ترتجف .. وصفهم المقوقس فى خطاب وجّهه إلى ملك الروم « والله إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشدّ منا على كثرتنا وقوتنا ، إن الرجل الواحد منهم يعدل مائة رجل منا ، ذلك لأنهم قوم الموت أحب إليهم من الحياة ، يقاتل الرجل منهم وهو مستبسل ، ويتمنى ألاّ يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده ، ويرون أن لهم أجراً عظيما فيمن قتلوا منا ، ويقولون إنهم إن قتلوا ادخلوا الجنة ، ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء ، وكيف صبرنا معهم » .

ويصفهم رجل من عدوهم فيقول « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة » .

وتتضح لنا مفاهيمهم للحياة على لسان أحدهم وهو عبادة بن الصامت ، إذ يقول « مامنا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده » .. ويقول

« إن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة » .

ويخاطب المغيرة بن شعبة أعداءه فيقول لهم « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار » .

ويتجه النعمان بن مقرن إلى ربه بكل خشوع وبكل رجاء ، وغاية أمله أن تستجاب دعوته « اللهم أعز دينك ، وانصر عبدك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم » .

إذن فقد كره الجند المسلمون حياة تقف بدينهم ، وقبل الله تبارك وتعالى منهم هذا الإحساس ، فأكرم الشهيد الذى يبذل حياته ، ووعده الخير كل الخير ، وجعله حياً عنده فى الجنة ، يؤتيه من فضله ، ويشفع لأهله ، ويغفر له ، كما جاء فى محكم آياته . . ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـكِن لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة ١٥٤] . ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة ١١١] . . ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ • فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران ١٦٩ ، ١٧٠] .

أما المزايا التى تكون للشهيد فقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها

فقال « إن للشهيد عند الله خصالا . . أن يغفر له من أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده فى الجنة ، ويحلى حلية الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج باثنتين من الحور العين ، ويشفع فى سبعين إنساناً من أقاربه »

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد فقال « ... لاتغسل الشهداء من دمائهم ، فإن دم الشهيد يكون نوراً له يوم القيامة » .

وجعل الإسلام للشهداء درجات « أفضل الشهداء الذين إذا لاقوا فى الصف لا يلتفتون حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون فى الغرف العلى من الجنة ، ويضحك إليهم ربك ، وإذا ضحك ربك إلى عبد من الدنيا فلا حساب عليه » .

وسمع عمرو بن العاص بعض القوم يتساءلون « هشام بن العاص أفضل من نفوسكم أم أخوه عمرو ؟ » ، فأجابهم « إنما شهدت وهشام اليرموك ، فبات وبت ندعو الله أن يرزقنا الشهادة ، فلما أصبحنا رزقها وحرمتها ، فهل فى ذلك مايبين لكم فضله علىّ » .

واندفع عكرمة بن أبى جهل فى اليرموك يهاجم العدو فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم وهو ينادى « من يبايعنى على الموت ؟ » ، وبايعه ابنه عمرو وعمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور ، وقاتل معهم أمام فسطاط خالد ، وجُرح فى صدره ووجهه وهو يواجه الأسنة والرماح ، فقيل له « اتق الله وارفق لنفسك » ، فأجاب « كنت أجاهد بنفسى عن اللات والعزى فأبذلها لها ، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله ،

لا والله أبداً » ، واستشهد عكرمة وابنه وعمه .

وأقبل عوف بن الحرث بن عفراء على رسول الله وسأله « يا رسول الله، ما يضحك العبد من ربه ؟ » ، فأجابه « غمسه يده فى العدو حاسراً » ، فنزع درعاً كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وحمل مصعب بن عمير لواء المسلمين فى بدر ، فثبت به ثبوت الرواسى ، فأقبل عليه ابن قميئة وهو فارس من قريش ، وضرب يده اليمنى فقطعها ، ومصعب يقول « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل » ، وأخذ اللواء بيده اليسرى فضربها ابن قميئة فقطعها ، فحنا على اللواء وضمه على صدره بعضديه وهو يردد « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، فهاجمه ابن قميئة بالرمح فوقع وسقط اللواء ، وحُمل إلى الرسول فنظر إليه ثم قال « لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمّة منك ، ثم أنت مشعث الرأس فى بردة » ، وأمر بدفنه بينما كان قارىء يقرأ قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَالْمَلاَئِكَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ • سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُم فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد ٢٤] .

واتجه عبد الله بن جحش إلى الله يناشده « اللهم ارزقنى غداً (قبل أحد) رجلا شديداً بأسه شديداً حرده أقاتله ويقاتلنى ويأخذنى فيجدع أنفى وأذنى فإذا لقيتك قلت ياعبد الله فيم جدع أنفك وأذنك فأقول فيك وفى رسولك » ، واشتبك عبد الله فى القتال فأبلى بلاء حسناً ، وقتله أبو الحكم بن الأخنس ابن شريق وصدق فيه قوله تعالى ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا

اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب ٢٣].

وحدد الرسول الكريم درجات الشهادة ، فقال « الشهداء ثلاثة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذاك الذى يرفع الناس أعينهم إلى أعناقهم . . . ورجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فكأنما يضرب جلده بشوك الطلح أتاه سهم غرب[1] فقتله فذاك فى الدرجة الثانية... ورجل مؤمن حسن الإيمان خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذاك فى الدرجة الثالثة » .

وفى قول آخر قال عليه الصلاة والسلام « القتلى ثلاثة رجال ... مؤمن جاهد بماله ونفسه فى سبيل الله ، حتى إذا لقى العدو وقاتلهم حتى يقتل ، فذاك الشهيد الممتحن فى خيمة الله تحت عرشه ، لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة ... ومؤمن فرّق على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله فى سبيل الله ، حتى لقى العدو وقاتل حتى يقتل ، فمضمضته محت ذنوبه وخطاياه ، إن السيف محاء الخطايا ، وأدخل من أى باب من أبواب الجنة ، فإن لها ثمانية أبواب وبعضها أفضل من بعض . . . ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقى العدو وقاتل فى سبيل الله حتى يقتل كان ذلك فى النار ، إن السيف لا يمحو النفاق » .

ومجّد الإسلام الشهداء فقال الرسول الكريم فى الشهيد « ما من مسلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة يسيل دما ، اللون لون الزعفران ،

---

(١) سهم غرب بفتح الراء سهم رماه الرامى إلى أحد فأصاب غيره .

والريح ريح المسك » ، روى الإمام البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنهم أنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يكلم أحد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم فى سبيله ، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يقطر دما ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » .

وعندما تبين للجند المسلمين صورة ما يكون عليه الشهيد من مكانة ومنزلة وشرف ، سعوا جميعاً إلى الشهادة ، وكانوا يترنمون « اللهم لا خير إلا خير الآخرة » .

وعندما استشهد حمزة بن عبد المطلب فى أحد بعد الجريمة البشعة التى دبرتها هند بنت عتبة مع وحشى أداة التنفيذ فيها ، قال رسول الله « جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله » .

وفى بدر سمع عمير بن الحمام رسول الله يحض جنوده قائلا « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، وقيل فى رواية أخرى أنه سمع الرسول يقول لأصحابه « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » ، فسأل « يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ! ! » ، فقال الرسول « نعم » ، فقال عمير « بخ ... بخ » ، فسأله الرسول « ما يحملك على هذا القول » ، قال « رجاء أن أكون من أهلها » ، فطمأنه رسول الله « فإنك من أهلها » ... وباتفاق الروايتين أخرج عمير بعض تمرات كانت معه فجعل يأكل منها ، ولكنه تنبه فقال لنفسه « أما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ، إن أنا حييت

حتى آكل تمراتى هذه إنها حياة طويلة » ، ثم رمى ما معه من تمر ا
وأخذ سيفه وخاض المعركة ، وشارك المقاتلين ، وأبلى أحسن بلاء حتى
وهو يردد :

ركضاً إلى الله بغير زاد
إلا التقى وعمل المعـــاد
والصبر فى الله على الجهاد
وكل زاد عرضة النفـــاد
غير التقى والبر والرشاد

وجدير بنا ونحن نعوض نماذج من هذه البطولات ، أن نذكر بطولة
ابن أبى طالب فى غزوة مؤتة ، فبعد أن استشهد زيد بن حارثة القائد ا
للمعركة ، تولى جعفر القيادة بعده بناء على تعليمات رسول الله حين
تسلسل القيادة فى هذه السرية ، فجعلها لزيد ، ثم جعفر ، ثم عبد الله بن رو
فبعد أن استشهد زيد أخذ جعفر الراية وقاتل بها حتى إذا لم يجد مخلصاً
بنفسه عن فرسه وعقرها (كانت أول فرس عقرت فى سبيل الله) ، وحمل
بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ؛
ينشد :

يا حبذا الجنة واقترابهـــا
طيبة وبارداً شرابهـــا
والروم روم قد دنا عذابهـــا
كافرة بعيدة أنسابهـــا
علىّ إذا لاقيتها ضرابهـا

وعن قتادة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما قتل زيد أخذ الراية جعفر رضى الله عنه ، فجاءه الشيطان — لعنه الله — فحبب إليه الحياة ، وكرّه إليه الموت ، ومنّاه الحياة ، ثم مضى حتى استشهد رضى الله عنه » ، وقال عبد الله بن عمر « وجدنا فيما بين صدر جعفر ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح » ، وعن عبد الله بن جعفر قال « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هنيئاً لك ، أبوك يطير مع الملائكة فى السماء » .

وفى أحد استشهد الأُخَيْدم من بنى عبد الأشهل ، وكان قومه قد خرجوا لمحاربة رسول الله ، فلما عرف ذلك رغب فى الإسلام ، وأخذ سيفه ورمحه ولأمته ، وركب فرسه ، ودخل فى المعركة إلى جانب المسلمين ، وقاتل حتى أثبتته الجراح ، وبينما قومه يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذا هم به ، فسألوه هل جاء مناصرة لقومه أم رغبة فى الإسلام ، فقال « بل رغبة فى الإسلام ، آمنت بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم جئت ، وقاتلت حتى أصابنى ما أصابنى » ، ولم يلبث أن مات وقال عنه رسول الله « إنه لمن أهل الجنة » .

وقاد النعمان بن مقرّن جيش المسلمين إلى نهاوند حيث قاتل الألوف المؤلفة من جند يزدجرد كسرى الأعاجم ، وولاه عمر قيادة الجيش الإسلامى وكتب إليه « قد بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين .. » ، والتقى النعمان بالفرس فى أسبيندخان ، ونادى فى

جيشه « الله أكبر » – نداء خالداً يجلب النصر — وردّده المسلمون من ورائه ، فزلزل نفوس الأعاجم ، وقذف فى قلوبهم الرعب . قال النعمان لجنده « إنى مكبر ثلاثاً ، فإذا كبرت الثالثة ، فإنى حامل ، فاحملوا ، وإن قتلت فالأمر بعدى لحذيفة » ، وعندما دنت ساعة الهجوم قال النعمان « اللهم أعزز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ... اللهم إنى أسألك أن تقرّ عينى بفتح يكون فيه عز الإسلام ، واقبضنى شهيداً » ، ومن مركز القيادة كبّر ثلاثاً ، وبدأ الهجوم وهو فى المقدمة ، وتصافحت السيوف ولاحت بارقة النصر وضاءة منيرة فى عينى النعمان ، ولكن الفرس أرادوه ، وتوجهت سهامهم إليه ، فأصابه سهم فى خاصرته ، فسقط شهيداً وقال أخوه نعيم « هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح ، وختم له بالشهادة » ، ووقف عمر فوق المنبر ، ونعاه إلى المسلمين ، وبكى حتى نشج ، ووقف عبدالله ابن مسعود فى أسفل المنبر ، وقال « إن للإيمان بيوتاً ، وإن من بيوت الإيمان بيت النعمان بن مقرن » .

واستشهد حارثة بن قيس فى بدر ، وكان قد استقبل رسول الله يوماً ، فسأله الرسول « كيف أصبحت يا حارثة ؟ » ، قال « أصبحت مؤمناً بالله حقاً ، يا رسول الله ، قد عزفت نفسى عن الدنيا . فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، فكأنى بعرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها » ، فقال له الرسول « أبصرت فالزم عبد » (أى أنت عبد بذر الله الإيمان فى قلبه) ، فسأله حارثة « ادع الله لى بالشهادة » ، فدعا له رسول الله . . . وبلغ أمه خبر استشهاده ، فسارت إلى رسول الله وقالت له « يا رسول الله ، قد

عرفت موقع حارثة من قلبى ، فأردت أن أبكى عليه ، ثم قلت لا أفعل حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان فى الجنة لم أبك عليه ، وإن كان فى النار بكيته » ، فقال لها الرسول « ويحك ، أجنة واحدة !! إنها جنان كثيرة ، والذى نفسى بيده إنه لفى الفردوس الأعلى » ، فرجعت وهى تضحك وتقول « بخ ، بخ ، لك يا حارثة » .

كان الجند المسلمون يرون فى الإقدام على الاستشهاد حياة ...

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد   لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا   ولكن على أقدامنا تقطر الدما

* * *

ولست أبالى حين أقتل مسلماً   على أى جنب كان فى الله مصرعى

* * *

تهين النفوس وبذل النفـــوس يوم الكريهة أبقى لها

* * *

أقول لها وقد طارت شعاعاً   من الأبطال : ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم   على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبراً   فما نيل الخلود بمستطاع

* * *

وكان الجند المسلمون يتمنون أن يموت الواحد ثم يبعث ليموت ثم يبعث ليموت . . . أخرج النسائى عن أنس رضى الله عنه قال «قال رسول الله :

يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله تعالى : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ، فيقول : أى ربى خير ، فيقول : سل وتمن ، فيقول : وما أسألك وأتمنى ، أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات ، لما يرى من فضل الشهادة »

وعن رسول الله « والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، فأحيا ثم أقتل » .

كانت سمية بنت خياط أول شهيدة فى الإسلام ... قتلها أبو جهل وقدمت زوجها وابنها شهيدين ، ووعدهم الرسول بالجنة ، « صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

وقتل عبيدة بن الحرث فى بدر ، وهو صاحب أول راية عقدها رسول الله لواحد من المسلمين

وقتل عمير بن أبى وقاص وهو فى السادسة عشرة من عمره ، فكان أول شهيد من الشباب

وقتل حمزة بن عبد المطلب فى أحد فكان أول شهيد من آل الرسول .

وقتل قبلهم وبعدهم كثيرون قدموا حياتهم فداء لله وللإسلام .. قدموها بنفس راضية ، كانوا يتمنون الشهادة ، ودعوا ربهم أن يرزقهم إياها ، فنالوها سعداء بما وعدهم ... ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ • تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ • يَغْفِرْ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف ١٠/١٣) .

كان عمرو بن الجموح يشكو عوجا شديدا فى قدمه يمنعه من القتال ، ولكنه أصر على الخروج ، وقُتل ، ومرَّ به رسول الله وهو يتوسَّد التراب فقال « والذى نفسى بيده لقد رأيت عمرو بن الجموح يطأ فى الجنة بعرجته » .

وقُتل حنظلة بن أبى عامر الذى ترك عروسة جميلة بنت عبد الله بن سلول ليلة الزفاف ليقاتل فى صفوف المسلمين ، وروى عن رسول الله أنه عليه السلام رأى الملائكة تغسله بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة .

وقُتل مخيريق أول يهودى دخل الإسلام ، وكان يعرف رسول الله بصفته وما يجد من علمه ، وغلب عليه إلْف دينه ، ولم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحد وكان يوم سبت فقال « يامعشر يهود ، والله إنكم لتعلمون إن نصر محمد عليكم لحق » ، قالوا « إن اليوم يوم سبت » ، فقال « لا سبت لكم » ، ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى رسول الله بأحد ، وعهد إلى من وراءه من قومه « إن قُتلت هذا اليوم ، فأموالى لمحمد ، يصنع فيها ما أراه الله » ، وكان غنياً كثير الأموال من النخل ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله يقول « مخيريق خير يهود » .

وقدمت قبائل عربية كثيرة عدداً من أبنائها تجمعهم رابطة الأخوة

شهداء ، ولم تبكهم عين ولم يحزن لمقتلهم قلب ، بل كان استشهادهم شرفا ووساما ومفخرة ، ومن هؤلاء أبناء سيد بنى عبد شمس سعيد بن العاص ابن أمية المعروف باسم أبى أحيحة ، والأبناء الخمسة هم خالد وعمرو والحكم (أسماه رسول الله عبد الله) وأبان وسعيد .. دخل الأخوة الخمسة الإسلام ، وأبوهم أشدّ الناس عداوةً له وحملة عليه وقسوة على معتنقيه ، وهو القائل « أخاف ألا تعبد العزّى بعدى » ، حارب سعيد فى الطائف وقتل ، وقاتل الحكم المرتدين وقُتل فى اليمامة ، وكان خالد أحد جنود الجيش الإسلامى فى أرض الروم واستشهد فى مرج الأصفر ، واستشهد عمرو وأبان فى أجنادين ، وكتب أولاد أبى أحيحة الخمس صفحات مشرقة من تاريخ الجهاد الإسلامى والعطاء والفداء .

واستشهد فى معارك الإسلام بعض من حفظة القرآن رغم قلتهم ، فما كان لحامل القرآن أن يخشى الموت فى موضع من المواضع ، وما كان له أن يكون مع القاعدين ، وقد استشهد منهم فى حرب اليمامة وحدها تسعة وثلاثون منهم سالم بن عتبة بن ربيعة مولى ابن حذيفة ، وكان يسمى سالم بن أبى حذيفة وهو أنصارى كان يطلق عليه « سالم بن الصالحين » وكان النبى يقول لأصحابه « خذوا القرآن من أربعة » وكان سالم أحد الأربعة ، وكان حسن الصوت جميل الأداء ، حتى أن الرسول قال له « الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثلك » ، وفى يوم اليمامة قال له المسلمون « يا سالم ، إنا نخاف أن نُؤتى من قبلك » ، فقال « بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلى » وقاتل وقُتل ، وقال فيه الخليفة عمـــر حين أقبلت عليه سكرة الموت « لو كان سالم حيا ما جعلتها شورى » .

وفى القادسية استشهد سعد بن عبيد القارئ، ذو الصوت الجميل العذب ، ولم يكن من الصحابة من يسمى بالقارىء غيره ، وقد فاخرت به الأوس ، لأنه كان أحد أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ، ولأن الرسول أقرّه على الإمامة فى مسجد قباء ، وأقرّه من بعده عليه السلام أبو بكر وعمر ، وكان رسول سعد بن أبى وقاص إلى النعمان بن المنذر ، وكان قائد الميمنة فى قتاله ، ووقف فى القادسية يخطب فى المسلمين قائلا « إنّا ملاقو العدو غداً وإنّا مستشهدون،فلا يغسلنّ عنا دما ، ولا نكفن إلا فى ثوب كان علينا »، واستشهد فى ليلة الهرير الشهيرة ، وقد دفع حياته ثمنا للإنتصار العظيم الذى أحرزه المسلمون فى القادسية

لقد تحققت الشهادة لكثيرين فانتقلوا إلى الرياض الخالدات فى جنات عالية قطوفها دانية يعيشون حياة لا لغو فيها ولا تأثيم ، لا شهوات ولا صغائر ، لاحقد ولا كراهية ، لا فسق ولا فجور ، لا إثم ولا عدوان .

وتاريخ المدرسة العسكرية الاسلامية يعطينا صوراً عديدة مشرقة للشهداء الأبرار الذين كانوا يسعون إلى الشهادة عن رضى واقتناع ، ولا شك فى أن هذه الصور تختلف فى جوهرها وروعتها عما تعطينا المدارس الأخرى من صور .

ففرق كبير بين أن يخرج جندى لملاقاة عدوه بدافع من نفسه وبإحساس بالواجب والمسئولية ـ دون أن يُطلب منه الخروج ـ دفاعا عن كلمة الله وعن الحق المستباح وعن كرامة الإنسان وخير البشرية وتقدم العالم ، فيجعل هدفه الأسمى وأمنيته الكبرى شهادة أو نصرا ، وبين أن يخرج جندى إطاعة

لأوامر الرؤساء وخوفاً من بطشهم ، تدعيما للشر وسعياً وراء مصلحة خاصة أو نفوذ مطلوب ، واعتماداً على وفرة فى العدد والسلاح وأملا فى نصر رخيص يحقق به إذلال غيره وإهدار كرامته وقيد حريته .

شتان بين خروج من أجل تثبيت دين الله ونشر العدل والرخاء والحرية والأمان ، وخروج من أجل القتل والتدمير والحرق والهدم ونشر المظالم ودفع الإنسانية إلى مواطن الذلة والمهانة والمسكنة.

والشهيد فى المدرسة العسكرية الإسلامية كان يخرج إلى المعركة لا يفكر فى عودة ، ولا يفكر فى ولد أو تجارة أو أهل أو مال ، لا تفزعه أهوال المعركة ، ولا تلين قناته عند اشتداد القتال ، ولا يهن عزمه عندما يرى مصارع إخوانه ، ولا يحرص على حياته حرصه على البذل والفداء ، تتكسر السيوف فى يده فلا يتزعزع ، وتتحطم الحياة من حوله فلا يرتجف ، ويزحف الموت فى اتجاهه فلا يجبن ، ويتساقط الرجال فلا يفزع ، وتأتيه الضربة أو الطعنة فلا يخشاها ، وحتى فى لحظات اليأس كان لا يفقد السيطرة على نفسه ، وفى لحظات الهزيمة لا يحزن ، يتقدم فى بسالة وجرأة ولا يتأخر ، ولا يرتد على عقبيه ولا يبحث عن نجاة ، ولا يسكت عن عدو يريد أن يطفىء دين الله ، يضرب بكل قوته أعداء الله ، فإذا فاز وعاش فكأنه انتصر لكرامة البشر وأحيا المبادىء والمثل ، وإن مات فقد حقق أمنية طالما تمناها وسعى إليها ، وصعد إلى السماء يعيش فى جنات ربه حيث الرغد والهناء ، وسجل لنفسه شهادة شريفة كريمة فى معركته كإنسان كريم ضد شيطان رجيم .

أما هؤلاء الذين سقطوا فى حروب ما بعد الإسلام ، والذين ما زالوا

يتساقطون فى حروب اليوم ، فقد خرجوا تحت تأثير أوامر السلطة ، مستعمرين لغيرهم ، يبغون تدمير العالم وتعطيل تقدمه ، أذلهم الشيطان وسيطرت عليهم رغبات كاذبة وأطماع واهية وأحلام زائلة ، فتحللوا من صفات البشرية الأصيلة ، وأبدلوها رذيلة وفجورا ، وخرجوا من محيط الأخوة التى دعت إليها الأديان إلى جحيم الإستعباد والإستغلال والسيطرة والعدوان ، فرحين بقوة فى أيديهم وكثرة فى عددهم . يشنون حملات عدوانية مسعورة دون مبرر ؛ ترمى إلى إشاعة اليأس فى النفوس ؛ وتعرقل مسيرة الإنسان ؛ وتجعل الكلمة العليا للشيطان ؛ وتؤكد الانحلال فى المجتمعات البشرية ؛ وتبيح الخنوع والجهل والفقر ؛ وتزلزل القيم والمبادىء التى نادت بها الأديان وفى مقدمتها ديننا الإسلامى الحنيف ، وتنشر السلبية ، وتعلى كلمة الباطل .

هل يستحق لقب شهيد أحد هؤلاء الجنود الفرنسيين الذى سقطوا فى ميادين القتال فى مصر وأوربا وأفريقيا تحقيقا لأطماع زعمائهم أو قادتهم من هواة الاستعمار ومحبى الاستغلال والتوسع على حساب الغير ؟

هل يستحق لقب شهيد أحد هؤلاء الجنود الألمان الذين راحوا ضحية غرور زعمائهم المتعطشين للدم وقياداتهم التى سعت خلال حربين عالميتين إلى سيطرة الجنس الألمانى على العالم ؟

هل يستحق لقب شهيد هذا الجندى البريطانى الذى سقط قتيلا فى الحروب المتعددة التى شنتها إنجلترا فى كل مكان من أجل بسط نفوذها وسيطرتها على أجزاء متعددة من العالم خلال حقبة طويلة من التاريخ ؟

هل يمكن أن يكون شهيدا هذا الجندى الأمريكى الذى يعتدى على طالب الحرية فى مختلف بقاع الأرض ، ويقف فى وجه مسيرة الإنسان إلى التقدم والإرتقاء ، ويحاول أن يفرض حياة تحت تهديد السيف أو السلاح المدمر أو القنابل أو الطائرات التى انشغل العقل والفكر هناك بتعديلها وتطويرها لتتناسب مع حجم العمليات والرغبات الجامحة من أجل ضرب الإنسان وتقييد حريته ؟

هل يمكن أن نصف هؤلاء وهؤلاء بأنهم شهداء ، وهذه هى رسالتهم وأهدافهم ؟ ... أبداً .

فهؤلاء جميعا خرجوا معتدين ، وماتوا وهم يعتدون ، فأية فائدة يجنيها الإنسان من وراء خروجهم ، وأية غاية تبرر عدوانهم ، وأى ثواب يمكن أن يناله معتد .

المبحث الثاني

الإعداد للمعركة
عقائديا.. ومعنويا.. وماديا

(١) الجيش الإسلامي
(٢) الجهاد والمجاهدون
(٣) الإعداد المعنوي
(٤) الإعداد البدني
(٥) المرأة في المعركة
(٦) السلاح

"من اغبرّت قدماه في سبيل الله
حرّمهما الله على النار"

حديث شريف

القتال فى سبيل الله قائم ماقامت الحياة ، فإذا كان القتال ينشب بين الناس فى وجوه كثيرة وسبل غير سبل الله ، فالقتال فى سبيل الله أوجب القتال وأبره وأعدله وأكرمه ، لأنه انتصار للحق وتمكين له ، وخاصة أنه قتال للدفاع وليس للهجوم ، للصد وليس للعدوان ، للدفع وليس للإيذاء ، قتال يحسم الشر ويقيم الأمن ويثبت السلام ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة ١٩٠] .

ولقد أمر القرآن المسلمين بقتال المشركين حين يلتقون بهم فى ميدان قتال ، ولا يتحرجون من قتلهم أينما التقوا بهم ، من غير أن تعطفهم عليهم عاطفة قرابة أو نسب ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم ، لأنهم بدءوهم بالعدوان ، وأخرجوهم من ديارهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، وسلطوا عليهم ألوانا من العذاب والنكال ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة ١٩١] .

ومع صراحة هذا الأمر الإلهى بالقتال ، فإن القرآن أقرّ القتال على مافيه من إيذاء وضرر للإنسان والوجود ، ولكنه أمر لامفرّ منه ولا محيص عنه ، لأنه فرض لازم على المؤمنين ، ماداموا يريدون أن يكون لهم وجود ، وأن يكون للدين بقاء ، وأن تكون للحق راية .

والقتال فى الإسلام أمر مكروه ، يقدم عليه المؤمنون مكرهين ضائقين به ،

فهم فى عداوة مستمرة بينهم وبين أرباب الضلال وأهل السوء وجند الشيطان ، وهم بالتالى فى دفاع عن حق يتصارع مع باطل ، وهدى يتلاحم مع ضلال ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة ٢١٦] .

والقتال أمره مكروه ، والنفوس تقبل عليه كارهة ، ولكن الحق تبارك وتعالى قال ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ، والله تعالى يخفف عن النفوس هذا الأمر ويسيغه لها مع مافيه من مرارة .

وإذا كان المشركون من قريش قد طاردوا المسلمين حتى اضطروهم إلى الهجرة ، ثم طاردوهم فى مهجرهم حتى حملوهم على الحرب حملا . . وإذا كان اليهود قد نقضوا مواثيقهم مع المسلمين ، وانتهزوا كل فرصة للنيل منهم أو الإعتداء عليهم . . فمن الطبيعى أن يؤمر المسلمون أمراً واضحاً وصريحاً بأن يدفعوا العدوان ويواجهوا المعتدين . . وهذه عملية تتطلب إعداداً للرجال والسلاح ، ولهذا صدر لهم أمر إلهى بأن يُعدوا لأعدائهم كل مايستطيعون إعداده من قوة ، وأن يدربوا كل من يملكون تدريبه من أفراد ، وأن يحصنوا مدنهم ، وأن يشددوا الحراسة عليها ، وأن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات ، ولهذا نزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال ٦٠] .

والخطاب فى قوله تعالى « وَأَعِدُّوا » موجه للأمة كلها ، وهو خطاب يشمل كل قادر على الإعداد والاستعداد ، سواء كان رجلا أو امرأة ،

شاباً أو شيخاً ، غنياً أو فقيراً ، فالإعداد هنا مهمة الجميع ومسئولية المجتمع الإسلامى كله . . كل يبذل ما يستطيعه من ماله أو جهد يده أو عقله فى سبيل الإعداد ، ومادام المسلمون أصحاب حق فيجب أن تكون لهذا الحق قوة تحميه وتصونه وتدافع عنه .

والإعداد « لهم » يعنى لهؤلاء الذين ناصبوا المسلمين العداء ، وتربصوا بهم الدوائر ، وتمنوا لهم الضعف ، وحالوا بينهم وبين إقامة شعائر دينهم ، وأرادوا أن يمنعوهم عن عبادة الله .

والآية الكريمة تطلب أن يكون الإعداد بكل ما يستطيعه المسلمون ويقدرون عليه من القوة ، ولفظ القوة يفيد شمول الأنواع ، أى كل نوع من أنواع القوة ، وذلك بالإضافة إلى رباط الخيل ، والمقصود كل قوة سريعة قادرة على التحرك والإنتقال (ذكرت الخيل فى الآية لأنها كانت السلاح الراكب عند العرب ، وكانت فى هذا الوقت أقوى مظهر من مظاهر القوة والفروسية ، بحيث كانت الخيل وكان فرسانها كانت القوة والمنعة ، ولكن منطوق الآية ينسحب الآن على كل وسائل الإنتقال التى تستخدم فى الحروب) .

ولم تدع الآية للإعداد والتجهيز بقصد الإعتداء ، فالمسلمون أصلا لا يعتدون ، لأن العدوان ضد طبيعة دينهم ، وهو أمر ممنوع ومحظور ، ولكنه أجيز لسبب آخر هو الإرهاب ، أى إرهاب الأعداء ليعرفوا أن المسلمين قادرون على الرد إذا تعرضوا للعدوان ، وليروا فى الإعداد الجيد ما يرهبهم ، ويقتل فى نفوسهم كل داعية من دواعى الطمع فى المسلمين .

فمنطوق الآية إذن لا يعنى إجازة الإعتداء ، ولا يعنى أن الإعداد للحرب

إشباع لشهوة الحرب والرسول يقول لأصحابه « لا تمنّوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية » ، ولكنه يعنى السلم المسلح الذى يهدف إلى الإرهاب ، أى إيقاع الرهبة والخوف والرعب والفزع فى نفس العدو ، فيظل المسلمون مهيبين ، لا يطمع فيهم طامع ولا يتطاول عليهم متطاول ، وفى هذا المعنى يقول الفخر الرازى « إن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد مستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات ، خافوهم ، وذلك الخوف يفيد أموراً كثيرة . . أولها أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام ، وثانيها أنه إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم جزية ، وثالثها أنه ربما صار ذلك داعياً لهم إلى الايمان ، ورابعها أنهم لا يعينون سائر الكفار » .

ولكن إذا لم يحقق هذا السلم المسلح الإرهاب والخوف المطلوبين ، وتمادى الأعداء فى عدوانهم ، فإن من الواجب على المسلمين أن يواجهوا عدوهم بهذه القوة التى أمرهم الله بإعداد ما يستطيعون منها ، فقد شاءت عناية الله التى حفظت المسلمين من كل سوء ألا يخوضوا المعارك دون إعداد تام وتجهيز كامل . . لهذا كانت هذه الآية ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ، أمراً إلهياً صريحا بالإعداد للمعركة والإستعداد لها ، والتجهيز بكل أنواع الأسلحة والمعدات ، والإستعانة بكل وسائل الدعاية وجميع ضروبها ، أملا من تصدع صفوف العدو وانخذاله ، أو أملا فى النصر ساعة اللقاء والمواجهة .

والأمر بالإستعداد للقتال كما جاء فى الآية هو أمنع للقتال ، وكان الرسول الكريم يقول لأصحابه « نُصِرْتُ بِالرُّعب » وكان مجرد ذكر اسم سيف الله

خالد كان كافياً لكي يهرب العدو ويتجنب لقاءه ، كان اسمه يسبقه إلى أعدائه قبل مواقعتهم ، فينتشر الرعب فى قلوبهم ويشيع الفزع بينهم ، وتنحل قواهم ، وتنهار عزائمهم ، روى الطبرى عن عدى بن حاتم أنه قال « أغرنا على أهل المصيخ ، وإذا رجل اسمه حرقوص بن النعمان من النمر ، وإذا حوله بنوه وامرأته ، وبينهم جفنة من خمر ، وهم عليها عكوف ، يقولون له : ومن يشرب هذه الساعة ، وفى أعجاز الليل ؟ ، فقال : اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها ، هذا خالد بعين التمر ، وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا » .

والإعداد للمعركة عمل هام وخطير ، فالجيش الذى يخوض غمار معركة ما دون أن يكون قد أتم لها كل ماتتطلبه بما يؤهله لخوضها يكون قد افتقد العنصر الأساسى للحرب والركيزة الأولى للمعركة ، وبالتالى يكون مصيره الفشل والإندحار والهزيمة ، وإن الأمة الناهضة الواعية المتوثبة تعد جيشها وسلاحها لتواجه به أعداءها بالتجهيز والتدريب والتسليح ، وليس بالقول العريض والتمنى الواسع والأحلام الخيالية ، وليس بترديد مفاخر الآباء والأجداد ، والتاريخ الحربى وتاريخ الشعوب منذ قيام الحروب وانشغال الناس بها يؤكد أنه مامن حرب قامت واشتعل أوارها إلا وقد أتم طرفاها أو أطرافها إعداد كل مستلزماتها رجالا وسلاحا ، أفراداً وعدداً .

ومن الحقائق التى يجب أن ننبه إليها فى هذا المقام ، أن الإسلام دين سلام ورحمة ، وليس دين سيف ودماء وقهر ، ولكنه دعا أتباعه للحذر من العدو ، والإعداد للحرب ، والأخذ بأسباب القوة ، ذلك لأنه دين واقعى يعيش الحياة بكل أحوالها وواقعها ، ولا يعيشها مجرد أحكام أومقررات نظرية

يتمثلها الناس ولايحققونها ويتصورونها ولايتعاملون بها ، والإسلام يريد لأتباعه أن يكونوا قوة عاملة فى الحياة ، وهم مدعوون إلى التعامل مع الخير ومطالبون فى ذات الوقت بتجنب الشر والأشرار ، وأخذ حذرهم منه ومنهم ، فإذا ما امتد الشر إلى مواقعهم وحاول الأشرار الإضرار بهم وجب عليهم استخدام قوتهم رداً للشر وصداً للأشرار .

إن المجتمع الإسلامى كأى مجتمع له سماته المميزة ، وله أيضاً وجهات نظر محددة ، وفلسفة خاصة ، ومنهاج يحدد سلوك أفراده ، وأفكار توجه وترشد ، وهو أيضاً كأى مجتمع لابد أن يكون له أعداء يخافون قوته أو يطمعون فيه لضعفه ، ومن هنا يبدأ الصدام ، ويكون الصراع الذى لا بد منه للحياة ، والذى لابد له من قوة يعتمد عليها ويحافظ بها على الحياة ، وهذه القوة بالتالى فى حاجة إلى رجل قوى وسيف صارم .

ولقد حدد القرآن الكريم مقومات الإعداد ووسائله ومنهاجه ، وسلط عليها الأضواء وحصرها فى :

- إعداد المقاتلين .
- إعداد السلاح الذى يستخدم فى المعركة .
- إعداد الخطط الحربية التى توجه دفة المعركة .
- إعداد مايتطلبه الموقف السياسى بعد انتهاء المعركة .

ولقد أعطى الرسول الكريم ومن بعده الخلفاء ثم الحكام هذه المقومات كل عنايتهم واهتماماتهم ، وكانت تمثل دائماً المقام الأول فى تفكيرهم .

لقد كان همّ الجميع الأول التجهز للمعركة والإعداد لها ، وبذلك تكون المدرسة العسكرية الإسلامية قد أرست قاعدة هامة للحروب ، تدارستها المدارس العسكرية الأخرى وأخذت بها ، ووضعتها فى المقام الأول قبل خوض أية معركة .

وتاريخ الحرب فى الإسلام يثبت ويؤكد أن المسلمين كانوا ينفذون أوامر القرآن فى الإعداد للمعركة بصورة تدعو إلى الفخر ، تحت تأثير الإيمان العميق بالقرآن ، والثقة المطلقة فى أوامره ، فما من معركة خاضها المسلمون فى داخل الجزيرة أو فى خارجها إلا وقد تم تنظيم شئونها وإعداد كل أمورها وتجهيز كافة متطلباتها ، ودليل ذلك هذه الإنتصارات العظيمة التى حققتها المدرسة العسكرية الإسلامية حين واجهت بجيوشها قوات أعدائها فى مختلف المعارك والميادين .

(١)

كان الجيش الإسلامى منذ عهد النبوة لايلتزم بعدد معين من الأفراد ، لأن عدده كان يتوقف على عدد المؤمنين به الداخلين فيه ، فكل من دخل فى الإسلام أصبح بدخوله جندياً ، يقع عليه عبء الدفاع عن دينه ، وواجب المشاركة الفعالة الإيجابية فى خدمة الدين .

وكان الإسلام يشترط فى المحاربين اعتناق الإسلام عن عقيدة ثابتة ، وإيمان سليم ، وإدراك واعٍ ، ومعرفة تامة بأوامره ونواهيه .

وكان يشترط أيضاً اللياقة ، والقوة ، والسن المناسبة لإمكان تحمل أهوال المعركة وشدتها وقسوتها .

وكان المسلمون يندفعون إلى المعركة بدافع من إيمانهم ، شبابهم وشيوخهم ، وحتى نساؤهم ، ولم يقف السن أو المرض حائلا بينهم وبين الرغبة فى الإشتراك فى القتال ، فعمرو بن الجموح كان يشكو عرجاً وأصر على الخروج « إن بنى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، ووالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى الجنة » ، وخيثمة بن سعد كان شيخاً عجوزاً فقال لرسول الله « والله يارسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته (يقصد ابنه الذى استشهد فى بدر) فى الجنة ، وقد كبرت سنى ورقّت عظمى وأحببت لقاء ربى » .

وخرج كثير من الشباب فى بدر ، فردّهم الرسول ، وكذلك فى أحد ،

فإنهم لم يبلغوا عند خروجهم السن الذى يسمح لهم بمباشرة القتال ، ومع ذلك كانوا يصرون على الخروج ، وعندما ردّ رسول الله رافع بن خديج يوم أحـد قال للرسول إنه رام جيد ، فأجازه ، وسمع بذلك سمرة بن جنـدب فقال لزوج أمه « أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم رافع بن خديج وردّنى ، وأنا أصرعه » ، فأعلم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما تصارعا ، فصرع سمرة رافعاً ، فأجازه الرسول .

فالمؤمنون كانوا هم جند الإسلام ورجاله فى المعارك ، تخاذلت أمامهم قوات أعدائهم ، وتراجع أمام بطولاتهم الأبطال من الأعداء ، وكانوا جميعاً مضرب المثل فى القوة والشجاعة والإقدام ، وكان لواؤهم لايسقط من يد حامله حتى يأخذه خلفه ، وبهذا الإيمان وبهذه العقيدة كان كل جندى مسلم معجزة من معجزات الحرب . . دخل عبادة بن الصامت على المقوقس ، فخافه لأنه كان شديد السواد ، وقال له عبادة « إن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود ، كلهم أشد سواداً منى ، وإنى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى ، وكذلك أصحابى » . . وأمدّ عمر عمرو بن العاص بأربعة آلاف على كل ألف منهم رجل ، وكتب إلى عمرو « إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل بمقام ألف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة » . . جاء فى كتاب الفتوحات الإسلامية (حـ ١) « كتب ملك الروم إلى المقوقس يقول له « أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً ، وعندك بمصر من الروم وبالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ماقد رأيت ، فناهضهم للقتال ولا يكون لك رأى غير ذلك » ، فقال المقوقس بعد

أن قرأ الكتاب « والله إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ، إن الرجل الواحد منهم يعدل مائة رجل منا ، ذلك لأنهم قوم الموت أحب إليهم من الحياة » .

فى خلال غزو اليمامة تحصن مسيلمة الكذاب وقومه بحديقة على مقربة منهم كانت فسيحة الأرجاء منيعة الجدران كأنها الحصن ، فأحاط المسلمون بالحديقة ، وأشار عليهم البراء بن مالك « يا معشر المسلمين القونى عليهم فى الحديقة » ، ولكن ماذا يصنع البراء وحده بين الألوف التى تكدست هناك ، فقالوا له « لاتفعل يابراء » ، ولكنه أصر على رأيه ، وقال « والله لتطرحننى عليهم فيها » ، ورفعه المسلمون إلى أعلى الجدار ، فرأى كثرة القوم ، ولكنه لم يضعف أو يهن ، بل ألقى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة ، وظل يقاتلهم وحده ، وقتل منهم كثيرين ، ثم فتح الباب للمسلمين فدخلوا الحديقة وسيوفهم تلمع فى أيديهم والموت يطل من حدق عيونهم .

وفى أحد حاول أبو عامر عبد عمرو بن صيفى الأوسى أن يستميل قومه من الأوس إلى جانبه يحاربون محمداً ، وكان يرى أن مجرد ظهوره أمامهم وسؤاله لهم سيكون كافياً لانفصالهم عن الرسول ، وانقلابهم على الإسلام ، وارتدادهم عن الدين الجديد ، وعودتهم إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ولعله كان قاصراً فى رؤيته جاهلا بمدى رسوخ الإيمان فى قلوب الناس ، لأنه حينما دعاهم لم يجبه أحد ، بل ردوه رداً قاسياً ، قال لهم « يامعشر الأوس ، أنا أبو عامر » ، فأجابوه « لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق » ، وخاب أمله وساء ظنه وطاش سهمه .

وفى أحد أيضاً قتل حمزة وحده قبل استشهاده واحداً وثلاثين من كفار قريش (جاءت فى بعض الروايات ثلاثة وعشرين رجلا) ، ووصف وحشى غلام جبير بن مطعم وقاتل حمزة كيف كان حمزة يقاتل « إنى لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه ، رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هدًّا » .

والقادة الثلاثة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة شهداء غزوة مؤتة ، مثل للإيمان الصادق ، فقد قادوا الجيش الإسلامى ضد جيوش الروم ، وتقدم زيد القائد حاملا راية النبى فى صدر العدو ، وهو موقن أن ليس من موته مفر ، وحارب حرب المستميت حتى مزقته رماح العدو ، فتناول جعفر — وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره — الراية وقاتل ، فأحاط به العدو ، فاندفع وسطهم كالسهم ، يهوى بسيفه على رءوسهم ، وقطعت يمينه ، فحمل اللواء بشماله ، فقُطِعَت ، فاحتضنه بعضديه ، حتى قُتل ، وأخذ الراية من بعده عبد الله وقاتل وقُتل .

ورغم الرغبة الجامحة من جانب المسلمين فى حمل السلاح وخوض المعارك ، فإن الرسول الكريم أعفى من الاشتراك فى القتال الضعفاء والمرضى وغير القادرين والعجزة والشباب الذى لم يبلغ السن الذى يؤهله للقتال وخوض المعارك ، فهؤلاء لا يقدرون فى ظل ظروفهم على القتال ، وبالتالى يكون وجودهم ضمن الجيش وفى أرض المعركة عبئاً ضاراً بصالح المعركة ، هذا فوق أن قلب الرسول الرءوف الرحيم أبى أن يتحمَّل هؤلاء فوق طاقتهم ، وأن تلقى على عاتقهم مسئوليات أضخم وأكبر من سنهم وقدراتهم وطبيعتهم .

جاء فى رسالة أبى بكر إلى خالد وهو يقود الجيش الإسلامى لمحاربة المرتدين « لا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه »

وأعفى رسول من كانت ظروفه لا تسمح له بالمشاركة فى القتال ، والإسلام بذلك كان يخفف عن المسلمين أعباءهم ، ولا يثقلهم بما يزيد على طاقتهم ، أو يفوق إمكانياتهم وخاصة النفسية ، ذلك أنه دين يسر ولين ورحمة . . حدث فى غزوة بدر أن سمح الرسول لعثمان بن عفان بالبقاء بالمدينة وعدم الخروج للقتال ، لأن ظروفا عائلية تشغله فلم يعد قادرا على المواجهة ، فامرأته «رقية» مريضة ، وهى فى حاجة إلى زوجها ليكون قريبا منها ليعتنى بها ، وقال له الرسول « إن لك لأجر رجل وسهمه » ، ومنع الرسول أبا أمامة بن ثعلبة من الخروج لمرض أمه ، وأمره بالبقاء بجانبها للعناية بها ، ومنع الرسول علىّ بن أبى طالب من الخروج يوم تبوك ، ليبقى بين أهله يرعى شئونهم .

ولم يسمح الرسول لغير المسلمين بالمشاركة فى القتال ، ورفض فى شدة أن يحارب أهل الشرك بجانب المسلمين ، وأبى أن يسهم غير المسلم فى الدفاع عن الإسلام ، وذلك لأن غير المسلم يخوض المعركة طمعا فى منفعة ، وليس لنصرة الإسلام لأنه لا إيمان عنده ، كما أنه لا يكون شديداً فى القتال حيث لا دافع يبعث فى نفسه الشجاعة والجرأة . .

خرج عبد الله بن أبى فى جمع من حلفائه من يهود لمعاونة المسلمين يوم أحد ، وكان الجمع مؤلفا من ستمائة مقاتل على تمام الإستعداد والأهبة ، ورغم أن المسلمين كانوا فى أشد الحاجة إلى هذا الجمع الغفير إلا أن رسول الله أبى

أن يسمح لهم ، وردَّهم قائلا إن الله يغنيه عن مساعدتهم ، ووضع بذلك مبدأ هاماً لكل التيارات التى جاءت من بعده « لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا » ، ذكرت السيرة الحلبية « وسار إلى أن وصل رأس الثنية (تقصد الرسول) ، وعندها وجد كتيبة كبيرة ، فقال : ما هذا؟ ، قالوا : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبى بن سلول من يهود ، فقال : أسلموا ؟ ، فقيل : لا فقال : إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك » .

وتكررت الصورة عند الخروج إلى تبوك ، فقد خرج عبد الله بن أبى فى جيش من قومه ، يسير به إلى جانب جيش الرسول ، فرأى الرسول أن يظل عبد الله بجيشه فى المدينة ، لأنه كان ضعيف الثقة به وبصحة إيمانه .

وعلى هذا الدرب سار خلفاء الرسول ، فكانوا لا يسمحون لغير المسلم بالمشاركة فى القتال ، وقد رفض أبو بكر أن يسمح للمرتدين الذين عادوا إلى الإسلام أن يحاربوا فى صفوف المسلمين ، وظل قرار منعهم ساريا طوال فترة خلافته وجزء من خلافة عمر ، ثم سمح لهم بالجهاد واستنفرهم للفتح دون تأمير أحد منهم .

وحين تطلبت ظروف القتال الدائر فى العراق حشد حشود ضخمة لمواجهة حشود الفرس الكثيفة ، دعا المثنى بن حارثة أنس بن هلال النمرى من نصارى النمر وقال له « يا أنس إنك امرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا فإذا رأيتنى قد حملت على مهران (فى موقعة البويب) فاحمل معى » ، وقال مثل هذا القول لعبد الله بن كليب المعروف بردى الفهرى التغلبى من نصارى تغلب ، وأجابه الإثنان ، وشاركاه ، وهاجماه ، وقتل غلام نصرانى مهران قائد الفرس واستولى على فرسه ...

ودعا خالد بن الوليد خلال معركة اليرموك جرجة القائد الرومى إلى الإسلام فأسلم ، وسمح له بالقتال فى صفوفه حتى قتل ونال الشهادة ، وكان جرجة قائد القلب فى جيش الروم ، فجاء خالدا وسأله « يا خالد أخبرنى إلى ما تدعونى ؟ » ، فأجابه « إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله » ، فعاد يسأل « وهل لمن دخل فيكم اليوم ياخالد مثل مالكم من الأجر ؟ » ، فقال له « نعم » ، فسأله « كيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ » ، فقال خالد « إنّا دخلنا فى هذا الأمر وبايعنا نبينا وهو حىّ بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ماسمعنا أن يسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا مارأينا ولم تسمعوا ماسمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل فى هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا » ، فطلب من خالد أن يعلمه الإسلام ، فصحبه إلى فسطاطه ووضّأه ، ثم صلّى ركعتين ، وأسلم معه جنده ، وأسهموا فى قتال قومهم .

وكان خالد فى العراق يجمع السلاح من أعدائه بعد استسلامهم ، ولا يسمح لهم بالمشاركة فى القتال ، خوفاً من أن يستخدموا سلاحهم ضده ، أو أن ينفروا من الحرب خلال المعركة ، فتضعف صفوفه وتقل صلابة رجاله .

* * *

ومن أهم الأعمال التى تمت فى عهد عمر أنه أمر بإجلاء نصارى نجران عن ديارهم ، فبعث إليهم يَعْلَى بن أمية «أعلمهم إنّا نجليهم بأمر الله ورسوله ، ألا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرج من أقام على دينه منهم » ، وكان الدافع إلى هذا الإجراء أن بلاد العرب أصبحت كلها مع بداية عهده دولة تدين كلها بدين واحد ، ويسوسها رجل بايعه أهلها جميعاً ، فجدير بأميرها أن

ينفى عنها كل أسباب الضعف والوهن . . ومن أسباب الضعف والوهن لأمة أن تتعدد فيها الشرائع ذات السلطان النافذ بين أهلها ، والإسلام يتناول فيما تناوله أموراً لاتتفق ومقررات النصرانية ، فهو يحرم الربا والخمر والنصارى فى الجزيرة يمارسونهما ، والإسلام دين التوحيد والنصرانية دين تثليث ، ولهذا أصر عمر على ألا يبقى بالجزيرة دينان ، وقد ارتضى العرب جميعاً ديناً واحداً ، ووحدة الدين كفيلة بتأكيد الأمن والطمأنينة وتحقيق القوة ، والخليفة بهذا الإجراء يكون قد استهدف توحيد الجبهة الداخلية للمسلمين فى نطاق الجزيرة . فتحمى ظهور القوات المحاربة فى العراق والشـــام ومصر وتـكون عوناً لها وسنداً .

وموضوع الجبهة الداخلية موضع حيوى ، وخاصة وقت أن تـكون الدولة فى حالة حرب ، ولقد سبق أن حقق رسول الله بعد استقراره فى المدينة توحيد الجبهة داخلها ، لإدراكه أن الجبهة يقع عليها عبء كبير وخطير خلال اللقاء مع العدو ، فعلى قدر تماسكها وصلابتها وعلى قدر مقاومتها ومساندتها للقوات المحاربة تـكون نتيجة المعركة ، وبهذا تـكون المدرسة العسكرية الإسلامية قد أولت الجبهة الداخلية أصدق العناية ، وعالجت شئونها بحكمة تقديراً لدورها ، ولقد أدركت المدارس العسكرية التى جاءت بعد الإسلام أهمية الجبهة ، فأولتها العناية والإهتمام ، وكان الإسلام فى هذا المجال كما هى عادته فى كل المجالات المعلم والرائد . . لقد لعبت الجبهة الداخلية فى مصر خلال الحملة الفرنسية دوراً خطيراً ، وكانت شوكة فى جانب الفرنسيين ، أزعجتهم وأقلقتهم ، وكانت الثورتان القاهريتان من أهم عوامل فشل الحملة ، وكانت رشيد تمثل جبهة قوية ضد حملة فريزر ، حتى أنه يرجع إليها فضل

دحر القوات البريطانية خلال هـذه الحملة ، ومن تاريخ الحروب نعرف أن إنهيار الجبهة الداخلية فى فرنسا أدى إلى إنهيار جيوش فرنسا أمام قوات ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية ، كما أدى صمود الجبهة فى إنجلترا ضد غارات المحور المستمرة إلى انتصارها فى النهاية .

ولقد كانت المدرسة العسكرية الإسلامية أسبق القيادات فى هذا المضمار ، فاهتمت بالجبهة الداخلية ، وعملت على تدعيمها وصلابتها ، وهذا السبق يعتبر تطوراً فى العقلية العسكرية ، فعندما بلغ الرسول المدينة ومعه رفيق الهجرة أبو بكر الصديق ، فكر أول ما فكر فى جميع صفوف المسلمين وتوحيد جبهتهم وإيجاد رابطة قوية تجمعهم . . لقد كان أهل المدينة بعد إتمام الهجرة مهاجرين وأنصاراً ، وكان الأنصار أوساً وخزرجاً ، وكانت العلاقات بين المهاجرين والأنصار جديدة العهد حديثة الخلق ، ولم يكن هناك تنظيم لهذه العلاقات ، ولم يكن لها ضابط أو رابط ، ولهذا استلزم الأمر عقد صلة الأخوة بين الفئتين لتصبحا فئة واحدة مترابطة . . كان المهاجرون قد تركوا بلدهم وأرضهم وممتلكاتهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وجاءوا إلى المدينة والكثير منهم لا يجد قوته ، ولم يكن منهم أحد على جانب من الثراء والنعمة سوى عثمان بن عفان ، ومن هنا كان على الأنصار أن يستقبلوهم ، وأن يفسحوا لهم مكاناً فى بلدهم وبيوتهم ، وأن يقدموا العون ، وألا يبرموا بوجودهم ، وأن يشعروهم بأنهم إخوتهم فى الله وفى الدين ، ولهذا دعا الرسول المهاجرين والأنصار لكى يتآخوا فى الله أخوين أخوين ، وبدأ عليه السلام بنفسه ، فأعلن أنه وعلىّ أخوان ، وأخذ المسلمون يعلنون تآخيهم ، فكان حمزة وزيد

أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وعمر وعتبان بن مالك أخوين ، وتآخى كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخاء جعل له الرسول عليه السلام حكم إخاء الدم والنسب ، وألف الإسلام بين الفئتين بأوثق رباط .

وكان الأوس والخزرج يعيشون على خلافات مستمرة وعداوات متأصلة ، وأراد رسول الله وقد جمع بينهم الإسلام أن يشكلوا قوة واحدة متضامنة ، وأن يزول ما بينهم من خلافات وعداوات ، وأن يقضى على كل شبهة قد تثير العداوة من جديد ، فجمع بينهم ودعاهم إلى تناسى الماضى ونبذ الخلاف وتوحيد الكلمة وجمع الصف ، فاستجابوا وفتحوا صفحة جديدة تقوم على الود والحب والرضا ، وأصبحوا جميعاً صفاً واحداً متراصا يحمى الإسلام ويذود عنه ويصونه .

وتشكلت المدينة بأسرها فى إخاء كان الأول من نوعه بين جماعات البشر ، وتمكن النبى بهذا الإجراء أن ينشىء حول المسلمين سياجاً قوياً ، وأن يقيم صرحاً عالياً يحمى ويصد ويدفع ، حتى أنه عندما خرج المسلمون فى أول غزوة لهم فى بدر ، لم يستطع اليهود وهم قوة لها وزنها وثقلها داخل المدينة أن يستغلوا الفرصة لإثارة الفتن أو العداوة ، وبقيت الجبهة الداخلية قوية صامدة ، حتى أتتها أخبار النصر على لسان البشيرين عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ، إذ بعث رسول الله أولهما إلى أهل العالية من المدينة ، وثانيهما إلى أهل الواطئة فيها .

ونتيجة لصلابة الجبهة الداخلية فشلت كل محاولات إيجاد تصدع فيها ،

وبقى المسلمون المحاربون فى الجبهة مطمئنين إلى سلامة الخطوط خلفهم ، وإلى قوة الإرادة الشعبية التى تعيش وراء ظهورهم .

ولقد كان تصدع الجبهة الداخلية لقريش عاملا هاماً من عوامل استسلامها فى غزوة الفتح دون قتال ، حين أعلن أبو سفيان أنه لا قِبَل لهم بجيش محمد وطلب منهم الاستسلام فأطاعوه .

وكان تصدع الجبهة الداخلية لدولتى الفرس والروم عاملا هاماً فى هزيمتهما ، إذ غزت مبادىء الإسلام هذه الجبهة ، والتحمت فى معركة نفسية مع الأهالى قبل أن تلتحم الجيوش المقاتلة ، فجعلت الناس فى الداخل يفكرون فى الدين الجديد على ضوء أنه يدعو إلى الحرية والمساواة والعدالة ، فأقبلوا عليه بصدق وإيمان ، واهتزت مشاعرهم تجاه حكوماتهم ورئاساتهم ، وثارت نفوسهم على الأوضاع التى يعيشونها ، وتمنوا أن ينتصر الدين الجديد لتشرق فوق أرضهم شمسه ، ولتسود حياتهم مبادؤه ، وكان مجرد الترقب والتمنى والإنتظار هدم للجبهة التى تسند وتؤازر المقاتلين فى جبهات القتال .

لقد اهتمت المدرسة العسكرية الإسلامية بالجبهة الداخلية ودعمتها لتكون درعاً وسنداً وقوة تحمى وتصون وتعضد المقاتلين .

وبرز أثر الجبهة الداخلية فى جميع معارك المسلمين .

وبرز أثرها أيضاً فى جميع المعارك التى شهدها العـــالم فى عهود ما بعد الإسلام .

وهكذا تكون المدرسة العسكرية الإسلامية — وهى تسلط الأضواء

منذ أول عهدها على جانب هام يؤثر تأثيراً مباشراً على نفسية المحاربين وسير المعارك — قدوة ومثلا .

* * *

بعد ثمانية أشهر من الهجرة وبعد أن استقر المسلمون المهاجرون فى المدينة ووحد الرسول بين جماهيرها أوساً وخزرجاً ، ومهاجرين وأنصاراً ، وعاهد اليهود ، رأى عليه السلام بفكره العسكرى المتألق المتميز ضرورة حماية المدينة من كل جهاتها ، على أن تمتد هذه الحماية إلى مدى بعيد حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة ، وحتى لا تعطى الفرصة ليهود المدينة فيتصلون بالأعراب المجاورين فى محاولة لتـأليبهم على المسلمين ، لهذا قرر رسول الله أن تخرج دوريات مسلحة أطلق عليها اسم السرايا (جمع سرية وهى قطعة من الجيش يقال إنها لاتزيد على أربعمائة رجل) .

وفكرة هذه السرايا فكرة مستحدثة لم يأخذ بها أحد قبل الإسلام ، فهى نبت الفكر العسكرى الإسلامى ، وهى ثمرة من ثمرات المدرسة العسكرية الإسلامية .

وكانت هذه السرايا تخرج فى أعداد قليلة ، فهى إذن لم تخرج لغرض تعرضى أو هجومى ، ولكنها كانت تقوم بعمليات استكشاف المناطق حول المدينة ، ودراسة للأرض ومتابعة لأخبار قريش ، وكانت من أهم مهامها ..

أولا .. إشعار قريش بما صار للإسلام من قوة فى المدينة ، لعلها تدرك ذلك فيتخفف من عداوتها وترفع يد الإرهاب عن المسلمين الموجودين

تحت يدها بمكة ، وإن ظهور هذه القوة على مسرح الأحداث كقوة قادرة على تهديد طريق القوافل ، وبالتالى إضعاف قوتها الإقتصادية عماد ثروتها ومصدر غناها ، يجعلها تسعى جاهدة إلى إيجاد نوع من التفاهم والوفاق مع المسلمين ، على أساس ترك حرية الدعوة إلى الدين وإيقاف حركة تأليب العرب ضدهم ، وإذا كانت قريش تعيش فى مكة التى تقع فى واد غير ذى زرع ، فإن سلامة القوافل أمر حيوى ، وبذلك كانت السرايا أسلوباً لتحقيق هدف استراتيجى هام يجبر قريشاً على الخضوع ويلزمها بالبحث عن وسيلة للتفـــاهم وتقريب وجهات النظر .

ثانياً . . التقرب إلى القبائل العربية التى تسكن حول المدينة والارتباط معها بعقود ومحالفات تضمن بقاءها على الحياد فى الصراع القائم بين المسلمين وقريش ، وفى اتخاذها لهذا الموقف تعزيز لموقف المسلمين ، هذا فوق أن بعض هذه القبائل تقع فى المنطقة بين المدينة وساحل البحر حيث طريق القوافل ، وحيث يتيسر للمسلمين العمل ضدها لزعزعة موقف قريش الإقتصادى ، الذى تعتمد عليه كلية فى جمع المال الذى تشترى به السلاح .

ثالثاً . . بعث الرعب فى نفوس يهود المدينة الذين رغم ارتباطهم بمعاهدة فإنهم يرون فى وجود المسلمين فى المدينة عنصراً غريباً يجب استئصاله ، ولهذا فهم ينتظرون لحظة تتاح يثبون فيها على المسلمين ، وبث الرعب عندهم يجعلهم حذرين فى تعاملهم وفى أفكارهم ، فيمسكون عن الدس والكيد وإثارة الفتن وإشعال نار العداوة بين الأوس والخزرج ، وكان لابد من أن يشعر يهود بقوة المسلمين ، ويدركوا أن هذه القوة قادرة — إذا تحركت — على التصرف بحزم ضدهم .

رابعاً .. هذه السرايا تتيح للرجال الذين خرجوا فيهـا فرصة دراسة طبيعة الأرض حول المدينة ومعرفة أحوالها والوقوف على طرقها ودروبهـا وتضاريسها ومناخها والأماكن التى تصلح للتجمع والحشد ، وخاصة أن هذه المنطقة هى ميدان المعركة المنتظر ، والإلمـام بطبيعة ومعرفة أحواله ييسر التحرك والمنـاورة ، وإن هذه الدراسة التى نعنيها هى موضع اهتمام كافة القيادات فى العصر الحديث ، ويطلقون عليها اسم الإستطلاع ، وتقوم بهـا دوريات خاصة ويقدر نجاح هـذه الدراسة بمدى حجم المعلومات التى تحصل عليها وتتجمع لديها .

خامساً .. إن بقاء المهاجرين فى المدينة دون عمل يهيىء لهم حياة الدعة والخمول ، وهى تفســد النفوس وتزعزع الثقة وتضعف المعنويات وتهبط بالعزيمة ، وأراد رسول الله أن يكونوا يقظى ، فجهّز هذه السرايا ، وجعلها للمهاجرين وحدهم ، إثارة لروح القتال عندهم ورفعاً لمعنوياتهم ، وإدراكا لقوتهم ، وهى عناصر الإعداد النفسى والتأهب والإستعداد .

وبمتابعة تشكيل هذه السرايا يَتَبَيَّنُ لنا أمران هامان :

الأول .. إن هذه السرايا كانت قاصرة على المهاجرين دون الأنصار ، ذلك أن الأنصـار كانوا قد عاهدوا رسول الله على مناصرته حين يتعرض لهجوم ، ولم يعاهدوه على مشاركته فى أية حرب يقودها ضد أعدائه ، ومن جانب آخر فإن الأنصـار عاشوا فى المدينة سنوات عمرهم فهم على علم واف بطبيعة المنطقة التى تحيط بالمدينة .

الثانى .. إن هذه السرايا كانت تتـكون من عدد قليل وهذا يحـدد مهمتها ، لأن هذه القوة لا تملك القدرة على القتال ، وبالتـالى فإن مهمتها ليست

قتالية ، ولكنها فى المقام الأول مهمة استكشافية للدراسة ولاستعراض القوة .

ولقد قاد رسول الله بعض هذه السرايا ، وتولى قيادة الباقى رجال كانوا موضع ثقة رسول الله ، وكان عليه السلام يختارهم وهو مطمئن إلى عمق إيمانهم ورسوخ عقيدتهم ، وما يتميزون به من شجاعة وصلابة وتفكير عسكرى متقدم متطور .

ولعل سرية عبيدة بن الحارث من أهم هذه السرايا لسببين فقد أتاحت لبعض المسلمين الذين حبستهم قريش فى مكة أن يلحقوا بها فراراً من مكة ، ومن هؤلاء المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان ، هذا فوق أنها أول سرية تدخل فى صدام مع المشركين ، إذ ترامى الفريقان بالنبل ، وكان سعد بن أبى وقاص أول الرامين ، وكان يفخر بذلك ويقول « إنى لأول المسلمين رمى المشركين بسهم » .

وتأتى بعدها سرية عبد الله بن جحش ، فقد خرج ومعه ثمانية نفر ، والتقى بقافلة يقودها عمرو بن الحضرمى ، ومعه عثمان بن عبد الله التميمى وأخوه نوفل ، ومولى هشام بن المغيرة ويدعى الحكم بن كيسان ، وكان اللقاء آخر ليلة من شهر رجب ، ورأوا أنهم إن تركوا القافلة إلى الغد دخلت الأرض الحرام وامتنع عليهم قتالها وضاع منهم ما تحمله القافلة ، وإن هاجموها فكأنهم قاتلوا فى شهر من الأشهر الحرم التى حرم فيها القتال ، واستقر الرأى على مهاجمتها ، وغضب رسول الله وغضب معه المسلمون ، وانتهزت قريش ما وقع من عدوان فى رجب ، وأثارت العرب ضد المسلمين ، وكان لليهود أيضاً

نشاط فى مهاجمة المسلمين ، وظل عبد الله ورجاله فى حزن وهم حتى أباح الله القتال فى الشهر الحرام ، ونزل فى ذلك قول الحق تبارك وتعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ . . ﴾ (البقرة ٢١٦) ، وسعد المسلمون بما أنزله الله فى شأن سرية عبد الله .

* * *

كان من الطبيعى أن يبدأ الجيش الإسلامى بعدد قليل من المقاتلين ، هم المجاهدون الأوائل الذين دخلوا فى الإسلام . . . وبارتفاع عدد المسلمين وإتساع رقعة الدولة زاد عدد المقاتلين .

لقد كانت غزوة بدر أول عمل عسكرى فى تاريخ الإسلام ، ولم يكن عدد المقاتلين كبيراً لأن الإسلام كان فى بداية عهده . . كان عدد المقاتلين خمسة وثلاثمائة رجل منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين فيهم علىّ وحمزة وعمر وعبيدة بن الحارث ، وواحد وستون من الأوس على رأسهم سعد بن معاذ ، والباقى من الخزرج وفى مقدمتهم سعد بن عبادة .

وفى أحد ارتفع عدد المقاتلين إلى سبعمائة ، وعندما فكر رسول الله فى حرب يهود خيبر وأمر الناس بالإجتماع على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية ، انطلق المسلمون إلى خيبر فى ألف وستمائة ومعهم مائة فارس كلهم واثق بالنصر .

وفى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة تحرك من المدينة ثلاثة آلاف مقاتل تحت قيادة زيد بن حارثة وجهتهم بلاد الروم حيث كان أول لقاء للمسلمين مع الروم .

وتجهّز المسلمون لفتح مكة ، واستجابت القبائل لدعوة الرسول الكريم، وسار الجيش الإسلامى مهاجرين وأنصاراً ، وجموعاً من سليم ومزينة وغطفان وغيرها ، وقد بلغ عدده عندما بلغ مر الظهران عشرة آلاف ، ولقد دار حديث بين أبى سفيان بن حرب وبديل بن ورقاء حين شاهدا معا النيران التى أمر رسول الله بإيقادها فى رءوس الجبال دون أن يعرفا أنها نيران المسلمين :

أبو سفيان — ماراأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً .

بديـــــل — هذه والله خزاعة قد حمشتها الحرب .

أبو سفيان — خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها .

وسمع العباس عم الرسول الحديث ، فنادى أبا سفيان ، وقال له « ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله فى الناس ، واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة »، وأركبه العباس فى عجز البغلة التى كان يركبها ، ومر به بين عشرة آلاف مسلم أوقدوا نيرانهم لتلقى الرعب فى قلب مكة ، وأدرك أبو سفيان أن قريشاً لا قِبَلَ لها بجيش محمد ، فدخل فى الإسلام ، وأسرع إلى قريش يدعوها للتسليم .

وبعد أسبوعين من قيام المسلمين فى مكة ، تحركوا وعلى رأسهم الرسول عليه السلام فى عدّة وعديد لم يكن لهم عهد بها من قبل ، وزحفوا إلى حنين فى إثنى عشر ألفاً من المقاتلين فى مقدمتهم الفرسان والإبل ، ومن بينهم

أبو سفيان بن حرب ... وكان مثل هذا الجيش فريداً من وجهة نظر العرب ، لأنهم لم يعرفوا مثله عددا من قبل ، وكان يتقدم كل قبيلة علمها ، وقد امتلأت النفوس والقلوب إعجاباً بهذه الكثرة ، كما امتلأت إيماناً وثقة بأنه لا غالب اليوم لها حتى تحدث بعضهم إلى بعض بذلك وجعلوا يقولون « لن نُغلب اليوم لكثرتنا » ، وقال الحق تبارك وتعالى فى هذا الموقف ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ (التوبة ٢٥) .

واتصل بالرسول نبأ من بلاد الروم بأنها تهيىء جيوشها لغزو حدود العرب الشمالية ، فلم يتردد عليه السلام فى مواجهة هذه القوى بنفسه ، وأخبر الناس بما استقر عليه رأيه ، وأرسل إلى أثرياء المسلمين يدعوهم لتجهيز الجيش بما أتاهم الله من فضله ، ودعا القبائل للتهيؤ ، وتجمع لديه عليه السلام ثلاثون ألفاً من المسلمين ، وعندما تحرك الجيش ثار النقع وصهلت الخيل ، وصعدت النساء سقف المدينة يشهدن هذا الجيش الجرار ، وهو متجه إلى بلاد الشام مخترقاً الصحراء ، مستهيناً فى سبيل الله بالحر والظمأ ، وكان يتقدمه عشرة آلاف فارس ، فلما سمعت الروم بحجم الجيش وكثرة الخارجين ، آثرت أن تنسحب إلى داخل حدودها ، لتحتمى بأرضها وحصونها .

هكذا كان الجيش الإسلامى على عهد رسول الله .

بدأ بمجموعة قليلة من الرجال آمنوا بالدعوة والرسالة ، ودخلوا فى الإسلام عن إيمان وعقيدة ، ثم ارتفع عدده تدريجياً حتى وصل إلى عدّة آلاف ، ومردّ هذه الزيادة والإرتفاع فى أرقام المحاربين أن كل عربى دخل

فى الإسلام أصبح جندياً من جنوده ، متى كان قادراً على حمل السلاح ومواجهة العدو مادياً ومعنوياً .

وبعد وفاة الرسول ، وفى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر ، اتسعت رقعة الدولة الاسلامية اتساعاً كبيراً وبعدت حدودها وزاد عدد أنصارها فى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا ، فتعددت الجيوش الإسلامية ، وأصبحت الحشود ضخمة كثيرة العدد ، وكثر أيضاً السلاح والعتاد ليتناسب مع عدد المقاتلين ، فكثرة دون سلاح لاتفيد ، وسلاح دون رجال لاقيمة له .

أحسّ أبو بكر بمسئوليته بعد توليه الخلافة ، وأدرك أنه أمام مهام تتطلب يقظة واستعداداً ، وخاصة أن رسول الله أقام دولة فى داخل الجزيرة وأمّن لها حدودها وجمع كلمة العرب ، فكان على أبى بكر أن يحافظ على هذه الدولة وأن يؤكد أمنها ، ولكنه فوجىء مع بداية عهده بأمرين هامين . . جيش أسامة الذى كان الرسول قد أعده قبل وفاته لغزو الروم . . وفتنة الردّة التى كادت أن تقوض الدولة الاسلامية .

وقرر أبو بكر أن يُبعث أسامة « ليتمّ بعْث أسامة ، ألا لايبقينّ بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرْف » ، وكان أسامة حدثاً لم يبلغ العشرين ، وقد ولّاه النبى قيادة الجيش رغم معارضات كثيرة « أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » ، ولقد ظهرت هذه المعارضة فى عهد أبى بكر ، فقد قالت الأنصار لعمر « أبلغه عنا واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سناً من أسامة » ، فأجاب أبو بكر « لوخطفتنى

الكلاب والذئاب لم أردّ قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وأخذ بلحية عمر وقال له غاضبا « ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه » ، وتحرك الجيش بعدده الكبير وعدته الوفيرة قاصداً البلقاء وقضاعة .

وأعد أبو بكر العدّة لمواجهة فتنة المرتدين ، فعين قادة وأبطال الاسلام لمحاربة الردة ومقاومتها ، ولقد بلغت الجيوش الإسلامية فى عهده أوج قوتها عدداً وعدّة ، فقد جهّز أحد عشر لواء ، وجعل على كل لواء أميراً ، وكان لواء خالد هو أمنع الألوية ، وتوجهت هذه الألوية إلى قبائل المرتدين فى كل أنحاء الجزيرة شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً ، ونجحت فى مهمتها ، وانتصرت على أعداء الدين ، وعادت الجزيرة كما كانت على عهد رسول الله مؤمنة بالله وبرسوله وبقرآنه ، ودفعت القبائل الزكاة وأقرّت بها .

ولا يفوتنا أن نذكر أن خالد بن الوليد حاول ـ وهو على رأس اللواء الأول يحارب طليحة ومالك ومسيلمة ـ أن ينزع من عدوه بعض قطاعاته العسكرية ويضمها إليه ، فنى ذلك قوة له وإضعاف لشأن عدوه ، فقد سعى مثلا إلى انسحاب طيىء وانسلاخها عن طليحة ، وجاءه عدىّ بن حاتم وقال له « أمسك عنى ثلاثا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك » ، ونجح عدىّ أيضاً فى أن يضم جديلة إلى قوة خالد « إن طيئا كالطائر ، وإن جديلة أحد جناحى طيىء ، فأجّلنى أياماً لعل الله أن ينتقذ جديلة » ، وانضم ألف راكب منهم إلى جيش خالد ، وهكذا كانت قوة المسلمين تزيد عدداً فى وقت يفقد أعداؤهم الأنصار والمقاتلين ، مما أضعف موقفهم وفتّ فى عضدهم .

وبينما كان المثنى بن حارثة يحارب الفرس فى أرض العراق ، أمر أبو بكر خالد بن الوليد بالتحرك لمعاونة المثنى وقال له « استنفر من قاتل أهل الردّة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وأمدّه أبو بكر بالقعقاع بن عمرو التميمى وقال « لا يهزم جيش فيهم مثل هذا » ، ثم أمدّه بعياض بن غنم بعد أن يكون قد أخضع أهل دومة الجندل ، ثم أمد عياضاً بعبد بن عوف[1] . وتجمع لدى خالد ألفان ، انضم إليها ثمانية آلاف من ربيعة ومضر قدم بهم إلى العراق ، حيث انضم إليه هناك ثمانية آلاف كانوا مع أمراء الجند المسلمين الذين سبقوا إليه وفى مقدمتهم المثنى .

وبينما كان الجيش الإسلامى يحارب فوق أرض العراق ، سيَّر أبو بكر الجيوش الإسلامية الأربعة التى أعدّها وجهَّزها إلى بلاد الروم ، فقد استنفر الناس ، وكتب إلى أهل اليمن يدعوهم للانضمام إلى جيوش المسلمين « أما بعد فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد ، وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالا » ، وقال « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، فالجهاد فريضة مفروضة ، وثوابه عند الله عظيم ، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، فسارعوا إلى ذلك ، وعسكروا ، وخرجوا ، وحسنت فى ذلك نيتهم ، وعظمت فى الخير حسبتهم ، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم » ، ولقيت هذه الدعوة أذناً صاغية ، فما أن كاد رسول الخليفة يتلو كتابه ، حتى أسرع الناس يستجيبون إلى الدعوة .. سار ذو الكلاع الحميرىّ وقومه وجموع من اليمن إلى المدينة . وسارع قيس بن هُبيرة فى مَذْحج ، وجُنْدَب بن عمرو الدوسى فى الأزد ، وحابس بن سعد الطائى فى طيىء إلى المدينة .

---

(١) فى الكامل لابن الأثير « عبد بن غوث » .

كان خالد بن سعيد أول قائد عربى مسلم يتولى القيادة فى قطاع الشام ، وتقدم بقواته حتى بلغ القسطل فى طريق البحر الميت ، وظل أبو بكر فى المدينة يعدّ الجيوش ويجهزها ويسيرها إلى الشام .. كان مثلا عكرمة بن أبى جهل قادما من كندة وحضرموت ، فلما بلغ المدينة أمره بأن يتحرك إلى الشام ، وكتب الخليفة إلى عمرو بن العاص - وكان مقيما فى قضاعة « قد أردت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك » ، فقال عمرو « إنى سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها ، فارم بها شيئا إن جاءك من ناحية من النواحى » ، وأمره الخليفة بالتحرك إلى الشام ، ... وكتب أبو بكر إلى الوليد بن عقبة بمثل ما كتب به إلى عمرو فاستجاب وآثر الجهاد ، وأعدّ الخليفة جيشا من أهل مكة ولّاه يزيد بن أبى سفيان ، وأمر شرحبيل بن حسنة وكان مع خالد فى العراق بالتحرك إلى الشام ، وندب جيشا آخر جعل عليه أبا عبيدة بن الجراح ، وكان من القادة المسلمين الذين توجهوا إلى الشام معاذ بن جبل ومعاوية بن أبى سفيان ، وأجمعت الروايات على أن جيش المسلمين فى بلاد الروم كان ثلاثين ألفا ، وكان هذا الجيش يواجه جيوش الروم التى بلغت أربعين ومائتى ألف .

وأراد أبو بكر أن يحصل المسلمون فى الشام على نصر يشبه نصر زملائهم فى العراق ، وأحس بأن جموع المسلمين هناك فى حاجة إلى قائد جسور لا يعرف الهوادة ولا يخاف الموت ، فقال لأصحابه « والله لأنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » ، وبعث إليه فى العراق « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا (يريد أن المسلمين ضاقوا

بعدوهم وضيقوا عليه حتى كان بعضهم لبعض كالشجا فى الحلق) » وتحرك خالد إلى الشام بنصف جيش العراق ، فزادت كثافة الجيش بالمدد الذى جاء به ، وتولى هناك قيادة الجيش الإسلامى كله ، بعد أن جمع الناس جميعا تحت قيادته ، وألغى نظام الألوية ، ووحّد جبهة المسلمين ، ثم خطب فى الناس قبل القتال فقال « إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا اليوم من أيامك ، أنزل نصرك على عبادك » وأنزل خالد بالروم هزيمة قاسية فى معركة اليرموك ، وتحقق للمسلمين نصر عزيز فتح أمامهم أبواب بلاد الشام كلها .

وخلال معركة اليرموك توفى أبو بكر ، وتولى الخلافة من بعده عمر ، ولم يكن بأقل تقدير للمسئولية ، فقد حمل الأمانة وهو أهل لها ، وأدرك خطورة الموقف وهو قادر عليها ، وحرص على صالح الإسلام والمسلمين وهو أمين على ذلك كله .

تولى عمر الخلافة ، ووضحت له منذ اللحظة الأولى خطورة الموقف ، فقرر أن يشرف بنفسه على عمليات العراق والشام فى آن واحد ، ولهذا بعث إلى سعد بن أبى وقاص يطلب منه أن يوافيه دائما بتقرير كامل ومفصل عن الموقف العسكرى ، حتى يستطيع تقدير الموقف واتخاذ الخطط اللازمة لمواجهته « اكتب إلىّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها ... كيف تنزلون ؟ ، وأين يكون منكم عدوكم ؟ ، واجعلنى بكتبك إلىّ كأنى أنظر إليكم ، واجعلنى من أمركم على الجلية » .

وكان عمر حريصا على أن يتولى بنفسه إعداد الإمدادات والإشراف

على تجهيزها وتحركاتها ، وكان يدعو الناس إلى الخروج ويحثهم عليه ، ويذكرهم بواجبهم ومسئولياتهم « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة (طلب الكلأ) ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطُّراء المهاجرون عن موعود الله ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فإنه قال : ليظهره على الدين كله ، والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومول أهله مواريث الأمم » .

وبعد هزيمة المسلمين فى موقعة الجسر بالعراق التى استشهد فيها القائد العربى أبو عبيد بن مسعود ، أخذ عمر يندب الناس إلى العراق مدداً للمثنى ابن حارثة الذى تولى القيادة هناك ، ورفع عمر من أجل توفير المدد اللازم الحظر على أهل الردّة ، وسمح لهم بالاشتراك فى القتال ووجّه من تجمع منهم إلى العراق .

واستجاب عمر إلى طلب جرير بن عبد الله البجلى ، لجمع بنى بجيلة وكانوا مشتتين فى القبائل ، ولذلك قصة نرويها باختصار .. فبجيلة من قبائل العرب الكبرى ، ولكنها تشققت فى القبائل نتيجة إشتباكها فى معارك فى الجاهلية ، وجرير من سادتها وأشرافها ، وكان قد كلّم رسول الله ليجمعها فوعده بذلك ، ولحق النبى بربه ، فأعاد الأمر مع أبى بكر ، ولكنه كان مشغولا بالفتوح فقال له « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الأسدين فارس والروم ، ثم أنت تكلفنى التشاغل بما لا يغنى عما هو أرضى لله ورسوله » ، وطالب جرير عمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة ، فكتب عمر إلى عماله « من كان فيه أحد ينسب إلى بجيلة فى الجاهلية وثبت

عليه إسلامه يعرف ذلك فأخرجوه إلى جرير » ، وحدَّد لهم مكانا يجتمعون فيه بين العراق والمدينة ، فلما اجتمعوا ، ولّى عليهم جرير (كان قد ولّى فى الأصل عرفجة بن هرثمة ، ولـكنهم اعترضوا على ذلك وقالوا لعمر : استعمل علينا رجلا منا) ، وطلب منهم التحرك إلى العراق مدداً للمسلمين ، ووعدهم بربع خمس ما أفاء الله على المسلمين يضاف إلى نصيبهم ، وذلك لأنهم كانوا يريدون الخروج إلى الشام دون العراق .. سألهم عمر « أى الوجوه أحب إليـكم ؟ » ، قالوا « الشام أسلافنا بها » ، فقال « بل العراق ، فإن أهل الشام قد قووا على عدوهم ، وإن الشام فى كفاية » .

وتولى عرفجة بن هرثمة قيادة بنى الأزد بعد ان قال لعمر « أنا امرؤ من الأزد » ، فقال له « نعم الحى الأزد يأخذون نصيبهم من الخير والشر » ، وتحركوا إلى العراق ، وكانوا يريدون الشام ، فقال لهم عمر « ذروا بلدة قد قلل الله شوكتها وعددها ، واستقبلوا جهاد قوم قد حَوَوْا فنون العيش ، لعل الله أن يورثـكم بقسطـكم من ذلك ، فتعيشوا مع من عاش من الناس» وعلّق غالب بن فلان الليثى وعرفجة بن هرثمة على قوله كل مخاطبا قومه « ياعشيرتاه ، أجيبوا أمير المؤمنين إلى ما يرى ، وأمضوا له ما يسكنسكم »، فأجابوا « إنا قد أطعنا وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما رأى وأراد » .

وبعث أمير المؤمنين إلى العراق كل من تجمع لديه فى المدينة ...

خرج هلال بن عُلَّفة التيمى على رأس قوم من الرباب .

وخرج ابن المثنى الجُشَمِىّ على رأس قوم من بكر بن هوازن .

وخرج عبد الله بن ذى السهمين على رأس أناس من خثعم .

وخرج ربعى على رأس قوم من بنى حنظلة وتولى أمرهم من بعده ابنه شبث بن ربعى .

وخرج ابن الهوبر والمنذر بن حسان على مجموعتين من بنى ضبة .

وخرج قُرْط بن جَمّاح على رأس قوم من عبد القيس .

توجه هؤلاء جميعا إلى العراق مددا للمثنى بن حارثة ، وشاركوا فى موقعة البويب التى ثأر فيها المسلمون من هزيمة الجسر .

ونجح المثنى بن حارثة وكان قائد القوات الإسلامية فى العراق بعد استشهاد أبى عبيد بن مسعود فى إثارة الإحساس العربى عند كثير من قبائل العرب المقيمة بالعراق فقالوا « نقاتل مع قومنا » ، وبذلك أضافت النخوة العربية عددا من المقاتلين العرب النصارى إلى الجيش الإسلامى ، فزاد بذلك عدد المقاتلين وارتفعت كثافتهم .

وبينما الفرس يعدون أنفسهم لمعركة القادسية ويحشدون لها الحشود ويجمعون لها المقاتلين ، كان عمر أيضاً يفكر فى هذه المعركة ، وكان يرى ضرورة إمداد القوات المقاتلة ، حتى تنال نصرا كبيرا فى القادسية يكون له أثره فى مستقبل الحرب فى العراق .

كتب عمر إلى عماله فى الكُوَر والقبائل فى بلاد العرب « لا تَدَعُوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلىَّ

والعجل العجل » ، وقال لأصحابه « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » وتوافدت عليه الوفود وتجمع الناس فى المدينة ، وأراد أن يخرج بهم ، وعرض الأمر على أصحاب المشورة ، فقال له عبد الرحمن بن عوف « أقم وابعث جنداً ، فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد ، فإنه إن يُهزم جيشك ليس كهزيمتك ، وإنك إن تُقتل أو تُهزم فى أنف الأمر خشيت أن لا يكبِّر المسلمون وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله » ، واستقر الرأى على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله على رأس الجيش ، ويبقى هو بالمدينة ، واستجاب عمر لهذا الرأى وقال مخاطبا المسلمين « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وإنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلا » ، واختار سعد بن أبى وقاص خال رسول الله وأول من رمى بسهم فى الإسلام وأسد الله فى براثنه ، وتحرك سعد ومعه أربعة آلاف من المقاتلين معهم نساؤهم وأبناؤهم ، ثم لحق به مدد من قوات الشام بقيادة هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو بلغ عدده ثمانية آلاف ، وتجمعت فى موقع القادسية قوة إسلامية قوامها ستة وثلاثون ألفا ، وكان هذا الحشد هو أضخم حشد عسكرى منذ عهد رسول الله ، وأصر عمر على أن يكون مع هذا الحشد عدد من الشعراء والخطباء بالاضافة إلى شخصيات الحرب المسلمين كعمرو بن معدى كرب وطليحة ابن خويلد والأشعث بن قيس والقعقاع بن عمرو ، وكانت معركة القادسية هى مفتاح الطريق إلى إيوان كسرى فى عاصمة ملكه ، فهى التى مهدت لزوال دولته وقضت على سلطانه ، فالقادسية تقع على قمة المعارك الحاسمة فى تاريخ العالم ، ففيها كسر المسلمون شوكة المجوس كسراً لم ينجبر بعدها أبدا ، إذ ألقى الفرس فيها بكل طاقاتهم سلاحا وعتادا ورجلا وفيلة ، وتولى قيادتها

أشهر رجالها فى الحرب ، فكانت هزيمتها ضياعاً لملك كسرى بأكمله ،
فبعدها دخل المسلمون المدائن، وفتح هاشم بن عتبة والمقداد بن عمرو جلولاء ،
ثم ارتفعت فوق أرض العراق راية الإسلام ، وأصبحت جزءا من أمة
الإسلام . . . أمة محمد .

وكانت لجيوش المسلمين جولة أخرى فوق أرض مصر ، فقد تحرك عمرو
ابن العاص من فلسطين إلى مصر على رأس أربعة آلاف مقاتل ، ولم
تشغل مهام الدولة العظام الخليفة عمر عن أن يقدم لعمرو الجند تلو الجند
والمدد بعد المدد . . .

دعا عمر الزبير بن العوام ابن عمة النبى وصاحبه ومن أبطال العرب
المعدودين ، وقال له « يا أبا عبد الله ، هل لك فى ولاية مصر ؟ » ، فأجابه
« لاحاجة لى فيها ، ولكنى أخرج مجاهداً وللمسلمين معاوناً » ، وخرج
الزبير إلى مصر على رأس المدد ومعه عبادة بن الصامت والمقداد وخارجة
ابن حذافة ومسلمة بن مخلد ، وانضم المدد إلى عمرو الذى تلقى كتاب
الخليفة الذى يقول له فيه « إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل
ألف رجل منهم رجل مقام ألف » ، وفتح المسلمون مصر واستقتب لهم
الأمر فيها ، ثم امتد نفوذهم بعد ذلك غرباً إلى طرابلس وبرقة وجنوباً
إلى النوبة .

إذن بدأ الإسلام نفراً قليلا ، ثم ازداد عدد رجاله ، فكانوا جميعاً
جنده ورجاله وأبطاله ، أدركوا أن دخولهم فى الإسلام يعنى أن كلا
منهم قد أصبح جندياً ، عليه أن يحمل سلاحه ، وأن يخوض

المعارك ، وأن يواجه العدو ، وأن يبذل من ذات نفسه من أجل دينه وأمته .

* * *

كان المسلمون كلهم جنداً محارباً ، وعندما فتحت الأمصار ورأوا بأعينهم خصب الأرض رغبوا فى زراعتها ، ولكن الخليفة عمر رفض خوفاً من أن يميلوا إلى الرخاء فيتقاعدوا عن الحروب ، ولهذا أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الجند يبلغهم أن عطاء الجند قائم ، وأن رزق عيالهم باق ، وينهاهم عن الزراعة ، ولعله أراد بذلك ألا يتوطنوا فى بلد فيثقل عليهم التحرك للقتال فى بلد آخر ، نتيجة ارتباطهم بالأرض ، لقد رفض عمر أن تقسم الأرض بين الجند وقال « فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت ، ماهذا برأى ؟ » ، وقال مؤيدا وجهة نظره . . « إذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها ، فماذا تُسَدُّ به الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟ » ، وأرسل إلى عشرة من كبار الأنصار وأشرافهم خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، وقال لهم طارحاً عليهم القضية « . . لكنى رأيت أنه لم يبق شىء يُفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنَّمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ماغنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخُمس فوجهته على وجهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم ، أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال

يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام لابد لها من أن تشحن بالجيوش ، ولابد من إدرار العطاء عليهم ، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج ؟ » ، فقالوا له « الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ، وتجرى عليهم مايتقوّون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم » .

الذى يهمنا فى هذا الأمر هو أن رأى عمر خضع أساساً لإعتبارات تتعلق بسياسة الدولة الحربية ، وقد أوضح ذلك أبو يوسف فى كتاب الخراج « توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الأعطيات والأرزاق ، لم تشحن الثغور ، ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذ خلت من المقاتلة والمرتزقة » .

وفى عهد عمر أنشىء ديوان الجند دُونت فيه أسماء الرجال وأعطياتهم (الديوان كلمة فارسية معناها السجل أو الدفتر يكتب فيه رجال الجيش ومن فرض له العطاء ، وتطور المعنى فصار يطلق على المكان الذى تحفظ فيه السجلات ، ثم صار يطلق على المكان الذى يجلس فيه القائمون على أمر السجلات ، وصار يطلق أيضاً على السجلات ذاتها) .

وأدخل الأمويون تعديلات على الديوان أهمها ألّا يمنح العطاء إلا لمن يقوم بخدمة عسكرية فعلا . . أما العباسيون فقد أبقوا على الديوان ونيط به مهمة تجنيد القوات ودفع أرزاقها دون تمييز بين أجناسها .

حدث فعلا تطور فى نظام الجند فى عهد الدولة الأموية ، وظهر نظام التجنيد الإلزامى ، فقد كان الناس من قبل يذهبون إلى الحرب جهاداً فى سبيل الله ، ويصيبون الغنائم والفىء ، فلما قامت الفتنة أيام عثمان اندلعت نيران الحرب بين المسلمين ، وانقسموا إلى طوائف كانت تندفع إلى القتال دفاعاً عن رأيها لأنها تراه حقاً وصواباً ، فلما أصبح الأمر لبنى أمية وتلاشت هذه الطوائف واتحدت الأمة تحت سلطان معاوية ، لم يعد هناك مايدفع الناس إلى الحرب طوعاً ، فأخذوا يتقاعدون عنها ، فاضطر الخلفاء إلى إقرار نظام التجنيد بالإلزام ، وكان أول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف فى عهد عبد الملك بن مروان ، وكان الحجاج شديداً عنيفاً فلم يتخلف أحد .

ولما تولى العباسيون الأمر على أنقاض الدولة الأموية ، رغب بنو العباس فى مؤازرة العجم لهم وتأييدهم لسلطانهم ، فسمحوا لعدد منهم بالدخول فى الجيش ، وكان أول الداخلين آل خراسان ، الذين نصروهم فى أول دعوتهم ، وانقسم الجيش فى عهد الخليفة المنصور إلى أربع فرق يقودها أبو مسلم الخراسانى ، وهى اليمنية والمضرية والخرسانية والحرس الخاص .

وفى خلافة المعتصم بالله تشكلت فرقة أفرادها من مصر وسميت بفرقة المغاربة على اعتبار أن مصر تقع فى غرب بغداد ، وتكونت فرقة أخرى أفرادها من سمرقند وفرغانة سموا بالفراغنة ثم بالأتراك ، وبنى المعتصم مدينة سامرا خارج بغداد وأقام فيها مع جيشه . . وظهرت فرقة الشاكرية فى عهد المهتدى واستفحل أمرها فى عهد المستعين بالله . . وظهرت فرق كثيرة ذات أسماء متعددة كالهلالية والسعدية والساجية . .

وتطور نظام الجند فى عهد المماليك ، وأصبح الجيش خليطاً من الأتراك والجركس والروم والأكراد ، وظل سلطان المماليك قائماً وقوياً ، حتى خلال الحكم العثمانى ، إلا أنه انتهى تماماً فى مصر على يد محمد على .

وظهر فى عهد الدولة العثمانية الجند الإنكشارية ، فقد جمع السلاطين الغلمان النصارى الذين قُتل آباؤهم وأصبحوا دون نصير ، وأنشأوهم نشأة عسكرية إسلامية ، وعلموهم فنون الحرب ، وجعلوهم جنداً للدولة لاعمل لهم غير الجندية ، والجندية فقط ، ولا دين لهم غير الإسلام ، وكانت لهم تقاليد يؤمنون بها ، ومبادىء يعتنقوها ، منها مثلا الطاعة المطلقة للقادة ، والاتحاد بين سائر الفرق وكأنها فرقة واحدة ، والبعد عن كل ما لايليق بالجندى الباسل ، وعدم الزواج ، وعدم مغادرة الثكنات ، والإهتمام البالغ بالألعاب الرياضية والتوينات العسكرية .

* * *

وكانت للجند المسلمين أعطيات منذ عهد النبوة .

وكانت هذه الأعطيات غير محددة فى عهد النبى ، فكانت الغنائم تقسم على أساس أن يخصص الخمس للرسول ، وأن يفرّق الباقى على الناس دون تمييز .

وجرى على هذا النظام أبو بكر .

أما فى عهد عمر فقد وضع نظاماً خاصاً ، فرتبت الناس طبقات ، وميّز رواتب كل منهم باعتبار نسبه من رسول الله أو سابقته فى الإسلام ، فكان

راتب كل من المهاجرين والأنصار الذين شهدوا بدراً خمسة آلاف درهم ، وكل من المهاجرين والأنصار الذين لم يشهدوا بدراً أربعة آلاف درهم ، « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » .

فرض للعباس عم النبي إثنى عشر ألف درهم ، ولصفية ابنة عبد المطلب ستة آلاف درهم ، وفرض لكل واحدة من نساء النبي عشرة آلاف درهم ، وللمهاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف ، وللحسن والحسين خمسة آلاف ، ولعبد الله ابن عمر ثلاثة آلاف ، وكل من أبناء المهاجرين والأنصار ألفين ، وكل من أهل مكة ثمانمائة ، وكل من سائر المسلمين من ثلاثمائة إلى خمسمائة ، وكل من نساء المهاجرين والأنصار من مائتين إلى ستمائة .

وظلت رواتب الجند على هذا النظام حتى تناوله التغيير فى عهد الأمويين ، فأصبح راتب الجندى ألف درهم ، وقيل إنه كان يصرف على جنده ستين مليون درهم سنوياً ، وفى عهد الوليد زادت رواتب الجند عشرة دراهم للواحد ، إلا أن هذه الرواتب أثقلت الدولة ، فأخذت فى النقصان حتى بلغ راتب الجندى فى أواخر الدولة الأموية خمسمائة درهم .

وفى عهد العباسيين كان رزق الجندى ثمانين درهما فقط فى الشهر ، وكان للفارس ضعف هذا الراتب ، وتناقصت الرواتب حتى صارت فى عهد المأمون عشرين درهما للمشاة وأربعين للفارس ، وظلت الرواتب تدفع نقداً حتى أيام الدولة السلجوقية ، وأصبحت تدفع أقطاعاً (أى مساحات من الأرض) ، وكان ذلك فى عهد الملك الطوسى وزير آل سلجوق ، واقتدى به من جاء

من بعده من الملوك والسلاطين إلى أوائل القرن الماضى .

* * *

كان للخلفاء فى صدر الإسلام عناية بإحصاء المسلمين اقتداء بما فعله الرسول الكريم ، فجعلوا على كل قبيلة رجلا يمر على الناس يسألهم « هل وُلد الليلة فيكم مولود ؟ وهل نزل بكم نازل ؟ » ، فيكتب الأسماء والأعداد ثم يذهب إلى ديوان المسلمين ويثبت الأسماء فيه .

وكانوا يجددون التدوين كل فترة فى كل ولاية على حدة ، وأول تدوين جرى فى مصر كان فى عهد عمرو بن العاص ، ثم فى عهد عبد العزيز ابن مروان ، ثم قرة بن شريك ، وكان آخر تدوين فى خلافة هشام ابن عبد الملك .

ولما تولى العباسيون الأمر أهملوا التدوين ، وقد بعث المعتصم بالله إلى عماله فى الأمصار يأمرهم بأن يسقطوا العرب من الدواوين ، وأن يقطعوا عنهم العطاء ، وأصبح الجيش فى عهده من العجم والموالى ، ولم يكن يضم بين صفوفه أحداً من العرب .

* * *

وكان المسلمون إذا فتحوا بلدا أقاموا معسكرهم فى بعض نواحيه ، وكانوا لا يقيمون فى مكان بينه وبين المدينة بحر أو نهر عملا بوصية عمر ، لهذا لم يقم المسلمون فى الاسكندرية ، ولكن أقاموا فى معسكر قرب حصن بابل فى منطقة الفسطاط ، ولم يقيموا فى المدائن بل أعد لهم معسكر

مابين البصرة والكوفة . . وكانت هذه المعسكرات تتسع للجند ولنسائهم اللائى كن يصحبهن أو يتبعهن .

وظلت إقامة المعسكرات تتم خارج المدن ، وكانت هذه المعسكرات تتحول إلى مدن ، كما حدث فى الفسطاط ، والبصرة ، والكوفة ، والقطائع (التى بناها أحمد بن طولون) ، والقاهرة (التى بناها جوهر الصقلى) ، وبغداد (التى بناها المنصور) .

* * *

وأخـــــيراً

لقد تطور الجيش الإسلامى عدداً وكمًّا .

كان على عهد رسول الله مئات ، ثم أصبح عدة آلاف ، يدفعها الإيمان ، فإذا بها قوة لايحبسها حابس ولا يحجزها حاجز ولا يوقف اندفاعها سد . . انطلقت بإنطلاقة الإيمان ، وأتت بالعجب العجاب ، ماتوقفت عن فتح ، وما أغمدت سيوفها ، بل ظلت تدفع بها فى نحور الأعداء ، تفتح البلاد ، وترفع راية القرآن ، وتعز المسلمين ، وتثبت فى النفوس والقلوب والعقول الإسلام ، دين الله الذى ارتضاه لخلقه وختم به الرسالات .

تأصلت العقيدة الإسلامية لدى فئة آمنوا حق الإيمان بربهم ، وبما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ، فزادهم الله هدى ، وكفّر عنهم سيئاتهم ، وأصلح بالهم ، وبارك أعمالهم ، وخلقت العقيدة من ضعفهم قوة ، ومن قلتهم كثرة ، ومن تنافرهم وحدة ، وأصبح منهم قادة أمجاد وجند ميامين .

وبتأصل العقيدة لديهم استحقوا أن يلقبوا بالمؤمنين ، وأصبح أول أهدافهم في الحياة نصر الله ، فهم بذلك ينصرون دينه ويقيمون شريعته ويدفعون الضلال والشرك والإثم ، ويقاومون كل من يعترض سبيل الله ويخالف ما أمر به ، وإذا اقتنعنا بأن الله القوى العزيز فى غنى عن من ينصره ، فإن نصره هو مظهر من مظاهر الطاعة والولاء له سبحانه ، ومن هنا يأتيهم نصر الله ، فينصرهم على أعدائهم ، ويثبت فى مواقع القتال أقدامهم ، على حين يملأ قلوب الذين كفروا الرعب والفزع ، ورغم أن النصر من عند الله ، فإنه محسوب لهم ، يلقون عليه أحسن الجزاء ، وصدق الله حيث قال وهو أحكم القائلين : « إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (محمد ٧) .

كان المسلمون الأوائل مجاهدين بكل ما تحمل كلمة الجهاد من آماد وآفاق وأبعاد وأعماق . . كانوا يعرفون لماذا يحملون السلاح ولماذا يحاربون ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ، (الأنفال ٨) وكان اقتناعهم بالهدف راسخاً عميقاً نابعاً من العقل والقلب والوجدان ، وفى

ضوء اقتناعهم الذى يعنى تعبيراً صحيحاً عن إيمانهم ، جاهدوا بالمال والنفس فى سبيل الله ، فسيطروا على أنفسهم ، وسيطروا على أعدائهم ، وأكدوا أن كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى ، وخُلدت أسماؤهم بين خوالد الأسماء ، وكتب لهم فى سجل الإستشهاد حظ البقاء .

والجهاد فى سبيل الله يعنى بذل الجهد بقوة مطلقة منطلقة ، ولقد شغلت آيات الجهاد حيزاً كبيراً يكاد يبلغ نصف القرآن المدنى (الذى نزل بالمدينة) حيث كان العهد المكى عهد دعوة وضعف وقلة ، ومن هذه الآيات على سبيل المثال دون الحصر ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ ، (التوبة ٧٣) و ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة ٤١) و ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج ٧٨) و ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت ٦٩) .

وعندما قرر الاسلام الجهاد ودعى المسلمون ليجاهدوا فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم ، وأصبح الجهاد فريضة واجبة الأداء على كل مسلم حماية للدعوة ورداً للمعتدين وصوناً لحياة المسلمين ، ولم يكن الجهاد للإكراه على أمر ، أو للإجبار على سلوك ، أو للإنتقام من مخالف أو معارض ، فقد قام الإسلام أساساً على العفو والمسامحة والحكمة والموعظة .

— ﴿ خُذْ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف ١٩٩) .

— ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل ١٢٥) .

— ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران ٢٠) .

— ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران ٦٤) .

— ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ (لقمان ١٧) .

— ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس ١٠٨) .

— ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت ٤٦) .

والجهاد يعنى بذل الجهد والطاقة والقدرة فى سبيل الله بالنفس والمال والرأى .

والجهاد فرض على المسلمين ... فرض كفاية ، وفرض عين .

ويلزم فرض الكفاية جميع المسلمين الموجودين من أهل القتال ، فإن قام البعض بالجهاد سقط الفرض عن الكل ، وإذا لم يقم به أحد أثم الكل من المكلفين به بتركه ، وفى هذا الفرض لاتخرج المرأة إلا بإذن زوجها ، ولا الولد إلا بإذن والديه أو أحدهما إذا كان الآخر ميتا .

ويكون الجهاد فرض عين إذا هاجم العدو بلداً من بلاد المسلمين فجأة فيخرج أهل البلد جميعاً ، لأن الجهاد فى هذه الحالة يكون فرض عين كالصلاة والصوم ، وتخرج المرأة دون إذن زوجها ، والولد دون إذن أبيه .

والجهاد أنواع . . جهاد بالنفس وبالقلب وباللسان وباليد وبالمال .

والجهاد بالنفس فرض عين وكفاية أيضاً . . أما باقى أنواع الجهاد ففرض عين فقط .

والجهاد بالقلب لصاحب العذر الذى له نيته فى القتال ولا يستطيعه ، وليس لديه مال يجاهد به ، ومن أصحاب العذر البكاءون الذين أرادوا الخروج مع رسول الله وجاءوه يسألونه أن يحملهم فقال لهم ﴿ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ و ﴿تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مايُنْفِقُونَ﴾ (التوبة ٩٢) .

والجهاد باللسان يعنى الحث على الجهاد والدعوة له فى كل مكان ، وكان هذا هو دور الخطباء والشعراء ، فكانوا يثيرون بأحاديثهم وأشعارهم الحماس ، ويشعلون الرغبة فى القتال ، ومن هؤلاء حسان بن ثابت شاعر

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان للشعراء الشماخ والحطيئة وعبده ابن الطيب دور كبير فى القادسية ، فقد دعاهم سعد وقال لهم « أنتم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذووا رأيهم ونجدتهم ، وأنتم سادتهم ، فسيروا فى الناس فذكّروهم وحرِّضوهم على القتال » .

والجهـاد باليد هو استخدام اليد فى كل ماينفع الجهـاد ويعين على النصر ، كتقديم الدواء والمال والطعام وتضميد الجرحى ، وهو الدور العظيم الذى قامت به النساء المسلمات فى كافة الميادين والمعارك ، وسوف نعرض لذلك بالتفصيل .

والجهـاد بالمال هو التبرع بالمال للتسلح وللمعاونة فى تموين المجاهدين وكانت غزوة تبوك مثلا حياً للجهـاد بالمال ، فقد أنفق عثمان عشرة آلاف دينار غير تسعمائة بعير ومائة فرس ، ودعا له الرسول فقال « اللهم ارض عن عثمان فإنى راضٍ عنه » ، وأنفق كثيرون غير عثمان كأبى بكر وعمر والعباس وعبد الرحمن بن عوف ، وحتى النساء المسلمات فقد أنفقن ماقدرن عليه من مال أو حلى .

ولقد جعل الإسلام للجهـاد مرتبة خاصة ، فهو أسمى العقائد الدينية ، وأفضل الأعمال الربانية ، ولهذا جُعلت للمجاهدين أعلى درجات المسلمين ، فهؤلاء يتميزون دون ريب فى الفضل والمنزلة عنـد الله عن هؤلاء الذين يحبسون أنفسهم وأموالهم عن سبيل الله .

﴿لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِى الضَّرَرِ والمُجَاهِدُونَ فِى

سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِم وَأَنفُسِهِم فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِم وأَنفُسِهِم عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ المجاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (النساء ٩٥/٩٦) .

وتوضح هذه الآيات أن منازل المسلمين تختلف باختلاف نصيبهم من البذل والعطاء ، فهناك مجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، وهؤلاء منحهم الله المال والصحة فأدّوا حق الله وبذلوا المال فى سبيله ، وقدموا أنفسهم أيضاً مقاتلين أوشهداء ، وهم بذلك يستحقون جزاء المحسنين ، وهناك مسلمون لديهم المال والعافية ، لكنهم لم يجاهدوا بالمال أو بالنفس وآثروا السلامة وبخلوا بما آتاهم الله من فضله وبخسوا دينهم حقه فوجب أن يكونوا فى درجات أدنى ، وشتان بين هؤلاء وهؤلاء ... الفرق شاسع والمدى بعيد .

والتقصير فى الجهاد فوق أنه إخلال بواجب دينى ، مستوجب لغضب الله ، لأن الإسلام اعتبره عاملا يؤدى إلى التهلكة والفساد والذل واختلال نظام الإسلام .

وكذلك اعتبر الإسلام التثبيط والتعويق والتخلف والتقاعس عن الجهاد جريمة دينية ، تستحق عقوبة الله وغضبه وسخطه ، وجريمة سياسية تعطى أولى الأمر حق مؤاخذة أصحابها بالشدّة والقسوة .

وقد وضعت للجهاد شروط ..

فهو واجب على المسلم إذا كان قادراً عليه ، فمن لاقدرة له لا جهاد عليه ،

ومن عجز عن الجهاد بنفسه ولا مال له ، فقد منحت له فرصة الجهاد بالقلب واللسان واليد .

وهو واجب على الرجال أصلا دون النساء ، لأن بنية المرأة لا تحتمل العنف ، ولهذا فهى لا تخرج لقتال أو لحمل سلاح ، وإنما تخرج لأعمال الطب والسقى والتموين وإثارة الحماس، وحُرم الجهاد على الشباب الذى لم يبلغ الحلم ، لأنه يكون فى حالة نفسية وصحية وجسمانية وعقلية لا تسمح له بمواجهة أحداث القتال بعنفها وضراوتها .

وسُمح للقادرين على القتال ولا يملكون سلاحا أو راحلة أن يخرجوا لتكثير السواد إرهابا للعدو .

وأعفى من الجهاد الضعفاء والمرضى والشيوخ وصغار السن ، فلا يأخذ الله بالإثم والعقاب أحدا من هؤلاء ، كما لا يأخذ الفقير الذى لا يجد ما ينفقه إذا تخلف عن الجهاد ، وهؤلاء جميعا أصحاب أعذار واضحة ، والإسلام دين يسر و « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، فهؤلاء لا حرج عليهم فى أن يتخلفوا عن الجهاد ، فهم معفون منه بحكم أعذارهم ، إذ أنهم لا يملكون القدرة عليه ، بل هم فى عجز عن مباشرته ، ويكفيهم أن يكونوا مع المسلمين المجاهدين بمشاعرهم وقلوبهم يدعون لهم بالنصر ، ويرجون لهم الغلبة والسلامة ، ويقومون على رعاية مصالحهم وقت غيابهم ، يقضون لهم حوائجهم ويساعدون أهليهم .

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

وَلاَ عَلَى الَّذِين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُم قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَايُنفِقُونَ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُم لاَيَعْلَمُونَ » (التوبة ٩١/٩٣) .

• ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (الفتح ١٧) وأعفى من الجهاد هؤلاء الذين أحاطت بحياتهم الخاصة ظروف تمنع خروجهم للجهاد ، فالإسلام دين رحمة ، ومن الرحمة أن يبقى الرجل بجانب أسرته إذا كانت فى حاجة إليه ، وليس أحد غيره يسد حاجتها ، ولقد أعفى رسول الله عثمان بن عفان من الخروج فى بدر ، لأن زوجته رقية كانت مريضه ، وكانت فى حاجة إلى من يبقى إلى جوارها يعنى بها ويرعاها فى مرضها ، وقال له رسول الله « إن لك لأجر رجل وسهمه » .

وأعفى علىّ بن أبى طالب من الخروج فى غزوة تبوك ، فقد أبقاه رسول الله على قومه وقال له « ... ولكننى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا علىّ أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى » .

وفضل الجهاد عظيم لأن فيه بذل النفس تقربا لله ، واعتبر الجهاد أفضل من قيام الليل ، ولقد أثنى الله على المجاهدين ووعدهم بالجنة فى كثير من آياته المحكمات ، ووصف القرآن المجاهدين بالعزة والقوة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ

البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (الشورى ٣٩) ، ويقول عنهم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ (المائدة ٥٤) ، ثم يوسع لهم فى حدود العزة حتى يجعلها موصولة بالله فيقول ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون ٨) ، ويرتفع بهم إلى مراتب الصلة الربانية فيجعلها فى مقام الحب من الله ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ ﴾ (الصف ٤) ، ويؤكد لهم بعد ذلك النصر فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (غافر ٥١) ، ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصافات ١٧٣) .... وتوج فضل المجاهدين بهذا الوعد الكريم ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة ١١١) .

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا رسول الله دلّنى على عمل يعدل الجهاد ؟ » ، فأجاب « لا أجده » ، وقال عليه السلام « والذى نفسى بيده ، لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده لوددت أن أُقتل فى سبيل الله ثم أحيا ، ثم أُقتل ثم أحيا ، ثم أُقتل » ، وقال « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » ، وقال « لغدوة فى سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها » ، وسأله رجل « أى الناس

أفضل ؟ » ، فأجاب « مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله » ، وقال « من اغبرّت قدماه فى سبيل الله حرّمهما الله على النار » .

وضعت مبادىء عامة للجهاد هى :

— يعقد المسلم بإسلامه عقدا مع الله بأنه باع نفسه له للجهاد فى سبيله بالمال والنفس ، واشترى الله منه ذلك بالجنة ، فيجب إذن على المسلم أن يوفّى بما عاهد الله عليه ، وأن ينفر إلى الجهاد كلما دُعى إليه ، وأن يؤمن بأن الله مُوفٍ له بوعده الحق .

— يؤمن المسلم بأن الله قد كتب على نفسه نصرة المؤمنين ، وأنه تعالى ناصر من ينصره حقاً وصدقاً .

— يعتقد المسلم أنه رابح بجهاده ، فإن بقى حياً يكون له حسنى الجهاد وثوابه وكرامته ، وإن قتل يكون له حسنى الشهادة ، وإن كُتب للمسلمين النصر فذلك عزة لهم ، وإن كتبت عليهم الهزيمة فهى اختبار سماوى يثاب الصابرون عليه .

— إيمان المسلم وصدقه موضع اختبار ، فإن الله قد يبتليه بالخوف والجوع والنقص فى الأموال والأنفس فى سبيل الله ، وعليه أن يقابل ذلك بالصبر ، فلا يضعف فى طلب العدو ، ولا يهن فى جهاده ، وأن يعرف أن ما يلقاه فى جهاده من صغيرة أو كبيرة قد كتبها الله له وأثابه عليها بأحسن الثواب .

— شهداء الجهاد أحياء عند ربهم يرزقون ويكرمون ويتمتعون بكل أسباب النعيم ، أجل المرء لا يتقدم لحظة ولا يتأخر عما هو مقرر فى علم الله ، ويجب أن يعرف المسلم أنه حينما يدركه أجله يموت ، وأن الجهاد لا يقدم من أجله ، وتجنبه لا يؤخر منه .

— يجب أن يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله بالمال والنفس أحب إلى المسلم من كل شىء ، حتى أبيه وأخيه وزوجه وعشيرته وماله وتجارته .

— يعظم أجر من يسرع إلى تلبية الجهاد بالمال والنفس فى وقت الشدة والضيق .

— الفرار من العدو لغير غاية حربية جريمة لا تغتفر .

— الاستماتة فى سبيل الله والخشية من الله ، واجب إلزامى على كل مجاهد .

— الإهمال فى الجهاد والتخلف عنه والتقصير فيه وعرقلته ابتغاء الفتنة وإذاعة الوساوس والدسائس والإشاعات جريمة تستحق غضب الله وعقوبته .

وقرر الإسلام بجانب هذه المبادىء آدابا كثيرة للجهاد يلتزم بها المجاهدون ويعملون فى حدودها مثل :

• المبايعة على السمع والطاعة ، والمبايعة تعنى مبايعة على الإيمان بالله ورسوله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والجهاد فى سبيل الله ،

وإن بيعتى العقبة الأولى والثانية تؤكدان هذا المعنى ، وإن الله تبارك وتعالى قد رضى عن المؤمنين الذين بايعوا ، وقد علم ما فى نفوسهم وقلوبهم من إذعان للرسول وولاء لدعوته ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح ١٠) .

● الوفاء بالوعد والصدق فى العهد ، ذلك أن المؤمنين قوم سلموا من النفاق وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فهم على حالة واحدة من أمر ربهم ومن الثقة بما وعدهم الله على يد رسوله ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب ٢٣) .

● الثبات عند اللقاء وذكر الله عند الفزع ، فالثبات للعدو والتصميم على لقائه فى عزم وإصرار هو السلاح الفعال فى المعركة ، فلا بد إذن للمقاتل وهو يواجه الموت فى الميدان ، أن يشد عزمه بالإيمان وبالصبر على الشدائد والثبات فى وجه الموت وعدم الإصغاء إلى دعوات الشيطان بالحرص على الحياة وطلب السلامة وحب البقاء ، كما أن ذكر الله يبعث فى قلب المقاتل القوة والشجاعة ، ويجعله يستخف بالموت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأنفال ٤٥) .

● طرد الخوف والأوهام والحزن ومعايشة المعركة بكل المشاعر والعاطفة والوجدان ، فبلاء المجاهدين المؤمنين هو الذى يكشف عن إيمانهم ، فإذا تعرضوا لموقف حرج ، فعليهم أن يواجهوا هذا الموقف بقوة الإيمان

مطمئنين إلى أن الله قد حكم بأن يكونوا إذا ثبتوا على إيمانهم فى المنزلة العليا فى الحياة ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُم الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران ١٣٩) .

• • الجرأة والشجاعة عند اللقاء ، فعلى المؤمنين إذا ما التقوا بالكافرين أن يوطنوا أنفسهم على أن تكون الغلبة لهم ، فإنتصارهم إنتصار للحق ، وهزيمتهم تمكين للباطل وتسليط للبغى والعدوان على مواقع الخير والحق ﴿ فإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ (محمد ٤) .

• • الصبر حين البأس والمصابرة عند المجالدة والتيقظ وتقوى الله ، فهذا كله هو زاد المسلمين وعتادهم فى مسيرتهم إلى الله ، يمكن لهم من أن يضعوا أقدامهم على الطريق الصحيح الذى يقود إلى الظفر ويحقق الغاية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ (آل عمران ٢٠٠) .

• • مطاردة العدو ومتابعته حتى يتم النصر ، فلا بد من طلب العدو دون ملل أو اكتفاء بنصر وقتى لا يقصم ظهره ولا يقضى عليه ، بل لا بد من تعزيز النصر بمطاردته حتى تتم هزيمته ، ويبقى نصر المسلمين واقعا وحقيقة ﴿ وَلاَ تَهِنُوا فى ابْتِغَاءِ القَوْمِ ﴾ (النساء ١٠١) .

• • عدم التسليم ، فلا وهن ولا ضعف ولا فتور ولا تخاذل ولا مطالبة بالسلم ، حتى لا يحمل الأعداء هذا الطلب على أنه ضعف وشعور بالهزيمة والاستسلام ، فيغرى ذلك العدو فيشتد فى وطأته ﴿ فَلاَ تَهِنُوا

وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ واللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد ٣٥) .

● ● عدم الفرار من المعركة ، بل لابد من الثبات للعدو ولقائه لقاء جادا دون أن يتواجد شعور بالفرار أيا كان الموقف وأيا كانت قوة العدو ، فالذى يفر وقت المعركة وينكص على عقبيه ويعطى العدو دبره يغضب عليه الله لأنه خرج عن أوامره وتعاليمه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال ١٥ / ١٦) وقال تعالى ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ (الأحزاب ١٦) ، وهذا يعنى أنه من الخطأ أن يتصور الإنسان أن فراره من ميدان القتال يحفظ عليه حياته ويرد عنه غائلة الموت ، فهذا التصور فيه خداع للنفس ، وفيه حب للحياة . أنسى الناس أن الموت أمر مقدر مكتوب ، وأنه آت لا ريبة فيه طال العمر أم قصر ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ (الجمعة ٨) .

● ● عدم الاختلاف ، والاختلاف فى مراحل القتال أمر قاتل يذهب بالجيش وبالمقاتلين ، وشئون المعارك بالذات لا تحتمل اختلافا فى الرأى ويجب أن تكون الأوامر من جهة واحدة هى التى تشرف وتقود وتحرك وتصدر القرار المتعلق بشئون المعركة ﴿ ولاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم ﴾ (الأنفال ٤٦) .

• • عدم الخوف من العدو ، لأن الله أقوى وأعز ، ويجب عدم الاستماع إلى ما يشيعه العدو عن نفسه وعن قوته وعن إمكانية قضائه على المسلمين ، لأن العدو قوم سيطر عليهم الشيطان ، فجعلهم أولياء له وأعوانا ، ويجب الإطمئنان إلى أن هؤلاء لا قدرة لهم على قتال المسلمين الذين يثقون فى أن النصر من عند الله ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران ١٧٥) .

• • عدم التشاؤم من هزيمة تلحق بهم ، فإن بلاء المؤمنين هو الذى يكشف عن إيمانهم ، ويعطى الدليل على صدقه ، ويؤكد أنهم أدوا حق هذا الإيمان بلاء وجهاداً ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ (آل عمران ١٤٠) .

• • الترفع عن الطمع فى الغنائم ، فالقتال فى سبيل الله يجب أن يكون لله وحده ، ولا يكون القصد منه الحصول على منافع شخصية أو غنائم ، فإن ذلك يبعد بالغاية ويشوه المقصد ويفسد النية ، ولقد كان الطمع عاملا مباشراً لما تعرض له المسلمون فى أحد بعد أن كان النصر فى ركابهم ، فقد غادر الرماة ــ الذين وضعهم رسول الله على جبل أحد لحماية ظهور المسلمين وأمرهم بعدم مغادرة موقعهم فى حالتى النصر أو الهزيمة ــ أماكنهم ، حين رأوا نصر المسلمين واضطراب أحوال الكفار وفرارهم تاركين غنائم كثيرة ، ولعبت الرغبة فى الغنائم دورها ، فأهاجت مشاعرهم وأنستهم أوامر رسول الله ، ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران ١٦١) .

• • الإيمان بأن الجهاد هو السبيل إلى الجنة ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ

المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُم الجَنَّةَ ﴾ (التوبة ١١١) .

• • الاطمئنان النفسى والاقتناع بأن الله مع المؤمنين فى جهادهم لا يتخلى عنهم ، فهو تعالى الذى مكَّن لهم من عدوهم ، ويد الله هى التى ضربت العدو ، وإن الله قد أجرى على أيدى المسلمين النصر ، ففوق أيديهم كانت يد الله ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُم وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (الأنفال ١٧) .

فى حدود هذه المبادئ والآداب جاهد المسلمون ، وأدوا بجهادهم إلى إرساء قواعد الإسلام وتأكيد الدين ، وبذلوا فى سبيل ذلك كل ما يملكون ، فكان كل شىء رخيصاً . . المال والنفس والولد والتجارة والدار ، وكانوا لا يبخلون بشىء حتى بالنفس وهى أثمن ما يملك الإنسان ، ولا شك فى أن بذل الحياة هو غاية البذل ، وأن الجود بالنفس هو أقصى غاية الجود .

إلا أن هناك فئة من المسلمين تقاعدت عن الجهاد ، ولم تشارك فى إقامة صرح الدولة الإسلامية ، بل حاولت أن تفت فى عضد المجاهدين وأن تزعزع إيمانهم وأن تحول بينهم وبين الجهاد .. هذه الفئة لم تكن لديها القدرة على مواجهة العدو ، فجبنت وخافت وودّت لو عادت أدراجها وتركت الإسلام ، ذلك أن الإسلام لم يكن قد تمكّن منهم ، فكانوا ضعاف الدين لم يكتمل إسلامهم .

وكشف الله أمر هذه الفئة فى مواضع كثيرة فى القرآن ، وأبان حقيقتهم وعرّاهم ، وبصّر رسوله والمؤمنين بهم وبمكرهم ، وأنزل فيهم آيات احتوت تقريعاً شديداً متنوع الأساليب ، وأحاطهم بشعور الحقارة والزراية والمقت ، وأوضح كيف أن نفسياتهم خبيثة وقلوبهم مريضة .

لقد كان لأصحاب هذه الفئة فى بدء أمرها كلمة نافذة ومكانة بارزة ، وكانت سهام مكرهم تزيد من حرج المواقف التى يواجهها الرسول والمؤمنون المجاهدون شدّة وخطورة ، ولكن بعد أن كشف الله أمرهم وأنزل فيهم آياته وقال كلمته وأصدر حكمه ، ضعف أمرهم وهان شأنهم وضؤل مركزهم وانكشفت ألاعيبهم ، فنبذهم المؤمنون ، وألقوا بدعواهم خلف ظهورهم، ولم يستمعوا لهم ، بل تهافتوا على الجهاد وسارعوا إلى الخروج ، وذهبت محاولة الآخرين مع الرياح .

وانقسم أصحاب هذه الفئة إلى :

(١) القاعدون

الذين آمنوا كما آمن الناس وأسلموا كما أسلم الناس ، ولكنهم لم يفقهوا فى الإسلام ، ولم يعرفوا معنى الإيمان ومفهومه ، ولم يدركوا قيمة الوعد الذى وعد الله به المجاهدين من المسلمين ... ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ﴾ (النساء ٧٧) ، ولقد فضّل الله المجاهدين وجعلهم أعلى درجة من القاعدين ﴿ وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء ٩٥) ، ذلك أنه حين كتب القتال على المسلمين استقبله المؤمنون بصدور منشرحة ونفوس راضية ، وعدّوه نعمة من نعم الله ، وفضلا من أفضاله ، أما الآخرون الذين فى قلوبهم ضعف أو مرض ، فقد أفزعهم الأمر ، وخشوا أن يفقدوا حياتهم تمسكا منهم بالحياة وحرصاً منهم عليها وحباً منهم للدنيا ، وتهربوا من أداء مهمتهم والقيام بمسئولياتهم .

(٢) المتثاقلون

الذين يتثاقلون عن القتال (التثاقل يعنى التباطؤ والتحرك فى ثقل ، فشأن كل ثقيل أن يكون بطىء الحركة ، وهو يشير إلى التصنع والإدعاء) ، مع إيمانهم بأهميته انطلاقاً من ركونهم إلى الدنيا وتفضيلها لما بها من شهوات ولذات زائلة وراحة مع الذل والخنوع ، وانطلاقاً أيضاً من حبهم للحياة والتعلق بما للإنسان فيها من هوى إلى المال والأهل والولد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (التوبة ٣٨) .

(٣) المتباطئون

الذين لم يرقوا إلى الإيمان بالجماعة والدخول فى الطاعة لله ولرسوله ، ولا يتسابقون إلى الخير العام ، ويغلب الطمع والأثرة على نفوسهم فيما يقع فى أيدى المجاهدين من غنائم . ليس عندهم إيثار أو تضحية ، يتظاهرون بالإيمان ولكن يغلب الحرص على أنفسهم ، فإذا جاء النفير إلى الجهاد يتعللون بالعلل ويبطئون ويتخلفون ، فإذا أصابت المسلمين هزيمة فرحوا ، لأنهم لم يكونوا معهم فيصابون وحمدوا لأنفسهم السلامة والنجاة ، وإذا أصاب المسلمين فضل امتلأت نفوسهم حسرة وأسى وندما لأنهم لم يكونوا معهم فيأخذون نصيبهم من الفضل ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ

أَصَابَكُم فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُم فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (النساء ٧٢/٧٣) .

(٤) المترفون الأغنياء

الذين شغلتهم أموالهم وأولادهم وأنفسهم عن ربهم ، وتعلقوا بالحياة الدنيا ، وتناسوا الخير الذى وعد الله به عباده المخلصين ؛ ورضوا بالتخلف عن الواجب ولا عذر لهم لأنهم قادرون ، فهم ليسوا من هؤلاء الذين رفع الله عنهم الحرج ، وانصرفت نفوسهم عن الخير ، فإذا دعوا إلى الجهاد استأذنوا فى التخلف ، واعتذروا باعتذارات باطلة ، راضين لأنفسهم أن يكون شأنهم شأن أرباب الضعف من النساء والصبية والعجزة ، وقد أعمى الله بصيرتهم وختم على قلوبهم ، فغفلوا عن سوء عاقبتهم وآثروا السلامة والعافية ، وضنوا بالمال والجهاد ، ولفقوا لذلك الأعذار ، ونسجوا الأكاذيب ، ولكن الله كذّب أعذارهم وفضح أكاذيبهم ، ودعا الرسول والمؤمنين أن يعرضوا عنهم اشمئزازاً ونفوراً ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُم أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُم لا يَعْلَمُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُم إِذا رَجَعْتُم إِلَيْهِم قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُم قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِن أَخْبَارِكُم وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُم تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُم إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُم إِنَّهُم رِجْسٌ وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (التوبة ٩٣/٩٥) .

(٥) المتربصون

الذين أظهروا إسلامهم إلا أنهم نكصوا عن الجهاد ولجأوا إلى وسائل وحيل ليتخلصوا من تبعاتهم وليتخلوا عن دورهم في الجهاد ، وكانوا يقدمون أعذاراً يعلمون مدى بطلانها حتى لا يشاركوا في الجهاد ... كانوا يتربصون بالمؤمنين وهم على طريق الجهاد ، فإذا عادوا منتصرين اغتموا وحزنوا ، وإن وقع بهم سوء فرحوا لما أصابهم ولأنهم لم يكونوا معهم فينالهم شيء من البلاء ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . وَإِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ . قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة ٤٩/٥٢) .

(٦) الظانون بالله غير الحق

وهؤلاء خافوا على أنفسهم وأساءوا الظن بربهم ، فلم يصدقوا أن الله ناصر نبيه وآخذ بيده ، وكذبوا ما وعدهم الله به ، وقالوا لو أن الأمر في أيديهم ما تركوا أنفسهم يُقتلون ، وما خرجوا ليلاقوا مصارعهم ، وكأن الله قد جعل خروجهم إختباراً لما في أنفسهم من الشك ، وإظهاراً لحقيقتهم أمام المؤمنين ، ليتبينوا ما في قلوبهم من عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وهؤلاء لم يكن لهم نصيب من الأمن الذي سكبه الله في قلوب المؤمنين ، فلم يكن همهم

الإسلام بل السلامة لأنفسهم ، ولهذا تجنبوا المعركة ووقفوا يرقبونها من بعيد ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران ١٥٤) .

(٧) المتخلفون

وهؤلاء قوم طلبوا من الرسول أن يسمح لهم فيقعدوا ولا يخرجوا ، فأذن لهم ، لأنه يعلم أنه لا فائدة ترجى من خروجهم ، وقد أسعدهم عدم الخروج ، فالكفر والنفاق راسخان فى قلوبهم ، فلم يبذلوا أموالهم ، وكرهوا الجهاد ضناً بها وبه ، وعمدوا إلى تثبيط همم الخارجين ، فانتهزوا فرصة دعوة الرسول إلى الخروج لغزو الروم فى الصيف وفى شدة الحر ، فانتشروا يقولون « لا تخرجوا فى الحر فتتعرضوا للجهد والعطش وتلقوا بأنفسكم فى الهلاك » ، وتناسوا أن نار جهنم أشد من حر الصيف وحر الصحراء وأقسى ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة ٨١) .

(٨) المرتابون

الذين لا ثقة لهم فى أنفسهم ولا فى غيرهم ، لا يريدون عملا ولا يعدون عدة ، ويبذلون الجهد لإشاعة الفتنة والفرقة تغطية لموقفهم وحقداً على غيرهم، وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر رغم زعمهم أنهم مؤمنون ، وهم لا يشعرون فى قرارة نفوسهم بباعث يحفزهم على الجهاد فيكرهونه ، ويبدون المعاذير لتركه ، لأن قلوبهم لم يستقر فيها الإيمان ، فيأتون رسول الله بأعذار كاذبة مستأذنين فى التخلف ، أما المؤمنون فهم لا يطلبون إذناً للتخلف ولا يحجزون أنفسهم عن أخذ حظهم من الجهاد ، فإذا دعا الداعى للجهاد كانوا مستجيبين إليه حتى لو كانت لديهم أعذار تمنعهم ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وارْتَابَتْ قُلُوبُهم فَهُمْ فِى رَيْبِهِم يتردَّدُونَ ولَو أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللهُ انْبِعاثَهُم فَثَبَّطَهُم وقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فيكُم مَا زادُوكُم إِلاَّ خَبالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَـكُمْ يَبْغُونَـكُمُ الفِتْنَةَ وفِيكُم سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمِين . لَقَدْ ابْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُم كَارِهُونَ ﴾ (التوبة ٤٥/٤٧) .

(٩) المعوقون

وهم فئة من أهل النفاق اشتركوا فى الحرب اشتراكا محدداً حتى يراهم المؤمنون ، ثم ينصرفون ، فهم يشهدون الحرب بنفوس مريضة ، ويضنون بأى جهد يبذل لكسب المعركة ، وهم حريصون على طلب الخير لأنفسهم ، وهم فوق ذلك يحرضون الخارجين ويزينون لهم القعود أو العودة دون المشاركة

فى القتال . . . وهم إذا زال الخطر عنهم يسبون المسلمين ويذمونهم ويبسطون ألسنتهم بالسوء ، ولكنهم عند توزيع الغنائم يظهرون ويتظاهرون بالإيمان رياء وخداعاً وطمعاً فى الحصول على نصيب منها ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ (الأحزاب ١٨/١٩) .

(١٠) المرجفون

وهم أخطر فئة فقد حذَّر الله رسوله منهم ، فهم عين للعدو ، ولسانه بين المسلمين ، ينشرون الأخبار الكاذبة والشائعات المغرضة والوقائع الباطلة والأراجيف المصطنعة ليشغلوا الناس بها ، ويفسدون عليهم حياتهم ، ويؤدون أعمالهم فى الخفاء ، يظهرون غير ما يبطنون ، يكيدون للمسلمين فى السر ، ويعملون على إضعاف معنوياتهم ، ومن هؤلاء تهب ريح خبيثة على المجتمع الإسلامى الذى أقامه رسول الله فى المدينة ، وكان لابد لهذا الريح من أن يعزل حتى لا يكون له أثر ، وأن يحرم من البقاء فى المدينة كل من كان له قلب فاجر أو لسان بذىء ﴿ لَئِن لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ . (الأحزاب ٦٠) .

(١١) المنافقون

قوم فى قلوبهم ضعف إيمان وضعف عقيدة ، كانوا يشكُّون فى أن الله سينصر المجاهدين ، وكأنهم ظنوا بالله ظن السوء ، ولهذا تحدثوا إلى أهل يثرب بأن إنضمامهم إلى محمد يمثل خطورة عليهم ، فإنهم سيكونون فى متناول أيدى قريش يقتلون منهم من شاءوا ، وطالبوهم بالرجوع إلى ما كانوا عليه والتخلّى عن محمد ، وأوضحوا لهم أنهم إذا استمعوا إليهم سيحققون الخير والسلام لهم « يا أهل يثرب ، لا مقام لكم فارجعوا إلى دياركم وأهليكم حيث الأمن والسلامة فإنكم مخدوعون » ، وهذه دعوة صريحة إلى الردّة ، والاستجابة إليها نقض لعهد أهل يثرب مع الرسول حين دخلوا فى الإسلام ، فقد عاهدوه وقتها على الطاعة والجهاد وألا يولوا الأدبار ... هؤلاء القوم طلبوا من رسول الله أن يسمح لهم بعدم القتال والعودة إلى بيوتهم لأنها غير حصينة ومعرضة للسرقة إن هم غابوا عنها ... هؤلاء دون شك ضعاف الإيمان قليلوا الثقة فى الله لم يستقر الإسلام فى عقولهم وقلوبهم ووجدانهم ، فلو دعوا إلى الردة أجابوا وعادوا ﴿ وَإِذْ يَقُولُ المنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ ماوَعَدنَا اللهُ وَرَسُولَه إلاَّ غُرُوراً . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُم يا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَمُقَامَ لَكُم فَارْجِعُوا وَيَسْتأْذَنُ فَرِيقٌ مِنْهم النَّبِيَّ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةَ وَمَا هِيَ بِعَوْرَة إنْ يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَارًا . وَلو دَخَلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا ثم سُئِلُوا الفِتْنَةَ لأَتوْهَا وما تَلَبَّثُوا بها إلاَّ يَسِيراً . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبلُ لاَيُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً . قُل لَن يَنفَعَكُم الفِرارُ إنْ فَرَرْتُم مِنَ المَوْتِ أَو القَتْلِ وإذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الأحزاب ١٢/١٦) .

من هذه الفئات نقدم هاتين الصورتين

الصورة الأولى ... عبد الله بن أبى بن سلول

كان سيد أهل المدينة ، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ويملكوه عليهم ، ولكن ما أن وصل رسول الله إلى المدينة حتى انصرف الناس عن عبد الله ، فآلمه ذلك ، ورأى أن الرسول قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الاسلام دخل فيه كارهاً مصراً على النفاق ، قال سعد ابن عبادة لرسول الله « يارسول الله أرفق به (يقصد عبد الله) ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا » ، وأصبح عبد الله معروفاً بين المسلمين والعرب أجمعين بأنه رأس المنافقين .

حين قرر رسول الله قتل يهود بنى قينقاع ، توسط لهم عبد الله عند الرسول ، قائلا « يامحمد أحسن من موالى » ، فأبطأ الرسول عليه ، فكرر الطلب ، فأعرض الرسول عنه ، فأدخل يده فى جيب درع الرسول ، فقال له الرسول فى غضب «أرسلنى» ، ثم قال غاضباً حتى رأوا لوجهه ظُللا « ويحك أرسلنى » ، فقال عبد الله « لا والله لا أُرسلك حتى تحسن فى موالىّ، أربع مائة حاسر وثلاث مائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ! إنى والله امرؤ أخشى الدوائر » ، وتدخل عبادة بن الصامت ، ووافق الرسول على أن يخرجوا من المدينة ، وأراد عبد الله الاعتراض على قرار الرسول فشجّه أحد المسلمين ، فقال له بنو قينقاع « والله لانقيم ببلد تشج فيه يا ابن أُبى ولا نستطيع عنك دفاعا »

وفى غزوة أُحد رأى رسول الله أن يتحصن المسلمين بالمدينة ، ورأى عبد الله رأى النبى وقال « لقد كنا يارسول الله نقاتل فيها ، ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصياصى ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة ، وقاتلناه بأسيافنا فى السكك ، إن مدينتنا يارسول الله عذراء ما فُضت علينا قط ، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وماخرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا ، فدعهم يارسول الله وأطعنى فى الأمر ، فإنما ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم » ، ولكن تغلب الرأى الآخر القائل بالخروج ، وتحرك الجيش إلى أُحد ، وشاهد رسول الله كتيبة فسأل عنها فقيل « هؤلاء حلفاء ابن أبى من يهود » فأمر الرسول بإعادتها قائلا « لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك مالم يسلموا » ، وغضب لذلك ابن أبى فقال له يهود « لقد نصحته وأشرت عليه برأى من مضى فكان رأيه من رأيك ، ثم أبى أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه » ، وصادف حديثهم هوى من نفسه ، فانخذل مع الكتيبة وعاد .

وعندما أنذر الرسول بنى النضير وطلب منهم مغادرة المدينة والخروج منها ، استشاروا عبدالله بن أبى فقال لهم « لاتخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وبذلك وقف ضد رسول الله مع قوم يختلفون عنه دينا ، ولكنهم يتفقون معه فى كره الإسلام ورسول الإسلام ، ونزل بنو النضير على رأيه ، فهاجمهم الرسول ، ولم يسرع

عبد الله إلى معاونتهم كما عاهدهم ، ونزل فيه قول الحق تبارك وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الحشر ١١) ، والله تعالى فى هذه الآيات كشف موقف عبد الله وجماعته ، فهو قد عاهد القوم على الخروج معهم إذا أخرجوا ولم يفعل ، وعاهدهم على أن يقاتل معهم إذا قوتلوا ولم يقاتل ، فوعوده كلها كذب .

وخرج عبد الله وقومه من المنافقين مع الخارجين إلى غزوة بنى المصطلق ابتغاء الغنيمة ، وكانت فى نفسه حفيظة على الرسول والمهاجرين ، فقال لرهط من قومه من الخزرج من المنافقين وكان عندهم زيد بن أرقم وهو غلام حديث السن « والله ما رأيت كاليوم ذلة ، أوقد فعلوها ؟ ، نافرونا وكاثرونا فى بلدنا ، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هؤلاء إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ... أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل » ، ثم أقبل على من حضر من قومه وقال « هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد » ، ومشى زيد بالحديث إلى رسول الله (قيل فى بعض الروايات أن ناقل الحديث هو سفيان بن تيم) ، وجاء عمر إلى رسول الله وقال « يارسول ائذن لى الله أن أضرب عنق ابن أبىّ ، أو مُرْ محمد بن مسلمة بقتله » ، فقال له الرسول

« كيف ياعمر إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه » ، وقال أسيد بن حضير لرسول الله « أنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . . يارسول الله أرفق به ، فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه مابقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى ، فإنه ليرى أنك استلبته ملكا » ، وسأله رسول الله « أنت صاحب هذا الكلام الذى بلغنى عنك » ، فقال « والذى أنزل عليك الكتاب ماقلت شيئاً من ذلك ، وإن زيداً لكاذب » ، وقال بعض القوم « يارسول الله ، عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ماقال الرجل » ، وقال رجال من قومه « يارسول الله شيخنا وكبيرنا لايصدق عليه كلام غلام » ، وبعد فترة نزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون ٨) .

وشاع أن رسول الله سيأمر بقتل عبد الله ، وكان له إبن حَسُنَ إسلامه كان اسمه الحباب وسمّاه رسول الله عبد الله . . جاء إلى رسول الله وقال « يارسول الله ، إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى أن أحمل لك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار » ، وفى رواية أخرى « فمرنى ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، وإنى لأخشى يارسول الله أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلاتدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأدخل

النار ، نعفوك أفضل ومنّتك أعظم » ، فقال له رسول الله « ما أردت قتله ، ولا أمرت به ، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا » .

عندما أمر الرسول بندب الناس للخروج إلى تبوك كان عبد الله أكثر الناس مقاومة للندب ، وكان يقول للناس « يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال » ، ومع هذه المعارضة المبدئية فقد جهز جمعاً من قومه للخروج ، فلما بلغ الجيش الإسلامى ثنيّة الوداع ، تخلف عبد الله ومن معه وعاد إلى المدينة وهو يقول « يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد » .

الصورة الثانية ... منافقو غزوة تبوك

عندما قرر رسول الله أن يسير إلى تبوك أرسل إلى القبائل يدعوها للإستعداد والتهيؤ .. وانقسم الناس إزاء هذه الدعوة إلى فريقين :

● — أولئك الذين أقبلوا على الدين بقلوب ممتلئة هدى ونورا ، ونفوس غمرها ضياء الإيمان ، وهؤلاء لبّوا دعوة الرسول خفافاً مسرعين ، منهم الفقير الذى لا يجد دابة يحمل نفسه عليها ، والغنى الذى يقدم ماله فى سبيل الله راضية نفسه .

● — أولئك الذين دخلوا فى الإسلام رغبة فى مغانم الحرب ورهبة من قوة المسلمين ، وهؤلاء قوم ضعاف الإيمان والعقيدة والعزيمة ، لم تكن لديهم قوة نفسية يتحملون بها الشدائد ، وكان بهم خوف وجزع ، فقعدت بهم

همتهم ، فتثاقلوا وأخذوا يلتمسون الأعذار حتى لايخرجوا ، فقالوا حر شديد ، وقالوا مشوار طويل مجهد ، وأذن لهم رسول الله ففرحوا بذلك ﴿ فَرِحَ المُخَلَّفُون بِمَقْعَدِهِم خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنفُسِهِم فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّم أَشَدُّ حَراً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وليَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . (التوبة ٨١/٨٢) .

وكان من المعتذرين الجدّ بن قيس قال له رسول الله « ياجدّ ، هل لك في جلاد بني الأصفر » ، فاعتذر عن الخروج لسبب تافه لايرقى إلى مستوى مسئوليته كرجل مؤمن يعرف حق الله عليه ، قال « يارسول الله ، أو تأذن لي في التخلف ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه مامن رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر » ، فأعرض عنه رسول الله وقال « قد أذنت لك » ، أذن له لأنه لاجدوى في رجل لا إرادة له ، هو عبد هواه ، لا يستطيع جهاد نفسه عن الإثم ، ولقد غضب ابنه عبدالله وقال له « والله مايمنعك إلا النفاق ، وسينزل الله فيك قرآنا » ، فأخذ نعله وضرب بهوجه ابنه ، فلما نزلت الآية « ... ومنهم مَنْ يقول ائذَنْ لي ولا تَفْتِني أَلَا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وإنَّ جَهَنَّم لَمُحِيطَةٌ بالـكَافِرِينَ » ، (التوبة ٤٨) قال له ابنه « ألم أقل لك » ، قال له « اسكت يالكع ، فوالله لأنت أشد علي من محمد » .

وفي بيت سويلم اليهودي اجتمع نفر من المنافقين وأخذوا يرددون عبارات التخذيل قائلين « أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم

بعضاً » ، وأمر رسول الله عمّار بن ياسر « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل بل قلتم » ، وأتوا رسول الله يعتذرون ، ونزل فيهم قول الحق ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ ، وأمر الرسول طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه أن يحرق البيت ، ففعل .

وتسلل بعض منهم إلى الجيش علّ فرصة تواتيهم يتخلصون فيها من رسول الله ، وكانوا قد عزموا على الخيانة عندما يقوم القتال ، فينفثون خلاله سموم التردد والهزيمة ، فلما لم يقع قتال، قرروا أن يطرحوا رسول الله من عقبة عالية فى الطريق ، ولكن الله تعالى أعلم رسوله بما بيته هؤلاء ، فاحتاط عليه السلام للأمر ، وجمع المتآمرين وأخبرهم فحلفوا بالله كذباً .

ومنهم من تعاون على إنشاء مسجد ضرار ، وطلبوا من رسول الله أن يصلى فيه « يارسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى فيه » ، فقال لهم « إنى على جناح سفر ، وحال شغل (وقت التجهيز لتبوك) ، ولو قدمنا إن شاء الله تعالى لصلينا لكم فيه » وكانوا قد أقاموا هذا المسجد بناء على اقتراح لأبى عامر الراهب ليكون معقلا يقدم عليهم فيه ، وعصم الله رسوله من الصلاة فيه ، فقد أخبر بخبر المسجد ، فدعا الرسول مالك بن الدخشم ومعد بن عدىّ وأمرهما « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه » ، ونزل قول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة ١٠٧) .

وحدث خلال التحرك أن ضلّت ناقة رسول الله فقال رجل من المنافقين « إن محمداً يزعم أنه نبي وأنه يخبركم بخبر السماء وهو لايدرى أين ناقته » فقال رسول الله « إن رجلا يقول كذا وكذا ، وإنى والله لا أعلم إلا ماعلمنى الله ، وقد دلنى عليها ، إنها فى شعب كذا ، وقد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها » ، فذهبوا ووجدوها كما قال عليه السلام ، فجاءوا بها .

كان الجيش الإسلامى يتكون كما تتكون الجيوش من قادة وجند .

وكان هؤلاء جميعاً يتفقون فى صفات عامة تؤهلهم لخوض غمار المعارك ومواجهة ظروفها .

١ — فلم يكن يخرج للقتال إلا من آمن بالله وبرسوله إيماناً بلغ حد الرغبة الجادة الكريمة فى الإستشهاد ، فهو قد عقد بينه وبين ربه عقداً باع به نفسه ووهبها للجهاد فى سبيله ... من خلال هذا العقد وانطلاقاً من مضمونه خرج المسلمون إلى الغزوات والحروب موقنين أن الله معهم يشد من أزرهم ويعينهم على عدوهم ويشحذ هممهم ويثبت أقدامهم ويعطيهم النصر ، وكم من مواقف كثيرة تعرضوا لها وأحسوا وهم يعانون أحداث المعارك الرهيبة أن قوة الله تؤازرهم وتخفف عنهم وتهوّن عليهم .

فى بدر كان واضحاً أن العدو يملك التفوق العددى ، وخشى المسلمون أن يخسروا لقاءهم الأول ضد قوى الشر ، فاتجه الرسول بكل جوارحه وأحاسيسه إلى ربه ، وجعل يناشده ماوعد به المجاهدين من عباده وظل يردد « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذّب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى » ، ومازال يدعو حتى سقط رداؤه ، وأبو بكر يرد الرداء إلى موضعه ويقول « يانبى الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك

ما وعدك » ، وخفق الرسول خفقة من نعاس ، رأى خلالها نصر الله ، فقال لأبى بكر « أبشر أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع » ، ثم خرج عليه السلام إلى الناس وقال « والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، ولكن أى رجال خاطبهم رسول الله ، إنهم المهاجرون الذين قال عن لسانهم المقداد بن عمرو « يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك » ، والأنصار الذين قال عن لسانهم سعد بن معاذ « امض يا رسول الله فنحن معك » ، . . إنهم جند الله وجند الإسلام المؤمنون بالله حق الإيمان ، والذين أدركوا أن قيمة حياتهم فى جهادهم من أجل الله والدين ، وأن أكبر ثواب لهم هو الجنة ثمناً لبذل أرواحهم فداء لرسالة الله وعطاء لله .

وفى غزوة الأحزاب اجتمع حول المدينة جيش كثيف العدد التقت فيه قوات قريش بقوات حلفائها من القبائل العربية المختلفة ومن يهود الذين قال عنهم حيى بن أخطب « تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه » ، وكان هدف هذا التحالف هو القضاء على محمد وصحبه فى المدينة ، ولم يكن بالمدينة من يستطيع أن يواجه هذا الجمع الذى بلغ عشرة آلاف ، وجاءت فكرة الدفاع عن المدينة على لسان سلمان الفارسى الذى شرّفه الرسول بقوله « سلمان منا أهل البيت » ، فقد أشار بحفر الخندق وتحصين المنازل وإخلاء المساكن « يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا » ، وفوجئت قريش بهذا النوع الجديد من الدفاع ولكنها لم تفقد الأمل فى الوصول إلى المدينة ، واتجه الرسول بقلبه ووجدانه إلى ربه « يا مجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فإنك ترى ما نزل

بى وبأصحابى » ، وأتاه جبريل بالبشرى ، وكان الوقت شتاء ، فاشتد البرد وهبّت العواصف وصفرت الريح وانكفأت القدور وطرحت الأبنية واقتلعت الخيام وأطفئت النيران وأظلمت الدنيا ، ولم يحتمل الرجال قسوة الريح ، وامتلأت العيون بذرات الرمال ، وفقد القرشيون وحلفاؤهم القدرة على الرؤية . . قال حذافة بن اليمان « ما أتت علينا قط ليلة أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها ، تطن من رياحها أصوات أمثال الصواعق ، وما يستطيع أحدنا أن يرى إصبعه من قتامها السائد » ، وساءت حالة قريش ، وأدركوا أنه لا حيلة لهم ولا مخرج ، وقال لهم أبو سفيان قائد الجيش : يا معشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام ، وقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل » ، ووثب على جمله وحلّ عقاله وهمّ بالرحيل ، فتعجب عكرمة بن أبى جهل لمسلكه فقال له « إنك رأس القوم وقائدهم وتترك الناس» ، فاتجه أبو سفيان إلى الناس ودعاهم إلى الرحيل « ارحلوا » ، ورحلت قريش وبقى المسلمون فى مدينتهم لم يمسهم سوء آمنين مطمئنين ، وقد تأكدوا أن العقد الذى باعوا به أنفسهم لله مازال قائماً وأن وعد الله حق وأن الله منجز وعده .

إن لكل قتال جانبين مادى ومعنوى ، والمادى هو القوة بكل مقوماتها ومكوناتها ، أما المعنوى فهو يشمل الإيمان والروح المعنوية ، ولقد نجح المسلمون لأن الإيمان كان يسيطر على أفكارهم وعقولهم ووجدانهم ، وكانت صلتهم بالله وثيقة متصلة لم تنقطع أبداً ، فكانوا خلال المعارك يتجهون بكل قلوبهم ومشاعرهم وأحاسيسهم إلى الله ، ويعيشون معه كل

لحظات حياتهم ، وكل يعرف أنه مقدم على عمل يرضى عنه الله ، وبالتالى فهو مقتنع به راضٍ عنه يملؤه الأمل فى النصر والثقة فى الله ، ولقــــد قدم قادة الإسلام بداية برسول الله ومنذ صدر الإذن بالقتال ،أروع المثل فى ميادين القتال انطلاقا من إيمانهم بالله ، وكانوا جميعاً على مستوى الأداء العظيم والبذل والعطاء ، ولعل استشهاد قادة مؤتة يؤكد ذلك .

وظلت الصلة الإيمانية موصولة بين القيادات الإسلامية والله بعد وفاة الرسول ، وكانت هذه الصلة هى حجر الزاوية فى كل عمل عسكرى ، والخط الرئيسى لسياسة القادة والخلفاء ، فأبو بكر الصديق حين وجّه جيوشه لمحاربة المرتدين ، بعث بتوجيهات منه إلى قادة الجيوش قال فى مقدمتها « هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (لفلان) حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سره وعلانيته » .

وهو يذكر الله دائماً ويذكّر به رجاله ، طمعا فى توثيق العـــلاقة واستمرارها ، وكان لايترك فرصة أو يدع مناسبة إلا ووجّه فيها قادته إلى الله ، فمثلا عندما بلغه انتصار خالد على طليحة كتب إليه يقول « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً ، واتق الله فى أمرك ، فإن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون ، جُدّ فى أمر الله ولا تَنِيَنّ » .

وفى قتال ردّة البحرين ، كان المسلمون يقتحمون البحر رجالا وركبانا فى أول مغامرة إسلامية مع البحر ، وتابعهم قائدهم العلاء بن الحضرمى وهو يناشد ربه ويخاطبه « يا أرحم الراحمين ، يا أحد ، يا حىّ ، ياقيوم ، يا محيى

الموتى ، لا إله إلا أنت يا ربنا » ، ومع هذه التوسلات ومع إيمان الجندى المسلم ومع شجاعته وجسارته ، نجحت عملية الإقتحام وعبر المسلمون مياه الخليج إلى جزيرة دارين ، حيث تجمّع المرتدون ، فقتلوهم جميعاً وسبوا النساء واستاقوا الأموال، وبلغ نفل الفارس ستة آلاف درهم والراجل ثلث ذلك .

وفى معركة أُلَيْس بالعراق كان القتال محتدماً شديداً عنيفاً ، فاتجه خالد بجوارحه ومشاعره إلى الله فخاطبه قائلا « اللهم إن لك علىّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه ، حتى أجرى نهرهم بدمائهم » .

وفى البويب خاطب المثنى جنده فذكّرهم بإيمانهم بالله وبرسالته وبالهدف الكبير الذى يحاربون من أجله ، وبالنصر الذى يأملونه قال لهم « إنى لأرجو ألا تُؤتى العرب اليوم من قبلكم » ، ورأى خلال القتال خللا فى صفوف بنى عجل فبعث إليهم من يقول لهم « إن الأمير يقرئكم السلام ويقول لاتفضحوا المسلمين اليوم » ، فيقولون له « نعم .. نعم .. » .

والأمثلة كثيرة .

وواقع الحروب الإسلامية وواقع التاريخ الاسلامى يؤكدان ذلك .

(٢) ولم يكن يخرج للقتال إلا من أدرك عن عمق وفهم أن إيمانه وصدقه تحت الإختبار ، وأن الله تجلت قدرته قد يبتليه بالخوف والجوع والنقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، وأن عليه أن يقابل ذلك بالصبر ، فلا يجزع ولا يخاف ولا يهن ، ولا يفقد عزمه وإصراره ، ولا يضعف فى

طلب العدو ، ولا يخفف من حماسه عند لقاء العدو ، فإن كل ما يلاقيه فى الجهاد من صغيرة أو كبيرة قد كتبه الله له وأثابه عليه .

فما أن نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل من الرماة وقلّة مَنْ به منهم ، بعد أن تركوا مواقعهم مخالفين بذلك أوامر رسول الله فى غزوة أُحد ، حتى كرّ بالخيل ومعه عكرمة بن أبى جهل ، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم مع أميرهم عبد الله بن جبير ، وعادت قوات المشركين الهاربة إلى ميدان القتال وهم يتصايحون بشعار الحرب عندهم « يا للعزى . . . يا لهبل » ، وفوجىء المسلمون المنتصرون بهـــذا الهجوم المضاد المفاجىء فتفرقوا فى كل وجه واختلطوا ، حتى أن بعضهم كان يضرب بعضهم الآخر . . اضطرب الحال ولم يثبت من المسلمين إلا رسول الله ومعه نفر يسير ، ولما تفرّق الناس صاح رسول الله فيهم « إلىّ . . إلىّ . . أنا رسول الله . . أنا النبى لا كذب . . أنا ابن عبد المطلب ، أنا ابن العواتك » ، وكان مع الرسول أبو طلحة وهو رجل رام شديد الرمى ، شاهد النبل تأتى من كل جهة فى اتجاه رسول الله ، فنثر كنانته بين يديه عليه السلام وقال « نفسى لنفسك الفداء ، ووجهى لوجهك الوقاء » ، وكان رسول الله يشرف على ساحة القتال ، وينظر إلى القوم وينادى رجاله ، فكان أبو طلحة يقول له « يا نبى الله ، بأبى أنت وأمى ، لا تشرف ، يصبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك » ، وظل رسول الله يرمى عن قوسه حتى اندقت سيتها وتقطع وتره ، فأخذ عكاشة بن محصن القوس ليوتره وقال « يا رسول الله لا يبلغ الوتر » ، فقال له « مدّه يبلغ » ، قال عكاشة « فوالذى بعثه بالحق لمددته حتى بلغ ، وطويت منه لفتين أو ثلاثا على سية القوس » .

هذا الموقف الذى تعرض له المسلمون فى أُحد بعد انتصارهم فى بدر يعنى أن جهاد المسلمين ليس كله إنتصاراً ، فهو نصر تارة ، وتعرض للهزيمة تارة أخرى ، ففى حالة الإنتصار لايجوز لهم أن يقيهوا فيملأهم الغـــرور ويأخذهم أسوأ مأخذ لأنه مرض قاتل ، وفى حالة الهزيمة لايجوز لهم أن يضعفوا أو يجبنوا أو يبعدوا عن إيمانهم ويتخلوا عن عقيدتهم أو يتناسوا العهد الذى عقده معهم الله . . . إن الهزيمة إمتحان صعب ، وهناك مبررات أدت إليها ، ولابد من الوقوف عليها والإستفادة منها ، مع الإستمرار على طريق الجهاد إيماناً بالله وثقة فى نصره وأملا فى نصر أو استشهاد .

وموقف آخر فى حنين .

فعندما تجمّع أهل هوازن وبنو سعد لملاقاة المسلمين ، خرج هؤلاء تحت قيادة الرسول لمواجهة هذه القوى التى تولى قيادتها مالك بن عوف ، وكان مالك قد أصدر تعليماته للجيش بأن ينحاز إلى قمم حنين عند مضيق الوادى ، فلما مرّ المسلمون فى واد من أودية تهامة هاجمهم مالك ورجاله ، واختلط أمر المسلمين واضطربوا من المفاجأة ، واختلت صفوفهم وتراجعوا ، ثم تفرقوا يرجون النجاة ، وانتهز العدو الفرصة فهجم بخيله ورجله وأمعن فى ظهور المسلمين طعناً وضرباً ، وشاع الاضطراب فى داخل الجيش ، وسرت فى صفوفه عدوى الهزيمة .

وكما حدث فى أحد ثبت رسول الله وحده ، والناس يتراجعون ويتدافعون دون وعى . . بقى رسول الله وحده وأخذ يصيح فى الناس . . « أين أيها الناس . . . هلموا إلىّ . . أنا رسول الله . . أنا محمد بن عبد الله . . أنا النبى

لا كذب ... أنا ابن عبدالمطلب» ، والناس فى هلعهم لا يسمعون ولا يفهمون ولا يعون ، وكان العباس عم الرسول أحد نفر قليل أحاط بالرسول بعد أن انكشف عنه الناس ، وكان جهير الصوت ، فأمره الرسول أن يدعو الناس ليرجعوا ، فجعل يصيح فيهم ويصرخ « يامعشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . . هلموا إلى رسول الله . . » وعاد الرشد إلى القوم وسمعوا دعوة العباس وأسرعوا فى اتجاه الرسول وهم يتصارعون «لبيك . . لبيك» ، وشد بعضهم أزر بعض ، ونظموا صفوفهم ، وتماسكوا ، وهاجموا العدو فانكشفت لهم مواقعه ، وحملوا عليه حملة رجل واحد ، فتفرقت جموعه وانقلبت الهزيمة نصراً مؤكداً . .

إذن خاض المسلمون فى حنين إمتحاناً ، وتعرضوا لموقف فيه بلاء ، ولكنه فى حاجة إلى قوة اليقين وعزم الإيمان ، ولقد أدرك المسلمون ذلك ، فعبروا هذا الموقف من فرار وهروب وهزيمة إلى تجمع وإندفاع وإنتصار ، واستهانوا بالموت الذى كان يحيط بهم ، واندفعوا إلى المعركة بكل الثقة فتملكوا زمام الموقف وهزموا عدوهم ، ونزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة ٢٥/٢٦) .

الدرس المستفاد من هذين الموقفين موقف أحد ثم موقف حُنين ، هو أن التجربة القاسية التى تعرض لها المسلمون يجب ألا يكون لها أثر على نفسية

المقاتلين ، فى أشد المواقف صعوبة وحرجاً يأتى فضل الله ، فيذكر المسلمين بعظمة الله وقدرته وبيده على المؤمنين من عباده ، وفى هذا ما يخفف عنهم ما قد يتعرضون له من ضيق أو ألم ، وبذلك يشتد عزم المؤمن ويقوى يقينه ويؤمن بأن أمداد السماء ونفحات الحق تأتى فى الوقت الملائم ، لتجعل الهزيمة نصراً ، ولكنه نصر مشروط باجتياز إختبار الله المؤمن بنجاح وثقة وأمل .

وهناك فوق أرض العراق أجرى الله لعباده إمتحاناً آخر .

فقد اجتمع جيش الفرس بقيادة بهمن جاذويه الذى قيل عنه إنه أشد العجم على العرب ، فسار إليه أبو عبيد بن مسعود قائد المسلمين ، ووقف كل جيش فى مواجهة الآخر على جانبى نهر الفرات (فى موضع بين برج بابل والعاقول) ، وكان لابد من أن يعبر أحد الجيشين إلى حيث الجيش الآخر ، وأرسل بهمن إلى أبى عبيد « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم » ، وقال المسلمون لأبى عبيد « لا تعبر يا أبا عبيد » و « ننهاك عن العبور » و « قل لهم فليعبروا » ، ولكن القائد أبى أن يسمع لهم ، وقرر أن يعبر قائلا « لا يكونوا أجرأ على الموت منا ، بل نعبر لهم » ، وعبر المسلمون ولم يترك لهم بهمن إلا مكاناً ضيقاً لا يسمح لهم بالحركة أو المناورة ، وليس فيه مجال للكر والفر ، والتحم الفريقان ، وهاجمت أفيال الفرس ، وأقبلت الخيل من كل جانب ، وانهزم المسلمون وهربوا ، ولكن إلى أين ؟ ، فالمكان ضيق وسهام الفرس تأخذهم من كل جانب ، ووصف الأغر العجلى ذلك الموقف فقال « وخزقهم الفرس بالنشاب وعض المسلمين الألم » ، ولما عجزت خيل المسلمين وفقدت فاعليتها أمر أبو عبيد الناس

بالترجل ومحاربة الفرس وجهاً لوجه ، وكانت معركة غير متكافئة ، قتل فيها وقتل معه كثيرون ، وقيل إن سبعة من ثقيف حملوا اللواء بعده وقاتلوا حتى قتلوا ، وذكرت الروايات أن المسلمين فقدوا فى هذه المعركة أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق .

ترى هل كان لهذه الهزيمة أثر فى نفسية المقاتل المسلم ؟

إن الخليفة عمر قد عالج الموقف فى كلمة بسيطة ، فحين بلغه أمر المعركة وخسارة المسلمين قال « عباد الله لاتجزعوا » ، وقدم بهذه الكلمات الدواء الناجع ... نعم ... فإن المطلوب من المسلم فى حالة وقوعه فى مأزق أو ابتلائه أن يتجه إلى الله ، وأن يؤكد صلته به تعالى ، وأن يعمق إيمانه وأن يظل على دينه قوياً صامداً ، فهو فى موضع إمتحان من السماء ، فإن صمد على إيمانه وتحمل ما تعرّض له ناله فضل من الله ، وانفتحت أمامه السبل ، وأشرقت فى دنياه شمس النصر ، ولكن إن تغلبت عليه الظروف ولم يصمد للمحنة ، وفقد ثقته بنفسه وبربه ، فقد ارتدّ ، ولابد من أن يتخلى عنه الله تماماً . لأنه أكد أن إيمانه الضعيف لم يعبر به المحنة ، وأعجزه عن أن يجتاز الأزمة ، التى أراد الله بها أن يمتحن قدراته الإيمانية .

إن أزمة الجسر لم يكن لها صدى فى نفوس المسلمين ، ولم يكن لها أثر فى إيمانهم ، ولم يكن لها أثر فى حبهم للجهاد واندفاعهم إليه ، وإن أزمة الجسر انتهت بانتصار رائع للمسلمين بقيادة المثنى بن حارثة فى البويب ، فقد ثأر المسلمون لأنفسهم من هزيمة الجسر ، وقتلوا من الفرس أعداداً بلغت عشرات الألوف ، حتى أن الأرض لم تكن تُرى ، لأن جثث القتلى غطتها جميعاً ،

وقال عوفجة بن هرثمة فى وصف القتال « قاتلناهم قتالا شديداً ، فولّوا نحو الفرات فما بلغه أحد فيه الروح » .

وما بين العراق والشام كان هناك موقف يستحق الإشارة .

فعندما اجتمعت الجيوش الإسلامية فى اليرموك ، أرسل أبو بكر إلى خالد فى العراق يأمره بالتحرك إلى الشام لمعاونة الجيوش هناك « ... أن سر بنصف الناس حتى تأتى جميع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا (تعبوا وأتعبوا) ... دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه ، ثم امض مخففاً فى أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة ، وصحبوك من الطريق وقدموا عليك من الحجاز . حتى تأتى الشام ، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة .... » .

وخرج خالد بجنده متجها إلى الشام ، وكان عليه أن يجتاز مفازة السماوة ، وهى الصحراء الفاصلة بين العراق والشام .. ولم يكن التحرك بالأمر الهيِّن السهل ، بل كان أمراً شاقاً عسيراً ، فالطريق وعر والمتاعب فيه كثيرة ، والعقبات عليه متعددة ، حتى إن الأدلّاء الذين دعاهم خالد « كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ، فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين ؟ » ، قالوا له « نحن لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش ، يأخذه الفذ الراكب ، فإياك أن تغرر بالمسلمين » ، وأبدى رافع بن عمير رأيه لخالد فقال « إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها إلا مغرور ... إنها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء » .

خالد ورجاله إذن أمام إمتحان عسير شاق ... هل يملك بإيمانه القدرة على اجتياز الطريق ، أم تضعف قدراته الإيمانية فلا تؤهله لاجتياز هذا الإمتحان ؟؟؟ ، أحسّ خالد أنه فى موضع الإمتحان والإمتحان قاسٍ ، وعليه أن يصمد ، وأن يتحدى الطبيعة ، وأن يجتاز الإمتحان ، فهو شخصية جديرة بأن تتعرض لهذه المواقف وتتغلب عليها ، وهو مؤمن بأن رسالة السماء يجب أن تتم بغض النظر عن أية صعوبات أو عقبات ، وواجه خالد رجاله بالموقف والقرار ، قال « لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله » ، واقتنع الجند بمنطق القائد ، وقالوا له « أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك » ، وكلّف خالد رافع بن عمير بتولّى عملية الإعاشة والشئون الإدارية خلال التحرك ، فطلب من خالد « أبغنى عشرين جزوراً عظاماً سماناً حساناً » ، فعمد إليهن فظمأهن حتى إذا أجهدهن العطش أوردهن فشربن حتى إذا تملأن عمد إليهن فقطع مشارفهن ثم كممهنّ لئلا يجتررن » ، وقال للجند « استكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك » .

اجتاز المسلمون الصحراء فى وقت عصيب وموقع مهيب ووسط بادية قاسية لا ماء فيها ولا زرع ، ولم يفقدوا إيمانهم ، بل صبروا وتحملوا حتى جاءهم فرج الله الكبير .. وهذه هى عاقبة المؤمنين .

٣ — و لم يكن يخرج للقتال إلا مَنْ آمن بعمق بأهمية الاتفاق التام على جميع العمليات الميدانية ، وعدم الإختلاف فى شأن من شئونها ، والتجرد من

الأمور الشخصية ، والسعى الصادق الأمين لتحقيق الهدف والوصول إلى الغاية ، ولم يسجل تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية اختلافاً فى الهدف عند المقاتلين على مختلف المستويات ، فالهدف كان واضحاً ومعلوماً للجميع ، والكل مؤمن به ومقتنع بعدالته ، وكذلك لم يسجل تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية اختلافاً فى الوسيلة والأسلوب ، بل لقد سجل هذا التاريخ كل ما هو رائع وعظيم وشريف ، فقد امتلأت صفحاته بصور التضامن بين القيادات والتفاهم الصريح بينهم ، والنقاش العادل وإنكار الذات ، والخضوع للرؤساء بنفس راضية ، وتنفيذ الأوامر بكل أمانة ، والطاعة إلى أقصى حدودها ، ولعل الجيوش الإسلامية تميزت عن غيرها من الجيوش قديماً وحديثاً بهذه المقومات التى هى حجر الزاوية فى البناء العسكرى .

بعد وفاة رسول الله وبعد أن أطلت الفتنة على الجزيرة دار حوار طويل بين الخليفة وأصحابه عن كيفية مواجهة تيار الردّة ، ولعل الآراء اختلفت خلال الحوار ، إلا أنه حين قرر الخليفة مواجهة المرتدين تنازل كل عن رأيه ، وأصبح رأى الخليفة هو رأى الجماعة ، ووقف المسلمون جميعاً من خلفه يواجهون الفتنة الكبرى صفاً واحداً وفكراً واحدا واستراتيجية واحدة . والكل درع للإسلام وعون للخليفة ومدد فى سبيل الله .

وهناك فى اليرموك لاحظ خالد أن جيوش المسلمين تعمل مستقلة كل جيش تحت إمرة أميره ، دون تنسيق بين كافة الجيوش ، فرأى أن هذا أمر لا يتفق مع العسكرية الصحيحة وأسلوب الحرب ، فلم يحبس رأيه بل جمع القادة وقال لهم « هل لكم يامعشر الرؤساء فى أمر يعز الله به الدين ولا يدخل

عليكم معه ولا منه نقيصة ولامكروه ؟ » ، فأجابوا بالايجاب ، فقال « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتبعية وأنتم على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وإن مَنْ وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته » ، فسألوه « فهات ، فما الرأى ؟ » ، أجاب « إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله ، الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ، ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء (يقصد الروم) قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ودعونى إليكم اليوم » ، ووافق الأمراء على رأى خالد ، وجعلوا له القيادة أولا ، وهم راضون مقتنعون فكل يود أن يرى بعينيه مصارع الروم .

ولم يقف الأمر عند الإتفاق على القائد وشخصه ، ولكن تم الإتفاق بالإجماع على خطة اللقاء التى وضعها خالد ، فقد عرض عليهم الخطة ونالت رضاهم واستحسانهم وقبولهم لتفاصيلها . . اتفقوا على رأيه فى أن يجعل الجيش كراديس (كتائب) « إن عدوكم قد كثر وطغى ، (كان عدد الروم

يزيد على خمسة أضعاف جيوش المسلمين مجتمعة) ، وليس من التعبية (الحشد) تعبية أكثر فى رأى العين من الكراديس »، وعرض خالد عليهم أيضاً تنظيم القوات ، فعلى القلب أبو عبيدة ، وعلى الميمنة عمرو ومعه شرحبيل ، وعلى الميسرة يزيد بن أبى سفيان ، وجعل على كل كردوس (مفرد كراديس) بطلا من أبطال المسلمين المغاوير مثل القعقاع بن عمرو ، وعكرمة ، وعياض بن غنم ، وعبد الرحمن بن خالد ، وأقام على القضاء أبا الدرداء ، وأسند مهمة الوعظ وإثارة المعنويات إلى أبى سفيان ، وأمر المقداد بقراءة سورة الأنفال، إذن فقد عرض خالد الخطة كاملة ووافقت كلها كل الآراء ، ودخل المسلمون المعركة وهم متفقون تماماً على شخص القائد وخطة العمل ، وكان هذا الموقف من بشائر النصر العظيم فى اليرموك .

عندما ولّى أبو بكر خالد بن الوليد قيادة الفتح الإسلامى فى بلاد فارس ، كتب إلى المثنى بن حارثة وكان قد عهد إليه بالإمارة هناك ، يأمره فيه بطاعة خالد ، فلما وصل خالد سار إليه المثنى جواداً كريماً مطواعاً ، وسلمه القيادة راضياً ، وعمل تحت قيادته جندياً بسيطاً بعد أن كان قائداً له شأنه ، وتعرض المثنى لموقف مشابه فى عهد الخليفة عمر ، فقد ولّى عمر القيادة أبا عبيد ابن مسعود ، ثم سعد بن أبى وقاص ، وتحت القيادتين عمل المثنى جندياً ، رغم الإنتصارات العظيمة التى تمت على يديه هناك ، وخاصة نصره الكبير العظيم فى موقعة البويب ، التى استعاد بها كرامة الجندى المسلم بعد الهزيمة التى تعرض لها المسلمون فى الجسر ، والتى أنهت حياة أبى عبيد باستشهاده .

ولم يكن المثنى وحده هو الذى تعرض لمثل هذا الموقف ، فقد عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد وهو فى أوج إنتصاراته على الروم فى الشام ، بعد سلسلة الانتصارات التاريخية على المرتدين فى الجزيرة ، وعلى أهل فارس فى العراق ، وولى الخليفة مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، وتقبَّل خالد أمر العزل بروح الإسلام ، وعمل تحت قيادة أبى عبيدة دون حرج أو ضيق .

إن المثنى ومن بعده خالد قبلا الأمر بنفس راضية غير حقودة أو غاضبة ، فكل منهما يحارب لا لأنه قائد الجيش ، ولكن لأنه رجل مسلم وهب نفسه لله تبارك وتعالى ، قائداً كان أو جندياً ، ومن خلال هذا الإدراك نفَّذا أمر الخليفة بصفته المسئول الأول عن سياسة الدولة ، والقائد الأعلى للقوات المحاربة ، وصاحب الرأى فى شئون القتال .

المهم هو أن الجيش بكافة رجالاته لم يكن ليختلف على أمر من أمور المعركة ، والشيء الذى كان موضع الفخار أن مسلماً واحداً لم يحجم عن إبداء الرأى ، وأن واحداً من المقاتلين لم يحبس فكرة أو خطة ، فكان كل رأى يثار يوضع موضع المناقشة الجادة ، فإن كان فيه خير أخذ به ، وهذا يعنى أن مامن معركة خاضها المسلمون إلا والرأى فيها واحد متفق عليه .

حين اتخذ المسلمون مواقعهم فى بدر لم يكن الموقع من وجهة نظر الحباب مناسباً لطبيعة القتال ، وعرض وجهة نظره على الرسول فاستجاب لها على الفور .

وبعث المثنى فى مرضه الأخير برسالة مع أخيه وزوجه إلى سعد بن أبى

وقاص نصحه فيه بأن يحتفظ بالجيش على حدود الصحراء ، لأنها تمثل من وجهة نظره عمقاً استراتيجياً يحمى ظهره ويمنحه فرصة الكر والفر والهجوم والإنسحاب ، ويضمن له بقاء خطوط مواصلاته مع رئاسته فى المدينة سليمة ، ويصون خطوط التموين من إغارات العدو . . . واحترم سعد رأى زميله فى الجهاد وأخذ به

كان الجيش الإسلامى كما أشرنا قادة وجنداً

كان القائد يتولى أمور جنده ويعالج مواقف المعركة ومشاكلها ، ويضع لها خططها ويتحمل مسئوليتها .

كانت القيادة تتمثل فى مستويين :

- مستوى القيادة العليا .
- مستوى قيادة الجيوش .

وكان رسول الله يتولَّى القيادة العليا بنفسه طوال حياته ، ثم تولَّاها من بعده عليه السلام الخلفاء ، وكان مركز القيادة فى المدينة .

واختلف وضع القيادة بعد وفاة الرسول ، ففى عهده كان عليه السلام يتولى بنفسه قيادة الجيش، يضع له الخطط ، ويعدّ له السلاح ، ويمده بالرجال، ويضع سياسة المعركة ، ويشرف على تنفيذها ، وكان عليه السلام يخرج على رأس الجيش ، فقد كانت المعارك على عهده تتم فى نطاق الجزيرة ، ولعل أكثر المعارك بعداً عن مركز القيادة كانت تبوك ، وكان الرسول يقلد

أمور المدينة فترة غيابه أحداً من رجاله يتولى شئونها وإدارتها ، فمثلا عند الخروج إلى بدر استعمل عليه السلام أبا لبابة على المدينة .

إلا أن الأمر تغير فى عهد الخلفاء ، لأن الخليفة ما كان يستطيع أن يترك أمور الدولة الناشئة ليخرج مع الخارجين ، وخاصة أن الجيوش زادت عدداً ، وأن ميادين القتال تعددت ، وأن الفترة الزمنية للمعارك طالت .

استوجب الأمر إذن فى ضوء هذه الظروف أن يبقى القائد العام فى المدينة فى مركز القيادة ، يصدر منها الأوامر ويحرك منها الجيوش ويجهز منها الإمدادات رجالا أو سلاحاً أو مؤناً ، ونظراً لبقاء القائد العام فى مركز القيادة بعيداً عن أرض المعركة ، ونظراً لأنه لابد من وجود قائد مباشر يكون مسئولا عن إدارة المعركة ومتابعة أحداثها وتنفيذ خططها ، فكان من الضرورى أن تتواجد فى أرض المعركة قيادة مستقلة تتحمل وحدها مسئولية المعركة فى كافة الجبهات . . فى الشام . . فى العراق . . فى مصر . . فى شمال أفريقيا . . فى كافة المواقع التى كانت فيها لقاءات للمسلمين مع أعدائهم ، وألقت المسئوليات الجديدة نتيجة اتساع ميادين القتال وتعدد جبهاته مهمة خطيرة على عاتق القائد العام ، فأصبح مسئولا عن متابعة الأحداث ، ومداومة الاتصال ، وإمداد الجيوش ، وإصدار الأوامر والتوجيهات ، بالاضافة إلى مسئولية وظيفته كخليفة للمسلمين ينظم شئون الدولة ويرتب أمورها ويرعى مصالحها .

تولَّى أبو بكر قيادة الجيوش بعد وفاة الرسول ، وتعرضت الأمة الإسلامية فى بداية حكمه لفتنة الردّة ، فأعدَّ الجيوش وحرَّكها للقضاء على

المرتدين ، فلما تم له ذلك — وقد شارك فى بعضها بنفسه حين قاد جيشاً حارب به مانعى الزكاة وهزمهم — أراد أن يصرف أذهان العرب إلى مايعود عليهم وعلى الإسلام بالخير ، ووصلته أنباء القتال الدائر بين المثنى ابن حارثة والفرس ، وأدرك أن الصدام بين الديانتين واقع لا محالة ، فجهّز الجيوش وحرّكها إلى العراق ، وتعذر أن يتولى بنفسه قيادة هذه الجيوش ، فبحث بين العرب عن القائد الصالح القادر ، واختار خالد بن الوليد لهذه المهمة .

وعندما بعث بالألوية إلى بلاد الشام اختار لكل لواء قائداً يثق به ويؤمن بقدراته وإمكانياته ، ويرى فيه القلب الشجاع والعقل المفكر والحس الصادق والفكر السليم ، وبقى فى مكان القيادة يرقب سير العمليات ويعد الإمدادات وينظم شئون الفتح ، فمثلا حين أحسّ بأن الجيوش الاسلامية فى الشام فى حاجة إلى مدد ، أمر خالد بن الوليد بالتحرك من العراق إلى الشام بجزء من جيش العراق ليتولى مهمة القيادة فى هذه الجبهة ذات الأهمية بالنسبة لمستقبل الاسلام .

وتولى عمر بن الخطاب القيادة بعد أبى بكر ، ولم تتغير الصورة ، فقد بقى فى مركز القيادة بالمدينة يباشر منها مهام عمله ، ولقد أراد أن يخرج بنفسه على رأس مدد إلى العراق إلا أن أصحابه منعوه ونصحوه بالبقاء فى المدينة ، وإدارة شئون المعارك منها ، بإصدار التعليمات والتوجيهات ، وإعداد المؤن والامدادات وتجهيز الحشود ومواصلة التعبئة اللازمة لمواجهة الأحداث فى مختلف قطاعات المعارك ، وكان عمر يقوم باختيار القادة ويعرض الأسماء

على أصحابه ويطلب منهم الرأى والمشورة ، ولقد اختار سعد بن أبى وقاص لقيادة الجيش الإسلامى فى العراق ، ومن قبله اختار أبا عبيد بن مسعود وكان يوجه التعليمات وأوامر العمليات بناء على المعلومات والبيانات التى كانت ترد إليه من قادة الجيوش ، وكان رغم بقائه فى المدينة كأنه يعيش فى كافة الميادين ، فالصلة قائمة بينه وبين القيادات ، وبياناتها وأعمالها نجاحها أو فشلها كانت دائماً بين يديه وتحت بصره ، وفى ضوئها كان يقرر ويبعث بقراراته .

وكذلك كان الأمر مع عثمان بن عفان مع قلة المعارك التى دارت فى عهده .

ثم اختلف الأمر فى عهد علىّ بن أبى طالب ، فقد اضطر إلى مواجهة طائفة من المسلمين رفضوا مبايعته وقاوموا عهده طمعاً فى الخلافة ، فحرّك الجيش لمقاتلتهم ، وتولّى هو بنفسه قيادة الجيش ، ونقل مقر القيادة إلى الكوفة التى أصبحت مركز عملياته ، وظلت الكوفة على عهده عاصمة الدولة ومقر القيادة باشر منها أمور الدولة واحتياجات المعركة ضد قوات السيدة عائشة فى الجمل ، وضد قوات معاوية بن أبى سفيان فى صفين .

وفى عهد الأمويين انتقلت العاصمة ومقر الجيش إلى دمشق ، حيث كان الخليفة معاوية رئيساً للدولة ، وقائداً عاماً للقوات الإسلامية .

ثم تغير مقر القيادة فأصبح فى عهد العباسيين فى بغداد ، ثم فى القاهرة عاصمة الفاطميين ، ثم فى القسطنطينية عاصمة العثمانيين ، ثم تفرق أمرها بتفرق أمر المسلمين .

وكان مستوى قادة الجيوش يأتى فى المرتبة التالية لمستوى القيادة

العليا ، ولم يكن اختيار القائد يخضع لسبب شخصى أو تحت تأثير وضع خاص، وإنما كان يتم على أساس الأقوى والأصلح والخبير بشئون الحرب والقادر على معالجة أمور المعركة ، وكان يأتى فى المقام الأول صدق الإسلام وصحته ، وعمق الإيمان ووثبوت العقيدة .

فاختيار خالد مثلا تم على أساس فنه وقدراته وطاقاته التى تتمثل فى قول أكيدر بن عبد الملك « أنا أعلم الناس بخالد .. لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحدّ فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه » ، ولقد اختاره أبو بكر قائداً لجيش المسلمين فى حروب الروم بعد أن لمس قدرته على القيادة ونجاحه فى مواجهة أعدائه وطاقاته العسكرية التى تميز بها ، فقال حين وقع عليه اختياره« والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » ، .. لقد كان خالد مدرسة فى فن الحرب حرص على أن ينقل فنه إلى جنده،ولهذا اعتمد عليهم فى حروبه ، فبرز منهم قادة أمجاد حققوا إنتصارات خالدةلامثيل لها ، منهم المثنى بن حارثة ، والقعقاع ، وعاصم بن عمرو ، والأقرع ابن حابس ، وبشر بن أبى رهم ، وضرار بن الأزور ، وعدىّ بن حاتم الطائى، ومحمد بن مسلمة ، وفرات بن حيان ، وغالب بن عبد الله ، وعياض بن غنم ، وغيرهم ... وكان خالد يتميز بفكر عسكرى متطور غلب به أقرانه ، وكانت قريش تعتمد عليه فى حروبها ، كما سعد به رسول الله حين أسلم ، وبدت عبقريته فى إنقاذ الجيش الإسلامى فى مؤتة ، ثم عرف عنه أبو بكر قدراته فأسند إليه أقوى لواءاته ضد المرتدين ، فكانت له معهم جولات سجلت له أروع صفحات.

الفن العسكرى ، فلما احتاج إليه الموقف فى العراق كان على رأس جيش المسلمين هناك ، ثم كان القائد الذى حقق أعظم انتصارات المسلمين فى اليرموك ضد الروم ، وكان انتصاره بداية لانتهاء دولتهم فى بلاد الشام .

وخلال التجهيز لمدد خالد وهو فى العراق بعث إليه أبو بكر بالقعقاع بن عمرو ، فلما سئل كيف يبعث بفرد واحد مدداً ، قال « لا يهزم جيش فيه مثل هذا » ، فالقعقاع وحده فى نظر الخليفة أقوى من جيش ، وهو وحده مدد لأنه شجاع ذو رأى وبصيرة ولا عجب ...

فالناس ألف منهم كواحد   وواحد كألف إن أمر عنى

وحين وقع الاختيار على عمرو بن العاص ليتولى فتح فلسطين قال عنه عمر « رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب » .

واختار عمر سعد بن أبى وقاص قائداً للجيش الإسلامى فى العراق ، وقد وصفه لأصحابه فقال عنه «الأسد فى براثنه» ، فأجاب أصحابه « نعم ، إنه رجل شجاع رام » .

وقبل أن يخوض الجيش الإسلامى معركة هليوبوليس فى مصر ، بعث عمر بمدد وكتب إلى عمرو يقول له « إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل بمقام ألف » ، وكان هؤلاء هم الزبير بن العوام ، والمقداد وعبادة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة ، واختار عمر الزبير قائداً للمدد ، وكان الاختيار خاضعاً لماضيه المشرف فى خدمة الإسلام ، فهو أحد عشرة شهد لهم النبى ، وأحد ستة اختارهم عمر للشورى ، وخامس رجل فى الإسلام فقد أسلم فى سن الخامسة عشرة وهاجر إلى الحبشة ثم يثرب ، وآخى رسول الله

بينه وبين سلمة بن سلامة ، وقال عنه رسول الله « لكل نبي حواري وحواريّ الزبير » ، ولقد شارك فى معارك كثيرة يأتى فى المقام الأول منها اشتراكه فى موقعة بابليون ، وله فى هذه المعركة دور ذو أهمية ، فقد قال « إنى أهب نفسى لله ، وأرجو أن يفتح الله على المسلمين » ، ثم أقبل مع كتيبة آزرته تحت جنح الليل ، وطمّوا الخندق المحيط بالحصين فى موضع اختياره ثم وضع سلما على السور وعلاه ثم أمر أصحابه أن يرقوا إليه إذا سمعوا تكبيره ، فلما سمع الروم تكبيره ظنوا أن المسلمين قد اقتحموا الحصن فهربوا .

والقادة المسلمون كثيرون امتلأت بهم صفحات التاريخ ، وعزّت بهم المعارك الإسلامية ، وطارت شهرتهم فى كل مكان ، حتى أن خالد بن الوليد كان ينتصر باسمه كما كان ينتصر بسيفه ، يسبقه إسمه إلى أعدائه قبل منازلتهم فيدب الذعر والرعب فى قلوبهم ، ويعملان ما تعمله الصواعق ، ويشيع الفزع فيهم ، فتنحل قواهم وتنهار عزائمهم ... روى ياقوت فى معجم البلدان أن ربيعة تجمعت إلى الهذيل بن عمران غضبا لعقة بن أبى عقة لتأخذ بثأره من خالد وجيشه ، فنهاهم حرقوص بن النعمان عن مكاشفة خالد فعصوه ، فرجع إلى أهله وهو يقول :

ألا فاسقيانى قبل جيش أبى بكر   لعل منايانا قريب ولا ندرى

ألا فاسقيانى بالزجاج وكررا   علينا كميت اللون صافية تجرى

أظن خيول المسلمين وخالدا   ستطرقكم عند الصباح على البشر

فهل لكم بالسير قبل قتالهم   وقبل خروج المعصرات من الخدر

لقد أثبتت المعارك التى خاضها القادة المسلمون أن هذه القيادات كانت

على مستوى المسئولية ، فقد امتاز من تقلدها بالقدرة والطاقة ،واشتهر بالحكمة وحسن التصرف ، وإجادة تقدير الموقف، والمهارة فى تحريك الجيوش ووضع الخطط ومواجهة ظروف المعركة وأحداثها . . لقد تحققت لديهم العبقرية العسكرية بكل خصائصها ومزاياها ، ولاريب فى أن الإسلام بعقائده ومبادئه ومنطقه فى تربية الرجال وسياسته فى إقامة أمة تعتمد على الحق والعدل والقوة كان له الفضل فى خلق أجيال من العسكريين كانت لهم بطولات ارتقت إلى المستوى العالى بل إلى مستوى الخلود فى دنيا الحرب والمعركة .

ومما لايختلف فيه إثنان أن القيادات العسكرية الإسلامية لم تبتعد أبداً عن الجنود بل كانت لصيقة الصلة بهم ، تعيش معهم وترعاهم ، وتحافظ عليهم وتوجههم ، كانت تخلق فيهم الروح الحربية القوية الناهضة . ولما كانت القيادة على مستوى الكفاءة والقدرة ، فقد كان الجنود كذلك ، ولا عجب فالجندى يتطلع دائماً إلى القيادة وينظر إليها باعتبارها المثل والقدوة والسبيل والمنهج والصورة ، والجند دائماً يسيرون على هدى قادتهم ويتمثلون بهم ، وكانت القيادات تحرص على توافر الثقة بينها وبين الجند ، وعلى أن تكون هذه الثقة على مستوى المسئولية ، وكذلك كان الجند حريصين على ثقة القيادات بهم ، ومن خلال هذا الحرص من الجانبين كان الجيش الإسلامى قادة وجنداً قوة صلبة وصفاً متراصاً وقلباً جريئاً وعزيمة لاتفل .

ولنقرأ معاً كتاب أبى بكر إلى يزيد بن أبى سفيان وقد أمَّره على جند عظيم جلهم من أهل مكة وبعث به وبهم إلى الشام .

قال أبو بكر فى كتابه « وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وَعِدْهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثرة الكلام ينسى بعضه بعضاً .. واسمر بالليل فى أصحابك ... » ، وفى هذه الكلمات الخط الرئيسى الذى وضعته القيادة العليا لما يجب أن تكون عليه العلاقة فى الميدان بين قائد الجيش وجنده ، فالخليفة وهو القائد الأعلى حريص فى كلماته وتوجيهاته على وجود تقارب بين القادة والجند ، فلا يتعالى قائد أو يتكبر أو يزهو ، أو يحس جنده بأنه بعيد عنهم لا يعيش بإحساساتهم ومشاعرهم ، فالكل إذن جمع متحاب متعاون يسعى إلى خيره وخير الإسلام . تجمعه ثقة ومحبة واحترام وتقدير وولاء .

لقد حدد القرآن الكريم صفات القائد المسلم فاشترط فيه أن يكون عالماً بكتاب الله فقيهاً حافظاً . . عارفاً بالحرب ومعداتها وأساليبها . . قوياً شجاعاً حائزاً لثقة جنده . . ثابت الجنان صلب العود قادراً على قيادة الجند ... قادراً على ضبط عواطفه ومشاعره . عادلا حتى مع أعدائه ... وفياً للعهد .. حازماً غير متردد . . يتحرى الأمور ويمحصها . . واثقاً من نفسه ومن قدراته ... لا يكربه أمر عدوه ، ولا يجزع لمصاب أصاب صفوفه . . ملماً بالموقف الذى يواجهه ، يدبر أمره فى يسر ، ولا يتعجل فى أمر يندم عليه .. دائم الاتصال بجنده رحيا بهم ، عطوفاً عليهم ، سامعاً لشكواهم ، رقيقاً فى معاملتهم ، محباً للتشاور معهم .. حريصاً على معرفة أمر عدوه قبل أن يلقاه .. قادرا على الحركة والمناورة .

ولقد زود القرآن المسلمين قادة وجنداً بصفات روحية كانت زادا لهم خلال المعارك مثل :

● ● السكينة ، التى كان الله تبارك وتعالى يبعثها فى قلوب المؤمنين رضاً وطمأنينة ، فلا تنال من إيمانهم الأحداث ، ولا تتسرب إلى مشاعرهم الوساوس ﴿ هُو الذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِين لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِم ﴾ (الفتح ٤) .

● ● الشوق إلى الاستشهاد والجنة ومافيها من نعيم مقيم ؛ فالشهيد لايغيب ولا يصير فى عالم الفناء والعدم ، وإنما هو عند ربه حى باق خالد ، وهذا هو حسن المآب الذى أعده الله لعباده المتقين ، فقد عوضهم فى الآخرة عن متع الدنيا وشهواتها جنات تجرى من تحتها الأنهار وأزواجاً مطهرة ، ﴿ قُل أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُم لِلَّذِين اتَّقَوا عِنْدَ ربِّهِم جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ (آل عمران ١٥) ، و ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذِين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا أَتَاهُم اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (آل عمران ١٦٩ / ١٧٠) .

● ● الكره والمقت والإحتقار لأعدائهم أعداء الله ، لأنهم قوم كفروا بالله واستحلوا الضلال ، وآذوا المسلمين بألسنتهم وأيديهم ، فهؤلاء يستحقون الخزى والعار ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُم لاأَيمَانَ لَهُم ﴾ (التوبة ١٢)

● ● المودة التى تربط بين المجاهدين ، وتؤلف قلوبهم وتوحد غاياتهم ، وهى عامل من عوامل النصر ، فإن الله قد ألف قلوب المسلمين وجمعهم على الإيمان والإخاء فى الله ، فأصبحوا كياناً واحداً ومشاعر واحدة ، واجتمعوا على الولاء لله ولدينه ولرسوله ، وهذا أمر ماتستطيع قوة بشرية أن تحققه فى

أى مجتمع إنسانى ﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَافِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَاأَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الأنفال ٦٢/٦٣) .

• • الرعب الذى يقذف الله به فى قلوب أعداء الإسلام ، فتضطرب صفوفهم وتزوغ أبصارهم حتى يتمكن المسلمون من رقابهم ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ (الأنفال ١٢) ، و ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ (آل عمران ١٥١) .

• • مشاركة الملائكة للمجاهدين فى المعركة ، حين واجهوا العدو وأفزعتهم كثرته ، وفزعوا إلى الله أن يمدهم بنصره ، فاستجاب لهم وأمدهم بالملائكة يأتى بعضهم إثر بعض ويردف بعضهم بعضاً ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال ٩) .

• • الاطمئنان إلى مستقبل أبناء المجاهدين وأسرهم ، فالله تبارك وتعالى قد دعا إلى مراعاة اليتامى وحفظ حقوقهم وصيانة حياتهم وإعدادهم إعداداً صالحاً تماماً كما يفعل الأب مع أبنائه ، ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ (النساء ٩) .

* * *

لقد انتصر المسلمون ، لما كانوا يتميزون به من صفات افتقر إليها أعداؤهم ، وكانت هذه الصفات أسلحة بتّارة فى المعارك تثبت أقدامهم وتهد من قوى العدو .

هذه الصفات كلها هى أبرز المعانى التى غرسها الإسلام فى قلوب رجاله ، وتعهدها رسول الله بحكمته ، حتى جاء الرجل من هذا الغرس الكريم معادلا لعشرة رجال فى ميدان البأس ومجال القوة ، وليس هذا التقدير عن حدس أو تخمين ، أو عن فراسة ونظر ، ولكنه عن خبر صادق ، يقول تعالى عز من قائل ﴿ يا أَيُّها النَّبِيُّ حَرِّضْ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ إِنْ يَكُن مِنْكُم عِشْرُون صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِين كَفَرُوا بِأَنَّهم قَومٌ لاَيَفْقَهُون ﴾ (الأنفال ٦٥) .

وصدق الله العظيم .

فهذا هو وزن الرجال الذين صدقوا الله وصدقوا رسوله .

إن الرجال هم أساسا عماد الحرب .

والحرب تحتاج إلى نوع معين من الرجال يتميز بقدرات خاصة ، تأتى نتيجة لإعداد خاص بدنيا وفنيا .

ولقد اهتمت المدرسة العسكرية الإسلامية بتنمية هذه القدرات وبإعداد المقاتلين إعداداً يتناسب مع إحتياجات المعركة، ويؤهلهم لخوض غمارها ، ولعل الإنتصارات العظيمة التى حققها الجند المسلمون فى مختلف الميادين وفى شتى المعارك خير دليل على تميزهم بهذه القدرات .

ولا يغيب عن البال أن المحاربين الذين اعتمدت عليهم المدرسة العسكرية الإسلامية منذ أول عهدها وحتى عهود أخرى لاحقة عاشوا حياتهم الأولى فى البيئة العربية التى كانت ذات ميزات وخصائص أثرت تأثيرا مباشرا على سلوكهم وعاداتهم وصفاتهم ، فكان الشباب العربى قويا جادا سليم البنيان شجاعا متواضعا ، ونشأ على تمجيد الشرف والوفاء بالوعد وحماية الضعيف وإغاثة الملهوف ، كما عرفت عنه صفات أخرى ، كالعفو والاتزان وقوة الاحتمال والحلم .

نشأ المسلمون الأوائل فى بيئة صحراوية فرضت عليهم أخلاقا خاصة ، وألزمتهم بتقاليد محددة ، أصبحت على مر السنين جبلة وطبيعة وفطرة ، وصارت عنوانا لهم بين العالمين .

فالصحراء تمثل نوعا من الطبيعة الخشنة ... رمال مختلفة الألوان، وجبال جرداء، وصخور صم، وشمس قوية محرقة، وريح زفوف، وسيول متدفقة.

وانعكست هذه الطبيعة الخشنة على نفس العربى قوة وصلابة وجلدا فأصبح لا يخشى الليل، ولا يفزع من سفر، ولا يزعجه عصف الريح أو بخل السماء.

وأفاد العربى من رحابة الصحراء وبعد آفاقها حدّة ظاهرة فى البصر وقوة فى السمع وقدرة على الشم كانت موضع فخاره، ومن هنا كان يشتم الخطر قبل وقوعه.

ولقد علمته هذه الطبيعة الخشنة الصبر والجلد والكفاح المر على حد قول تأبط شرًّا :

قليل التشكى للمُهِمِّ يصيبُه   كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالك
يظلّ بمَوماةٍ[١] ويُمسى بغيرها   جَحيشا[٢] ويَعرورى ظهور المهالك
ويجعل عينيه ربيئة[٣] قلبـه   إلى سَلَّةٍ[٤] من حدِّ أخلق[٥] صائك[٦]

---

(١) المفازة التى لا ماء فيها.
(٢) المنفرد.
(٣) الرقيب.
(٤) تجريد السيف.
(٥) أملس.
(٦) القاطع.

وعلى حد قول أبى بكير الهذلى :

فإذا نبذت له الحصاة رأيته ينزو لوقعتها طمور الأخيل[١]

وكان العربى يعيش فى خطر دائم ، فهو لا يسكن القصور ولكنه يقيم فى بيوت من الشعر والوبر ، تهزها الريح إذا هبت ، ويجرفها السيل إذا تدفق ، وليس هناك شرطة تحميه من الغارات ، ولهذا لم يكن له حارس إلا مقابض السيوف وأسنة الرماح ، ولم يكن له حمى إلا ظهور الخيل ، وشجاعة القلب وعظم النفس ، ولهذا تحلى أول ما تحلى بالشجاعة ، شجاعة فيها قوة وتحد للمنية ، ودربة وتفوق فى استعمال الأسلحة ، فأصبح بهذا كله أصح أهل الأرض بنية وأوفرهم قوة وأروعهم قامة وأبينهم عافية وأكثرهم احتمالا للشدائد والمشقات ، وأصبح عدلا لعشرات من الناس من حيث طاقته البشرية .

وتدرب شباب العرب على أعمال البطولة والإقدام ، وكان العربى يوحى إلى أبنائه بالقوة والشدة ، وكانت المرأة العربية لا تدلل أولادها دلالا يضعف شخصيتهم ويسىء إلى مستقبلهم ، بل كانت تدفع بهم إلى طريق الشرف واحتذاء آثار الأبطال ، ولقد خلق هذا النوع من التربية شخصيات عظيمة بارزة ، اشتهرت فيما بعد فى الإسلام ، حين دانت للعرب دول عديدة عتيدة ، وتطلب الحكم الجديد خبرة ومهارة وعقولا نيرة ، فتجلت تلك العبقريات الكامنة ، وظهرت على مسرح التاريخ شخصيات فاقت فى قيادة

---

(١) شاعر مخضرم صحابى، والبيت معناه أنه إذا رماه بحصاة ليعرف مقدار استغراقه فى النوم وثب كما يثب الصقر .

الجيوش والقضاء والخلافة ... ويرجع هذا كله دون ريب إلى النشأة الأولى وإلى الحياة التى تشربتها نفوسهم فى الحداثة .

وكان العرب يختارون لأبنائهم الأسماء التى تحمل معنى القوة والرهبة والشدة مثل أسد وفهد وثور وصخر ، وسئل فى ذلك أبو العرفيش « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ » ، فأجاب « إننا نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا » .

وكان العرب يفضلون الذكور على الإناث ، لأن الذكر يغنى حيث لا تغنى الأنثى .

وكانت الصلات القبلية قبل الإسلام قد أسست على العداء والحروب المتوالية ، وعلى المحالفة والنصرة ، فإن البيئة الطبيعية والإجتماعية أهلت نفوس العرب وطبيعتهم للحرب والنزال ، فقد كانوا يتنازعون على المرعى وعلى المنهل وعلى الرئاسة ، كما كانت المنازعات تثار بينهم رغبة فى السلب والإغارة ، أو نصرة لقريب وإن كان ظالما ، كانت كل معركة تستتبع ثأراً ، وكل ثأر يلد معركة .

وجاء الإسلام والعرب على هذه الطبيعة فهذبها وارتقى بها إلى المستوى الذى يخدم الفرد ويرعى مصلحة الدين .

جاء الاسلام ليوجه هذه الطبيعة ويعدها لرسالة جليلة هى هداية العالم ، ولذلك قال تعالى ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجت للنَّاس تَأْمُرُون بالمعْرُوف وتَنهَوْنَ عن المنكَرِ وتؤْمنون بِالله﴾ (آل عمران ١٠٤) ، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ

أمّة يَدْعُون إلى الخير ويَأمُرُونَ بالمعْروف ويَنهوْن عَن المنكر وأولَئكَ هم المُفْلِحُون ﴾ (آل عمران ١٠٤)

جاء الإسلام لينظم هذه الطبيعة لخدمة الأمة العربية جمعاء ، وللدفاع عن مبدأ شريف ودين كريم ، فألّف بين هذه القلوب المتحدة فى الوسيلة المختلفه فى الغاية ، وجعلها قوة واحدة متحدة ، متجهة إلى غرض نبيل ، قال تعالى ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَافى الأرْضَ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بين قلوبهم ولكنّ اللهَ ألّفَ بينهم إنّه عزيزٌ حكيم ﴾ (الأنفال ٦٣) .

لقد أنضجت الصحراء شبابها ورجالها للقيادة والسيادة والحكم ، فلما جاء الاسلام أتاح لهم الفرصة ليعملوا ولتظهر مزاياهم ، فتجلت فى الإسلام وتحولت من مزايا فردية إلى مبادىء عامة ، أزادها الاسلام جمالا وكمالا وتهذيبا .

وهذّب الإسلام صفة النجدة عند العربى ، فبعد أن كانت نصرة المستغيث ظالما أو مظلوما ، تحولت إلى دفاع عن الدين وحرمة المبدأ والعقيدة ، ونشر ألوية العدل والحرية بين الناس ، ولم تعد النصرة القبلية والعصبية الجاهلية هى الحافز للجهاد وامتشاق الحسام ، ولكن الدفاع عن الحق ونصرة الدين وسيادة المبدأ وإعزاز العرب بإسلامهم ودينهم هى الغاية والدافع والحافز .

لقد تعهد الاسلام الأصول الأخلاقية عند العرب وهذبها ونماها ووجّهها وجهة خيرة ، واعتمد عليها فى نشر مبادئه ، ووجدت الدعوة الاسلامية رجالا أفذاذًا ذوى قوى معنوية عظيمة تشربت قلوبهم حب الإسلام وتفهموا

معانيه وغاياته ، وامتزجت الفتوة العربية بالمثل الدينية ، وأضيف إلى المجد الفردى وإعزاز العشيرة الرغبة فى الثواب والرهبة من العقاب ، والعمل على السعادة فى الدارين والسعى فى خير المجموع .

وعندما اضطر الإسلام إلى مواجهة أعدائه فى ميادين المعارك زكّى بين العرب روح الإعداد الجيد المفيد للحرب ، حتى أن أحد التابعين قال « كنا نعلم أبناءنا الغزوات كما نعلمهم الآية من القرآن » .

وكان الرسول عليه السلام يطلب من أصحابه المعاونة والمساعدة فى تكوين شخصية الجندى لدى أبنائهم ، وإثارة روح الجندية بينهم ، ليجعلوا من كل رجلا قوى الشكيمة صعب المراس شديد البأس صلب العود عميق التفكير .

ولما كان الجهاد فى سبيل الله يتطلب من المجاهدين قوة وشبابا ، فقد كانت تعاليم رسول الله تحثّ على القوة ، وكان سلوكه الخاص نماذج عليا لأتباعه وأصحابه .

وقد اهتم رسول الله بصحة الأبدان ودعا إلى العناية بها ، وطالب بممارسة الرياضة لتجعل من الجند أفراداً لائقين جسمانيا لتحمل أعباء المعركة ومواجهة عنفها وشدتها ، فالرياضة تساعد على صقل الجسم وتقويته .

ولقد مارس العرب أنواعا كثيرة من الرياضة ، كالعدو ، وركوب الخيل ، والضرب بالسيف ، والمصارعة ورمى النبل ، والسباحة ، وكان رسول الله يحث

على ممارسة هذه الأنواع ، بل كان هو نفسه يمارسها ، فكان للمسلمين جميعا المثل والقدوة والأسوة .

فقبل البعث كان عليه السلام نموذجاً كاملا للرجولة الحقة ، ومثلا راقياً للخلق العظيم ، وقد وصفته السيدة خديجة حين خطبته لنفسها « إنى قد رغبت فيك لقرابتك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك » و « إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقْرِى الضعيف وتعين على نوائب الحق » .

كان الرسول يمارس المصارعة وهى من أنواع الرياضة التى تتطلب قوة جسمية ... صارع عليه السلام ركانة بن عبد يزيد وصرعه ، فقد روى ابن إسحاق « إن ركانة بن عبد زيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف كان من أشد قريش ، فخلا يوما برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله صلى الله علية وسلم : ياركانة ، ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ ، قال : إنى لو أعلم الذى تقول حق لاتبعتك ، فقال رسول الله : أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ، قال : نعم ، قال : فقم حتى أصارعك ، قال : فقام إليه ركانة يصارعه ، فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئاً ، ثم قال : عد يا محمد ، فعاد فصرعه ، فقام ركانة وهو يقول : أشهد أن هذه ليست قوة بشر » .

واهتم الرسول بالسباق ومارسه ، ففى مسند أحمد من حديث عائشة قالت « خرجت مع النبى فى بعض أسفاره وأنا لم أحمل اللحم ، فقال للناس تقدموا فتقدموا ، ثم قال : تعالى حتى أسابقك ، فسابقته فسبقته ، فسكت حتى

إذا حملت اللحم ، قال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا فتقدموا ، ثم قال : تعالى أسابقك ، فسابقته فسبقنى ، وجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك » . . .

وفى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع قال « بينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يُسبق أبداً فجعل يقول : ألا مسابق إلى المدينه . . هل من مسابق ؟ فقلت : أما تُكرم كريماً وتهاب شريفاً ؟ قال : لا إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قلت يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، ذرنى أسابق الرجل ، فقال : إن شئت فسبقته إلى المدينة » .

وكان الصحابة يتسابقون على الأقدام بين يدى رسول الله ولكن بغير رهان .

وسابق رسول الله بين الخيل فى الصحيح من حديث ابن عمر قال « سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل ، فأرسلت التى ضُمِّرت منها وأَمَدُها الحفْياء إلى ثَنِية الوداع ، والتى لم تُضَمَّر أَمَدُها ثنيةالوداع إلىمسجد بنى زريق » (جاء فى الصحيحين عن موسى بن عقبة إن بين الحفياء إلى ثنية الوداع ستة أميال ، ومن ثنية الوداع إلى مسجد بنى زريق ميل) .

وفى المسند من حديث أنس أنه قيل له « كنتم تراهنون على عهد رسول الله ؟ » ، قال : نعم ، والله لقد راهن رسول الله صلىالله عليه وسلم على فرس يقال له سَبْحة ، فسبق الناس فبشّ لذلك وأعجبه » .

وفى مسند أحمد عن ابن عمر أن النبى سابق بين الخيل وأعطى السابق .

وإدراكا لأهمية الإبل فقد سابق رسول الله بينهما كما سابق بين الخيل ، ففى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال « كانت العضباء لاتُسبق فجاء إعرابى

على قعود فسابقها ، وكأن ذلك شقّ على أصحاب رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : إن حقا على الله عز وجل ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه » .

وكانت الرياضة البدنية الخشنة ـ وهى ما يطلق عليها فى عصرنا الحالى التكتيك العنيف ـ من شعائر الإسلام ومن أساليب نشره ، فقد كان الرسول عليه السلام يقول على مسامع أصحابه « المؤمن القوى خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف » ، ورأى عمر رضى الله عنه مرة شابا ناسكا أحنى قامته وطأطأ رأسه علامة الخشوع والتبتل فحمل عليه وضربه وهو يقول « ارفع رأسك ، وأصلح قامتك ، لا تمت علينا ديننا ، أماتك الله » .

وفى مقدمة ما اهتم به الإسلام فى هذا المجال الرماية ، فقد أعطاها الرسول غاية رعايته واهتمامه ، وكان يحث على مباشرتها وإجادتها ، ويشجع المسلمين عليها قائلا « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة . . صانعه المحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، والممد به ، فارموا واركبوا ، وإن ترموا أحب إلىّ من أن تركبوا » .

وكان الصحابة يتناضلون بالرمى عن القوس فى حضرته عليه السلام ، ففى صحيح البخارى عن سلمة بن الأكوع قال « مرّ النبى عليه السلام بنفر من أسلم ينتضلون بالسوق فقال : ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان ، قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال الرسول : مالكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم كلكم » .

وقال عليه السلام « ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل

فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمى بعدما علمه رغبة فإنها نعمة تركها » .

وفى صحيح مسلم عن عقبة قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » .

وقال أيضا : « من تعلَّم الرمى ثم تركه فليس منا » .

وكان النبي يفضِّل الرماية حتى قيل إنه عليه السلام كان يخطب وهو متوكئ على قوس وقال أنس « ما ذُكرت القوس عند النبي عليه السلام إلا قال : ما سبقها سلاح إلى خير قط » .

وكانت الرماية سلاحاً حاداً فى قتال محدود السلاح . . كانت سلاحاً هاماً ورئيسياً فى المعركة ، فقد كان السهم يعد بمقام رجل ، فمن كان يحمل مثلا عشرة أسهم ويجيد الرمى كان يصيب عشرة من الأعداء ، ويقول ابن القيم أن الخصم كان يخاف من النشّاب أضعاف خوفه من السيف والرمح ، وهذه حقيقة ، فالرماية أنكى للأعداء وأشد فتكاً بهم ، وكم من كوكبة من الفرسان تحامت رامياً واحداً لأنه يضرب عن بعد وهى لا تصل إليه ، فكان يصيبهم ولا يصيبونه ، ويقتل منهم عدداً يتساوى مع ما يحمله من سهام .

وكان المسلمون جميعاً يجيدون الرمى ، وكان أول رام فيهم سعد ابن أبى وقاص ، وكان هذا موضع فخره وكان يقول « إنى لأول المسلمين

رمى المشركين بسهم » ، ولقد دعا له رسول الله فقال «اللهم سدد رميته»
وأنشد سعد :

ألا هل أتى رسول الله أنى   حميت صحابتى بصدق نبلى
أذود بها عدوهم ذيادا   بكل حزونة وبكل سهل
فما يعتد رام من معد   بسهم مع رسول الله قبلى

وروى أن فتيان المدينة كانوا يتعلمون الرماية أيام بنى أمية ، وقد تعلمها محمد الباقر وهو فى حداثته فلما قدم على عبد الله بن مروان وكان القوم يرمون أراد إحراجه وطلب منه أن يرمى كما يرمى الناس ، فرمى وفاق كل الموجودين فقال له « لله درك!! أنت أرمى العرب والعجم » ثم قال « يا محمد ، لا يزال العرب والعجم تسودها قريش مادام فيهم مثلك » .

وقيل إنه فى أخريات الدولة العباسية كونت فرقة من الرماة ، كان لها زى خاص ، وذلك على يد الناصر لدين الله ، وقد ورد فى كلام حاجى خليفة فى كشف الظنون عن سنة ٥٧٨هـ أن الشيخ عبد الجبار ألبس الخليفة الناصر هذا الزى ، ويقولون عنه أنه موروث عن علىّ بن أبى طالب ، ثم سلمان الفارسى ، وصفوان بن أمية ، وحذيفة بن اليمان ، والمقداد بن الأسود .

وفى أواخر أيام عثمان بن عفان ، أخذ العرب عن الفرس رمى البندق ، واهتموا بهذه الرياضة كثيراً حتى نبغوا فيها ، وبرزت هذه الرياضة فى عهد الرشيد ، ثم فى عهد الناصر لدين الله ، والبندق هو كرات من الطين أو الحجارة أو الرصاص تُرمى بالقوس.. ثم افتنوا فى رميها بالمزاريق أو الأنابيب

بضغط الهواء من مؤخرة الأنبوبة ،وهذه هى الفكرة التى قامت عليها صناعة البندقية ثم المدفع بعد ذلك . . . وقيل إن فرقة من البارزين فى هذه الرياضة كان لها شأن كبير فى الحروب الصليبية .

واهتم الإسلام برياضة الضرب بالسيف ، وكان فناً من الفنون التى اشتهر بها المسلمون ، فقد أجادوا استخدام السيف إجادة تفوق الوصف ، حتى إنهم كانوا يعتمدون على هذه الإجادة فى جميع مواقعهم ، وسطر السيف الإسلامى صفحات مشرقة فى تاريخ البطولات الإسلامية .

كان علىّ بن أبى طالب من أشهر المقاتلين بالسيف ، وهناك ألوف من المسلمين يقفون على صف واحد فى المقام الأول فى هذا المجال ، ويمثلون مكان الصدارة فى هذه الرياضة ، وكان علىّ يتقدم فى كل موطن الصفوف وينتدب للمكاره ، اعتماداً على قدرته فى استخدام السيف ، حتى أنه لم يهزم فى مبارزة مرّة فى حياته ، ولا عجب فقد روى عن النبى عليه السلام أنه قال فيه « لاسيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علىّ » ولقب بسيف الله الغالب ، كما سمى خالد بن الوليد بسيف الله المسلول .

واهتم الإسلام بالصحة العامة للمسلمين عملا بالمبدأ « العقل السليم فى الجسم السليم » ، ومن خلال هذا المبدأ دعا إلى العناية بالصحة ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ و ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ و « إن النظافة من الايمان » .

وكان الرسول يدعو الناس إلى التطهر ، ليبقى الجسم نظيفاً لا يدخله

مرض ، قوياً محصناً لا تهده علّة ولا يضعفه سقم ، وطالما كان الجسد سليماً أصبح قادراً على تحمل المشاق وما أكثرها فى الميدان وقت النزال .

ومن هنا كانت الحكمة فى العناية بالأجسام ولقد أدركت الرئاسات الإسلامية فى عهود ما بعد الرسول هذه الحكمة ، فأولتها عنايتها وتقديرها ، وبذلت غاية ما تستطيعه من جهد حتى تتحقق الكفاءة الجسمانية ، فأولت شئون الحياة عنايتها الفائقة بالتنظيم والترتيب والتنسيق ، فظهرت فى تاريخ الأمة العربية صور جذابة ونماذج أخاذة وأمثلة قوية للتفوق الجسمانى .

وكان رسول الله عليه السلام مثلا المسلمين وأسوة فى الكفاءة الجسمانية ، فقد تميز بجسم رياضى متين التركيب قوى البنية ... جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض عن صفة رسول الله «أنه كان عظيم الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، عَبْلَ العضدين والذراعين والأسافل ، رَحْب الكفين والقدمين ، رَبْعة القدّ ، ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردد » .

ووصف علىّ رسول الله فقال « لم يكن بالطويل الممغّط (البائن الطول) ولا بالقصير المتردد ، وكان ربعة من القوم (معتدل القامة) ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط ، كان جعدا رجلا ، ولم يكن بالمطهم (الفاحش السمنة) ولا بالمكلثم (كثير اللحم) ، كان أسيل الخد شثن الكف والقدمين (غليظ)، جليل المشاش والكتد ، إذا التفت التفت معا ، وإذا مشى يتكفأ تكفيا كأنما ينحط من صبب (يميل فى المشى إلى الأمام)» .

وقال أبو هريرة « ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله صلى الله

عليه وسلم فى مشيه ، كأنما الأرض تطوى له ، كنّا إذا مشينا معه نجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث » .

وهذه الأقوال تدل على صحة جسمه عليه السلام وسلامة تركيبه وقوة بنيانه ، وقال كفار قريش وهم يشاهدون المسلمين يطوفون بالكعبة حين اعتمروا بعد صلح الحديبية « سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حُمّى يثرب» ، فقال عليه السلام لأتباعه « رحم الله امرءاً أراهم من نفسه قوة » ، واصطبغ عليه السلام بردائه وكشف عضده الأيمن دليل القوة (أى أدخل الرداء من تحت إبطه الأيمن وردّ طرفه على يساره وكشف منكبه الأيمن وغطى الأيسر) ، ففعل مثله المسلمون .

وبجانب الإعداد البدنى اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بتوفر الشجاعة والجرأة والإقدام لدى المحاربين المسلمين ، وبذل الرسول ومن بعده القيادات المختلفة جهداً كبيراً حتى يتصف المسلمون بهذه الصفات التى يتطلبها العمل الحربى فى المعركة ، وكان الرسول وكانت من بعده القيادات المختلفة مثلا للجند وأسوة صالحة ، ولذا قال عليه السلام « أصحابى كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم » .

كان أصحاب رسول الله هم القوة التى تمد المسلمين بالنور وتدفعهم إلى النصر ، وليس أدل على ذلك مما فعله خالد حين أمره أبو بكر بالتوجه من العراق إلى الشام لمعاونة جيوش المسلمين فى حربهم ضد الروم ، حيث أراد الاستئثار بصحابة رسول الله وأخذهم معه ضمن قواته ، فغضب المثنى لهذا الاستئثار وقال « والله لا أقيم على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، والله ماأرجو من النصر إلا بهم ، فكيف

تعريفي منهم »، والسر فى الاستئثار والغضب أن الصحابة قوم تميزوا بالشجاعة والإقدام والجرأة ، وهم أحرى الناس بالاستبسال فى القتال وطلب الشهادة ، لأن صفاتهم وحرارة إيمانهم وصحبة النبي وسيرته تقودهم وترشدهم وتزكى فيهم روح الحرب ، ولأنهم شهدوا مع الرسول غزواته وثبت بلاؤهم وعظمت تجربتهم وصقلتهم المعارك ، فكانوا فى كل جيش القبس الذى يهديه ، والحجة التى يلجأ إليها ، والقدوة التى تحتذى ، ثم إنهم حفظة القرآن تدوى به أصواتهم ، إذا اشتد سعير المعركة ، فيزداد الجيش قوة ويقيناً .

وارتقى المسلمون جميعاً إلى مستوى صحابة رسول الله ، فكانوا جميعاً أبطالا لا يستثنى منهم أحد . . كانوا أبطالا شجعانا تنبعث شجاعتهم من عقيدة يضحى فيها المسلم بكل شيء . . بأمه وأبيه وولده وكل عزيز لديه . . واجه أبو عبيدة ابن الجراح أباه فى ساحة القتال فى بدر فقال له « يا أبت اغرب عنى حتى لا يقال إن أبا عبيدة قتل أباه » ، ولكن أباه أصرّ على القتال ولكن أبا عبيدة كان يؤمن بصدق وبحق أن رابطة الله وإيمانه به أقوى من أبوة أبيه له فرفع سيفه فأرداه قتيلا . . . ولد يضحى برابطة الدم والقربى فى سبيل عقيدته فينبرى ليصارع أباه بسيفه ويصرعه وهو يدرى أى كرب يلحق به وأى حزن يعانيه من بعده ، ولكنه الولاء الصادق للمبدأ وللعقيدة يسمو به عن كل ولاء وعاطفة .

لقد أذهب الإسلام من قلوب رجاله حمية الجاهلية واجتث من نفوسهم الأثرة والعصبية . . دفعهم إلى قتال المشركين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ

المتقين﴾ [التوبة : ١٢٣] ، وهذه الآية تحمل أمر مقاتلة الكفار الذين يحيطون بالمسلمين ويعيشون فى مجتمعهم كمرض يجب استئصاله ، حتى يسلم هذا المجتمع فلا يتعرض للتصدع والتشقق ويجد أمناً وسلاماً واستقراراً .. ونهاهم عن الفرار من العدو وحثهم على الصبر والثبات ﴿ وَلاَ تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٠٤] .. والله تبارك وتعالى فى هذه الآية يستحث عزائم المسلمين ويوقظ مشاعرهم للجهاد فى سبيله بعد ماعانوه من شدائد وأهوال ، ويأمرهم بألا يفتروا فى طلب العدو ، وإذا كان المؤمنون يلقون أهوال الحرب إلا أنهم يستعذبونها ، لأنها تفتح أمامهم طريق الرحمة ، وتنزلهم عند الله منازل الرضوان ، وخاصة أنهم يقاتلون عن شعور بأنهم إن انتصروا عادوا بالسلامة والغنيمة ، وإن قتلوا ظفروا بما عند الله ، أما العدو فليس أمامه إلا النصر أو الموت على الكفر ... ورسم لهم الاسلام طريق القتال وأسلوبه ، فالمؤمن وهو يجاهد فى سبيل الله يأتى أعظم الأفعال وأكرمها وأصدقها وأشرفها ، فعليه حين يشهد القتال أن يلتحم فى صفوف المجاهدين ، وأن يأخذ مكانه فى الصف ، وأن يعطى الجهاد حقه ، وأن يقاتل حتى يكتب الله النصر للمؤمنين ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] .. وحذرهم من الفرار فإن لقوا العدو فليثبتوا له وليكون لقاؤهم معه جاداً ، فيه تصميم على النصر أو الشهادة ، دون أن تسيطر على أحد منهم رغبة فى الفرار من وجه العدو ، أياً كان الموقف وأياً كانت قوة العدو وشوكته ، فإن من ينكص على عقبه ويعطى العدو دبره ، يكون قد خرج عن الخط المرسوم ، ويكون موضع الغضب من الله ، ولكن لا مانع من أن يعطى

المسلم للعدو ظهره إذا كان ذلك لمصلحة الموقف أو للانضمام إلى فئة أخرى من المؤمنين رغبة فى النكاية بالعدو ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال : ١٥/١٦] .

كانت شجاعة الجندى المسلم المحارب وجرأته وإقدامه ، حبه للشهادة ، تقف كلها أمام فكرة الهرب من الميدان ، وتسد عليها طريقها فلم يفكر عربى فى الهرب من عدوه ، لأن الإسلام جعل عقوبة الهرب صارمة وهى غضب من الله ثم جهنم .. لقد بكى المسلمون عند هزيمتهم فى موقعة الجسر، (١) فقال لهم عمر «لا تجزعوا يامعشر المسلمين أنا فئتكم، إنما انحزتم إلى ، اللهم كل مسلم فى حل منى ، أنا فئة كل مسلم » ، فقد واجه المسلمون فى هذه الموقعة سلاح الفيلة ، ولم يكن لهم دراية بقتاله ، ففروا منه ، وتدخلت عوامل أخرى فى المعركة أدت إلى هزيمتهم ، ثم فرارهم ، فلما عادوا إلى رشدهم تنبهوا إلى خطورة مافعلوه فبكوا وهم يألمون ، وكان من الفارين معاذ فسمع قارئا يقرأ ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ... ﴾ إلى آخر الآية فبكى ، وعلا نحيبه ، فقال له عمر « لا تبك يا معاذ ، أنا فئتك وإنما انحزت إلى » ، ولقد سجل التاريخ الإسلامى موقفاً مشابهاً على عهد رسول الله حين هزم المسلمون فى موقعة مؤتة، وفروا عائدين إلى المدينة ، فقد استقبلهم الناس استقبالا سيئاً ، وقالوا لهم «يافرار، فررتم فى سبيل الله » ، ورفض أهل المدينة أن يغفروا لهم فرارهم حتى أن كثيراً من العائدين لم يعودوا إلى بيوتهم مداراة لخجلهم ، وقيل إن سلمة ابن هشام كان لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع لوما ، ولكن

---

(١) إحدى معارك العراق .

رسول الله كان له موقف آخر فقد خفف عنهم وواساهم ، وقال للناس « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله » ، فهدأت بهذا القول الكريم نفسية العائدين واطمأنت قلوبهم .

إذن فإبراز جانب الشجاعة والجرأة والإقدام عند المسلمين عامل هام له خطورته وقيمته ، لأن المعركة تحتاج دائماً إلى الرجل الشجاع الجسور صاحب القلب القوى الذى لا يهاب المواقف ولا يخشى هول المعركة ... ولهذا كان الإسلام يثير فى نفوس المحاربين كل مقومات الشجاعة وعواملها وأسبابها ودوافعها .

وكان رسول الله هو القدوة ، فقد رُوى فى الصحيحين من حديث ثابت ابن أنس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم راجعاً وقد سبقهم واستبرأ الخبر وهو على فرس لأبى طلحة رضى الله عنه وفى عنقه السيف وهو يقول : « لن تراعوا .. لن تراعوا » . وقال ابن عمر « ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وقال علىّ بن أبى طالب « إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرّت الحدَق اتقينا برسول الله فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى عليه السلام ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً » .

وتمثلت شجاعة النبى فى مواقف كثيرة خلال غزواته ، نذكر منها على سبيل المثال موقفه يوم حنين وشجاعته الفائقة إذ أعجبت المسلمين كثرتهم

وكانوا يزيدون على اثنى عشر ألف رجل ، وهاجمهم عدوهم وصب عليهم وابلا من النبال فولوا متفرقين ودب الذعر فيهم حتى قال أخ لصفوان بن أمية « الآن بطل السحر » ، ولكن الرسول وسط هذه الأحداث لم تفارقه شجاعته ولم يبرح مكانه بل وقف على بغلته البيضاء فى قلة من أصحابه وهو يردد « أنا النبى لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب » ، وشهد المسلمون ثبات الرسول وفائق شجاعته فعادوا من جديد متمثلين به ، وكان النصر ، وقال عليه السلام « إن الصبر فى مواطن البأس مما يفرّج الله به الهم وينجى به من الغم » .

ونذكر أيضاً ما حدث فى غزوة غطفان فقد نزل المسلمون على ماء يسمى « ذا إمر » ونزع الرسول ثوبه يجففه من مطر بلله ، وارتاح تحت شجرة فأبصره رجل يدعى دعثور ، فجاءه بسيفه ، ووقف على رأسه وقال « من يمنعك منى يا محمد ؟ » ، فقال « الله » ، فأدركت الرجل رهبة ، فوقع منه السيف ، فتناوله الرسول وقال له « من يمنعك منى ؟ » ، قال « لا أحد » ، فعفا عنه الرسول وأسلم الرجل ، وأسلم معه قومه .

لقد أخذ المسلمون عن رسول الله وتمثلوا به واقتدوا بسلوكه .

ولهذا كان المسلمون جميعاً صورة لمواقف رسول الله شجاعة وجرأة وإقداماً وعزماً .

ألا يدل إسلام حمزة على تجمع كل هذه الصفات فى نفسه ... لقد سمع أن أبا الحكم بن هشام آذى رسول الله وسبّه ، فغضب وحمل قوسه وبحث عنه حتى وجده جالساً فى قومه ، فأقبل نحوه ثم رفع القوس ، وضربه فشجه شجة منكرة ، وقال له « أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول »

وكان حمزة شجاعاً فى كل معاركه حتى قتل يوم أحد . . شهدت بدر شجاعته حين قتل الأسود بن عبد الأسود المخزومى وكان رجلا شرساً من كفار قريش ، وحين قتل شيبة بن ربيعة . . لقد كان معلماً بريشة نعامة فى صدره يوم بدر ، وسأل أمية بن خلف « من منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ؟ » ، فأجابه عبد الرحمن بن عوف « ذاك حمزة » ، فقال أمية « ذا الذى فعل بنا الأفاعيل » .

ومن المسلمين الذين ذاعت شجاعتهم علىّ بن أبى طالب الذى نام فى فراش رسول الله يوم الهجرة ثم شارك فى جميع الغزوات ، وكانت له فيها مواقف تتسم بالجرأة والشجاعة ، ومنها موقفه يوم الخندق عندما واجه عمرو بن عبد ود قائلا « يا عمرو إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .. فإنى أدعوك للنزال » ، فأجابه عمرو « ولم ياابن أخى فوالله ما أحب أن أقتلك » ، فقال علىّ « ولكنى والله أحب أن أقتلك » ، ثم تبارزا وقتله علىّ ... وكان علىّ صاحب الراية فى غزوة بنى المصطلق ، فلما رفض بنو قريظة حكم سعد بن معاذ صاح علىّ « يا كتيبة الإيمان ، والله لأذوقنّ ماذاق حمزة ، أو لأفتحن حصنهم ... » ، فلما سمعوا صيحته قالوا « يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ » .

ووصف الشاعر العربى الأعور الشّنى شجاعة المثنى بن حارثة وبلاءه فى قتال الفرس فى قوله[1] :

---

(١) قال هذه القصيدة بعد انتصار المثنى فى موقعة البويب التى أزالت عارالهزيمة فى الجسر وردت للمسلمين اعتبارهم والثقة بأنفسهم وبالله الذى وعدهم النصر .

هاجت لأعور دار الحيِّ أحزانَا ... واستبدلتْ بعد بعد القيس هَمْدَانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع ... إذ بالنُّخَيْلَةِ[1] قتلى جندِ مِهْرانا
أزمانَ سار المثنى بالخيول لهم ... فقُتِّلَ القوم من فرسٍ وجِيلانا
سمـــا لأجناد مِهْرانٍ وشيعته ... حتى أبادَهم مثنى ووُحدانا
ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى ... مثل المثنى الذى من آل شيبانا
إن المثنى الأميرُ القرْمُ لا كذبٌ ... فى الحرب أشجعُ من ليثٍ بخفَّانا

وبدت شجاعة القعقاع فى كل المعارك التى خاضها وأسهم فيها ، ففى يوم أغواث ثانى أيام القادسية بارز بهمن جاذويه قائد الفرس وقتله وهو يقول « يالثارات أبى عبيد[2] وأصحاب الجسر » ، وكان يصيح فى الجنود خلال الاشتباك « باشروهم بالسيوف » ، وفى يوم عماس تقدم ومعه رمحه إلى الفيل الأبيض الذى كان يتقدم جند الفرس فوضع الرمح فى عينه فقبع الفيل وخفض رأسه وطرح سائسه ودلّى مشفره فضربه بسيفه فوقع لجنبه وفرت الفيلة كلها ، وفى ليلة الهدير تعاهد مع جماعة على الموت وقال لهم « إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر » ، وزحف إلى سرير رستم ، فهرب منه إلى النهر ، حيث قتله هلال بن علقمة ... وقاتل القعقاع فى جلولاء وفى نهاوند ، فكان القائد الباسل الذى قال عنه أبو بكر « لا يهزم جيش فيه مثل هذا » .

وكانت شجاعة سعد بن معاذ مثلا وقدوة ... مرّ يوم الخندق بحصن

---

(١) مكان قرب البويب .
(٢) يقصد أبا عبيد بن مسعود الذى استشهد يوم الجسر وكان قائد جيش المسلمين وقتله الفيل

بنى حارثة وهو من أحرز حصون المدينة، وعليه درع قصيرة قد خرجت ذراعه كلها منها وفى يده حربته وقال

لَبِّث قليلاً يَشْهدِ الهيجا حَمَل ... لا بأسَ بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه وكانت داخل الحصن « الحق يا بنى فقد والله أخَّرت » ، وكانت معها عائشة أم المؤمنين ، ولفت نظرها الدرع القصيرة فوجهت نظر أمه « يا أم سعد ، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى » ، وأصيب سعد بسهم قطع منه عرق فى الذراع يقال له « الأكحل » ، ومات متأثراً من جرحه ، بعد أن حكم على بنى قريظة ، ورثاه رجل من الأنصار فقال

وما اهتز عرشُ الله من موت هالكٍ ... سمعنا به إلا لسعدٍ أبى عمر

ورثته أمه فقالت

ويلُ أمِّ سعدٍ سعداً ... صرامةً وحدّا

وسؤدداً ومجداً ... وفارساً معدا

سدَّ به مَسَدَّا

وفوق أرض الأندلس كان جيش القوط يزيد على السبعين ألفاً ، على حين كان المسلمون لا يزيدون على إثنى عشر ألفاً ، وخلال الموقف الذى امتلأ حماسة وتوقداً أمر طارق أن يحرق أسطول المسلمين ، وقال فى خطبة طويلة « أيها الناس أين المفر ؟ ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » ، وكان القتال شديداً ، واستمر سبعة أيام ، وانتهى بنصر عظيم وبهزيمة زلزلت الأرض تحت أقدام القوط ورذريق .

وهناك أيضاً برزت صورة القائد الإسلامى عبد الرحمن بن معاوية صقر قريش والداخل من بنى أمية أرض الأندلس، فأسس هناك دولة ووضع دعامتها وقضى ثلث قرن فى صراع مع المقادير ، وقال عنه أبو جعفر المنصور « صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ووطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذلّ الجبابرة الثائرين » .

إن الكاتب ـ وأى كاتب ـ لا يسعه أن يحصى أسماء الذين تألقوا فى تاريخ الإسلام شجاعة وجرأة وإقداماً، فقد كان هناك كثيرون .. ألوف من المسلمين لا يسمح المجال بنشر روائع موقفهم ، فالكل كان بطلا مغواراً شجاعاً ، آمن برسالة وبهدف ، وبذل كل شىء جهداً ومالا وذاتاً ، وتقدم إلى المعارك تحميه شجاعته ويجذبه إلى المعركة إقدامه .. كأبطال مؤتة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ... كثابت بن قيس بطل اليمامة ... كزيد بن الدثنة الذى سأله أبو سفيان « أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وأنت فى أهلك » ، فقال « والله ما أحب أن محمداً تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى » . . كحرام بن مِلْحان الذى سار إلى بئر معونة يعلّم الناس الدين فضربه عامر بن الطفيل برمح فى جنبه فقال « الله أكبر ، فزت ورب الكعبة » .. كزيد بن الخطاب الذى خطب الناس يوم اليمامة « أيها الناس ، عضوا على أضراسكم ، واضربوا عدوكم ، وامضوا قدماً ، والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى » ... كأبى محجن الثقفى الذى قال فى بلائه يوم القادسية

لقد علمت ثقيف غير فخر   بأنّا نحن ألزمها سيوفاً

وأكثرهم دروعاً سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فإن أحبس فذلكم بلائى وإن أترك أذيقهم الحتوفا

وكهاشم بن عتبة أحد أبطال فتح العراق .. وكعمرو بن العاص فاتح مصر ... وكيزيد بن معاوية أحد أبطال فتح الشام ... وكأبى عبيدة ابن الجراح ... وكسعد بن أبى وقاص بطل القادسية ... وكأبطال فتح مصر عبادة بن الصامت ، والمقداد بن الأسود ، وعقبة بن نافع ... وكالمهلب بن أبى صفرة الذى حارب الخوارج وأذلهم وأدبهم بعد أن سادنفوذهم وعجز كثيرون عن مواجهتهم ، فقتالهم لم يكن هيناً إذ كانت عندهم عصبية لمذهبهم وقال فيه ابن عرّاوة

وليس لهـــا إلا المهلبُ إنه مليء بأمر الحرب شيخٌ له شان
إذا قيل من يحمى العراقين أومأت إليه مَعَدُ بالأكف وقحطان
فذاك امرؤ إن يلقهم يُطْفِ نارهم وليس لها إلا المهلب إنسان

وقال أحدهم وقد رأى تصميم المهلب على تتبعهم :

حتى متى يتبعنا المهلب
ليس لنا فى الأرض منه مهرب
ولا السماء ، أين .. أين نذهب

وكقتيبة بن مسلم الباهلى الذى فتح كل ما وراء النهر وأدخل فى حوزة الإسلام بخارى وسمرقند ، ووصل بفتوحاته إلى بلاد الصين .. وكمحمد ابن القاسم بن محمد الثقفى فاتح بلاد السند .. وكمسلمة بن عبد الملك بن مروان

فاتح القسطنطينية . . وكموسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحا الأندلس ومقاتلا الفرنجة .

إنهم كثيرون . . . كثيرون . . . فوق الحصر والعدّ .

لقد كان لكل قائد جيش ولكل جندى موقف يستحق الإشادة . .

إنهم كثيرون هؤلاء الذين ظهروا فى تاريخ الفتوح الإسلامية ، ولا سبيل إلى حصرهم فى صفحات كتاب ، وكتب التاريخ على كثرتها بها أسماؤهم وبطولاتهم ومواقفهم ، فهى سجل خالد لا يفنى ، يؤكد أنهم كانوا أشد بأساً وأعظم شأناً وأعمق إيماناً وأقوى عزيمة وأكثر شجاعة وجرأة وإقداماً . . . لقد كان شعارهم جميعاً فى معاركهم التى غيّروا بها وجه التاريخ ماقاله الشاعر أبو روّاغ اليشكرى ...

إن الفتى كلّ الفتى مَنْ لم يَهُلْ   إذا الجبان حاد عن وقع الأسل
قد علمتْ أنى إذا البأس نزل   أروعُ يومَ الهَيْج مِقدام بَطَل

وفى الختام

هناك موقف تاريخى حان وقت التعرض له .. موقف لعمر بن الخطاب . . فقد كان حريصاً كل الحرص على سلامة رجاله تشبها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخشى عمر وقد انتشر الجند المسلمون فى أماكن لم يألفوها ، واختلطوا بسكان هذه المناطق ، أن يترفهوا ، فيفسد ذلك خلالهم وصفاتهم ، ويفقدهم الأجساد القوية والمشاعر العالية ، ولهذا وجه بياناً عاماً من القيادة العامة إلى كافة الجيوش الإسلامية فى مختلف مواقعها ، وقال فى هذا البيان « أما بعد فاتزروا وارتدوا وانتعلوا (أى يأمرهم بلبس الإزار والرداء والنعل) ، والقوا

الخفاف ، والقوا السراويلات ، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل (أى يأمرهم بالتمسك بعاداتهم وملابسهم) ، وإياكم والتنعم وزىّ العجم (أى يمنعهم من التشبه بالعجم حتى لا ينسوا عاداتهم وتقاليدهم) ، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب (أى يوصيهم بالتعرض للشمس حتى تصح أجسامهم) ، وتمعدوا (أى يلزمهم عادات جدهم معدّ بن عدنان) ، واخشوشنوا (أى يوجههم إلى ممارسة ما يوجب الخشونة ويجعل الجسم متيناً قوياً صلباً قادراً على تحمل المشاق) ، واخلولقوا (أى يطلب منهم أن يكونوا مستعدين لما يطلب منهم فيكونون خلقاء به) ، واقطعوا الرُّكُب (أى يأمرهم بركوب الخيل من غير ركاب ، بقصد الظهور بمظهر القوة أمام العدو) ، وانزوا على الخيل نزوا (أى يثبون عليها وثبا) ، وارتموا الأغراض (أى يجعلون قصدهم إصابة الهدف حين يرمون عن القوس) » .

واستجاب له الجند ونفذوا أوامره .

والسبب

هو الإيمان العميق الكبير بالله وبالرسالة وبالرسول .

هو الإيمان العميق بالقدرة على المواجهة والتصرف

هو الإيمان العميق بالقيادات العليا والثقة فيهم والاطمئنان إليهم .

هو الإيمان العميق بأن الجهاد فى سبيل الله شرف ، وأن الاستشهاد أرقى مراتب الشرف

لم يكن الرجال وحدهم هم عدّة الجيش الإسلامى منذ بدر ، وحتى اتسعت رقعة الدولة ، فقد كانت المرأة المسلمة بجانب الرجل، إذ أحست بأن على عاتقها واجباً يجب أن تؤديه كما يؤدى الرجل المسلم واجبه حيال دينه وربه ، ولهذا خرجت المرأة المسلمة تجاهد بجانب الرجل وتأخذ بنصيبها فى المعركة وتؤدى واجباً أحست به من وحى إيمانها .

وأكدت المرأة المسلمة إيمانها العميق بالدين الجديد حين أصرت على الخروج مع الخارجين ، وأبت أن تبقى فى بيتها تقوم بدورها العادى فى الحياة .. لقد أرادت أن تسجل لنفسها مثل الرجال صفحات مليئة بالبطولة والمجد ، ولقد أثبت تاريخ الحرب الإسلامية أنها قد أتت فى الميدان بجلائل الأعمال، شأنها فى ذلك شأن أعاظم الرجال ، كما حفل تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية بنماذج متعددة لكثير من المجاهدات اللواتى كان لهن شأن فى المعارك .

وقد يقول قائل إن المرأة المسلمة هى فى الأصل امرأة عربية عاشت ونمت فى الجزيرة العربية ، وكانت تخرج أيضاً إلى ساحات القتال بجانب الرجل فى كل ما كان يدور بين القبائل ، تعاون الرجل وتساعده ، فخروجها إذن فى العهد الإسلامى لا يضيف فضلا إلى الإسلام .

وهذا القول صحيح لاغبار عليه ، فهند بنت عتبة زوج أبى سفيان كانت

من أشد الناس عداوة للإسلام ، حتى أنها فاقت فى عداوتها كثيراً من الرجال الأشداء ، وكانت تشجع الخارجين من قومها إلى بدر ، وتثير فيهم الحماس ، وتدعوهم لقتال المسلمين ، فلما جاءتها أنباء الهزيمة ، وعلمت أن أباها وأخاها وعمها كانوا ضمن القتلى ، أبت أن تبكى ، وقالت للنساء اللائى مشين إليها وقلن لها « ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ » ، قالت « أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه ! والدهن علىّ حرام حتى نغزو محمداً ، والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبكيت ، ولكن لايذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتلة الأحبة » ، وبينما قريش تحشد حشودها استعداداً ليوم أحد أبت نساء قريش إلا أن يخرجن ، وتشاور القوم فى الأمر ، فمن قائل بخروجهن « فإنه أقمن أن يحفظكم ويذكركم قتلى بدر ، ونحن قوم مستميتون لانريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه » ، ومن قائل بعدم الخروج « يامعشر قريش ، هذا ليس برأى أن تعرضوا حرمكم لعدوكم ، ولا آمن أن تكون الدبرة (الهزيمة) عليكم ، فتفضحوا فى نسائكم » ، وبينما النقاش مستمر صاحت هند فيمن اعترض الخروج « إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك ، نعم نخرج فنشهد القتال ، ولا يردّنا أحد كما ردت الفتيات فى سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجحفة ، فقتلت الأحبة يومئذ »» ، وكانت هند أكثر القوم تحمساً لخروج النساء وأكثرهم رغبة فى الثأر ، وانتصر رأيها ، ووافق الجميع على خروج النساء يحمسن الرجال ويثرن الحمية ويقدمن للمقاتلين الخدمات ويمنعن الفارين من الفرار ، وخرجت هند ومعها كثيرات مثل أم حكيم زوج عكرمة بن أبى جهل ، وفاطمة بنت الوليد ابن المغيرة زوج الحارث بن هشام ، وبرزة زوج صفوان بن أمية ، وريطة زوج عمرو بن العاص وغيرهن . . .

ولقد اتفقت امرأتان وتآمرتا مع وحشى على قتل واحد من ثلاثة رسول الله وحمزة وعلىّ ، قالت الأولى له وهى ابنة طعيمة بن عدىّ وكان قد قتل يوم بدر « إن قتلت محمداً أو حمزة أو علياً فى أبى ، فإنى لا أرى فى القوم كفؤا له غيرهم ، فأنت عتيق » ، وقالت له الثانية وهى هند بنت عتبة « ويهاً أبا دسمة اشف واشتف » ، وكانت كل واحدة من النساء قد أعدت مولى وعدته الخير الوفير لينتقم لها ممن لجمها ببدر من أب أو أخ أو زوج أو عزيز ، وسارت النساء مع الجيش خلال الصفوف ، يضربن بالدفوف والطبول ، وينشدن :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار ضربا بكل بتار

ويرددن :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق مشى القطا البوارق

والمسك فى المفارق إن تقبلوا مغانق ونفرش النمارق

وإن تدبروا نفارق فراق غير وامق عرس المولى طالق

وعندما بلغ الجيش إلى الأبواء حيث قبر السيدة آمنة أم رسول الله ، حرضت هند الناس على نبش قبرها « لو بحثتم قبر أم محمد فإن أسر منكم أحد فديتم كل إنسان بأرب من أربابها » ، ولكن الناس اعترضوا على ذلك ورفضوا ما اقترحته خشية انتقام المسلمين منهم .

ونجح حبشى فى قتل حمزة ، فأسرعت هند إلى موقعه وبقرت بطنه وأخذت تلوك كبده بأسنانها ، واندفعت نساء قريش إلى أرض المعركة عثلن بالقتلى يجدعن الأنوف والآذان .

هذا هو موقف نساء قريش من الحرب .

إذن فالقول بخروج النسوة إلى الحرب قبل الإسلام ومشاركتهن فى أحداثها قول صحيح ، ولكنه مردود عليه بردين جديرين بالتسجيل .

الأول .. إن المرأة العربية قبل الإسلام لم يكن لها وضع أو مكانة فى المجتمع الجاهلى .. وكانت مهانة مستعبدة مظلومة ذليلة مهملة ، تباع وتشترى كالبهيمة والمتاع . . كان لأبيها أو لزوجها حق التصرف فيها حسب رغبته وطبقاً لمشيئته ، دون أن يكون لها رأى فى أمر نفسها ، فلأحدهما أن يبيعها أو يقايض عليها أو يهبها لغيره أو يقتلها ، وإذا مات أحدهما أصبحت جزءاً من تركته يرثها من يرثه . . وكانت مكروهة من الرجال يحرمونها من الحياة بوأدها .

فلما جاء الإسلام حرر المرأة وخلَّصها من استبداد الرجل ، وعاملها كمخلوق له مكانة فى المجتمع ، ومنحها كل حقوقها ، ورفع عنها ظلم الجاهلية ، ومنع وأدها ، ونظم أسلوب حياتها ، وأصبحت فى عهده أهلا للإسهام فى الحياة العامة ، كما غدت ركنا هاماً فى المجتمع الإسلامى ، وذكرها القرآن فى مواضع كثيرة وحدَّد لها رسالتها وحفظ لها حقوقها ، وجعل إحدى السور باسم النساء ، وأخرى باسم مريم ، وأول ما أكده أنها والرجل من مصدر واحد ﴿ياأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً﴾ (النساء : ١) ، و ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُن

إِلَيْهَا ﴾ (الأعراف : ١٨٩) ، و ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ (الروم: ٢١) .

وخاطب القرآن الرجل كما خاطب المرأة ﴿ إِنَّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات .... إلى آخر الآية ﴾ (الأحزاب : ٣٥) وأعطى القرآن المرأة حقوقها المسلوبة التى افتقدتها فى ظل المجتمع الجاهلى ، كحق التملك والبيع والشراء والتصرف فى المال ، وحدّد لها نصيبها فى الميراث بعد أن كانت هى جزء منه ، وفرض على الرجل أن يحسن معاملتها حتى لو كرهها ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (النساء : ١٩) ، واحتفظ لها عند الطلاق بحقها فى النفقة ، وقيّد تعدد الزوجات بشروط قاسية ، وذكرها فى آيات كثيرة مع الأب ، وطالب بالإحسان إليها ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَانًا ﴾ (الاسراء ٢٣) و ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصيرُ ﴾ (لقمان : ١٤) وعن الرسول الكريم « إنما النساء شقائق الرجال » ، وقد أوصى رسول الله بالمرأة خيراً ، ودعا إلى حسن معاملتها ومعاشرتها وحفظ حقوقها ، فأصبحت بفضله تعدل الرجل داخل المجتمع الإسلامى ، حتى أن أول مصحف جمع فيه القرآن حفظ عند حفصة أم المؤمنين وظل عندها فى عهد أبى بكر ثم عمر وعثمان .

والخلاصة أن القرآن اهتم بالمرأة وحررها من عبودية الرجل ، ورفعها إلى مرتبة إنسانية ، ونظم لها حياتها مع الأب والزوج والابن ، بعد أن كانت تعيش وسط هؤلاء جميعاً كماً مهملاً .

الثانى : إن المرأة المسلمة كانت تدرك وهى تخرج مع الخارجين أن خروجها واجب يحتمه إيمانها ، فهى لم تخرج رغبة فى انتقام أو ثأر كما خرجت هند وزميلاتها فى أحد ، ولكنها خرجت لتقف بجانب الرجل فى كفاحه الشريف وجهاده الأعظم دفاعاً عن دينه ودفعاً للعدوان ، فهى إذن تخرج لهدف أفضل وغاية أنبل ، وهى بإسهامها فى القتال تمثل جانباً من قوى الخير التى تواجه قوى الشر ، تدافع عن حق ، وتسعى إلى سعادة البشر وارتقاء الإنسان .

فرق كبير إذن فى مبررات الخروج وأسبابه .. فالمرأة الجاهلية كانت تسعى إلى نصرة الظلم وتثبيت الشر وإيقاف تيار التقدم والتطور ، واستمرار الظلام والضلال والغى . . أما المرأة المسلمة فكانت تخرج لهدم هذا كله ، ولتقيم على أنقاضه مجتمعاً فاضلا شريفاً ، تسوره مبادئ العدالة والسلوك ، ويحظى فيه الإنسان بكل ما وهبه خالقه من حرية وكرامة وحياة فيها ارتقاء وسمو .

إذن فالمرأة المسلمة كانت تمثل قطاعاً فى الجيش الإسلامى يعرف واجبه ويدرك هدفه ويقدر مسئوليته ويفهم رسالته ويعى دوره وأعباءه .

ولقد بدأ جهاد المرأة المسلمة منذ أبدت السيدة خديجة رغبتها فى الزواج من رسول الله ، والمعروف تاريخاً أنها عرضت عليه على لسان صديقتها نفيسة بنت مُنية الجمال والمال والشرف والكفاءة والعراقة .. ووقفت السيدة الفاضلة بجانب زوجها رسول الله تشد من أزره وتعاونه ، وتهوِّن عليه الأمر وتثبته ، وبقيت معه طوال رحلة الجهاد حتى توفاها الله وهو عنها راضٍ ... جاءها رسول الله يوماً وقال « انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته ، فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب إلىّ ؟ » ، فسارعت إلى الإيمان به وهى تقول « أبشر ياابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لا يخزيك أبداً » ، وكانت خديجة أول سيدة عربية تؤمن بالدعوة وتدخل فى الإسلام عن عقيدة ورضى وثقة واطمئنان ، وكانت قادرة على مواجهة المواقف ، فكانت وزير صدق تسرِّى عنه كل همه ، وتقوى فيه كل عارض ضعف ، وتزيل من نفسه كل خشية ، وتهوِّن عليه أذى خصومه ، وظل رسول الله يذكر وفاءها طيلة حياته قائلا « آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس » ، وقد بلغت خديجة المنزلة الكبرى عند الله ورسوله ، حتى أن جبريل أتاها بالسلام من ربها من فوق سبع سموات ، وقد بشرها الله ببيت فى الجنة من قصب (لؤلؤ مجوف) ، لا صخب (ضوضاء) ولا نصب (تعب) ، وقال رسول الله « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » ، وأشار الراوى لهذا الحديث إلى السماء والأرض ، والحديث روى عن الإمام علىّ رضى الله عنه .

وكانت سمية أم عمار بن ياسر أول شهيدة فى الإسلام . . كانت تعيش مع زوجها وابنها عمار وأخيه عبيد الله فى كنف أبى حذيفة بن المغيرة أحد كبار بنى مخزوم ، فلما سمعت بالدين الجديد آمنت به هى وعائلتها ، وأثار ذلك مشاعر بنى مخزوم ، فأخذوهم إلى الرمضاء ، وتفننوا فى تعذيبهم بكل ما توحى به غلظتهم الجامحة ، وطال التعذيب ، وآل ياسر - وفى مقدمتهم سمية - صابرون إيماناً بوعد الله لهم « صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » ، وأعمى الغيظ أبا جهل فحمل حربته وطعن بها سمية وهو يقول متهكماً « إذا كنت قد آمنت بمحمد فما ذلك إلا لأنك عشقت جماله » ، وماتت سمية وكانت فى صبرها وجلدها وتحملها صورة ومثلا وقدوة ، وفاقت بعضاً ممن أسلموا ثم عادوا إلى دين قريش حين أضعفهم الحرمان وأذلهم التعذيب .

وعندما أشار الرسول على أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة « .. فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله فرجاً مما أنتم فيه » ، خرج المسلمون فى أول دفعة وكانوا ستة عشر ، وكانت رقية ابنة رسول الله واحدة من أربع نساء هاجرن مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهن ، فقد أبت هى وسودة بنت زمعة زوج السكران بن عمرو بن عبد شمس أن يتركا زوجيهما يهاجران وحدهما ، وقررتا أن تعيشا معهما فى المهجر تخففان عنهما ما احتملاه من الأذى وما لاقياه من التعذيب ، ولقد توفى زوج سودة وخلفها من غير ناصر ولا عائل ولا معين فتزوجها رسول الله .

وكان لأسماء بنت أبى بكر دور إيجابى كبير فى المعركة الفاصلة بين الخير والشر تفخر به المرأة العربية المسلمة . . فعندما كان الرسول ورفيق هجرته

أبو بكر في الغار ، كانت أسماء تتولى في شجاعة وجرأة إمدادهما بالطعام ، فكانت تشق نطاقها وتعلق الطعام في نصفه ولهذا سميت ذات النطاقين ... وكان لها موقف آخر يذكر بالفخر والتمجيد ، فعندما جاءها ابنها عبد الله ابن الزبير وقال لها « يا أماه ، خذلني الناس حتى أهلي ، ولم يبق معي إلا اليسير ومن لا دفع له أكثر من جهد ساعة من النهار ، وقد أعطاني القوم ما أردت ، فماذا ترين ؟ » ، وأبت المرأة الفاضلة ذات التاريخ والشأن التي واجهت قوى قريش أيام الهجرة ، أن تنصح ابنها بالتراجع عن موقف اتخذه ، أو رأى ارتآه ، فقالت له « يابني ، إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو له فامض عليه ، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن معك » ، ثم قالت له « يابني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، فامض على بصيرتك واستعن بالله » .

وكان الرسول خلال غزواته يصحب معه إحدى نسائه ، وكان إذا غزا أقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرجت معه .

صحبته أم سلمة في تحركه إلى مكة للحج وحضرت صلح الحديبية .

وخرج سهم عائشة عشية غزوة بني المصطلق .

وصحبته أم سلمة وميمونة في غزوة الفتح .

وكانت أم سلمة وزينب في صحبته خلال حرب الطائف .

وفي غزوة أحد كانت فاطمة بنت محمد مع الجيش ، وعلمت بما أصاب

أباها من جراح ، فأسرعت إليه تضمد جراحه ، وجاءت بقطعة من حصير مصنوع من سعف النخل وحرقتها وأخذت شرابها ووضعته على الجرح فتماسك وجفّ .

وكانت عائشة أم المؤمنين تحمل القرب فى أحد وتسقى الظمآن ، وتساعدها فى ذلك أم سليم زوج أبى طلحة زيد بن سهل وأم أنس بن مالك وخالة رسول الله من الرضاع ، وعن أنس رضى الله عنه قال « لما كان يوم أحد ، انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان ، أرى خدم سوقهما (خلاخل السيقان) تنقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغان فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم » وقالت امرأة مسلمة هى ربيعة بنت معوذ « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نسقى القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة » .

وطلبت أم ورقة بن نوفل من الرسول أن يأذن لها فى الخروج إلى بدر قالت « يارسول الله ، ائذن لى فى الغزو معك ، أمرض مرضاكم لعل الله يرزقنى الشهادة » ، فرفض الرسول رجاءها وقال « قرّى فى بيتك ، فإن الله يرزقك الشهادة » .

وفى غزوة الأحزاب رأت صفية بنت عبد المطلب يهودياً يمر بالحصن ، فقالت لحسان بن ثابت « إن هذا اليهودى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود ، ورسول الله وأصحابه قد شُغلوا عنا فانزل إليه فاقتله » ، فأجابها « يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله ما أنا

بصاحب هذا » ، فأخذت صفيــة عموداً ، ونزلت من الحصن وضربت به اليهودى فقتلته .

وروى مسلم عن أم عطية رضى الله عنها أنها قالت « غزوت مع النبى صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم فى رجالهم ، فأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى » .

ودور المرأة المسلمة فى تاريخ المعارك والحروب غير قاصر على عهــــد رسول الله ، بل كان له مكانه وآثاره وملامحه فى كافة العهود الإسلامية ، ومراجعة تاريخ الدولة الإسلامية منذ عهد رسول الله يؤكد هــذه الحقيقة ويدعمها بالأمثلة والروايات والقصص عن دور المرأة المسلمة العظيم فى تاريخنا الإسلامى العسكرى .

ولا يختلف اثنان فى أن المرأة المسلمة خرجت تسعى كما يسعى الرجل ، وتجاهد بدافع من شعور وإحساس وإيحاء عقــائدى ، فلم تجبن وهى السيدة الرقيقة ، ولم تتقاعد وهى السيدة الوديعة ، ولــكنها اندفعت بكل حواسها ومشاعرها ، بكل عقلها وفــكرها ، بكل قلبها ووجدانها ، تؤدى واجباً فرضه الله عليها ، بــكل الثقة والأمل والإيمــان ، والصــبر والمصــابرة ، والتحمل والجــلد .

وروى أن رسول الله قدّر لأمية بنت قيس الغفارية دورها فى غزوة خيبر ، فأعطاها قلادة ظلت تزيّن بها صدرها طوال حياتها ، فلما ماتت دُفنت معها عملا بوصيتها .

ولم تــكن المرأة بطبيعة الحال تحمل السلاح وتقاتل به لأن طبيعتها تخالف طبيعة الرجل ، وإمكانياتها فى هذا المجال محــدودة ، ولــكنها كانت تقوم

بالأعمال التى تناسبها كأعمال الإعاشة ، وهى أعمال هامة ذات قيمة بالنسبة للمقاتلين ، فالجيش المقاتل يحتاج دائماً إلى سيل لاينقطع من الغذاء والماء والسلاح ، ولهذا كانت المرأة تنتقل بين الصفوف ، تقدم الماء للعطشى ، والطعام للجائع ، والسلاح لمن فقد سلاحه .

وكانت أيضاً بحكم طبيعتها التى تتميز بالحنان والرقّة ، تقوم بخدمة الجرحى من المسلمين ، فتعتنى بهم وتضمد جراحهم وتسهر على راحتهم وتهون عليهم آلامهم ، حتى تشفى الجراح ويعود الجريح إلى المعركة من جديد سليما صحيحاً قادراً على مواصلة الكفاح .

وكانت أيضاً تعمل على رفع روح المقاتلين المعنوية ، وتثير فيهم الحماس للقتال ، وتدعوهم إلى البذل والعطاء ، وتشجعهم على مواجهة العدو .

ومن خلال هذه الأعمال الجليلة تكون المرأة المسلمة قد أدّت فى الميدان الخدمات التى تؤديها فى حروب اليوم إدارات الإمداد والتموين والخدمات الطبية والتوجية المعنوى وجماعات إخلاء الجرحى .

ولو رجعنا إلى أحداث المدرسة العسكرية الإسلامية ومعاركها ، لثبت أن دور المرأة المسلمة لم يكن قاصراً على هذه الأعمال وحدها ، فالمرأة كانت حين يشتد القتال ويحمى وطيسه تأخذها الحماسة وتلتهب مشاعرها ، فتحمل السيف وتحارب مع المحاربين ، كما كانت تفعل صفية بنت عبد المطلب وأم نسيبة بنت كعب التى أثارتها أحداث غزوة أحد ، فتركت الماء الذى كانت تحمله وحملت سيفاً وحاربت حتى أصيبت ، ووصفت ما حدث فى قولها « خرجت ليلة أحد لأنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء أسقى به

الجرحى ، فانتهيت إلى رسول الله وهو فى أصحابه والريح مع المسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ، فقمت أباشر القتال دونه ، وأذبّ عنه بالسيف ، وأرمى بالنبل عن القوس ، حتى خلصت الجراحة إلىّ » .

ولن ينسى التاريخ العسكرى دور أروى بنت الحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور ، التى قادت كتيبة من النساء ، وقالت لهن « لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم (أى عوناً لهم) » ثم عقدت لواء من خمارها ، واتخذت باقى النساء من خمورهن رايات ، واندفعت الكتيبة إلى حيث كان المسلمون فى ميسان يواجهون عدوهم ، فلما رأى العدو الرايات مقبلات من بعيد ، ظنّ أن مدداً للمسلمين فى الطريق إلى المعركة ، ففرّ ، وتبعه المسلمون وطاردوه وقتلوا منه عدداً كبيراً ، وكان هذا العمل من النساء المسلمات غاية فى الجرأة ونهاية فى الإقدام ، كما سجّل التاريخ لأم حكيم بنت الحارث أنها خاضت معركة بين الروم والمسلمين وهى عروس لم تفارقها رائحة العرس ، وكان زوجها هو الآخر أحد جنود الإسلام فى المعركة ، وسقط شهيداً أمامها ، دون أن تبكى وتنتحب ، فشدّت عليها ثيابها وانتزعت عمود الفسطاط الذى شهد ليلة زفافها ، وصرعت به سبعة من الأعداء عند قنطرة لا تزال تعرف حتى يومنا باسم قنطرة أم حكيم .

ولقد أشار الكاتب المؤرخ إدوارد جيبون فى كتابه « تاريخ الإمبراطورية الشرقية » ، بدور المرأة المسلمة وتحدث عن بطولاتها وشجاعتها وخاصة فى حصار دمشق ، وقال « إن هؤلاء النساء التى تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمى بالنبل ، اللاتى إذا وقعت إحداهن فى الأسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أى إنسان يريد بها سوء » .

... كما أشاد كتاب غيره كثيرون . بدور المرأة المسلمة وخاصة فى اليرموك

والقادسية ومختلف معارك الإسلام ... وكان للمرأة المسلمة دور فى الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، لايقل عن الدور الذى كان لها فى المعارك داخل الجزيرة .

وأكثر النساء شهرة هى سلمى زوج المثنى بن حارثة الشيبانى ، فقد رافقته فى جميع المعارك التى خاضها، وبقيت بجانبه حتى وفاته، ثم حملت وصاياه إلى سعد بن أبى وقاص الذى تولى قيادة الجيش من بعده ، وكانت لهذه الوصايا أثر كبير فى تقييم الموقف العربى فى أرض العراق ، وإعداد خطط المواجهة .. ولقد خطب سعد سلمى وتزوجها ، واستمرت تؤدى دورها بجانبه حتى انتهى القتال بين العرب والفرس . . . بينما كانت معركة القادسية تدور رحاها ، كان سعد يقود المعركة من مكان مرتفع يشرف عليها ، لأنه كان مريضاً ، ولم تسمح له حالته بالاشتراك الفعلى فى المعركة ، واكتفى بإدارتها وتوجيهها وهو خارج المعمعة ، وكانت سلمى إلى جانبه ترى ما يرى وتشاهد المعركة عن قرب ، فكانت تعجب حيناً بأبطال العرب ، وتفزع حيناً مما تصيب به الفيلة رجال بجيلة وأسد ، وكانت تذكر ما كان لزوجها المثنى من مواقف حين يحتد القتال ويشتد النزال ، فلما رأت الفرس يشتدون على أسد ويقتلون منهم صاحت « وامثنياه ! ولا مثنى للخيل اليوم » ، وآلم قولها سعد وأغضبته صيحتها ، فلطم خدها وهو يقول « أين المثنى من هذه الكتيبة التى تدور عليها الرحى ؟ » ، ولم تطأطىء اللطمة من رأس المرأة الأنوف ، فحدقت فى سعد وقالت « أغيرة وجبناً » ، فخجل سعد لما صنع ، وقال لها « والله لا يعذرنى اليوم أحد إن لم تعذرينى وأنت ترين ما بى » ... وكان لسلمى موقف آخر يذكر لها بالفخر والتقدير . . . كان سعد قد حبس أبا محجن الثقفى وقيّده ، وهو من فرسان العرب المشهود لهم ، فلما دارت معركة القادسة أراد أن يشترك فيها ، ولكن سعدا منعه ، فلما اشتد

القتال وتردد تكبير الناس في أذنه ، صمد يجر أغلاله حتى أتى سعدا يستعفيه ، ولكنه زجره ورده ، فذهب إلى سلمى يطلب منها أن تحل قيده وأن تعيره البلقاء فرس سعد ، وأقسم لها أن يرجع إذا سلم فتضع رجله في القيد ، فرفضت فرجع كئيباً حزيناً إلى مكانه ، وأخذ ينشد أبياتاً من الشعر ، فلما سمعتها رقت له ...

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيا
وإذا قمت عنانى الحديد وأغلقت مصاريع دونى قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركونى واحداً لا أخا ليا
هلم سلاحى لا أبالك إننى أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
ولله عهد لا أخيس بعهده لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

وقبلت سلمى أن تعطيه فرصة يرجوها ، ولم تشأ أن تحبس فارساً مغواراً عن معركة يأمل المسلمون فيها النصر على عدو يفوقهم ويحارب فوق أرضه ، فقالت له « لقد استخرت الله ورضيت بعهدك » ، وأطلقته ، وأسلمته البلقاء فركبها ، وانطلق بين الصفوف يكبّر ويركض بالفرس إلى الميمنة حيناً وإلى الميسرة حيناً آخر ، ويقصف الأعداء بسيفه قصفاً منكراً ، وتطلّع سعد إليه من مكانه وقد تولته الحيرة والدهشة ، وقال « والله لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء » ، وانتهت المعركة وقد أبلى فيها ، فرجع إلى مكانه ، ووضع رجليه فى القيد ، وسلّم الفرس لسلمى ، وتحامل سعد على نفسه ونزل إلى بيته ، فوجد فرسه يعرق ، فسأل سلمى فروت له ما حدث ، فعفا عن أبى محجن وأطلقه وقال له « إذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله » .

كانت المرأة المسلمة خارج الجزيرة ذات شجاعة وقدرة على مواجهة أى موقف تتعرض له ، فقد حدث أن أرسل المثنى بن حارثة بعد انتصاره فى البويب بنصيب النساء من الغنيمة ، وكن يقمن فى القوادس على تخوم شبه الجزيرة بالحيرة ، وكان دليل من حمل نصيبهن عمرو بن عبد المسيح بن بقيلة ، فلما رأت النسوة إقبال الخيل حسبنها غارة عليهن ، فقمن ومعهن الصبيان بالحجارة والعمد ، وواجهن الخيل ، فانشرح صدر عمرو وقال مبتهجاً « هكذا ينبغى لنساء هذا الجيش » .

وقبل أن ننهى حديثنا عن المرأة ودورها فى المعركة ، نرى لزاما علينا أن نطرح بكل فخر وإعجاب ، ماسجلته المدرسة العسكرية الإسلامية للمجاهدة الكبيرة والمكافحة البطلة ذات المجد والتاريخ أم نسيبة بنت كعب ، وماسجلته أيضاً للمقاتلة الشريفة والمناضلة العظيمة خولة بنت الأزور .

وأم نسيبة

هى فى جهادها مثل وقدوة للمرأة المكافحة ، لا فى عصرها وحده ، ولكن فى كل العصور ، وليس فى وطنها فقط ، بل فى جميع بلدان العالم .

هى امرأة من أهل يثرب ، ومن بنى النجار على وجه التحديد . . . زوج لزيد بن عاصم ، وأم لولدين هما عبد الله وحبيب . . . مات عنها زوجها فتزوجت بغزية بن عمرو . . تفتح قلبها للإسلام حين سمعت به وفهمت أصوله ، فأسلمت مع من أسلم من بنى النجار ، وأسلم معها أهل بيتها ، وخرجت معهم إلى مكة تبايع رسول الله ، وشهدت العقبة وبيعة الرضوان .

وعندما هاجر الرسول إلى المدينة كانت فى استقباله ، وقدمت ابنها

عبد الله ليسكون جندياً من جنود الإسلام ، نخرج مع الخارجين إلى بدر وأبلى فيها بلاء حسناً .

وفى أحد خرجت هى بنفسها ومعها زوجها غزية وابنها عبدالله ، وكانت تقوم بالسقاية ، فسمعت ابن قميئة يقول « دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا » ، فتركت سقاءها وهجمت عليه فضربها بسيفه على عاتقها وقالت فى ذلك « اعترضت لأمنعه عنه صلى الله عليه وسلم ، أنا ومصعب بن عمير وأناس ، فضربنى هذه الضربة ، ولكن ضربته على ذلك ثلاث ضربات ، ولكن عد والله عليه درعان فلم تؤثر فيه ضرباتى » ، وقال رسول الله « ما التفت يميناً ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دونى » .

هاجمها نفر من قريش أثناء القتال ، ولمحها رسول الله ولم يكن معها ترس تحمى به نفسها ، فأمر رجلا معه ترس أن يقدمه لها وقال « إلق ترسك إلى من يقاتل » ، فأخذت أم نسيبة الترس ، وكانت تترس به رسول الله دون نفسها ، ولمحها أحد فرسان قريش فهاجمها وضربها ، فلم تصب لأنها تترست ، ثم هاجمته وهو يهم بالفرار ، فضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره ، ولمحها الرسول فصاح يدعو ابنها لمعاونتها « يا ابن أم عمارة . . أمك . . أمك » ، ولحق بها ابنها وتعاونا معاً فقتلا الفارس .

وجُرح ابنها خلال القتال وأشار عليه الرسول « أعصب جرحك » ، فأقبلت الأم ومعها عصائب تباشر مهامها الأصلية ، فربطت جرحه ، وأمرته على الفور أن يحمل سلاحه وأن يباشر القتال « انهض فضارب القوم » ، وسمعها رسول الله فنظر إليها فى إعجاب وقال « من يطيق ماتطيقين يا أم

عمارة » ، ثم أشار عليه السلام إلى رجل من المشركين وقال لها « هذا ضارب ابنك » ، فاعترضت طريق الرجل ، وضربت ساقه فوقع ، فانقضت عليه وقتلته ، فقال لها الرسول « الحمد لله الذى أظفرك وأقرّ عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينيك » .

روى صخرة بن سعيد المازنى أن أم عمارة كانت تقاتل أشد قتال وهى حاجزة ثوبها على وسطها ، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً ، وأن الرسول قال لابنها « مقام أمك خير من مقام فلان وفلان» ، فلما سمعته صاحت والدم ينفجر منها تطلب منه أن يدعو لها بالشهادة لتدخل الجنة . . « ادع الله أن نرافقك فى الجنة » . فقال الرسول « اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة » ، فهتفت فور سماعها دعاء الرسول « ما أبالى ما أصابنى من الدنيا » .

بعد عودة المسلمين من أحد أذّن مؤذن رسول الله بطلب العدو ونادى « لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس » . (يقصد قتال الأمس فى أحد) ، وأرادت نسيبة أن تخرج مع الخارجين إلى حمراء الأسد ، ولكن جراحها غلبتها فمنعتها ، وتقول الروايات إنها شدّت عليها ثيابها فما استطاعت أن توقف الدم ، فلما تعذر عليها الخروج ، بعثت بابنها عبد الله ، وأوصته بالكفاح المرير .

وبعث رسول الله بابنها حبيب إلى مسيلمة الكذاب ، فلم يرع الأخير حرمة الرسل ، وقبض عليه وأوثقه ، ثم سأله « أتشهد أنى رسول الله » ، فقال « لا أسمع » ، فجعل مسيلمة يقطعه عضواً عضواً حتى مات ، فنذرت أمه أن ترى مقتل مسيلمة .

وبعد أن جهز أبو بكر جيشه إلى اليمامة خرجت نسيبة مع الخارجين ، وكانت فى الستين من عمرها ، أملا فى أن تفى بنذرها وفى الاستشهاد ، وسمح لها أبو بكر بالخروج على شرط أن تبقى محجبة فى هودجها ، وخرج معها ابنها عبد الله .

ولما أشتد القتال وانهزم المسلمون فى أول الأمر وفر كثيرون منهم ، لم تستطع أن تبقى بعيدة عن المعركة ، فاستلت سيفاً وتقدمت مع الجموع التى زحفت مع خالد ، وأدرك جند مسيلمة الجهد الذى تبذله هذه المقاتلة الباسلة ، فهاجمها نفر منهم ، وأصابوها اثنى عشر إصابة ، وقطعوا يدها ، فلم تبال ، وظلت على إقدامها حتى وصلت مع كوكبة من الأنصار ـ كان أحد جنودها ابنها عبدالله ـ إلى حيث مسيلمة ، وهناك شهدت مصرعه ، فقد رآه وحشى قاتل حمزة — وكان قد أسلم بعد أحد وحضر اليمامة — فهز حربته حتى إذا رضى عنها دفعها عليه فأصابته . .

وعادت المرأة بعد ذلك إلى بيتها حيث وافاها الأجل ، وحانت لحظة الوداع التى كانت تسعى إليها فى الميدان . .

وأسلمت المرأة المكافحة الروح .

هذه هى قصة امرأة عربية مسلمة شاركت فى الحرب وأسهمت فى الكفاح فى سبيل الله والدين والحياة ، وأكدت صدق مشاعر وأحاسيس المرأة الإسلامية وصدق إيمانها وعقيدتها وصدق بلائها .

رحم الله أم نسيبة وغفر لها .

وخولة بنت الأزور

كانت صورة ومثلا لامرأة مسلمة جاذبت الرجال حبل البطولة ، واصطلت نيران الحروب ، فأمالت ميزانها ، وأثارت نيرانها ، وعقدت دخانها ، وملكت عنانها .

وخولة هى أخت ضرار بن الأزور ، نشأت فى بيت قامت دعائمه على القوة والمضاء فى الجاهلية ، ثم فى الاسلام . . قُتل أبوها دفاعاً عن رسول الله وبين يديه ، وقتل أخوها ضرار فى حروب اليمامة .

بدأ دورها فى أجنادين . . . لاحظ خالد أن فارساً لا يبين منه إلا الحدق ، يقذف بنفسه ولا يلوى على ماوراءه ، كما جاء فى رواية الواقدى فى فتوح الشام ، فتساءل ومن معه « من هذا الفارس ؟ وآيم الله إنه لفارس » ، وتبعه ورجاله حتى أدرك الفارس جند الروم ، فحمل عليهم وأمعن بين صفوفهم ، وزعزع كتائبهم ، وحطم مواكبهم ، ولم تكن غير جولة جائل حتى قتل رجالا كثيراً ، وشاهد المسلمون الآخرون القتال ، وظنوا أن هذا الفارس هو خالد ، وخافوا عليه ، فلما تقدم منهم خالد سأله رافع بن عميرة « من الفارس الذى تقدم أمامك ! ! فقد بذل نفسه ومهجته ؟ » ، وأجابه خالد « والله لأنا أشد إنكاراً وإعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله » ، وبينما القوم فى حديثهم خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب ، والخيل تعدو فى أثره ، وكلما أقترب منه أحد مال إليه وضربه برمحه فى صدره ، حتى قدم على المسلمين فأحاطوا به وناشدوه أن يكشف عن شخصيته وأن يصرح باسمه ، وأن يرفع نقابه ، ولكنه أعرض عنهم ، فطلب منه خالد

أن يزيح الستار عن حقيقته ، وألح فى طلبه ، فقال الفارس « أيها الأمير ، أنا لم أعرض عنك إلا حياء منك ، لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الخدور ، وإنما حملنى على ذلك أنى محرّقة الكبد زائدة الكمد » ، فسأل خالد « من أنت ؟ » ، فجاءه الرد الذى كان مفاجأة « أنا خولة بنت الأزور ، كنت مع بنات قومى ، فأتانى آت بأن أخى أسير ، فركبت وفعلت ما رأيت » .

وموقف آخر لخولة .

فقد وقعت مع بعض النسوة فى الأسر فى موقعه صحوراً ، ولم يكن معهن سلاح ، فأخذت تثير نخوة زميلاتها ، وتضرم نار الحمية فى قلوبهن ، وقالت لهن « خذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ، واحملن على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم » ، فأجابتها امرأة تدعى عفراء بنت عفار « والله مادعوت إلى ماهو أحب إلينا مما ذكرت . . »

وتتابعت النساء خلفها ، كل تحمل على عاتقها عموداً فقالت لهن « لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكن كالحلقة الدائرة ، ولا تتفرقن فتملكن ، ويقع بكن التشتيت ، وحطمن رماح القوم وكسرن سيوفهم » .

وكانت هذه الكلمات هى بمثابة أمر عمليات ، أصدرته عقلية ذات حنكة عسكرية ، وقدرة قتالية فائقة ، وفهم عميق لكيفية التعامل مع العدو ، وإدراك واعٍ لأسلوب القتال ومنهاجه ، فهى قد طلبت منهن أن يكن يداً واحدة متماسكة متضامنة ، فإن ذلك يضعف العدو ويكون قوة يعجز أمامها ، كما أنها طلبت أن يهاجمن دفعة واحدة فلا تكون هناك فرصة أمام العدو

ليفرّق بينهن ، ثم إنها طلبت منهن أن يوجهن كل قوتهن ضد سلاح العدو فإذا حرمته منه أسقط فى يده ، وأصبح عاجزاً عن المقاومة . . ملخص أمر العمليات أن تكون قوة الهجوم متماسكة ، وأن يكون هدف الهجوم تحطيم سلاح العدو .

وتم الهجوم ، وقاتلن حتى تخلصن جميعاً من قبضة الروم ، وأنشدت خولة بعد نجاحها ...

نحن بنات تبـــع وحمير   وضربنا فى القوم ليس ينكر
لأننا فى الحرب نار تسعر   اليوم تسقون العذاب الأكبر

وتوفيت خولة فى خلافة عثمان بعد أن شهدت معارك كثيرة ، ولم تجعل للرجال فيها خلة يستأثرون بها دونها ، ولم تترك سبيلا من سبل العظائم إلا وكانت سابقة إليها ، وتمثلت فيها — فى كل وقائعها — مقومات المقاتل ... الإيمان والشجاعة والإقدام .

عاشت خولة بطلة فما أكرمها وأعظمها .

في الآية الكريمة ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّة ومِن رِباط الخَيْل ترهبون بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكم وآخَرِين من دُونهم لاتَعْلَمُونَهم الله يَعْلَمهم وماتُنفِقُوا مِنْ شَيْء فِي سَبِيلِ الله يُوَفَّ إليكم وأَنْتُم لاتُظْلَمون ﴾ (الأنفال ٦٠) ، أمر الله تبارك وتعالى بالإعداد للمعركة والاستعداد لخوضها ، ودعا المسلمين إلى أن يكونوا مستعدين للقتال وألا يدخروا وسعاً في الاستعداد لمواجهة أعدائهم ، وأن يجهزوا أنفسهم بكل أنواع القوة ، ولكن في حدود استطاعتهم وإمكانياتهم ، لأن النصر في أية معركة لايتحقق إلا بالاستعداد الكامل التام . . أفراداً . . وسلاحاً . . وتنظيماً . . وخطة . . وقيادة .

وهذا الأمر الإلهي يحدد أمرين هامين هما في حقيقة الأمر ركيزتين من ركائز المعركة وهما :

* إعداد القوة

** الإنفاق في سبيل هذا الإعداد .

وإعداد القوة

يعني إعداد الأفراد المقاتلين جسما وحساً ، وتأهيلهم لدخول المعركة تأهيلا نفسياً وصحياً ، لكي يستطيعوا تحمل أهوالها ومواجهة شدائدها ،

والصبر على مرارتها ، فالحرب دون شك شر لهـا أهوالها ومرارتهـا وويلاتها ، مصداقاً لقول الشاعر العربى زهير بن أبى سلمى ...

وما الحرب إلا ماعلمتم وذقتم وماهو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

هذه الصورة القاسية البشعة لميدان الحروب تتطلب مقاتلا من نوع خاص، يعيش أحداثها وحوادثها بأعصاب قوية وقلب مؤمن وروح متحفز وعقيدة راسخة ، وهذا كله كان موضع اهتمام المدرسة العسكرية الإسلامية كما أوضحنا فى الصفحات السابقة من هذا المبحث .

وإعداد القوة يعنى أيضاً إعداد السـلاح الذى يقاتل به المحاربون ويواجهون به أعداءهم ، ولقد بالغت المدرسة العسكرية الإسلامية فى الاهتمام بهذا الجانب من القوة . . أى بالسلاح... وأعطته كل عنايتها ، وبذلت كل جهد — وقدر استطاعتها فى ضوء الظروف التى مر بها المسلمون — فى سبيل إعداده وتوفيره كماً وكيفاً ، أى بالقدر الذى تتطلبـه احتياجات المعركة ، وبالجودة الواجبة .

وكان السلاح فى بداية العهد الإسلامى هو ذات السلاح الذى تعود العربى فى الجزيرة عليه ، وهو السيف والرمح والقوس ، ولـكن تناول هذا السلاح التطوير فى الصناعة والإستخدام ، وأدخل عليه نوع أو أكثر مثل المنجنيق والدبابات والسلاح البحرى . . كان المسلمون لايتعاملون مع البحار،

وكانوا يحرصون على الابتعاد عن مناطق الميـاه قدر استطاعتهم ، لأنهم كانوا يهابونها ويخشونها ، إلا أنهم فى عهد عثمان ثم فى ظل الخلافة الأموية اضطروا إلى ركوب البحر ، ومن هنا بدأ اهتمامهم بشئون الحرب البحرية ، وظهرت صناعة السفن الحربية ، وأنشئت دور الصناعة ، وتطلب التوسع الـكبير فى استخدام البحر وجود قواعد بحرية ، فأقيمت عدة قواعد فى قبرص ورودس وجزر الأرخبيل[١] .

ولم يقف السلاح المستخدم فى القتال عند نوعية محددة ، فقد شمله التحسين وأدخلت أسلحة جديدة كالدبابة والـكبش ، وهى أسلحة تستخـدم فى دك الحصون وهدم الأسوار ، مع ضمان الحماية اللازمة للمهاجمين ، وهى تشبه إلى حد كبير فى الشكل والمهمة الواجب التكتيكى للدبابات التى تستخدم فى حروب اليوم ، فهى تحمى طاقمها من نيران العدو ، وتتقدم به فى أرض العدو تدمر الدشم والمواقع ، وتقذف من بعيد مناطق التجمع والحشد .

وكان السلاح الراكب هو الخيل ، وكانت الخيل هى السلاح الرئيسى فى المعركة الإسلامية امتداداً لدوره فى الجاهلية فى القتال الذى كان يقع بين القبائل ، ولهـذا كان المسلمون يستخدمون الخيل ، وكذلك كان أعداؤهم يستخدمونه ، إلا أن المسلمين فاقوا أعداءهم فى ركوب الخيل وفى أسلوب استخدامها فى القتال بدرجة عالية من الـكفاءة ، قال القعقاع بن عمرو « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أعددت للجهاد ؟ ، قلت : طاعة الله ورسوله والخيل ، قال : تلك الغاية » .

---

(١) الحديث بالتفصيل عن الأسطول البحرى ص ٤٢٠ .

وكانت الدروع هى السلاح الوقائى الذى استخدمه الجنـد المسلمون لحماية أنفسهم من ضربات السيوف ووخزات الرماح .

وهكذا كانت عدّة الجندى المسلم فى المعركة سيف عَضْب ورمح لَدْن ودرع سابغة وبيضة تلمع ، ولقد ذكرها الشاعر العربى فى هذه الأبيات ...

وأصبحتُ أعددت للنـــــــائبات عرصاً بريئاً عضباً[1] صقيلا[2]
ووقع لسانٍ كحـد السِّنان ورمحاً طويل القنـــاةِ عَسُولا
وسابغة من جيـاد الدروع تسمع للسيف فيهـا صليـلا
كمتن الغدير زهته الدَّبور يُجرُّ المدجَّجُ منهـا الفُضولا

وأضاف شاعر عربى آخر إلى هـذه العدّة القوس والسهام ليرمى بها عدوه فقال :

بمطَّرِّد لدْن صِحاح كعوبه وذى رونق عَضْب يَقُد القَوانسا
وبيضاء من نسج ابن داود نثْرةٍ تخيرتُها يوم اللقاء الملابِسا
وحِرْميةٍ مَنسوبةٍ وسَلاجمٍ خِفافٍ ترى عن حدها الشُّمَّ قالِسا

فهذا الشاعر يحدد فى أبياته عدته فهى رمح مستقيم لدن يهتز فى يده صحاح كعوبه ، وسيف له رونق قاطع يقد أعالى الخوذات ، ودرع بيضاء قديمة من نسج سليمان بن داود ترد السهام كانت الملبس يوم اللقاء ، وقوس متينـة معروفة الأصل منسوبة ، وسهام طوال خفاف تقذف الشُّمّ .

---

(١) العضب = السيف القاطع (٢) صقيلا = مصقولا لامعاً .

واتفق أكثر من شاعر عربى فى تحديد هذه الأسلحة فى أشعارهم ، ولم يزيدوا عليها ... وهاهو ذا شاعر آخر يقول ...

يومَ لامال للمحارب فى الحـــرب سوى نصر أسمر عسَّالِ (١)
ولجامٍ فى رأس أجرد (٢) كالجذع طُوالٍ وأبيض قَصَّالِ (٣)
ودِلاص (٤) كالنِّهْىِ (٥) ذات فضول ذاك فى حلبة الحوادثِ مالى

كان السيف هو السلاح الأول فى المعركة

كان سلاح الهجوم والقوة الضاربة فى يد الجند المسلمين ، يهجمون به على العدو ويوجهون إليه به طعنات واثقة قاتلة ، ويطعنون به الخيل التى تحمل الأعداء ، واستخدمه العرب فى قتل الفيلة التى استخدمها الفرس فى معاركهم ضد المسلمين .

كان السيف أشهر الأسلحة وأحسن آلاتهم وأكثرها استخداماً ، وأعظمها ذكراً وإسماً وصفة ، وأقربها إلى نفوسهم . . كانوا يعشقون السيف ويحبونه ، حتى أنهم كانوا يطلقون عليه أسماء متعددة (قاربت الأسماء مائة اسم) ، وكانت الأسماء صفات ، والصفات تكثر للشىء حين تزيد العناية به والتغنى بمحامده وآثاره . . وكان العرب فى خصوماتهم يحتكمون إلى السيف .

---

(١) رمح مرن لاينقصف
(٢) قصير الشعر (٣) قاطع
(٤) درع ملساء (٥) الجدول

ولـكن حكم السيف فيكم مسلط   فترضى إذا ما أصبح السيف راضيا

وبالغ العرب فى امتداح السيف فوصفه النابغة مثلا بالحـدّة وقوة المضاء فى قوله ...

فهم يتساقون المنية بينهم   بأيديهم بيض رقاق المضارب
يطير فُضاضاً[1] بينها كل قَوْنس   ويتبعها منهم فراش الحواجب
تقد السّلوق[2] المضاعف نسجُه   وتوقد فى الصُّفّاح[3] نارَ الحباحب[4]

والنابغة يعنى أن السيف حاد ذات ضربة قوية تطيح بالبيضة المصنوعة من الفولاذ ، ثم تطيح بعظام جمجمة العدو ، وتقطع الدروع ، وتنفذ إلى بدن العدو ، ثم تصل إلى الحجارة فوق الأرض فتقدح منها الشرر .

وكان السيف يصنع محلياً وكان يستورد أيضاً .

وكان أول من صنعه رجل من العرب يسمى الهالك بن عمرو بن أسد ابن خزيمة ، وكان يطلق على صانع السيف لقب الصقيل ، وعلى كل حداد لقب هالـكى ...

ولم ندر إن جضنا من الموت جيضة   كم العمر باقٍ والمدى متطاول
وإذا ما ابتدرنا مأزقا فرجت لنا   بأيماننا بيض جلتها الصياقل

وكان السيف يؤثر على سواه من أسلحة الحرب ويفضل عليها ، قال ضرار بن الأزور

---

(١) شوقا
(٢) دوع نسبة إلى بلدة سلوق بالشام
(٣) الحجارة العريضة
(٤) ذبابه له شعاع بالليل

ولو سئلت عنا جَنُوب لخبرت　　عشيةَ سالتْ عقرباء[1] بها الدم
عشية لاتغنى الرماح مكانها　　ولا النبل إلا المشرفى[2] المصمّم

وكانت أشرف السيوف العربية اليمنية والسليمانية والخراسانية والمشرفية والهندية والسُريْجية ، ومن هذه الأسماء الكثيرة ندرك أن العرب كانوا يبحثون عن السيف الجيد الصفة فيستجلبونه من أى بلد يشتهر بصناعته ، فقالوا مثلا فى السيوف الهندية ...

أكرّ على الفوارس يوم حرب　　ولا أخشى المهنّـــدة الرقاقا
وتطربنى سيوف الهند حتى　　أهيم إلى مضاربها اشتياقا[3]

وقالوا فى السيوف الرومية (نسبة إلى الروم) ...

نراوح بالصخر الأصم رءوسهم　　إذا القَلَعُ[4] الرومىُّ عنها تثلما

وكانت السيوف المشرفية أجود سيوفهم ، وقيل إنها كانت تُصنع فى المشارف[5] ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، وقيل إنها نسبت إلى مشرف وهو رجل من ثقيف كان يصنعها ...

نجيد الطعن بالسُّمْر العوالى　　ونضرب بالسيوف المشرفية

ومن أجود السيوف أيضاً الهندية ...

كنت أسطو حينما جدَّت العِدا　　غداةَ اللقا نحوى بكل يمانى
بأسمر من رماح الخط لَدْنٍ　　وأبيض صارم ذكر يمانِ

(١) موقع فى أرض اليمن
(٢) السيف نسبة إلى مشارف الشام
(٣) الأبيات لعنترة
(٤) القلع = السيف
(٥) واحدها مشرف .

وبلغ من اعتدا العرب بالسيف أن حفظوا تاريخ المشهور من سيوفهم مثال ذلك صمصامة سيف عمرو بن معدى كرب .

وكان للسيف العربى دور كبير فى معارك المسلمين ، وكان المسلمون يستعملونه بكفاءة نادرة وقدرة عالية .. كانوا يجيدون المبارزة بالسيف ركبانا ومشاة وقعوداً وجثياً على الركب .

قال علىّ بن أبى طالب حين خرج يوم حنين لمبارزة مرحب :

أنا الذى سمّتنى أمى حيدره

كليث غابات شديد المنظره

أكيلكم بالسيف كيل السندره

وكان للسيوف المسلمة دور هام وخطير فى غزوة الفتح ، وصفه حماس ابن خالد من قبيلة بكر ، وكان ضمن القوة التى اعترضت طريق خالد ابن الوليد فقال ...

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة

وأبو يزيد قائم كالمؤتمة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطع كل ساعد وجمجمة ضربا فلا يسمع إلا غمغمة

وبلغ من اهتمام المسلمين بالسيف ، أن أطلق رسول الله على خالد بن الوليد اسم « سيف الله المسلول » . . روى الترمذى عن أبى هريرة قال « نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا فجعل الناس يمرون ، فيقول رسول الله

صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ ، فأقول: فلان ، حتى مرّ خالد بن الوليد فقال : من هذا ؟ ، فقلت خالد بن الوليد ، فقال: نعم عبد الله، هذا سيف من سيوف الله » .

وجاء فى الإصابة « لما عقد أبو بكر لخالد على قتال أهل الردّة قال: إنما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد ابن الوليد سيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار » . . وسأل جرجة قائد الروم خالد بن الوليد « ياخالد أصدقنى القول ولا تكذبنى، فإن الحر لايكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لايخادع المسترسل . . هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلا هزمتهم ؟ » ، فأجابه خالد « إن الله عز وجل بعث فينا نبياً ، فدعانا فنفرنا عنه ، ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال: أنت سيف من سيوف الله سلّه على المشركين ، ودعا لى بالنصر ، فسميت سيف الله ، وأنا من أشد المسلمين على المشركين » .

وفى أحد أمسك رسول الله بسيف وقال « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟» وكان مكتوباً على إحدى صفحتيه « نصر من الله وفتح قريب » ، وعلى الصفحة الأخرى...

فى الجبن عار وفى الإقبال مكرمة والمرء بالجبن لاينجو من القدر

فقام رجال فأمسكه عنهم منهم علىّ ، فقال له الرسول « اجلس » ، وعمر فأعرض عنه الرسول ، والزبير فمنعه ، وقام سماك بن أوس بن خرشة الأنصارى

الذى اشتهر بأبى دجانة وقال « وما حقه يا رسول الله ؟ » ، قال « تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى » ، قال : « أنا آخذه بحقه » ، فدفعه إليه رسول الله بعد أن قال له « لعلك إن أعطيته تقاتل فى الكبول (الصفوف الخلفية) » ، فقال « لا يارسول الله » ، وعصب أبو دجانة رأسه بعصابة حمراء يعلم بها نفسه حتى يقصده من يريده من العدو ، وقال الأنصار « لقد أخرج عصابة الموت علّم بها نفسه » ، وأخذ السيف وجعل يتبختر بين الصفين وهو يقول ...

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكبول أضرب بسيف الله والرسول

وعندما رآه الرسول وهو يمشى مشية المتكبر قال « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن » ، وكان أبو دجانة لايلقى أحداً إلا قتله بالسيف وكان إذا كلّ السيف يشحذه (أى يحده بالحجارة) ، ولم يزل يضرب به العدو حتى انحنى وصار كأنه منجل . . وهمّ أبودجانة بضرب أحد المقاتلين من قريش ، ولكنه ردّ السيف حين أدرك أن العدو هو هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وقال « رأيت إنساناً يحمس الناس يوقد الحرب ويثيرها ، فعمدت إليه ، فلما حملت عليه بالسيف ولول ، فعلمت أنه امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة » .

ووصف أمية بن خلف أفعال حمزة خلال أحد فقال « كان يهد بسيفه الناس . . »

وأشهر السيوف المسلمة سيف ذو الفقار الذى كان لعلىّ بن أبى طالب ،

وقيل إن آل أبي طالب توارثوه ، حتى أصبح مع المهدى العباسى ، ثم الهادى ، ثم الرشيد ، وكان به ثمانى عشرة فقرة .. وسيف الصمصامة الذى كان لعمرو ابن معدى كرب ، وقيل إن عمرواً أهداه إلى خالد بن سعيد حين سيّره رسول الله إلى اليمن ، فمرّ برهط عمرو فأغار عليهم وسبى امرأة عمرو ، فعرض عليه أن يمنّ عليهم ويسلموا ، فقبل ، فوهبه السيف وقال :

خليلى لم أهَبْه من قِلاهُ ولكن المواهب للكرام

خليلى لم أخُنه ولم يَخُنى كذلك من خِلالى أو نِدامى

حَبَوْتُ به كريماً من قريش فَسُرَّ به وصين عن اللئام

واستشهد خالد فى معركة مرج الصُّفَّر وفى عنقه الصمصامة .

ولقد أدى السيف الإسلامى دوراً كبيراً فى الفتوحات الإسلامية فى جميع العهود ، وكان الجند المسلمون يحملون سيوفهم وحديث رسول الله فى قلوبهم ووجدانهم « اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » .

وكان الرمح من أسلحة الحرب الهجومية

والرمح هو قناة من الخشب ركب فيها سنان من حديد ، وقال فى ذلك المتنبى ...

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا

وكان العرب يتميزون باستخدام الرمح .. كانت تستخدمه الفرسان والمشاة معاً ، ولكن الفرسان كانوا أكثر استخداماً له ، وهو أنسب لها من

السيف ، وتستخدمه المشاة وقوفاً وجثياً ، خطب عمرو بن العاص يوم اليرموك فقال « غُضُّوا الأبصار واجثوا على الركب وأشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة ، فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد » .

وكان العرب يستوردون الرماح من الهند ، وكانت أجود الرماح الردَيْنيَّة ، نسبة إلى امرأة كانت تصنعها إسمها رُدَيْنة .

قال عنترة ...

إذا خصمى تقاضانى بدينى   قضيت الدين بالرمح الردينى

والرماح الآزانيَّة نسبة إلى ذى يزن الملك ، والرماح الخطية نسبة إلى جزيرة بالبحرين تسمى الخَطّ كانت موفأ للسفن التى تحمل الرماح آتية من الهند أو من جنوب فارس .

ويُعْطَى القنا الخَطِّىُّ فى الحرب حقه   ويُبْدِى بحدّ السيف عَرْضُ المناكب

والسمهرى نسبة إلى سمهر صانع الرماح .

قال عنترة ...

وأطعن فى الهيجاء إذا الخيل صدها   غداة الصباح السمهرى المقَصَّد

وكانت للرماح أسماء مختلفة باختلاف صفتها مثل صعدة وعنزة ويزك وسمهرى ، وكانت أيضاً متعددة الأنواع منها القَعْضَبية والشَّرْعَبية ، وكانت أسنتها تختلف شكلا فمنها المشعب والعريض والرفيع والمستوى والمموج ، وكان أحسنها الرمح الصلب المتين اللدن المرن المستقيم ، الذى إذا هزّه صاحبه لاينثنى ، وإذا طعن به لا ينقصف .

لَدْن يهز الـكف يَعْسِلُ مَتْنُهُ فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ

وقيل إن أجود السهام سهام بَلاَمَ[1] وسهام يثرب وهما بلدان قريبان من حجر اليمامة .. قال الأعشى « بسهام يثرب أو سهـام بلام » ، وكان أردؤها الرمح الملتوى المعوج الصلب الخشن .

ووصف الرسول الرماح بأنها وشاء المنية ، وقال عليه السلام « عليكم بالقنا والقسى فبها نصر نبيكم وفتح لـكم فى البلاد » ، وقال أيضاً « جُعل رزقى تحت ظل رمحى » .

ولم تعتمد المدرسة العسكرية الإسلامية كثيراً على الرمح فى الحرب ، فقد كانوا يخشون انكسارها ، سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معـدى كرب « ماتقول فى الرمح ؟ » ، فأجابه « أخوك وربما خانك فانقصف » .. ومع هذا الضعف فى الرمح فقد وضعت المدرسة العسكرية الإسلامية قواعد معينة ، وتعليمات واضحة لاستخدامه . . منهـا . . « إذا تحركت بالرمح فى مواجهـة العدو فعليك أن تحمل على مبارزك ، وقد أخذت الرمح تحت إبطك ، وجعلته بين أذنى فرسك ، وتقصده مستوياً حتى تقترب منه ، فإن وجدته قد طرح رمحه يمنة فاطرح رمحك يسرة ، وإن طرحه يسرة فاطرح رمحك يمنة ، واجتهد أن تبدأ بالحمل عليه وأنت مسدد ، وتحول الرمح يمنـة ويسرة كى تدهشـه ، فلايدرى من أين يجيئه ، فإذا دنوت منه دخلت عليه من الخلل الذى لايكون رمحه فيه ، وإذا أردت أن تبتدىء بالخروج فخـذ أسفل الرمح بيدك اليمنى ورأسه فى الهواء ، وهو على عاتقك الأيمن ، وتحمل على قوتك ، وأنت كذلك إن شئت قربت منه حتى لايدرى من أى وجهة يلقـاك . . وإن خرجت إلى

(١) وردت فى بلوغ الأرب بِلادَ

فارسين وتفرقا ، فاحمل على الأدنى ، وإذا كانا قريبين فأر أحدهما أنك تريد رفيقه ثم احمل عليه ، ولا تتم حملتك ، ثم اعدل إلى الآخر وأصدقه الحملة . . وإن دخلت مضيقا فتلقاك فارس برمح فإياك والمصادمة ، بل انزل إلى الأرض واطعنه .. وإن كان خلفك فارس وقدامك فارس فى مضيق ، فانزل واقصد أقربهما إليك ، وتترس من الآخر بدابتك » .

وهذه القواعد والتعليمات توضح للمسلم كيف يستخدم رمحه .. كيف يحمله بطريقة صحيحة سليمة تيسر له استخدامه .. كيف يفاجىء عدوه عند اللقاء ويطعنه .. كيف يواجه عدواً أو أكثر فى أرض عراء أو فى مضيق .. كيف يستخدم دابته كترس يحتمى به أثناء استعماله الرمح .

وكان الرمح هو السلاح الذى استخدم فى قتل حمزة فى أحد ، قال وحشى « فقد عثر حمزة وانكشف الدرع عن بطنه ، فهززت حربتى حتى إذا رضيت عنها ، دفعتها عليه فوقعت فى ثنته (موضع تحت السرة وفوق العانة) فأقبل نحوى ، فغلب فوقع ، فأمهلته حتى إذا مات ، جئته فأخذت حربتى » .

خطب عمرو بن العاص جنده يوم اليرموك فقال « غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فامهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد »[1] .

وقد وردت روايات تفيد استخدام الرمح بمعرفة المشاة وقوفاً وجثياً على الركب شأن استعمال السيف

---

(١) عبقرية خالد للعقاد

وكان القوس من أسلحة الهجوم أيضا .

وساعد على استخدامها ما كان يتميز به المسلمون من حدّة البصر ، فقد كانوا يستخدمونها وقت السلم فى صيد الغزلان ، ولهذا كانت لهم قدرة كبيرة على استخدامها بكفاءة ومقدرة ، حتى كان يُطلق على مهرة الرمى منهم « رماة الحدق » ، وبلغ من مهارتهم فى استعماله أن الواحد منهم كان يرمى إحدى عينى غزال فيصيبها دون الأخرى ، وكان الواحد يعلق ضبا بشجرة ويرمى فقراته فقرة فقرة فلا يخطىء واحدة منها [1] ، وروى أن سعد بن أبى وقاص كان يصيب حمامة بعينها من سرب حمام يطير فى السماء .

والقوس عود من الخشب لين منثن قوى ، يقوس كالهلال ، ويثبت فيه وتر من جلد الإبل ، ترمى به السهام ، وكان أشهر صانعيها رجل يدعى عصفور ، ولهذا كانت القوس العصفورية أجود الأنواع ، تليها الماسخية نسبة إلى رجل من الأزد اسمه ماسخة وهو أول من عملها ، وكان أشهر مكان تقوم فيه صناعتها هوزُغَر بالشام ، ولهذا اشتهرت الكنائن الزُّغَرية .

وقيل فى وصف القسى « صفراء وسطا بين الطول والقصر .. ملء الكف إذا ما استعملت لها صوت هو النئيم والأزمل ، وإذا شدّ وترها تقارب قاباها حتى يتصل السهم بمقبضها ثم ينطلق إلى غايته البعيدة » .

تجردها صفراء لا الطولُ عابها ولا قِصَرَ أزرى بها فتَعَطَّلا
كَتُوم [2] طِلاع الكف [3] لادون ملئها ولا عَجْسها [4] من موضع الكف أفْضَلا

---

(١) عبقرية خالد للعقاد (٢) كتوم = لاصدع فى نبعها
(٣) طلاع الكف = ملء الكف (٤) العجس = مقبض القوس

إذا ماتعاطوها سمعتَ لصَوتها إذا أنبضوا[1] عنها نئيما وأزْمَلا[2]
وإن شُدَّ فيها النَّزْعُ أدبر سَهْمها إلى منتهًى من عَجْسها ثم أقْبَلا

وكان الرسول يحمل القسيّ والمسلمون يتفاضلون بالرمى عن القوس فى حضرته ، وفى صحيح البخارى عن سلمة بن الأكوع قال « مرّ النبى عليه الصلاة والسلام بنفر من أسلم يتنضلون فقال : ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » ... وأثر عن الرسول قوله « مامدّ الناس أيديهم إلى شىء من السلاح إلا وللقوس فضل عليها » . و .. « إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب والرامى فى سبيل الله » . و « من رمى بسهم فى سبيل الله وبلغ العدو فأصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة » ، و « اركبوا وارموا وإن ترموا أحب إلىّ من أن تركبوا » ، و « علّموا أبناءكم السباحة والرماية » ، و « أعدوا لهم ما استطعتم من قوة . ألا إن القوة الرمى . ألا إن القوة الرمى . ألا إن القوة الرمى » ، وكان رسول الله يحث الناس على الرماية وإجادتها وطالما شجع عليها وقال « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة فى الجنة : صانعه المحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، والممد له » .

وكان الخلفاء والقادة بعد النبى يستحثون رجالهم على إتقان الرماية .

ولقد شمل القوس تطور فى صناعته وفى طرق استخدامه ، فقد صنع المسلمون آلات مركبة كالمجراه وهى عبارة عن أنبوب من حديد أو خشب فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً ، وهذه صورة لبندقية اليوم التى

---

(١) أنبضوا عنها = حركوا وترها (٢) النئيم والأزمل = صوت القوس

توضع فيها الطلقة ثم يضغط على الزناد فتندفع بشدة إلى الأمام ، بل هي صورة أيضاً المدافع التي تستخدم في الحروب الحديثة .

وصنع المسلمون أيضاً نوعاً من المجانيق توضع في الواحد منها عدة سهام ترمي بالأقواس ، وهذه صورة للمدفعية الصاروخية التي تستخدم في الحرب الحديثة .

والسهم هو الذي يرمى به القوس ، وأجودها كانت سهام تصنع في اليمامة ، ويقال له النبل والنُّشَّاب والمريخ (سهم طويل له أربعة آذان) ،وهناك نوع من السهام عريض النصل اسمه المِعْبَلة والمِشْقَص (سهم خفيف) .

وكانت السهام تسمم حتى يكون تأثيرها سريعاً ، فما أن تصيب العدو حتى يسري السم في جسده فيقتله ، وفي هذا قال الشاعر العربي :

وارتمينا والأعادي شُهَّدٌ بنبال ذات سم قد نقع

ولقد انتصر المسلمون على الروم لكفاءتهم في استخدام القوس والسهم ، ولأن الروم لم يكونوا يحسنون رميها .

في أحد رمى حباب بن العرفة أم أيمن بسهم وكانت تسقي الجرحى فوقعت وتكشفت فأغرق حباب في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً وقال له « ارم به » فوقع السهم في نحر حباب فوقع مستلقياً حتى بدت عورته ، فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، وقال « استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته » .

وفي أحد أيضاً ثبت رسول الله حين فرّ الناس ، وكان معه أبو طلحة ،

وكان رجلا رامياً شديد الرمى، فنثر كنانته بين يدى رسول الله وقال « نفسى لنفسك الفداء ووجهى لوجهك الوقاء » ، فلم يزل يرمى بها ، وكان إذا مرّ رجل عليهما ومعه جُعبة من النبل يقول له الرسول « انثرها لأبى طلحة » ، وقيل إن أبا طلحة كسر يومها قوسين أو ثلاثة .

وكان سعد بن أبى وقاص رامياً شديد المهارة ، وكان أول من رمى بسهم فى الإسلام ، وقيل إنه يوم أُحد كان يرمى عن قوسه المسماة بالمكتوم (لعدم تصويتها إذا رمى عنها) ، حتى صارت شظايا ، وروى عنه أنه قال « لقد رأيته (يعنى النبى) يناولنى النبل ويقول: ارم فداك أبى وأمى ، حتى إنه ليناولنى السهم ماله نصل فيقول ارم به » ، وجاء فى بعض الروايات أن سعداً رضى الله عنه رمى يوم أحد ألف سهم ، مامنها سهم إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ارم فداك أبى وأمى » ، ففداه هذا اليوم ألف مرة، وعن علىّ كرم الله وجهه « ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فداك أبى وأمى إلا لسعد رضى الله عنه ، فما جمع صلى الله عليه وسلم أبويه لأحد إلا لسعد رضى الله عنه » .

وكان للرمى أثر كبير فى معركة الأنبار بين خالد وجيش الفرس ، فقد أمر بأن يرشقوهم بالسهام وبأن يتوخوا العيون ، أى يركزوا الرشق على عيون جند الفرس دون غيرها ، قال لهم «إنى أرى أقواماً لاعلم لهم بالحرب، فارموا عيونهم ولاتوخوا غيرها » ، فاستجابوا له ، ونفذوا أوامره ، ورموا رشقاً واحداً ، ثم تابعوا ، ففقىء لأهل الأنبار ألف عين فتصايحوا « ذهبت عيون أهل الأنبار » ، وما أن سمع قائدهم شيرزاذ صراخهم ، حتى أوفد إلى

خالد يطلب الصلح ، وسميت هـذه الموقعـة « ذات العيون » .

ولعب الرماة دوراً خطيراً فى غزوة أحد ، فقد أحالوا نصر المسلمين إلى هزيمة ، ذلك أنهم عصوا أوامر رسول الله ، ولم يعملوا فى حدودها ، فقـد جعلهم عليه السلام على جبل أحد وعددهم خمسون رامياً على رأسهم عبد الله ابن جبير بن النعمان ، وقال لهم « احموا ظهورنا وارشقوهم بالنبل ، فإن الخيل لاتقدم على النبل ، إنا لانزال غالبين ماثبتم فى مكانكم ، فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلاتنصرونا » ، ولـكنهم تركوا أماكنهم عندما لاح النصر طمعاً فى الغنيمة ، فانطلقوا يتبعون باقى الجند فى مطاردة المنهزمين من قريش ، وحمل خالد ومن معـه على الجبل ، وأباد الباقين الذين ظلوا فى موقعهم بناءعلى أوامر الرسول ، وركب خالد أكتاف المسلمين وأصابهم إصابة بالغة ، حتى أن أبا سفيان قال يومها « يوما بيوم بدر »، وذكر ابن سعد فى الطبقات « ونظر خالد إلى خلاء الجبل وقلة أهله ، فـكرّ بالخيل وتبعه عـكرمة بن أبى جهل ، فحملوا على من بقى من الرماة ، فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير ، وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم » .

وكان المنجنيق أحد الأسلحة التى استخدمها المسلمون فى هجومهم وخاصة فى الحصار

والمنجنيق آلة للقذف استخدمها الفينيقيون قديماً ، وأخذها عنهم اليونان ثم الفرس ، وعنهم أخذها العرب ، واستخدمت لأول مرة فى الإسلام ، ولم

يستخدمها العرب قبله ، ولم يستخدمها المسلمون إلا فى أواسط القرن الأول للهجرة ، بعد أن اختلطوا بالفرس والروم ، إلا أنه جاء فى السيرة الحلبية أن أول استخدام لها كان فى حصار الطائف على عهد رسول الله عليه السلام ، إذ أرشدهم إليها سلمان الفارسى ، وقيل إنه صنعها لهم بيده ، كما جاء فى السيرة أن المسلمين حين فتحوا حصون خيبر وجدوا فيها منجنيقات كثيرة .

والمنجنيق أنواع متعددة ، يختلف فى الحجم ، فمنها الصغير والكبير ، ومنها مايُشد بلوالب وأقواس ، ومنها مايدار شبه المقلاع ، وكانت تستخدم فى رمى السهام والحجارة والنفط . . وقيل إن المقذوفات الخفيفة كانت تثقل بالرصاص ، وإن السوائل كالنفط كانت توضع فى كأس تعلق بسلاسل ، وإن الحجارة تعلق فى شبه مقلاع .

وكان المنجنيق يستخدم فى هدم الحصون بالحجارة ، أو لرمى الأعداء بالنبال ، أو لإحراق أماكن تجمعات العدو بالنفط . . وكان المسلمون يسمون كلا منها بإسم يدل على بعض أوصافه ، وكان رسول الله قد نصب منجنيقاً على أهل الطائف ، ونصب سعد بن أبى وقاص عشرين منجنيقا على أسوار بهرسير ، وكان لدى الحجاج بن يوسف منجنيق اسمه « العروس » كان يمد به خمسمائة رجل ، واستخدمه محمد بن القاسم فى محاربة ملك الهند وهدم به صنما من أصنامهم .

ومن أسلحة الهجوم الدبابة

وهى آلة من الخشب السميك تغلف باللباد أو بالجلود المنقوعة فى الخل ، ولها عجل تجرى عليه ، يدفعها الرجال ويصعدون فوقها ليتسلقوا الأسوار ،

أو يستخدمونها فى هدم الأسوار ، فيحتمون داخلها ويدفعونها إلى ناحية الأسوار لهدمها وهم بداخلها .

والدبابة سلاح أدخل ضمن تسليح الجيش الإسلامى ، أخذته المدرسة العسكرية الإسلامية عن الفرس ، وكان يستخدمه من قبلهم قدماء المصريين فالآشوريون فاليونان فالرومان .

ومن أسلحة الهجوم أيضاً الكبش

وهو كالدبابة ، ولكن له رأس ، يتحصن الرجال فى داخله ، ويستخدمونه فى هدم الأسوار ، فرأس الكبش مركب به عمود غليظ معلّق بحبال تجرى على بكر ، ويتعاون الرجال من داخل الكبش بدفع العمود فى اتجاه الأسوار حتى تتهدم . . وكما استخدمت الدبابة فى تسلق الأسوار ، استخدم كذلك الكبش .

وكان المسلمون يستخدمون الدبابة فى مهاجمة الحصون التى تحيط بها خنادق ، فكانوا يطرحون فى الخندق الأخشاب والحطب والتراب وغيرها من المواد التى كانوا يملأون بها الدبابة أو الكبش لهذا الفرض ، حتى يمتلىء الخندق ويسهل عبوره . . وكانوا أيضاً يحملون لها سلالم يصلون بها إلى سطح الأسوار ، ومنها يقفزون إلى داخل الحصن .

واستخدم المسلمون الدبابة والكبش فى كثير من حروبهم ، وكانوا يحملون مع الجيش عدداً منها أكثره صغير الحجم تسع الواحدة بضعة رجال ، واستخدمها الخليفة المعتصم فى فتح عمورية ، وكانت الدبابة والكبش بمثابة الأسلحة المعاونة فى حروب اليوم .

ومن أهم الأسلحة التى اقتبسها المسلمون النار اليونانية

وكان يستخدمها الروم أصلا ، وكانوا قد بالغوا فى كتمان أسماء المواد التى تتألف منها ، ولكن المسلمون استطاعوا الوصول إلى معرفة هذه المواد واستخدموها على شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيله ، ويقذفون منها السائل مشتعلا أو يطلقونه على شكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان الملوث بالنفط ، وقيل إن هذه المقذوفات النارية استخدمت فى حرق الكعبة عندما حاصر الحصين بن نمير عبد الله بن الزبير .

وأطلق المسلمون على هذه النار اليونانية إسم « النفط القاذف »

وكانت الخيل هى السلاح الراكب عند المسلمين

وكان استخدامها عند المسلمين امتداداً لاستخدام العرب لها أصلا فى جاهليتهم وخيول العرب أجود خيول الدنيا ، ويزعمون أنها كانت من الوحش ، وأول من ذلل الصعب منها أبوهم إسماعيل عليه السلام .

وكانت أعز أسلحة الحرب عندهم ، لهذا كانوا يستخدمونها وقت القتال فقط ، أى وقت الاشتباك الفعلى ، أما فى مراحل ماقبل القتال أى مرحلة التجمع ثم التحرك ، فإنهم كانوا يستخدمون الإبل ويقودون الخيل ليريحوها ، فإذا ماإقتربوا من مواقع العدو وبدأت مرحلة الاشتباك ، تركوا الإبل وامتطوا الخيل ، وباشروا بها الحروب ، وهذا هو مايحدث فى الحرب الحديثة بالنسبة للدبابات ، فإنها تحمل على عربات إلى ميدان القتال ، حيث تستخدم فعلا وقت القتال ، وهذا سبق عسكرى تتميز به المدرسة العسكرية الإسلامية ، تقديراً منها للسلاح الراكب ذات الأهمية القصوى فى المعركة ، وهو الذى

يحمل الرجال ويخوض بهم المعركة ، ولهذا يجب ألا يكون مجهداً بل يجب أن تحفظ له حيويته ونشاطه وقدرته لحين بدء المعركة ، فيكون فى أوج كفاءته وذروة إمكانياته .

والخيل من أسلحة المسلمين الأولى ، لأنها تتميز بالمرونة والسرعة وخفة الحركة ، وهى مقومات لازمة فى المعركة ، تتطلبها ظروف المعركة من حيث المحاورة والمناورة .

ولقد جعل الله الخيل عزاً لأوليائه على أعدائه ، وجعل الخير معقوداً على ناصيتها .

وجاء ذكر الخيل فى القرآن المجيد فى سورة العاديات . . قال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿والعَادِياتِ ضَبْحاً * فالمُورِياتِ قَدْحاً * فالمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ ، وفى هذه الآيات يقسم الله بالخيل ويصفها بأنها تجرى بسرعة فتخرج من أفواهها زفيراً عالياً ، وتضرب الأرض بحوافرها ، وتفاجىء العدو بالهجوم عليه صباحا وهو غافل ، فتثير الغبار وتشتت العدو وتقهره .

ودعا الرسول الكريم للخيل بالبركة « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وأهلها معانون عليها ، فامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة » ، وفى حديث آخر « بطونها كنز وظهورها حرز وأصحابها معانون عليها » ، وعنه عليه الصلاة والسلام « الخيل ثلاثة : فمن ارتبطها فى سبيل الله وجهاد عدوه كان شبعها وجوعها وريها وعطشها وجريها وعرقها وأرواثها وأبوالها أجراً فى ميزانه يوم القيامة ، ومن ارتبطها للجمال فليس له إلا ذاك ،

ومن ارتبطها فخراً ورياء كان له مثل ما نص فى الأول وزراً فى ميزانه يوم القيامة » .

وعنه عليه السلام « التمسوا نسلها وباهوا بصهيلها المشركين » . . و . . « أكرموا الخيل وجللوها » .. و .. « أوردوها من المـاء وأسقوها غدوة وعشية وألزموها بالجلال » .

وكان للرسول عليه السلام تسعة عشر فرسا[1] ، كان لكل منها إسم يعرف، به وكان عليه السلام يمسح بطرف ردائه وجه فرسه ، وكان أول فرس له عليه السلام يقال له السكب ، شُبّه لشـدة جريه بسكب الماء وانصبابه ، اشتراه من أعرابى بعشرة أواق ، وكان اسمه عند هذا الأعرابى الضَّرِس أى الصعب السيء الخلق ، وكان أغر أى له غرة وهو بياض فى وجهه ، وكان لدى الرسول فرس يقال له المرتجز لحسن صهيله ، وآخر يقال له اللحيف أهداه له فروة بن عمرو من أرض البلقاء بالشام ، وآخر يقال له اللزاز أهداه المقوقس ، والطِرْفْ والورد أهداه تميم الدارى وأهداه رسول الله لعمر بن الخطاب ، وآخر يقال له سَبْحَة أى سريع الجرى ، وأوصل بعض المؤرخين خيل رسول الله إلى خمسة عشر بل إلى العشرين ، وقد ذكر أنه عليه السلام كان يضمر الخيل للسباق فأمر بإضمارها بالحشيش اليابس شيئاً بعـد شيء ، وأمر بسقيها غدوة وعشيا ، وأمر أن يقودها مرّتين .

وكان اهتمام الرسول بالخيل مدعاة لأن يهتم أيضـاً بها جميع الرؤساء والقادة من بعده ، فقد اعتز المسلمون بالخيل، وعرفوا لها مكانتها ومنزلتها،

---

(١) جاء فى السيرة الحلبية أن الرسول كان له سبعة أفراس وبغال ست ، ومن الحمر اثنان، ومن الإبل ثلاثة

وعدوها شبيهة أولادهم ، بل فضّلها بعضهم على أولاده ، وكانوا يؤثرونها على النفس والأهل والولد ، وكان الواحد يفضل أن يبيت طاوياً ، ويشبع فرسه ، وجاء فى كتاب « خيول الصحراء » للجنرال دماس « إن الناس كانت تفرح بمولد الفرس ، وتحتفل بهذه المناسبة احتفالا يدل على عظيم مكانتها فى قلوبهم ، حتى أن رب الأسرة كان يدعو الله : اللهم اجعل الوليد مصدر سعادة وبركة وصحة لنا » .

مفداة مكرمة علينا يجاع لها العيال ولا تجاع

وبلغ من اعتزازهم بالخيل أنهم كانوا يختارون لها إناثا مشهورة معروفة بنجابتها .

وكانوا يعدّون الخيل للحرب ، فيسابقون بينها ويهتمون بترويضها ، حتى يشق حجب الغبار ، ويكرّ بصاحبه ، لا يجفل ولا يكبو ، ولا يرتد عن المعركة .

شديد مجامع الكتفين طِرْف به أثر الأسنة كالعلوب [1]

و

معاقلنا التى تأوى إليها بنات الأعوجية والسيوف [2]

وفى هذا المعنى نصح شاعر عربى قومه أن يهتموا بالخيل وبإعدادها للمعارك فقال

---

(١) الطرف : الكريم من الخيل ، الأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح ، والعلوب ثلم السيف .

(٢) الأعوجية نسبة إلى أعوج وهو جواد مشهور عند العرب .

بنى عامر ماذا أرى الخيل أصبحت ... بِطاناً وبعض الضرّ للخيل أمثل
بنى عامر إن الخيول وقاية ... لأنفسكم والموت وقت مؤجل
أهينوا لها ما تكرمون وباشروا ... صيانتها والصون للخيل أمثل
متى تكرموها يكرم المرء نفسه ... وكل امرىء من قومه حيث ينزل

وكان المسلمون يدركون أن الخيل تخوض معهم المعارك وترافقهم إلى حيث الموت، وحيث السيوف تقطر منها المنايا، فتصبر معهم على الشدائد، وتحمل معهم نصيبها فى المعركة، تثخن بالجراح فلا تفر، ولا تلين، بل تصمد معهم وتتحمل مثلهم.

يقينى باللَّبان[١] ومنكبيه ... وأحميه بمطّرد الكعوب[٢]
وأدفيه إذا هبت شمالٌ ... بليلٌ حَرْجَف[٣] عند الغروب
ألست بصاحبي يوم التقينا ... بسيف وصاحبي يوم الكثيب

و

وأتقى دونه المنايا بنفسى ... وهو يغشى بنا صدور العوالى
فإذا متُّ كان ذاك تراثى ... وسِخالا محموداً من سِخالى[٤]

ومن أعظم العمليات التى استخدمت فيها الخيل تحرك خالد بن الوليد من العراق إلى الشام، حين طلب منه أبو بكر أن يخف ببعض جيشه لمعاونة جيوش المسلمين فى اليرموك (وقد أشرنا إلى هذا التحرك من قبل)، والذى

---

(١) الصدر.

(٢) الرمح.

(٣) الريح الباردة الشديدة الهبوب .. بليل أى مبلولة من الندى.

(٤) جمع سخلة أى ولد الشاة.

يهمنا هنا هو أن الخيل كانت سلاحاً هاماً ومفيداً خلال التحرك ، فقد تحمل مع الناس مشقة الطريق وأهواله ، ووصل بالمسلمين فى الوقت المناسب إلى مكان المعركة .

وقد لعبت الخيل دوراً هاماً فى فتح دارين ، وهى جزيرة فى الخليج الفارسى ، تجمع فيها عدد كبير من الفارين المرتدين ، وقد ظنوا أن البحر يحميهم ، وجمع العلاء بن الحضرمى قائد لواء المسلمين إلى البحرين جنده وقال لهم « إن الله قد جمع لكم أحزاب الشيطان ، وشرّد الحرب فى هذا البحر ، وقد أراكم من آياته فى البر لتعبروا بها فى البحر ، فانهضوا إلى عدوكم ، ثم استعرضوا البحر إليهم ، فإن الله قد جمعهم » ، فقالوا « نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولا ما بقينا » ، وارتحلوا حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموه رجالا وركبانا ، واجتازوا مياه الخليج ، ووصلوا إلى مواقع الفارين ، واقتتلوا قتالا شديداً ، وانتصر المسلمون ، ولقد بلغ نفل الفارس فى هذه العملية ستة آلاف درهم ، فى حين كان نفل الراجل ثلث ذلك .

ومن أشهر المعارك التى لعبت الخيل فيها دوراً كبيراً معارك العراق ...

ففى معارك الحيرة جمع خالد مشاته على السفن فى الفرات مع الأنفال والأثقال فى أمغيشيا على أن تسير الخيل قريباً منها على الأرض ، ولكنه فوجىء بالسفن تجنح فى النهر ، وارتاع المسلمون لذلك ، وأكثرهم لم يركب السفن من قبل ، وعرفوا أن الفرس فجّروا الأنهار ، فسلك الماء غير سبيله ، وأن الماء لا يعود إلى هذا المجرى الذى هم فيه إلا بسد الأنهار التى فتحوها ، ولم يجد خالد أمامه إلا الخيل ، فخرج من فوره بها لشن غارة هدفها إعادة

المياه إلى المجرى ، فاتجه بالخيل بحذاء الفرات حتى بلغ موقع المقر ، فوجد خيلا من طلائع جيش الفرس ، ففاجأهم وهاجمهم وأبادهم ، ثم انطلق بالخيل إلى حيث القوة الأساسية ، والتحم معها بعد أن دهمها فى مواقعها وهزمها ، ثم سدّ الأنهار وفجّر الفرات ، فعاد الماء يسلك سبيله ، فأرسل إلى أصحابه أن يلحقوا به ، وعادت السفن إلى المسير بينما سار هو بالخيل حتى نزل بين الخورنق والنجف .

وعندما أراد سعد بن أبى وقاص أن يعبر الفرات إلى نهاوند ، كون كتيبتين كانت الأولى هى كتيبة الأهوال وقادها عاصم بن عمرو التميمى ، وكان قوامها ستمائة من أهل النجدة على خيلهم ، وكانت مهمتها أن تعبر النهر وتقيم ـ ما نسميه فى حروب اليوم ـ برأس جسر على الضفة الأخرى وتهيىء لوصول باقى المسلمين .. وكانت الثانية الكتيبة الخرساء قادها القعقاع بن عمرو ، وكانت مهمتها متابعة ومعاونة الكتيبة الأولى ... وصلت كتيبة الأهوال إلى شاطىء النهر فخطب عاصم فى رجالها وقال « من ينتدب معى لنكون قبل الناس دخولا فى هذا البحر فنحمى الفراض من الجانب الآخر ؟ » ، وتقدم إليه ستون فارساً ، فاقتحم النهر وهو على فرسه ومن ورائه زملاؤه ، ثم تشجع باقى أفراد القوة ، فدفعوا خيلهم إلى النهر ، وتقدم الجميع فوق خيولهم ، والفرس على الجانب الآخر يشاهدون ويتعجبون ويتصايحون فى دهشة « مجانين ... مجانين » ، وقال بعضهم لبعض « إنكم والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جنا » ، وامتلأ النهر بالخيل حتى قيل إن ماءه اختفى فلم يعد يُرى ، وقال سلمان الفارسى « ذللت لهم البحور والله كما ذلل لهم البر » .

وفى نهاوند حاصر المسلمون المدينة ، وطالت مدة الحصار ، وخشى المسلمون طول المدة ، فجمع النعمان أصحاب الرأى وسألهم « ما الرأى الذى نستخرجهم (يقصد أهل المدينة المحاصرين) إلى المنابذة وترك التطويل ؟ » ، فأشار البعض بتضييق الحصار ، وقال عمرو بن معدى كرب « ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم » ، وقال طليحة « أرى أن تبعث خيلا مؤدية[1] فيحدقوا بهم ثم يرموهم لينشبوا القتال ويحمشوهم[2] ، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا[3] إلينا استطراداً ، فإنا لم نستطرد لهم فى طول ما قاتلناهم ، وإنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ، ولم يشكو فينا ، فخرجوا فجادّونا وجاددناهم ، حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب » ، ووافق الجميع على رأى طليحة ، ونفذ القعقاع الخطة التى رسمها طليحة ، وكانت الخيل هى ركيزة الخطة التى قامت على أساس الاقتراب من أسوار المدينة ، فإذا ما خرج العدو لملاقاتهم انسحبوا من أمامه ، وعادوا سريعاً إلى الخلف . . . كان إذن التقدم والانسحاب هما الدور الذى يعتمد فيه على الخيل فى المعركة ، ولقد تم التقدم حسب الخطة الموضوعة ، ثم تم الانسحاب أيضاً حسب الخطة الموضوعة ، وخرج الفرس وراء العرب حتى وصلوا إلى الموقع الذى بدأ فيه الهجوم العام ، وانتصر المسلمون وسمى انتصارهم « فتح الفتوح » .

ولقد ذكر ابن هشام أسماء أهم الخيل العربى وأشهره فذكر فرس سعد

---

(١) معها سلاحها .

(٢) أغضبه فغضب .

(٣) رجعوا إلينا لاجئين .

ابن زيد (لاحق) وفرس المقداد (بعزجة) وفرس عكاشة بن محصن (ذو اللِّمة) وفرس أبى قتادة (حَزْوَة) وفرس عباد بن شمس (لَمَّاع) وكان لزيد الخيل الذى سماه النبى زيد الخير خيل كثيرة وردت أسماؤها فى شعره .

واستخدم المسلمون الدروع للحماية

والدروع هو وسيلة استخدمها المحاربون لحماية أنفسهم من ضربات العدو فترد الطعنات وتقى لابسها السهام ، وهى أنواع كثيرة منها الحديد والفولاذ والكتان ، وهى كلها من صنع الفرس والروم .

وكانت تتألف من جزء يقى الصدر يسمى الجوشن ، وجزء يقى الرأس يسمى الخوذة والمغفر ، وأجزاء تحمى الساعدين والساقين والكفين .

وكانت الدروع حلقات متصلة تلبس فتغطى الظهر والصدر ونصف الذراعين ، وكان داود أول[٤] من صنعها من الحلق المتضامر ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَه وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (سبأ ١٠/١١) وفى الآيات توجيه إلى داود ألاَّ يرفق الحلق فيكون ضعيفاً فينكسر ، ولا يغلظه فيكون ثقيلا فى وزنه لا يملك أحداً قدرة حمله ، وإن ملكها فقد تجهده ، فالمطلوب إذن أن يكون الدرع قوياً خفيف الوزن ، وقيل إن داود كان يصنع الدروع ثم يبيعها .

وكان بعض المسلمين يلبسون أكثر من درع ، لا جبنا ولا خوفاً من

(١) ونسبت أيضاً إلى فرعون وسليمان وتبع ويراد بذلك أنها قديمة جيدة الصنعة وكانوا يرون أن القديم أجود صناعة وأشد إحكاماً من الجديد .

الموت ، وإنما رغبة فى أن يكون حافزاً لجهاد أطول وصبر أعظم وثبات أمثل .. وكان رسول الله يلبس الدرع إذا خرج للقتال[١] ، وكان له عليه السلام درع يقال له البتراء كان على الحسين يوم قُتل ،وكان على سعد بن معاذ يوم الأحزاب درع من حديد خرجت منها ذراعه كلها ، وكان درع علىّ بن أبى طالب صدراً لا ظهر لها وقال فى ذلك « إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يُبق » .

ومن أشهر الدروع العربية درع خالد بن جعفر ، ودرع أبى عبد الله آخر ملوك العرب فى الأندلس المعروف باسم محمد الحادى عشر .

واستخدم المسلمون التروس

وكانوا ينقشون عليها الآيات والحكم والأشعار ، وكانوا يصنعونها على أشكال مختلفة منها المسطح والمستطيل والقبب المنحنى الأطراف ، وكان كل منها يصلح لشىء محدد ، وكانت التروس عامة تستخدم كالدروع لحماية الأجسام ووقايتها من دفعات السيوف وطعنات الرماح ، وذكر الطبرى (راجع الجزء الثالث) أن رسول الله كان له ترس فيه تمثال رأس كبش .

الأسطول البحرى

من الأسلحة التى اعتمدت عليها المدرسة العسكرية الإسلامية وأدت دوراً كبيراً وهاماً فى حياة الإسلام ، ولو أنها لم تستخدم إلا فى وقت متأخر ، فالثابت أن المسلمين فى عهد النبوة لم يركبوا البحر ، وكانوا يخافونه ، ولا يتعاملون معه ، رغم أن البحار تحيط بالجزيرة من جهاتها الثلاث شرقاً

---

(١) جاء فى عيون الأخبار أنه كان على رسول الله يوم أحد درعان .

وجنوباً وغرباً ، مما يوحى بأن العرب قد مارسوا شئون البحر وأنهم أمة بحرية ... كان أول إتصال لهم بالبحر زمن الهجرة الأولى إلى الحبشة ، فقد اضطر المهاجرون إلى هناك إلى ركوب البحر وعبوره ، وكان ذلك حدث فى تاريخ العرب فأطلقوا على هؤلاء اسم أصحاب السفينة .

ظلت علاقة المسلمين بالبحر غير قائمة فى عهد رسول الله ، وكذلك فى عهد الخليفة أبى بكر ، والخليفة عمر ، ولكنهم عرفوا البحر حين حاربوا الردة فى البحرين ، واضطر لواء العلاء بن الحضرمى عبور الخليج إلى جزيرة دارين فى عهد أبى بكر الصديق ، إلا أنه فى عهد الخليفة عمر أراد أن يفتح سواحل فارس ، وبينه وبينها الخليج ، فاستأذن الخليفة فرفض ، وبعث إليه « والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » ، ولكنه وقد نجحت تجربته الأولى لم يستجب لأمر الخليفة فعبر الخليج بالمراكب إلى اصطخر ، ولم يفلح فى غزوته ، إذ أنهكه الفرس حتى إنه اضطر إلى ترك سفنه ، فعزله عمر وجعل قصاصه أن يكون تحت إمرة سعد بن أبى وقاص أمير الكوفة .

وشدّد عمر فى منع المسلمين من ركوب البحر .

ولما خفقت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر ، وأصبح لهم عدد من المدن على الشاطىء فى بلاد الشام مثل صور وعكا وحيفا وعسقلان ، ولما رأوا سفن الروم وشاهدوا حروبها البحرية ، تاقت أنفسهم للغزو فى البحر ، وكان معاوية بن أبى سفيان قد تولّى جند المسلمين فى دمشق والأردن ، فبعث يستأذن الخليفة عمر ليبعث بجنوده للغزو عن طريق البحر فرفض ، فألح عليه ، فكتب الخليفة إلى عمرو بن العاص أمير مصر يطلب

إليه أن يصف له البحر ، فأجابه « يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، وإن ركد أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » ، فرفض عمر السماح لمعاوية بركوب البحر ، وكتب إليه « لا والذى بعث محمداً بالحق ، لا أحمل فيه مسلماً ، إنا قد سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شيء فى الأرض يستأذن الله تعالى فى كل يوم وليلة أن يفيض على الأرض ويغرقها ، فكيف أحمل الجنود فى هذا البحر الكافر المستصعب ، وتالله لمسلم واحد أحب إلىّ مما حوته الروم ، فإياك أن تعرض لى وقد تقدمت إليك ، وقد علمت ما لقى العلاء » ... وظل عمر مصراً على عدم السماح بركوب البحر خشية أخطاره ، ولعدم خبرة العرب فى المعارك البحرية ، ولفشل حملة أبى العلاء وحملة علقمة بن مجزز الذى بعث بها عمر لتدفع عن المسلمين الهجمات التى تعرضوا لها من الشاطىء الحبشى سنة ٢٠ هـ (راجع ابن الأثير ج ٢) ، وأثر عنه أنه قال « لولا آية من كتاب الله لعلوت راكب البحر بالدرة » . . و « لا تجعلوا بينى وبينكم ماء حتى إن أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت »[١] . . و « وإنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف[٢] » .

وأول من تعامل مع البحر هو معاوية بن أبى سفيان منذ تولى الأمر فى

(١) من كتاب عمر إلى عمرو بن العاص حين أراد أن يجعل عاصمة حكومته فى مصر فى منطقة الجيزة (اليعقوبى ج ٢) .

(٢) من كتاب عمر إلى عمرو حين أراد أن يجعل حكومته فى الإسكندرية (اليعقوبى ج ٢)

بلاد الشام ، فقد اتخذ خطوات إيجابية لتسليح الثغور وتحصين المدن الساحلية وتزويدها بالقوات المحاربة ، واستعار من البيزنطيين نظاماً عرف بالرباط ، ويقصد به الأماكن التي تتجمع بهـا الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو ، وطوّر معاوية هذا النظام فأعدّ الرباط لتكون حصونا يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لإغارات الأساطيل المعادية ، وأصبح الحصن يضم حجرات للجند ومساكن لهم ، ومخازن للأسلحة والمؤن ، وبرجاً للمراقبة ، ثم أصبح بعد ذلك قاعدة للهجوم وشن الإغارات ، وسمح معاوية للجند بسكنى المدن الساحلية ، ومنحهم إقطاعات من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها ، فزاد العمران على السواحل ، وأصلح حصون صور وعكا ، وانتقل الناس كما ذكر البلاذري « إلى السواحل من كل ناحية » .

وعندما تولى عثمان الخلافة أعاد معاوية عليه العرض ، فوافقه على أن يجعل الغزو من البحر اختيارياً ، فمن اختار ركوبه حمله وأعانه ، وكانت هذه الموافقة بداية مجد بحرى فى تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية ، ونقطة تحول فى تاريخ الحروب الإسلامية .

وكانت أول غزوة بحرية للمسلمين بقيادة معاوية فى سنة ٢٨ هـ[(١)] ، فقد غزا قبرص ، إذ أدرك أهمية هـــذه الجزيرة ، ورأى ضرورة مهاجمتها واحتلالها لصد غارات البيزنطيين على الشام ، ولمنع إتخاذها محطة تموين ،وأتم استعداداته[(٢)] ، وكانت تتناسب مع أهمية الحملة وضخامة أهدافها ، واختار

(١) تاريخ التمدن الإسلامى حـ ١

(٢) أعد معاوية أسطولا من سواحل الشام وكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبى مسرح عامل مصر بإعداد أسطول آخر واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسى.
(كتاب أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة لرفيق العظم)

كبار الشخصيات الإسلامية لمصاحبة الحملة ، وحرص على أن تخرج النساء ضمن الخارجين بعد أن كتب إليه عثمان « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا »[1] . وركب معاوية البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة ، وحمل امرأته فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل ، وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية (عثرت بها دابة كانت تركبها فقتلتها ودفنت فى قبرص وأطلق على قبرها قبر المرأة الصالحة) ، وغزا معه خالد بن يزيد ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفارى ، وفضالة بن عبيد ، وعمير بن سعد بن عبيد الأنصارى ، وعبد الله بن بشر المازنى ، وشداد بن أوس ، والمقداد .

وصالح معاوية أهل الجزيرة على سبعة آلاف ومائتى دينار يؤدّونها فى كل عام ، وعن الواقدى فى إسناده قال « لم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار ، وجرى ذلك عليهم إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم » ، وبعث معاوية إليها باثنى عشر ألفاً فبنوا بها المساجد ، ونقل إليها جماعة من بعلبك ، فأصبحت مستودعاً حربيا فى البحر الأبيض للمسلمين .

وكان معاوية على حق فيما أشار به من غزو قبرص ، واتخاذ قواعد فى البحر لحماية الإمبراطورية الناشئة ، فقد زادت سعة وازدادت شواطئها امتداداً ، ولم يكن قد بقى للروم من وسيلة للعودة إليها إلا البحر ، فإذا أيقنوا أن أسطولهم سيلقى من بأس أسطول المسلمين ما يلقى جنودهم فى

---

(١) البلاذرى

الميادين من بأس الجند المسلمين ، فتّ ذلك فى ساعدهم ، ولقد كان رأى عثمان بالتطوع للغزو فى البحر مشورة موفقة ورأياً سديداً ، فأغلق باب الخلاف ولم يترك لمعترض سبيلا .

وكان النصر فى هذه الغزوة مشجعاً للمسلمين على الإقدام والتوسع فى الحرب البحرية ، فأصبح لهم أسطول لا يقل عن أسطول الروم بأساً ، وأصبحت الدولة الإسلامية ذات قوة بحرية بجانب قوتها البرية ، ولعب الأسطول دوراً كبيراً فى اتساع رقعة الدولة ، فقد تم فتح جزر البحر الأبيض وفى مقدمتها مالطة التى فتحها حبيب بن مسلمة الفهرى الذى وجهه إليها عياض بن غنم ، ورودس التى غزاها جنادة بن أبى أمية الأزدى ، وصقلية التى غزاها أسد بن الفرات بمعاونة عبد الله بن قيس ، وأصبح المسلمون سادة فى البحر كما كانوا سادة فى البر .

فى بداية الأمر لم يكن للمسلمين معرفة بشئون الملاحة البحرية ، فاستخدموا الروم وكانوا يجيدون هذا العمل ، فعاونوهم على إنشاء السفن والشوانى ، وأطلقوا عليها اسم الأسطول ، أخذا عن كلمة يونانية هى « Stolos » ، وجعلوا مقره فى بحر الروم ، وأقاموا دوراً للصناعة (الترسانة) تبنى فيها السفن وتعد فيها كل مستلزماتها .

واهتمت المدرسة العسكرية الإسلامية بتعليم المسلمين السباحة ، وكافة شئون البحر ، وكيفية قيادة السفن ، واستخدام البوصلة ، وتحديد المواقع ، ورسم الخرائط ، وبلغ عدد الجند فى البحرية فى عهد الفاطميين خمسة آلاف ، ثم ارتفع العدد وزاد ، وأقبل الناس على هـــذا الفرع من فروع الجيش

مما استدعى إنشاء ديوان أطلق عليه « ديوان الأسطول » ، وذلك فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وبالغ المسلمون فى إنشاء السفن حتى بلغ الأسطول فى عهد عبد الرحمن الناصر مائتى سفينة ، وأنشئت الموانى فى الأندلس ، وكان لكل أسطول قائد يتولى شئون الحرب ، ورئيس يدبر تحرك السفن بالريح أو بالمجاديف . . . وكان إذا اجتمعت مجموعة من الأساطيل تولى قيادتها أمير واحد . .

وتناول التوسع الأسطول وأصبح موضع اهتمام المسئولين ، وتنوعت المراكب الحربية وتعددت أنواعها ، فكان منها الشونة والحراقة والطرادة والعشاريات ... وأنشىء أول أسطول فى مصر الإسلامية فى أواخر القرن الأول للهجرة على يد عنبسة بن إسحق أميرها من قبل الخليفة المتوكل العباسى .

وفى العهد الفاطمى اعتنى الخلفاء بالأسطول ، وأنشأوا السفن الحربية فى الإسكندرية ودمياط ومصر ، وكان للأسطول فى عهدهم عشرة من القادة ، كانت لهم إقطاعيات يسمونها « أبواب الغزاة » ، وكان أحدهم ينتدب قائداً عاماً للأسطول الذى بلغ فى عهد المعز لدين الله ستمائة قطعة بحرية .

ولقد مرت فترة أهمل الناس فيها شئون الأسطول والبحر ، وأصبح المسلمون لايقبلون عليه أو يهتمون به ، فانحط أمره وتدهور حاله ، حتى تولى الملك الظاهر بيبرس الأمر ، فأعاد له مجده ، ولكن ليس إلى مكانته التى كان عليها من قبل .

ومرة أخرى أهملت البحرية الإسلامية وتدهور حال الأسطول ، وطالت

هذه المدّة فترة الإهمال والتدهور ، حتى تولى العثمانيون أمر المسلمين فعاد للأسطول مجده وإشراقه ، وكان من أشهر رجال البحرية حينئذ « بربروسا خير الدين باشا » الجزائري الذى ولاه السلطان شئون الجزائر ، وإليه يرجع فضل ضم تونس إلى الدولة العثمانية .

وكانت دور الصناعة فى بلاد الإسلام كثيرة وخاصة فى الأندلس وأفريقيا ، وأنشئت أول دار فى جزيرة الروضة تجاه الفسطاط ، وعنى بها أحمد بن طولون ، ثم نقلت فى عهد الأخشيد إلى الفسطاط ، وأنشأ الفاطميون داراً للصناعة قرب القاهرة .

وكانت المراكب الحربية أنواعاً تتفاوت شكلا وحجماً وقوة . . وكان من معدات السفن الزرد والخود والدرق والتراس والرماح والقصى والكلاليب والباسليقات والعرادات . . وكان الرجال يقذفون على العدو الحجارة بقوارير النفط المشتعلة وجرارة النورة (وهى مسحوق ناعم يؤذى العين ويعمى الرجال ويفقد البصر) ، وقدور الصابون اللين والحيات والعقارب . . وكانوا يغطون السفن من الخارج بالجلود أو اللباد المبلول بالخل والماء والشب لمنع أذى النفط الذى يلقى به العدو . . وكانوا يجيدون إخفاء السفن ليلا فيمنعون إشعال النار حتى لا يراها العدو وكذلك بقاء الديكة حتى لا يسمع العدو صوتها ، وكانوا يسدلون عليها قلوعاً زرقاء إمعاناً فى إخفائها حتى لا تظهر للعين .

ولقد استفاد المسلمون من اتصالهم بالروم ، فتعلموا منهم فنون الحرب البحرية ، حتى أصبحوا من أعظم رجال الحرب فى عهدهم ، وكانت لهم صفحات خالدات مجيدة فى مجال الحرب والبحر ، نذكر منها على سبيل المثال دون الحصر أحداث معركة ذات الصوارى التى تعتبر أكبر معركة بحرية ذات نتائج على

جانب عظيم من الأهمية ، لأنها أرست أقدام العرب فى مصر ، ولأنها أتاحت الفرصة للأسطول الإسلامى (المصرى والشامى) لفتح جزيرة قبرص ، ومكنت المسلمين من تجريد حملة لغزو بلاد الدولة البيزنطية رداً على اعتداءاتها البحرية المتكررة ، وتعتبر هذه المعركة من المعارك القليلة الحاسمة التى غيرت مجرى تاريخ البحر الأبيض ، وتقف على قدم المساواة مع معركة أكتيوم فى التاريخ البحرى القديم ، ومعركة أبى قير البحرية فى التاريخ الحديث ، فكما جعلت معركة أكتيوم البحر الأبيض بحيرة رومانية ، وكما أكدت معركة أبى قير سيادة بريطانيا على هذا البحر ، فإن معركة ذات الصوارى جعلت من البحر الأبيض بحيرة عربية إسلامية وأكدت سيادة المسلمين عليه .

أيقن الروم أنهم لن يستطيعوا العودة إلى مصر وأفريقيا ، ولن يستطيعوا مناهضة المسلمين فى الشام ، ولن تعود إليهم سيادة البحر مالم يحطموا أسطول المسلمين ، ولهذا عزموا على غزو البحر وتحطيم أسطولهم المسلمين ، وكانوا موقنين أنهم سيظفرون به ، فسفنهم أكثر من سفن المسلمين عدداً ، وملاحوهم يفوقون ملاحى المسلمين براعة وكفاءة .

تولى قيادة أسطول الروم الامبراطور قسطنطين بن هرقل ، وكان مكوناً من نحو ألف سفينة (ذكرت بعض المراجع أنه كان مابين خمسمائة وستمائة سفينة فقط) ، وتقدم بالأسطول فى اتجاه الإسكندرية يداعبه أمل استعادة سلطان الروم فى مصر وتحطيم الأسطول الإسلامى نهائياً . وتولى قيادة الأسطول الإسلامى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وعدته مائتا سفينة ، شحنها بذوى البأس فى الحرب من شجعان المسلمين وأبطالهم ، وأرمى به بعيداً عن الإسكندرية فى طريق الروم إليها ، وقيل إن معاوية بن

أبى سفيان شارك فيها على رأس أسطول من الشام .

وسُميت المعركة بذات الصوارى لكثرة ما التحم فيها من الصوارى ، وعُرفت فى المراجع الأجنبية باسم « موقعة فونيكة » . . ووصف الطبرى والمقريزى وابن عبد الحكم والنويرى والبلاذرى وغيرهم من المؤرخين المعركة وصفاً دقيقاً .

ونحن نلخص أحداث المعركة نقلا عنهم بتصرف فنقول . . . .

عندما التقى الأسطولان بات الروم يدقون نواقيسهم ، وبات المسلمون يصلون ويقرأون القرآن ، وبعث عبدالله إلى قسطنطين يقترح عليه « إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البر لأن الأعجل مقاومتكم » ، ورفض الروم هذا العرض لأنه لايتفق مع هدفهم من دخول معركة بحرية يُدمرفيها الإسطول الإسلامى وينتهى إلى الأبد وقالوا « الماء . . الماء » ، أى أن المعركة يجب أن تدور فوق سطح الماء وليس على الأرض .

وحان وقت الاشتباك وتقدمت سفن الطرفين ، ونشب القتال عنيفاً غاية العنف ، وبلغ من عنفه أن تداخلت سفن الأسطولين ، ودفعتها الأمواج إلى الشاطىء ، واختلط الرجال ، فاستخدموا السيوف والخناجر بقسوة وكثرة القتلى فى الجانبين ، وروى عن بعض من حضر ذلك اليوم أنه قال « رأيت الساحل حيث تضرب الريح الموج ، وإن عليه لمثل الظرب العظيم من جثث الرجال ، وإن الدم لغالب على الماء ، وصبر الناس يومئذ صبراً لم يصبروه فى موطن قط » ... وحمى الوطيس وأبلى الطرفان أحسن البلاء ، وأصابت قسطنطين جراحات أوهنت قوته وضعضعت عزمه ، فلما أيقن أن الدائرة للمسلمين

عليه ، وولى مدبراً بما بقى من أسطوله ورجاله ، وقد آمن بأن بأس المسلمين في البحر لا يقل عن بأسهم فى البر ، ولما سأله قومه بعد فراره صرح لهم « أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها ، لو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم » ، وأغضب هذا التصريح الناس فساقوه إلى حمام وقتلوه ، أما عبد الله فقد بقى فى مكان المعركة أياماً حتى استراح الناس ، ثم قفل راجعاً إلى الإسكندرية ، وقد لامه كثيرون لأنه ترك الروم يفرون دون أن يطاردهم ، ولعله كان بعيد النظر فى ذلك، لأن المسلمين كانوا قد فقدوا عدداً كبيراً من الرجال ، ونال من بقى منهم جهداً شديداً يتعذر معه مداومة العمل واستمرار المطاردة بالكفاءة المطلوبة والجهد الواجب .

وترجع أهمية هذه المعركة إلى أن الروم لم تقم لهم قائمة بعدها فى البحر ، بدليل أنهم أسقطوا من تفكيرهم فكرة العودة إلى مصر أو أفريقيا أو الشام ، حيث كانت دولتهم قبل الإسلام ، وأصبح المسلمون هم القوة الوحيدة الكبيرة ذات السيادة والنفوذ فى البحر الأبيض .

الانفاق فى سبيل الإعداد والتجهيز

إن الحرب تعتمد على الرجال والسلاح ... وإذا كان الرجال هم عماد المعركة ، فرجال دون سلاح يفقدون القدرة على المواجهة والقتال .

ولهذا فبجانب إعداد الرجال وتجهيزهم معنوياً للمعركة ، لا بد من توافر السلاح الذى يحاربون به ، فالقوة المادية يجب أن تتوافر بجانب القوة المعنوية ، فكلاهما متمم للآخر .

ولقد تحدثنا عن نوعية السلاح الذى استخدمه المسلمون وهو كثير متنوع ، ولكن من أين للمسلمين بهذا السلاح وقد نشأوا فى بيئة غير صناعية ، ولا تعترف بالصناعة ، بل كان العرب - كما ذكر ابن خلدون - يحتقرونها .. والعرب أمة عاشت حياتها على الرعى والتجارة والسعى الدائب إلى حيث يتوافر الماء والكلأ ، ونحن لا نستطيع أن ننكر أن بعضاً منهم كان يصنع الرماح والسيوف والقسى ، ولكن هؤلاء كانوا قلة ، وكان إنتاجهم لا يفى حاجة المعركة ولا يسد متطلبات القتال ، فكان عليهم إذن البحث عن مصادر لهذا السلاح ، ومعنى ذلك أنه كان لابد من أن يسعوا إلى إيجاده وتجهيزه بكل الوسائل المتاحة ، والمعروف أن السلاح كان ينقل إليهم من الأسواق المختلفة ، ومن هنا تعددت مصادره ، وتعددت أيضاً نوعيته ، فكان بين أيديهم السلاح الرومى والفارسى والهندى والحبشى .

ولقد يسّرت الغزوات للمسلمين وضع أيديهم على كميات مختلفة وكثيرة من الأسلحة التى كانت أصلا ملكاً لأعدائهم ، وكانت تمثل جزءاً من الغنائم ، فمثلا اضطر يهود بنى قينقاع وبنى النضير إلى الجلاء وقد تركوا الحلقة (السلاح) ، ووضع المسلمون أيديهم عليها ، فغنموا مثلا من بنى قينقاع خمسة آلاف قطعة من السلاح ما بين سيوف ورماح ودروع وقسى ، كما غنموا أعداداً أخرى من بنى النضير ، ووضعوا أيديهم بعد احتلال حصون خيبر على أسلحة كثيرة متنوعة منها المنجنيق والدبابة ، واستولى خالد بن الوليد بعد انتصاره فى دومة الجندل على أسلحة أيضاً ، وكذلك كافة القادة فى كل معاركهم التى انتصروا فيها فى مختلف ميادين القتال .

ولكن فى بداية الحرب الإسلامية كان لابد من توافر السلاح ، فمن

أين للمسلمين الأوائل به ؟ كان لابد من شرائه بالثمن ، ومعنى هذا أنه لابد من أن يتوفر المال الذى يدفعونه ثمناً له ، ولهذا حضّ الإسلام على الإنفاق فى سبيل الله .

والإنفاق جهاد . . جهاد بالمال فى سبيل الله ويأتى فى المرتبة الأولى .

والإنفاق من أجل إعداد السلاح وتوفيره فكرة ومبدأ وعقيدة تتفق مع فكرة القتال ومبدئه وعقيدته ، بل هو يسبق فكرة القتال ، لأن المال هو عصب الحرب ، وله تأثير كبير وعظيم ومباشر فى حركة الجهاد ، وخاصة أن أكثر من مارس الحروب فى الإسلام كان فقيراً معدماً وليس بغنى ، وعلى عاتق هذا البعض وقع عبء الجهاد عملا وعدداً .

والإنفاق هو بذل المال فى وجه من وجوه الخير . . ووجوه الخير كثيرة تجمعها على سعتها وكثرتها كلمة « سبيل الله » ، ذلك لأن معنى السبيل الطريق ، وسبيل الله هو طريقه الذى شرعه وارتضاه ، وأمر الناس بالاتجاه إليه والاستقامة عليه .

ولقد حضّ القرآن على الإنفاق بمختلف الوسائل والأساليب التى تدعو إليه وترغب فيه وتغرى به ، ووضع القرآن الإنفاق فى مستوى الإيمان ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الحجرات ١٥)

وجعل القرآن الإنفاق وجها من وجوه البر وأصلا من أصوله . . ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى

المالَ عَلَى حُبِّه ذَوِى القُرْبَى واليَتَامى والمَسَاكِين وابْنَ السَّبِيل والسَّائِلِين وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِم إِذَا عَاهَدُوا﴾ (البقرة ١٧٧) .

ورغّب القرآن فى الإنفاق فى مواطن كثيرة ، فإذا كان الله سبحانه هو الذى يعطى ويرزق ، فلا خوف إذن من الإنفاق ، لأنه إنفاق فى سبيل الله مما أعطى الله ، وهـــذا الإنفاق يكون بمنزلة قرض لله ولن يضيع الله ما اقترضه ، بل إن هذا القرض سيعود إلى صاحبه ويرد مضاعفاً .

وقد شبّه الله ماينفق فى سبيله وابتغاء مرضاته بالحبة التى توضع فى الأرض فتنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، وأشار تبـــارك وتعالى إلى أنه يضاعف لمن يشاء ثواب إنفاقه فيزيد عن السبعمائة ضعف ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم فى سَبِيل الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة : ٢٦١) .

ولقد شبه الله فى موضع آخر من القرآن المؤمن الذى ينفق ماله فى سبيل الله كمثل من غرس جنة بربوة عالية تتعرض للشمس والهواء والمطر ، فيكون ثمرها مباركا وعطاؤها مضاعفاً فإذا لم يصبها المطر سقتها حبات الطل فتنمو وتزدهر ﴿وَمَثَل الَّذِين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِم كَمَثَل جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْن فَإِن لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ (البقرة : ٢٦٥) .

كما أوضح القرآن أن ماينفق فى سبيل الله له ثوابه ، وإلى المنفق المؤمن

تعود ثماره ، وهو بهذه الصفة مقبول عند الله يجزى به أضعافاً مضاعفة « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » (سبأ: ٣٩) ... ﴿ وَمَا تُنفِقُوا من خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُم ومَا تُنفِقُونَ إلاَّ ابتِغَاءَ وَجْهِ الله وَما تُنفِقُوا مِن خَيْرٍ يُوفَّ إليكُم ﴾ (البقرة: ٢٧٢) .

وأحاديث الرسول فى الإنفاق والحث عليه كثيرة متعددة منها على سبيل المثال قوله عليه الصلاة والسلام « قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك » و « المال الصالح فى يد العبد الصالح » ، فبالمال الصالح تؤسس عزة الأوطان ويرفع شأنها ويصان استقلالها ويتأكد وجودها ، ذلك لأن عزة الأوطان ورفعة شأنها والجهاد فى سبيلها لايكون بالنفس فقط ، وإنما بالنفس والنفيس ، والنفيس مذكور فى صفقة الجهاد فى قوله تعالى ﴿ إنَّ الله اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِين أَنفُسَهُمْ وأَموالَهُم بِأَنَّ لَهُم الْجَنَّةَ يُقَاتِلُون فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُون وَيُقتَلُونَ وَعدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإنجِيلَ وَالقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١١١)

إذن فالإنفاق مبدأ من مبادىء الإسلام ، والتقصير فيه مع القدرة عليه نكوص وخروج وتهلكة ، لما فى ذلك من إغراء العدو بالمسلمين ، ولقد اقتضت حكمة الله أن يشارك المجتمع الإسلامى كله فى الجهاد بالمال كل حسب قدرته وجهده ، فمن جهَّز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن أعان فى إعداد أدوات الحرب ومئونة الجيش فقد غزا ، ويكون شأنه شأن المجاهدين فى ميدان المعركة .

والإنفاق يستهدف أصلا زيادة قوة المسلمين ، فإذا أمسك المسلمون عن الإنفاق ضعف شأنهم فى الوقت الذى يشتد فيه عدوهم ويقوى ويصبح خطراً عليهم ، ولهذا فيجب ألا يضعوا أنفسهم فى موضع الضعف أمام عدوهم ، فيكون ذلك وبالا عليهم ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلقُوا بِأَيدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة : ١٩٥) .

واشترط فى الإنفاق أن يكون صادراً عن إيمان وعقيدة لا عن إكراه وخوف ، فإذا كان استكراها أو استثقالا فلا يقبل عند الله ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ . وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وهُم كَارِهُونَ ﴾ (التوبة : ٥٣/٥٤) .

وأنذر الله هؤلاء الذين لا ينفقون فى سبيله بل يكنزون أموالهم ويبخلون فى الإنفاق حباً للتملك والإقتناء أو شحا وبخلا ، فإنهم يرتكبون ظلماً وعدواناً ويأتون إثماً ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُم وَجُنُوبُهُم وَظُهُورُهُم هَذَا مَا كَنَزْتُم لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة : ٣٤) ... و ... ﴿ هَا أَنتُم هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُمْ مَن يَبْخَل وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَفْسِهِ واللهُ الغَنِيُّ وَأَنتُمُ الفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُم ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد : ٣٨) .

من خلال هذه المعانى وفى ضوئها كان الإنفاق فى الإسلام تربية للنفوس واطمئناناً إلى المسلمين ، وكشفاً للمنافقين ومجالا للتسابق .

والإنفاق كان ضرورياً وجوهرياً لأن المسلمين كانوا يواجهون أعداء تتطلب مواجهتهم وفراً كبيراً فى السلاح ، والسلاح كما أوضحنا كان المحلى منه قليلا وأكثره مستورداً ، وكان لابد من أن يدفع الثمن سواء للمحلى أو للمستورد ، ومن هنا كان يلزم تواجد مال وفير لدى القيادة العليا التى تنظم الجيوش وتمدها بالسلاح .

ولقد زادت أهمية الإنفاق بزيادة عدد الجند وتمدد الجيوش وميادين القتال ، فكلما كثر عدد المقاتلين تطلب الأمر سلاحاً أكثر ، وهذا يستوجب مالا أكثر ، وجيش كثيف لا قيمة له دون سلاح يحمله ويحارب به .

دعا الرسول إلى الخروج إلى تبوك ، فتجمع لديه قوم لا يملكون السلاح أو الدابة التى تحملهم ، فصرفهم عليه السلام وكلهم رغبة فى الخروج ، فعادوا أدراجهم وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ، وأطلق عليهم اسم « البكائين » ، ومن أجل إتاحة الفرصة لكل راغب فى الخروج ، فعلى كل متيسر غنى أن يمد يده بالمال ليشترى به السلاح ، ليحمله من لا سلاح عنده ، والخيل لمن لا يملك ما يحمله ، ومادام المال مال الله فلا يسوغ أن يبخل أحد به ، بل ينبغى المبادرة بصرفه فى سبيل الله ، وكأنه قدم لله قرضاً ، فإن الله تعالى سوف يؤدى إليهم ثمن ما قدموا وقيمة ما اقترضه أضعافاً مضاعفة ﴿ مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة : ٢٤٥) .

وفى هذا المعنى يقول الشاعر وما أصدق قوله :

إن الدراهم فى الأماكن كلها　　تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة　　وهى السلاح لمن أراد قتالا

ومن أعظم أمثلة الإنفاق فى سبيل الله ما حدث عند الإعداد لغزوة تبوك ، فقد أقبل الأغنياء وذوو اليسار فأنفقوا نفقة عظيمة لتجهيز الجيش ...
أنفق عثمان بن عفان وحده عشرين ألف دينار صبّها فى حجر رسول الله فقال « اللهم لا تنسى هذا اليوم لعثمان » .

وجاء أبو بكر بماله كله ،ودفع عمر نصف ماله ، وقدم عبد الرحمن ابن عوف أربعة آلاف ، وقال للرسول « يا رسول الله كانت لى ثمانية آلاف فامسكت لنفسى وعيالى أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها لربى » ، فقال له الرسول « بارك الله فيما أمسكت وفيم أعطيت » .

وأنفق كثيرون غيرهم كل فى حدود طاقاته ، حتى أن جابر بن عبد الله الأنصارى قدم حفنة من بر هى كل مايملك وهى لا تساوى شيئاً ، وقبلها منه رسول الله تقديراً لمبدأ الإنفاق ، ولحدود الاستطاعة التى ذكرها الله تبارك وتعالى فى قوله الحق « وأعدوا لهم ما استطعتم » ، والأمر هنا واضح وصريح،فالبذل والعطاء على قدر الاستطاعة و «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» .

ولما كان من طبيعة الإنسان أن يحرص على الحياة وعلى المال ، وهما أعز شىء عنده ، وليس من الهين بذلهما إلا بعوض هو خير منها وأبقى ، فقد أقدم المسلمون على بذل حياتهم وما لهم فىسبيل الله الذى وعدهم بمضاعفة الأجر والثواب وبجنات تجرى من تحتها الأنهار .

المبحث الثالث

المعركة

(١) التنظيم
(٢) تقدير الموقف
(٣) الخطة
(٤) مشاكل ما بعد المعركة
(٥) مبادئ الحرب

اذا رفعوا السيف رفعوه بقانون

واذا وضعوا السيف وضعوه بقانون

من رسالة مارية القبطية

إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر

عندما توفر لدى المسلمين الرجال الأشـــداء القادرون على خوض غمار المعركة ، وعندما أصبح لديهم السلاح والعتاد الذى يستخدم فى القتال ، لم يعد أمامهم إلا دخول المعركة .

ودخول المعركة فن يبدأ قبل المعركة بوقت طويل ، وهذا الفن يمر بمرحلتين . . مرحلة ماقبل المعركة أى التنظيم لها ، ثم مرحلة الاشتباك الفعلى وهى تعنى « تـكتيكات » مواجهة العدو .

ولقد كان للمسلمين معرفة عميقة بهذا الفن ، وإدراك واع لأصوله ، وفهم واسع لأساسياته ، وقد باشروا الحروب بهذا الباع الطويل فى فن المعركة ، وانتصروا فيها ، ووضعوا للحرب أسساً ومبادىء مازالت تستخدم حتى اليوم .

ومرحلة ماقبل المعركة تقوم أساساً على . . .

- التنظيم العام للجيش المحارب .
- تقدير الموقف العسكرى تقديراً سليما .
- وضع الخطة فى حدود ماتراءى من تقدير الموقف .

وبعد أن يتم الإعداد على هذه الأسس يكون الجيش فى مرحلة الاستعداد للاشتباك ، وهذه تعتمد على عناصر ومقومات...

- قدرة المحاربين على مواجهة العدو .
- موقف القيادة وتتبعها لسير الأحداث وسيطرتها على الموقف.
- تنفيذ الخطة التى وضعتها القيادة وعدم الانحراف عن أهدافها.

(١)

هل يستطيع أى جيش أن يخوض غمار معركة قبل أن يتناوله التنظيم ؟

لايختلف إثنان فى الإجابة على هذا السؤال ، فليس هناك اختلاف فى أن الجيش — أى جيش — لايستطيع أبداً أن يدخل معركة ويشتبك فى قتال دون أن يكون قد رتب أموره بحيث تحدد الواجبات والمسئوليات ووسائل التعاون بين القوات .

والمعارك الكبيرة التى تمت فى ظل المدرسة العسكرية الإسلامية تؤكد هذه الحقيقة ، فبالنسبة للجيوش الإسلامية لم يدخل جيش إسلامى معركة قبل أن يصل التنظيم لها إلى مستوى المسئولية ، وقبل أن ترسم السياسة العامة للمعركة ، وقبل أن توضع خطة التعاون والتفاهم بين القيادة والجند وبين قطاعات الجيش ووحداته .

ولعل التنظيم المتقن لسير العمليات فى المعارك الإسلامية كان من أهم وأجلّ عوامل انتصار المسلمين .

جاء الإسلام فوجد العرب فى جاهليتهم يحاربون على غير نظام . . كانوا يحاربون بنظام الكر والفر ، بمعنى أنهم إذا همّوا بالقتال كرّوا على عدوهم ، فإذا أحسوا بضعف فرّوا ثم عادوا فكرّوا ، وكانوا يصفون إبلهم والظهر الذى يحمل نساءهم فيكون فئة ومرجعاً لهم ، ويسمونه المجبوذة ، وهكذا كان نظام الحرب عندهم لاتنظيم فيه ولايلتزم بقاعدة .

فلما قامت المدرسة العسكرية الإسلامية رفضت نظام الـكرّ والفرّ ، واستخدمت نظاماً جديداً فى ضوء ما أمر به الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف : ٤) ، وفى ضوء ما أشار به الرسول عليه السلام فى حديثه « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً » .

وهـذا يعنى أن المدرسة العسكرية الإسلامية اتخذت نظام الصف فى القتال .

جاء فى بلوغ الأرب « ... وصفة الحروب بين أهل الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين ، نوع بالزحف صفوفاً ونوع بالـكر والفر ، أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم ، وأما الذى بالـكر والفر فهو قتال العرب» .

ولقد اختارت المدرسة العسكرية الإسلامية نظام الصف ، لأن قتال الزحف أشـدّ ، فالمجاهـد المؤمن فى هـذا القتال يأخـذ مكانه فى صف المجاهدين ويلتحم معهم ، ويجعل كيانه من كيانهم ، ويشهد مواقف القتال ، ويعطى الجهاد حقه ، وهو فى مواجهة عدوه لا يوليه دبره ، ولا محتمياً بظهر غيره من المجاهدين ، وإن الحـكمة من القتال بالصف هو حفظ النظام ، فمن أعطى العدو ظهره فقد أخلّ بنظام الصف ، وباء بإثم الهزيمة إن وقعت ، وصار كأنه جرّها على المسلمين ، وأمـكن منهم عدوهم . . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال « اجتنبوا السبع الموبقات . . الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ،

والتولّى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وجاء فى بلوغ الأرب «قتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكرّ والفرّ ، لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوّى كما تسوّى القداح أو صفوف الصلاة ، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدماً ، ولذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق فى القتال وأرهب للعدو ، لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع فيه » .

كان الجند المسلمون إذن فى أيام النبى الكريم يُرتبون صفوفاً ، وهو مايعبر عنه بالزحف ، وكانوا يمشون بصفوفهم إلى عدوهم ، وكانت الصفوف تقل أو تكثر تبعاً لقلة الخارجين أو كثرتهم .

بهذا النظام واجه المسلمون العرب ، وكان الأخيرون لايعرفونه ، فكان مفاجأة ، وكان من أسباب النصر على أهل الكر والفر ، ذلك أن أسلوب الكر والفر ليس فيه من الشدة والأمن ما فى قتال الصف ، واعتبر استخدام هذا النظام الجديد فى القتال داخل الجزيرة العربية تحولا فى أسلوب الحرب .

ومع ثبات المسلمين فى القتال بنظام الزحف ، فقد كانوا يجعلون وراءهم الإبل والنساء والأحمال ، فيزيدهم ذلك ثباتاً فى الحروب وصبراً على القتال[١] .

ولما تكاثر المسلمون فى عهد مابعد رسول الله ، أى فى أيام الخلفاء الراشدين ، صاروا ينظمون أنفسهم صفوفاً باعتبار الأسلحة . قال علىّ ابن

---

(١) السيرة الحلبية .

أبي طالب لجنده يوم واقعة صفين « سوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدّموا الدارع ، وأخّروا الحاسر ، وعضّوا على الأضراس ، فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، والتووا على أطراف الرماح فإنه أصون للأسنة ، وغضّوا الأبصار فإنه أربط للجأش ، وأسكن للقلوب ، وأخفتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار ، وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلّا بأيدى شجعانكم ، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر » . . وقال الأشتر يومئذ يحرض الأزد « عضّوا على النواجذ[1] من الأضراس ، واستقبلوا القوم بهامكم ، وشدّوا شدّة قوم موتورين ، يتأرون بآبائهم وإخوانهم ، حناقا على عدوهم ، وقد وطنوا على الموت أنفسهم ، لئلا يسبقوا بوتر ولا يلحقهم فى الدنيا عار » .

وكان المسلمون يسوّون صفوفهم كصفوف الصلاة ، وجاء فى السيرة الحلبية أن النبي كان يمر بين الصفوف يسويها بنفسه ويعدّلها ، وفى يده عليه السلام سهم بلا ريش ، وروى أنه عليه السلام مرّ بصفوف المسلمين فى بدر فوجد رجلا اسمه سواد خارجاً عن الصف ، فطعنه فى بطنه وقال له « استو ياسواد بن غزية » .

ومع الزيادة العددية فى عدد المقاتلين طوّرت المدرسة العسكرية نظام الصفوف ، واستبدلته بنظام جديد أطلق عليه « التعبئة » ، أى ترتيب المقاتلين على نظام الكراديس .

---

(١) جمع ناجذ وهو مابين الناب والضرس. وقيل إنه آخر الأضراس ، ويقولون ضحك حتى بدت نواجذه .

والكردوس[١] كلمة يونانية معناها الكتلة أو الكتيبة koortis ، والكتيبة تسمى باليونانية فلانكس Phalanx . قلنا إن هذا النظام استخدم عندما زادت الكثافة العددية للجند ، وحُشدوا من مواقع كثيرة متعددة متباعدة ، فجهل بعضهم بعضاً ، فإذا مااختلطوا فى مجال الحرب كانوا يطعنون بعضهم لعدم توافر المعرفة بينهم ، ولهذا اضطرت القيادات إلى تقسيم الجند إلى جموع ، تضم المتعارفين بعضهم لبعض ، ويحددون لهم موقعهم خلال القتال ، مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، وكان موقع القائد عادة فى وسط هذه القوات ، ويسمى موقعه القلب .

ولقد استخدم خالد بن الوليد نظام الكراديس فى موقعة اليرموك ، فجعل جيشه ستة وثلاثين كردوساً ، ارتفعت فى بعض الروايات إلى الأربعين ، وقال لجنده « إن عدوكم (يقصد الروم) قد كثر وطغى ، وليس من التعبية تعبية أكثر فى رأى العين من الكراديس » ، وجعل القلب كراديس، وأقام عليه أبا عبيدة بن الجراح ، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل ، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبى سفيان ، وأقام على كل كردوس بطلا من شجعان المسلمين وفرسانهم من أضراب القعقاع وعكرمة وعياض بن غنم وعبد الرحمن بن خالد[٢] ، وكان أبو سفيان يسير فى الكراديس ويقف عليها وهو يقول « الله ، الله ، إنكم

---

(١) فى القاموس كردس الخيل أى جعلها كتيبة كتيبة .

(٢) كان يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة .

قادة العرب ، وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم ، وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك » ، وهكذا أعد خالد جيشه لمواجهة حشود الروم - التى تزيد على خمسة أضعاف عدد قواته - إعداداً روحياً ونظامياً لم يسبق للمسلمين أن خوجوا فى مثله .

واقتبس سعد بن أبى وقاص هذا النظام فى القادسية .

ولم يصبح هذا النظام رسمياً إلا فى عهد مروان بن الحكم آخر خلفاء بنى أمية ، فقد أمر بإبطال نظام الصفوف نهائياً ، واتباع نظام الكراديس ، وبهذا النظام حارب الضحاك الخارجى ثم الجبيرى ، قال الطبرى « لما ذكر قتال الجبيرى فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكرى ويلقب (أبا الدلفاء) ، قاتلهم مروان بالكراديس وأبطل الصف يومئذ » .

وكتب عبد الحميد كاتب محمد بن مروان يوصى ولى عهد الخلافة بتعبئة الجيوش قال « إذا كنت من عدوك على مسافة دانية ، وكان من عسكرك مقتربا ، وقد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وحماة فتنته ، فتأهب أهبة المناجزة ، وأعدّ إعداد الحذر ، وعب جنودك ، وإياك والمسير إلا مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، قد شهروا بالأسلحة ونشروا البنود والأعلام ، وعرّف جندك مراكزهم ، سائرين تحت ألويتهم ، قد أخذوا أهبة القتال واستعدوا للقاء ، ملحّين إلى مواقفهم عارفين بمواضعهم من مسيرهم ومعسكرهم ، وليكن ترجلهم وتنزلهم على راياتهم وأعلامهم ومراكزهم ، وعرّف كل قائد وأصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ولا متهاونين بما أهبت بهم إليه ، حتى تكون عساكرهم فى

كل منهل تصل إليه ومسافة تختارها كأنه عسكر واحد فى اجتماعها على العدة،
وأخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ، ونزولها على مراكزها ، ومعرفتها
بمواضعها ، إن ضلت دابة موضعها عرف أهل العسكر من أى المراكز هى
ومَنْ صاحبها ، وفى أى المحل حلوله منها فردت إليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة .
صاحبها ، فإن تقدمك فى ذلك وإحكامك له إطراح عن جندك مؤونة الطلب
وعناية المعرفة وابتغاء الضالة ، ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك فى
نفسك صرامة ونفاذاً ورضاء فى العامة ، وإنصافاً من نفسه للرعية ، وأخذاً
بالحق فى المعدلة ، مستشعراً تقوى الله وطاعته ، آخذاً بهديك وأدبك ، واقفاً
عند أمرك ونهيك ، معتزماً على مناصحتك وتزيينك ، نظيراً لك فى الحال ،
وشبيهاً بك فى الشرف ، وعديلا فى المواضع ، ومقارباً فى الصيت . . » إلى
آخر الرسالة .

غير أن نظام التعبئة لاقى معارضة من بعض دعاة الخلافة من أهل البيت،
الذين اعتبروا العدول عن نظام الصف إلى نظام الكراديس بدعة يجب إبطالها ،
وظلوا فعلا على الزحف صفوفا .

حدث أن أرسل الخليفة المنصور عيسى بن موسى لمحاربة إبراهيم بن
عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب فالتقيا بأخمرا[1]، فأراد إبراهيم أن
يحاربه زحفاً بالصفوف ، فأشار عليه بعض رجاله أن يجعل جنده كراديسا ،
« لأن الكراديس أثبت فى الحرب ، فإذا انهزم كردوس ثبت كردوس ، أما
الصف فإذا انهزم بعضه تداعى سائره » ، ولكنه أصر على رأيه قائلا :

(١) موقع على بعد ١٦ فرسخاً من الكوفة

« لا نصف إلا صفَّ أهل الإسلام » ، ودارت عليه الدائرة وخسر المعركة .

وتفنن المسلمون فى نظام تعبئة الجيوش بما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء بعد ترجمة كتبهم ، وتعددت ضروب التعبية حتى صارت سبع تعبيات ، وإن كانوا لم يستخدموها كلها .

الأولى ... أن ترتب الجيوش بشكل هلال بسيط كهلال السماء .

الثانية ... أن ترتب الجيوش بشكل هلال مركب يكون على جانبيه هلالان كأنهما جناحان .

الثالثة ... أن ترتب الجيوش على شكل مربع مستطيل .

الرابعة ... أن ترتب الجيوش على شكل هلال مقلوب .

الخامسة ... أن ترتب الجيوش على شكل المربع أو المنحرف أو المعين .

السادسة ... أن ترتب الجيوش على شكل مثلث .

السابعة ... أن ترتب الجيوش على شكل دائرة مزدوجة ، أى دائرة فى داخل أخرى .

* * *

اهتم المسلمون منذ عهد رسول الله باستعراض الجيش الخارج إلى المعركة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستعرض أصحابه بنفسه ، وجاء فى السيرة أنه عليه السلام استعرض جنده فى بدر ، كما استعرض جيشه عند فتح مكة ، وشهد هذا العرض أبوسفيان ـ وكان مازال على دين آبائه يقود قريشاً فى نضالها

ومقاومتها الدعوة الإسلامية ـ بصحبة العباس عم النبي . . جاء في السيرة الحلبية أن رسول الله أمر العباس أن يحبس أبا سفيان وبديلا وحكيم بن حزام وقال له « احبسه (يقصد أباسفيان لشرفه) بمضيق الوادى، حتى تمر به جنود الله فيراها » ، ومرت القبائل كلها أمامهم ، فكانت كلما مرت قبيلة سأل أبو سفيان العباس عنها ، فيقول له اسمها ، حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء وعمر يقول « رويداً حتى يلحق أولكم آخركم » ، فقال « سبحان الله ياعباس من هؤلاء ؟ » ، فقال « هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار والمهاجرين » ، فقال « ما لأحد بهؤلاء قبلٌ ولاطاقة ، فوالله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما » ، قال العباس « يا أبا سفيان، إنها النبوة » ، فقال « نعم إذن » ، وأدرك أبوسفيان أن قومه لاقبل لهم بجيش المسلمين فأسلم ، وعاد إلى مكة يدعو القوم إلى عدم المقاومة « من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

وأقيم استعراض ضخم للجيش الإسلامى السائر إلى تبوك ، وارتقت نساء المدينة سقفها يشهدن الجيش الجرار ، وقد ثار النقع ، وصهلت الخيل ، وكان منظر الجيش مثيراً لبعض النفوس التى لم تحركها دعوة الرسول فتقاعست ولم تتبعه فخرجت تتبعه ، كما حدث مع أبى خيثمة الذى قال لامرأتين له « رسول الله فى الضح والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ، هيئا لى زاداً حتى ألحق به » .

وفعل الخلفاء مافعله رسول الله فكانوا يعرضون الجند .

خرج أبو بكر يستعرض جيش أسامة بن زيد ويشيعهم ، وسار مع الجيش بينما أسامة راكب ، فغلب أسامة الحياء وقال لأبي بكر « ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن » ، فقال له « والله لاتنزلن ووالله لا أركب ، وما علىّ أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة » ، فلما آن له أن يودع الجيش قال لأسامة « إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل » ، فأذن أسامة لعمر ـ وكان ضمن الجيش ـ أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبى بكر .

واستعرض خلفاء بنى أمية الجيش . وكان الحجاج إذا عرض الجند يسأل عنهم رجلا رجلا ، من هو؟ ماهى قبيلته ؟ ، ويسأل عن حاله وعن سلاحه ، وهذا ما كان يفعله نابليون فقد ذكرت كتب التاريخ التى تناولت تأريخ حياته ، أنه كان يسأل عن أسماء ضباطه الأصاغر وجنده قبل أن يحدثهم ، فإذا بدأ الحديث معهم نادى كل واحد باسمه ، فيسعده ذلك ، لأن الإمبراطور يعرفه بنفسه ، ومن ثم ترتفع روحه المعنوية .

واقتبس الخلفاء العباسيون نظام الاستعراض من الفرس ، فكان الخليفة يجلس فى مكان يعد لعرض الجند . . وكثيراً ما كان الخليفة يرتدى الدرع والخوذة وقت العرض ، وكان المنادى ينادى بأسماء القادة ، فيمرون أمام الخليفة الذى يتفقد أفراسهم وعدتهم ، ثم يأمر لهم بجائزة كانت تسمى الأرزاق .. قال عمرو بن الليث إعجاب الخليفة المعتمد فأمر له بثلاثمائة درهم حملت إليه فى صرّة فقال « الحمد لله الذى وفقنى لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق » .

* * *

لم يكن للعرب فى الجاهلية جند ، ولهذا لم تكن لهم رتب . . كانوا يولون على القبيلة الأمير وكان الأمير يرسل بدلا منه من ينوب عنه ويسمى « المنكب » .

ومع بداية العهد الإسلامى قسم الجند إلى عرفاء ، وكان العريف يقود عشرة رجال ، وازداد العدد فوصل إلى ثلاثين وأربعين ، وكان على العرفاء أمراء .

وقسم أبو بكر القوات الإسلامية المكلفة بقتال المرتدين إلى ألوية ، وجعل على كل لواء أميرا ، أما القوات المتوجهة إلى الشام فقد جعلها أربعة جيوش ، وعلى كل جيش أمير .

ولم يحدث تغيير فى رتب الجند فى أيام بنى أمية .

ولكن تطور الأمر بعض الشىء فى عهد العباسيين ، فأصبح العريف يقود عشرة وعلى كل عشرة عرفاء (أى مائة مقاتل) نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء (أى ألف مقاتل) قائد ، وعلى كل عشرة قواد (أى عشرة آلاف مقاتل) أمير .

ولم تكن لهذه الرتب علامات خاصة تميز أفرادها .

واستخدم المسلمون الرايات والأعلام والألوية ، وهى تشبه فى هذه الأيام الأعلام والبنود والبيارق ، واختلفت التعريفات بالنسبة للواء والراية ، وقال أبو بكر بن العربى « اللواء غير الراية ، لأن اللواء مايعقد فى طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية مايعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح » ، وقيل اللواء

العلم الضخم وهو علامة على محل الأمير ، والراية يتولاها صاحب الحرب ، ولم يفرق بعض اللغويين بين الراية والعلم واللواء ، قيل « العلم الراية وما يعقد على الرمح ، واللواء هو العلم » ، وقيل « لافرق بين اللواء والراية » .

وكانت عادة العرب اتخاذ اللواء فى حروبهم ، وكان من عادتهم أيضاً جعل الرايات فى أطراف الرماح ، وكان للواء والراية فى الحرب شأن كبير ، لأن الناس كانوا يتدافعون تحتهـا ويحرصون على بقائها مرفوعة ، فإذا ظلت مرفوعة فالنصر مازال فى جانبهم ، وإن زالت دل زوالهـا على الهزيمة .

وكانت الراية واللواء معروفة قبل الإسلام ، وكان منصب اللواء من أهم ماتفخر به قريش ، وقد سموا رايتهم العقـاب ، اقتباساً من الروم الذين كانوا يرسمون العقاب أو النسر على أعلامهم وينقشونه على أبنيتهم .

ولقد تعددت الألوية فى الجيش الواحد ، ففى غزوة أحد خرجت قريش وحلفاؤها ومعها ثلاثة ألوية عقدوها فى دار الندوة ... لواء حمله سفيان بن عويف لبنى كنانة ، ولواء الأحابيش حمله رجل منهم ، ولواء قريش حمله طلحـة بن أبى طلحة ، وذكرت بعض الروايات أن الجيش خرج كله بلواء واحد حمله طلحة ، وقد حمله من بعده أحد عشر رجلا قتلوا جميعاً ، ثم لم يجد من يحمله ، وقد حلت بهم الهزيمة فى مراحل القتال الأولى ، وظل ملقى على الأرض ، حتى تغير الموقف فأخذته عمرة بنت علقمة ورفعته ، فرآه الناس فاستداروا به ، واجتمعوا له .

وأقرت المدرسة العسكرية الإسلامية استخدام الرايات والألوية .

فى بدر — أول غزوة إسلامية — دفع رسول الله اللواء وكان أبيض اللون إلى مصعب بن عمير ، وكان أمامه صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوتان حمل إحداهما على بن أبى طالب ويقال لهـا العقاب ، وروى أنها صنعت من كساء للسيدة عائشة يقال له المرط (وهو ماتضعه المرأة على رأسها أو تتأزر به) وحمل الثانية رجل من المسلمين .

وجاء فى الإمتـاع أنه صلى الله عليه وسلم عقـد ثلاثه ألوية : لواء حمله مصعب بن عمير ، ورايتان سوداوتان إحداهما مع علىّ ، والأخرى مع رجل من الأنصار ، وقيل إن راية علىّ سميت العقاب فى مقابل الراية التى كانت فى الجـاهلية تسمى بهذا الإسم ، ويقال لها « راية الرؤساء » ، لأنه كان لا يحملها فى الحرب إلا الرئيس ، وكانت فى زمنه صلى الله عليه وسلم مختصة لأبى سفيان لا يحملها فى حرب إلا هو ، أو رئيس مثله إذا غاب كما حدث فى يوم بدر .

وفى قتال يهود بنى قينقاع ، حمل حمزة بن عبد المطلب لواء المسلمين ، وكان أبيض اللون .

وفى أحد عقد رسول الله ثلاثة ألوية ، لواء للأوس ، وكان بيد أسيد بن حضير ، ولواء المهاجرين وكان بيد مصعب بن عمير ، (كان بيد علىّ فى أول الأمر فلما علم الرسول أن لواء المشركين يحمله طلحة بن أبى طلحة وهو من بنى عبد الدار أخذه الرسول من علىّ ودفع به إلى مصعب) ، ولواء للخزرج وكان بيد الحباب بن المنذر (وقيل من بعض الروايات إنه كان بيـد سعد بن عبادة)

وحمل على راية المسلمين فى قتال بنى النضير ، وفى قتال بنى قريظة ، وحمل أبو بكر راية المهاجرين ، وسعد بن عبادة راية الأنصار فى غزوة بنى المصطلق ، وحمل زيد بن حارثة راية المسلمين فى مؤتة، ثم حملها من بعده جعفر ابن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة ، وعن جابر رضى الله تعالى عنه « كان لواء رسول الله يوم دخل مكة أبيض » ، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها » « كان لواؤه يوم الفتح أبيض ورايته سوداء تسمى العقاب » ، وفى حنين كان لواء المهاجرين بيد على ، ولواء الخزرج بيد الحباب بن المنذر ، ولواء الأوس بيد أسيد بن حضير ، وقيل إنه عليه السلام أعطى سعد بن أبى وقاص راية ، وعمر بن الخطاب أيضاً راية .

واختلفت ألوان الألوية ، فكانت راية رسول الله سوداء اللون ، وكانت أعلام بنى أمية حمراء ، وكانت أعلام الدولة العلوية بيضاء ، وأعلام بنى العباس سوداء ، وقد اختاروا هذا اللون بالذات حزنا على شهدائهم من بنى هاشم ونعياً على بنى أمية فى قتلهم ولهذا سموها السودة ، ولما بايع المأمون لعلى بن موسى بولاية العهد أمر بطرح السواد ولبس الثياب الخضر ، وأصبحت راياتهم خضراء ، أما فى المغرب العربى فقد أصبحت الرايات من الحرير الأحمر وكتبت عليها آيات قرآنية ، واتخذت الدولة العثمانية راية واحدة للسلطان فى أعلاها خصلة من الشعر تسمى الشالش ، ثم تعددت الرايات ، وسميت سناجق ، وكانت حمراء اللون عليها صورة الهلال .

عقد أبو سلمة الخراسانى عندما بدأ الدعوة العباسية لواء بعث به إليه إبراهيم الإمام على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً ، كما عقد راية اسمها السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا .

ولما عقد المتوكل لبنيه عقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما أسود والآخر أبيض ، وعندما ولى الخليفة المأمون الفضل بن سهل على المشرق جعل له لواء على سنان ذى شعبتين ، وقد بلغ عدد رايات العزيز بالله الفاطمى خمسمائة راية .

وكان الخلفاء فى صدر الإسلام يعقدون الألوية للأمراء ... وكان عمر بن الخطاب إذا عقد لواء يقول « بسم الله ، وعلى عون الله ، فامضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ، ولزوم الحق والصبر فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً » .

ولما كان العامل هو قائد الجند ، فقد كان الخليفة يعقد له اللواء .

وكان للدولة الفاطمية دار خاصة تحفظ فيها الأعلام والرايات ، التى زادت أعدادها بصورة غير طبيعية ، وأطلق عليها اسم « خزانة البنود » وكانوا ينفقون عليها ثمانين ألف دينار كل عام .

* * *

كانت للجيش الإسلامى فى أول عهده نداءات خاصة يصدرها القادة للجند .. فكانوا إذا تهيأوا للقتال نادى القادة « النفير ... النفير .. » ، وهى إشارة الهجوم ، وإذا أرادوا إرجاع الجند نادوا فيهم « الرجعة .. الرجعة .. » ، وإذا أرادوا ركوب الخيل نادوا « الخيل ... الخيل ... » ، وإذا أرادوا أن يترجلوا نادوا « الأرض ... الأرض .. » .

وكان النداء فى بدر « يامنصور ، أمِتْ أمِتْ » ، وتحت تأثير هذا النداء هجم المسلمون على المشركين بقلوب ملؤها الإيمان بالحق والرغبة فى الشهادة والطمع فى ثواب الله ، وجعلوا هدفهم رءوس الكفر يتصيدونهم وسط الجموع الزاحفة ، وينقضون عليهم كالصواعق .

وكانت صيحة « أمت .. أمت .. » هى صيحة الحرب يوم أحد .

وكان النداء الغالب الذى ربط الجند بالقادة وربط الجميع بالسماء هو نداء « الله أكبر » .

وكان القادة المسلمون يكبرون عند كل هجوم ، وتكون التكبيرة الثالثة هى الأمر بالهجوم ، فى مصر وأثناء حصار حصن بابليون ، ضاق العرب بالحصار الذى طال سبعة أشهر ، وكان الزبير بن العوام هو أشدهم ضيقاً وأكثرهم حماسة ، فخطب فى الناس وقال « إنى أهب نفسى لله ، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » ، وآزرته كتيبة تحت جنح الليل، فاقترب من جدار الحصن ، ووضع سلماً على السور وعلاه دون أن يفطن إليه أحد ، بعد أن اتفق مع أصحابه أن يرقوا السلم إليه وأن يجيبوه إذا سمعوا تكبيره ، واستوى فوق الحصن ، وانطلق يكبّر، وتبعه أصحابه فصعدوا السور وكبّروا معه ، وأجاب المسلمون من خارج السور تكبيرهم ، ثم هاجموا الحصن وسقط .

وفى يوم أرماث وهو اليوم الأول فى قتال القادسية ، أرسل سعد إلى رجاله قائلا « إذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم ، فإذا كبّرت الثانية

فتهيئوا ، فإذا كبّرت الثالثة فشدوا النواجذ على الأضراس واحملوا » ، ثم أمر بقراءة سورة الجهاد فقرئت فى كل المواقع ، وبعد الانتهاء منها كبّر سعد وكبّر وراءه الذين يلونه ، ثم كبّر الثانية ، وعندما كبّر الثالثة كانت النفوس والقلوب قد تهيأت للقتال ، فبدأ الصراع عنيفاً ، وكان أول الخارجين من جيش المسلمين غالب بن عبد الله الأسدى الذى أسر هرمز وهو ينشد :

فقد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سِمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح

وبتطور الحرب الإسلامية وضعت لكل حركة كلمة تدل على المراد بها ، وأصبحت هى النداء الخاص بالفعل والحركة ، مثل « الميل ... الانقلاب .. الانفتال .. تسوية الانفتال .. استدارة صغرى ... استدارة كبرى ... استدارة مطلقة ... رجوع إلى الاستقبال . اتباع الميمنة ... اتباع الميسرة .. » ، وكان القائد إذا أراد أن يحرك جنده إلى اتجاه محدد أو أن يتخذ الجيش وضعا خاصا ، ناداه بإحدى هذه الكلمات .

وكانت للمسلمين شعارات خاصة يتعارفون بها أثناء القتال ، وكان شعار المجاهدين « يابنى عبد الرحمن » ، وشعار الأوس « يابنى عبيد الله » ، وشعار الخزرج « يابنى عبد الله » ، وشعار الخيل « خيل الله » .

* * *

ويأتى فى مقدمة عوامل التنظيم للمعركة وجود صلة دائمة بين القيادة العليا

فى المدينة وقيادة القوات فى الميدان .. هذه الصلة التى تقوم أساسا على الاحترام المتبادل والتقدير والطاعة ، فقد كان القائد الأعلى يعيش مع قواته المحاربة بإحساساته ومشاعره ، كأنه يعيش معهم فى الميدان ، يبعث إليهم بنصائحه وآرائه وفكره ، ويكتبون إليه بكل ما يجرى ، وينقلون إليه صورة المعركة والموقف والظروف .

وكانت القيادة العليا تبعث إلى قيادة القوات برسائل فيها الرأى والنصيحة والتوجيه ، ومن هذه الرسائل نعرض هنا رسالتين هامتين بعث بالأولى أبو بكر إلى خالد وكان قائداً للواء الأول الذى كلف بقتال طليحة ومالك بن نويره .. أما الرسالة الثانية فهى رسالة عمر بن الخطاب إلى سعد ابن أبى وقاص قائد المسلمين فى العراق .

وقبل أن نعرض الرسالتين نود أن نوضح أن عمر بن الخطاب كانت له رسائل كثيره تحمل توجيهاته إلى قاده الجيوش ، نظراً لاتساع مناطق العمليات وتعددها فى العراق والشام ومصر والشمال الإفريقى . . وكان عمر يضع فى هذه الرسائل وجهات نظره وأوامره وتعليماته .

فمثلا كتب إلى النعمان بن مقرن « ... فسر فى وجهك هذا حتى تأتى ماه ، فإنى قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فإذا اجتمع إليك جنودك ، فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم » .

وكتب إلى سلمى بن القين وحرملة بن ربطة ، وإلى أمراء الجند الذين

كانوا بين فارس والأهواز « اشغلوا فارس عن إخوانكم ، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم ، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمرى » .

وكتب إلى عتبة بن غزوان « ... إنى قد استعملتك على أرض الهند وهى حومة من أحومة العدو ، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها ويعينك عليها ، وقد كتبت إلى الحضرمى يمدك بعرفجة بن هرثمة ، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو ، فإذا قدم عليك فاستشره ، وادع إلى الله فمن أجابك فاقبل منه ، ومن أبى فالجزية ، وإلا فالسيف » .

وكتب إلى أبى عبيده فى الشام « ... فابدءوا بدمشق ، فانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ، ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فإن فتح الله عليكم ، فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، ودع شرحبيل وعمروا بالأردن وفلسطين » .

وكتب إلى سعد بن أبى وقاص حين ساء موقف المسلمين فى بلاد الشام بتجمع الروم وأهل الجزيرة قال « أندب الناس مع القعقاع بن عمرو ، وسرحهم من يومهم الذى يأتيك فيه كتابى إلى حمص ، فإن أبا عبيدة قد أحيط به ، وتقدم إليهم فى الجد والحث . . . وسرّح سهيل بن عدى إلى الجزيرة فى الجند ، وليأت الرقة ، فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم

على أهل حمص ... وسرّح عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ، ثم ليقصد حرّان والرّها ... وسرّح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ... وسرّح عياض بن غنم ، فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم » .

هذه أمثلة رائعة من كتب عمر إلى قادة جيوشه ، تصور كيف نهض بتبعات القائد الأعلى لقوات المسلمين ، وتبين قدرته الممتازة على الاضطلاع بأعبائه على نحو لا يزال إلى يومنا هذا مثاراً للعجب .. لقد عاش عمر مع القوات المحاربة بكل جوارحه .. بكل قلبه .. بكل فكره .. بكل آرائه ، وكأنه يقودها فى مواقعها .. كان يدرس ويبحث ويستشير ، ثم يقرر ، ويضع الخطة ويبعث بها للتنفيذ ... كان يحرك القوات ، ويحدد لها الواجبات ، ويرسم لها طريق العمل .

نرجع بعد ذلك إلى الرسالتين الهامتين اللتين أشرنا إليهما .

الرسالة الأولى

رسالة من أبى بكر إلى خالد بن الوليد

قال له فيها ...

« يا خالد ... عليك بتقوى الله ، وإيثاره على من سواه ، والجهاد فى سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أهل السابقة من المهاجرين والأنصار ، فشاورهم فيما نزل بك ،

ثم لا تخالفهم ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة ، فإن لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاد ، وقدم أمامك الطلائع ، ترتد لك المنازل ، وسر فى أصحابك على تعبية جيدة ، وأحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيان فإن فى العرب عزة ، وأقلل من الكلام ، وأقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله فى سريرتهم ، وإذا أتيت مصلياً فأمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة ، فإن لم تسمع آذاناً ولم تر مصلياً شن الغارة ، فاقتل واحرق كل من ترك واحدة من الخمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت ، حتى إذا أسلموا وأعطوا الصدقة ، فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع ، وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا لك ولا عليك ، يتربص دائرة السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة ... سر على بركة الله » .

تستوقف نظر الباحث فى هذا الكتاب أمور جديرة بالتسجيل ..

فالقائد العام يدعو قائد قواته إلى رعاية جنده والرفق بهم لأنهم من أهل السابقة فى الجهاد وذوى نضال شريف ذوداً عن حياض الدين وحماية للمسلمين ... والرفق بالرعية دستور الحكمة السامية فى سياسة الجند والعروة

الوثيق بين القائد وجنده ، تربط قلوبهم بقلبه ، وتمد أبصارهم إلى مواقع بصره ، وتنيط طاعتهم بإشارته وإقدامهم بأمره .

والقائد العام يأمر قائد قواته بمشاورة أهل الرأى عند الملمات والأزمات ، والمشاورة دستور الإسلام ، وقاعدة نظام الحكم فى دولته ، أمر بها القرآن الكريم فى أكثر من آية ، وعمل بها رسول الله طوال حياته ، وأهل الرأى يمثلون فى قيادات اليوم هيئة الأركان حرب التى تمطى للقائد المشورة والرأى .

والقائد العام يحذر قائد قواته من جحافل عدوه ومراكز قوته ويدعوه إلى البحث عن مواطن الضعف فى صفوف عدوه ، فتكون هى موضع الضربة واتجاه الهجمة الرئيسية ، فمنها ينفذ إلى داخل جيش عدوه ، فيقلب خططه ويثير الارتباك والرعب عنده .

والقائد العام يبرز لقائد قواته أهمية الشئون الإدارية وضرورة تدبيرها للجند حتى لا تشغلهم عن واجبهم فى المعركة ، ويطلب منه أن يستظهر بالزاد ، وأن يسير بالأدلاء ، وأن يقوم بالإستكشاف (الاستطلاع) ... وقد عرفت الحروب الحديثة ــ وهى دون ريب أشد تعقيداً من حروب المسلمين ــ أن تموين الجيش وتوفير الغذاء والذخيرة والسلاح أهم أسباب النصر والظفر على الأعداء ، وقد أثر عن نابليون قوله « إن الجيوش تمشى على بطونها » ، فالغذاء هام وضرورى ، والماء شىء لا غنى عنه ، وخاصة فى حرب الصحراء

حيث يقل وجوده وتندر مصادره ... هذا فوق أن الحرب الحديثة تعتمد اعتماداً رئيسياً على الاستطلاع الذى أشار إليه القائد العام فى قوله « سر بالأدلاء وقدم أمامك الطلائع » ، وهذه الطلائع هى التى تستكشف الطريق وتجمع المعلومات ، وكذلك يفعل الأدلاء ، ويعد الاستطلاع من أعظم وأبرز فنون الحرب الحديثة ، فعلى أساس ما يقدم من معلومات وبيانات ترسم خطتى الهجوم والدفاع .

والقائد العام ينصح قائد قواته بأن يسير إلى عدوه فى تعبية جيدة ، فينظم مواقع الجند ويحدد أهداف وحداته المقاتلة وواجباتها ، ويضع خطة التعاون الكامل بين قطاعات جيشه ، لتكون كلها وحدة فى دفاعها أو هجومها ، وهو يستطيع بهذا الأسلوب أن يدير دفة المعركة فى حذق ومهارة وحزم .

والقائد العام يطالب قائد قواته بتنمية روح الفداء فى سبيل العقيدة ، حتى لا يعترى جنده الجبن ولا يقعد به الفزع ، ولا تغلب عليه روح الانهزامية ، ولا يرده التشبث بالحياة عن الإقدام ، فيها جم عدوه قوياً ثابت الجأش رابط الجنان .

والقائد العام يوجه نظر قائد قواته إلى ضرورة منع الجرحى من المشاركة فى القتال والإسهام فيه ، وإلى ضرورة العناية بهم وعلاجهم ، حتى تزول آلامهم وتطيب جراحهم ، فإن الجريح لا يملك القدرة على المشاركة والمواجهة بالصورة المطلوبة وبالقدر اللازم وبالكفاءة القتالية التى تحتاجها المعركة ، والجريح بإصابته يكون عبئاً على القائد وعلى الجيش .

والقائد العام يبصر قائد قواته بعامل المفاجأة ، ويحـذره من آثاره ونتائجه ، ولهذا فهو يدعوه إلى اليقظة التامة والعناية الفائقة بنظام الحراسة ، حتى لا يأخذه عدوه على غرة ، وفى إجراءات الحراسة التى اتخذها رسول الله يوم فتح مكة فى مرحلة الإعداد والحشد مثل حى يلتزم به القادة ، لأن وقوع المفاجأة يؤثر تأثيراً مباشراً وسيئاً على الجند .

والقائد العام يلقى الضوء على أهمية السرية والأمن ، وضرورة المحافظة على تحركات جيشه ، والحرص الـكامل على عدم تسرب أية معلومات عن جيشه وترتيباته إلى عدوه ، حتى لا يستفيد منها ويرتب أمور المواجهة على أساسها ، ومما لا يختلف فيه إثنان أن ثرثرة القادة وانطلاق ألسنتهم من أفدح وأخطر العيوب التى يجب تجنبها وعدم الوقوع فيها ، وقد استشار قوم أكثم بن صيفى فى حرب قوم أرادوهم وسألوه أن يوصيهم فقال « ... واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل » .

والقائد العام يؤكد على ضرورة الاعتماد على الله ، والإيمان بالجهاد فى سبيله ، والتمسك بأوامره ، ونصرته تعالى بالصدق والحق والعزم والإصرار ، لأنه تعالى قال وهو أصدق القائلين « إن تنصروا الله ينصركم » و « إن النصر من عند الله » ، فالبذل والعطاء فى أرض المعركة محسوب ومطلوب ، ولابد أن يكون فى سبيل الله ، وأن تـكون وجهته لله ، وأن يكون هدفه ابتغاء مرضاة الله .

الرسالة الثانية

رسالة عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص

قال له فيها ...

« إنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإذا استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه العون على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .. وترفق بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تجشمهم سيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع ... وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة ، حتى تكون لهم راحة ، يحيون بها أنفسهم ، ويرفون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ، ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فإن صبروا لكم فتولهم خيرا ولا تستنصروا على أهل الحرب

يظلم أهل الصلح . . وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لاينفعك خبره وإن صدقك فى بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك ، وليكن منك عند دنوك فى أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، وتتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول مانلقاهم القوة فى رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخص بها أحداً تهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية . . فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع مكيدتك وقوتك ، ثم لاتعاجلهم بالمناجزة مالم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك . . ثم أذك أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك . .

واختتم عمر رسالته فقال . . .

« والله ولى أمرك ومن معك وولى النصر لكم على عدوكم والله المستعان والحمد لله رب العالمين » .

فى هذه الرسالة وضع عمر دستوراً للحرب لم يتنبه إليه القادة الذين سبقوا العهد الإسلامى ، ولكن القيادات التى جاءت بعده اعترفت به وأقرته وجعلته أساس العمل العسكرى عندها ، ولم يأت عمر بجديد فبنود

هذا الدستور مستمدة من أحكام القرآن الكريم ، ومن أعمال وسلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقارىء لن يجد اختلافاً بين ماجاء برسالته، وما جاء برسالة أبى بكر ، فالمنهج واحد والأصل متفق عليه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . .

ولنتابع معاً بنود هذا الدستور ومواده ...

فالقائد العام يطلب من قائد قواته أن يتقى الله ، فتقوى الله قوة تعين على العدو وتساعد على مواجهته ، تزيد الإيمان وتثبت العقيدة ، وتدفع إلى النصر الذى وعد الله به .

والقائد العام يأمر قائد قواته أن يبتعد وجنده عن المعاصى ، فإن النصر على العدو يكون نتيجة لطاعة الله والامتثال لأوامره والابتعاد عن نواهيه ، أما العدو الذى يعصى الله فهو عدو ضعيف لايلتزم بخلق ولا ينتهج سبيل التقوى ولا يتمسك بمنهاج سليم ، فتهن عزيمته ويفتقد الرغبة فى المواجهة وتضعف معنوياته فتسهل هزيمته .

والقائد العام ينصح قائد قواته أن يستعين بالله وأن يتقوى به وأن يجعله تعالى ملجأه وملاذه ، فتخلص بذلك نياته وتصفو مشاربه وترق عواطفه ، فيتميز عن عدوه ، والقائد هو مرآة جنده يرون أنفسهم فيه ويستمدون قوتهم منه ويتمثلون به فى كل أعماله ، فإذا رأوه متجها إلى الله بقلبه ووجدانه ومشاعره اتجهوا هم أيضاً ، وهو وهم بذلك يضعون أقدامهم على الصراط المستقيم .

والقائد العام يرسم كيفية تحرك الجنود من مواقع الحشد إلى مواقع

القتال ، فهو يوصى قائد قواته أن يترفق بجنده فلا يحملهم مالاطاقة لهم به ، ولا يجشمهم سيراً يؤثر على قدراتهم وإمكانياتهم ، حتى يصلوا إلى الميدان وهم فى راحة دون جهد وفى انتعاش دون إرهاق ، فهم يتحركون إلى حيث يجدون عدواً قابعاً فى أماكنه فوق أرضه وبين ناسه ، لم يبذل جهداً ولم ينله إرهاق . . . وهـذا أسـلوب متطور وحـديث ، تأخـذ به القيادات فى العصر الحديث ، فتحرص على عدم إجهاد الجند قبل مباشرة القتال ، ومن أجل هذا أنشئت المركبات ووسائل الانتقال من عربات وحاملات الجنود والطائرات والسفن لتحمل الجند من مراكز التجمع إلى أماكن القتال فيكونون فى حالة جسمانية وصحية وعقلية تساعدهم على دخول المعركة وقواهم موفورة ، ونلاحظ أن عمر فى توجيهاته يصر على أن يمنح الجنود راحة أسبوعية يجددون فيها نشاطهم ، ويعدون سلاحهم ، ويجهزون أنفسهم لمرحلة قتالية تالية ، وهذا الاتجاه فى تفكير عمر هو ماتأخذ به القيادات الحديثة ، فإنها تصر على أن يمنح محاربوها أجازة بعيدة عن مواقع القتال ، وهى التى يقال عنها « أجازات الميدان » ، ونلاحظ أيضاً أنه نصح — حرصاً على راحة الجند — أن يكون مقامهم فى مكان بعيد عن قرى أهل الصلح والذمة ، وأن يمنع اختلاط الجند بهؤلاء ، وهذا أمر أدركته أيضاً القيادات الحديثة ، فجعلت بعض المواقع ممنوعة على جندها ولايسمح بتردد العسكريين عليها حرصاً على راحتهم وضماناً لأمنهم .

والقائد العام يوصى قائد قواته بعدم التعرض بالإيذاء لأهل الصلح والذمة ، وبعدم التعرض لما لهم فلا يستعين به فى محاربة الأعداء ، لأن لهؤلاء حرمة ، والمسلمون مأمورون بالوفاء بالعهود ، وهذا سلوك أخلاقى تميزت به

المدرسة العسكرية الإسلامية ، فإن التعرض لأهل البلاد يثير غضبهم وحنقهم ، فيتصرفون بأسلوب يضر بمصلحة الجيش ، وهذا جانب تتميز فيه العسكرية الإسلامية عن باقى القيادات العسكرية الأخرى ، فإن الجيوش لا ترعى مصالح القوم فى المناطق التى يحاربون فيها ، ولا تحافظ على مشاعرهم مما يثير الغضب عليهم ، ويدفع القوم إلى التذمر أو السلبية فى معاملتهم مما يضر بمصالحهم ، وخاصة إذا تعدى ذلك إلى الممتلكات فنهبوها أو استغلوها لخدمة أغراضهم ، فإن ذلك يكون مبعثاً للثورة ومجلبة للمشاكل .

والقائد العام يبرز فى رسالته أهمية الاستطلاع لمواقع العدو ، بقصد الوقوف على أخباره ومعرفة مواطن الضعف والقوة عنده ، وهو يطلب من قائد قواته أن يستعين بالعيون الصادقة المخلصة الوفية التى تنقل بصدق . لا تكذب ولا تخدع ولا تبدل ، لأن المعلومات التى تقدمها تكون دائماً الأساس الذى توضع عليه الخطة ، فإن كانت معلومات صادقة وضعت خطة سليمة ، وإذا كانت كاذبة لا تتفق مع الحقيقة والواقع فسدت الخطة ودفع الجيش ثمنها وهو فى الحرب ثمن غال ، ومازال الاستكشاف إلى يومنا هذا موضع الاهتمام من كافة القيادات ، وتقوم به جماعات استطلاع كانت مثيلاتها فى الإسلام يطلق عليها اسم العيون .

وتتضمن رسالة القائد العام بعد ذلك المبادىء العسكرية الهامة التالية :

● ● ● ضرورة تحطيم مرافق العدو وقطع خطوط مواصلاته ومنع العون والمدد عنه ، وهذه خطوة ذات أهمية بالغة وقت القتال ، فسلامة خطوط المواصلات تعنى سلامة القوات ، لأنه عن طريقها تصل **الإمدادات**

بمختلف أنواعها رجالا أو غـــذاء أو سلاحاً ، ويتم بواسطتها الاتصال بالقيادات ، وقطع هذا الاتصال يؤدى إلى عواقب وخيمة ونتائج خطيرة ، وبقدر ما كان المسلمون يحرصون على قطع خطوط مواصلات العدو وحبسه عن العالم الخارجى ، بقدر ماحرصوا على أن تبقى خطوطهم سليمة ، وعن طريقها كانت تصل توجيهات القيادة العامة فى المدينة ، وكانت أيضاً تصل الإمدادات التى كان يحتاجها الموقف العسكرى . .

ولما كان العدو فى الحروب الإسلامية يقاتل فوق أرضه ، فقد كان السبيل الوحيد لقطع خطوط مواصلاته هو الحصار ، والتهديد بحرق المزروعات والنخيل ، فقد حاصر رسول الله بنى قينقاع فلما طال الحصار وعجزوا عن البقاء داخل حصونهم ، أدركهم التعب ، وسألوا الرسول أن يخلى سبيلهم على أن يخرجوا من المدينة ، ولهم النساء والذرية ، وللرسول الأموال والسلاح ، وحاصر الرسول أيضاً يهود بنى النضير وهددهم بقطع نخلهم ، فاستسلموا وقالوا « نحن نخرج من بلادك » ، وحاصر عمرو بن العاص حصن بابليون وطال الحصار حتى فتح الله عليهم الحصن وهزمهم الروم واستسلموا . . ولقد بذلت بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية جهداً كبيراً لقطع مواصلات المحور إلى شمال أفريقيا مما كان له أثر كبير فى منع وصول الإمدادات والمؤن إلى قوات المحور هناك ، فعجل ذلك بهزيمتهم ، لأنهم لم يتمكنوا من استعاضة خسائرهم فى الرجال أو السلاح أو البترول الذى كانت تعتمد عليه قوات البانزر الألمانية فى تحركاتها خلال القتال .

● ● ● عدم إرسال السرايا إلى أماكن غير معروفة أو مدروسة

يخاف عليها فيها الهزيمة أو الضياع ، ولهذا كان المسلمون يدرسون المناطق جيداً ، ويعرفون أسرارها حتى لا يدفعوا بقواتهم إلى منطقة تكون معلومة لدى العدو ويجهلونها هم ، فيكون فيها ضياعهم ، ولهذا نصح القائد العام قائد قواته بأن يطيل مدة البقاء فى أرض العدو ، لأن ذلك يزيد الخبرة بها ويمكن من دراسة تضاريسها وأحوالها .

● ● ● عدم البدء بالعدوان ، وهذه سياسة عامة وضع قواعدها الإسلام وجعلها مبدأ من مبادىء القتال ، إلا فى حالة الإكراه على البدء به ، فإذا ماوقع العدوان وجب على قائد القوات أن يحشد جموعه وأن يلقى عدوه فى كثافة عددية .

● ● ● إقامة حراسة كاملة حول معسكر الجند حتى لا يفاجئهم العدو ، وضرورة اليقظة التامة وعدم الاطمئنان إلى العدو ، وهذا يعنى الاهتمام بالسرية وسلامة الجند والحرص ، خوفاً من وقوع مفاجأة تهز أعصاب الجند وتحطم معنوياتهم وتوهن عزيمتهم ، وهو يؤكد على أهمية الحراسة ليلا واتخاذ الحيطة والاستعداد لأية مفاجأة .

● ● ● الاستعانة بالله والتوجه إليه ومداومة مناشدته النصر والتأييد .

* * *

وأخيراً

فإن رسائل القيادة العامة إلى قيادات القوات فى كل مواقع القتال كثيرة ومتعددة ومستمرة ، وكانت القيادة العامة تواصل تقديم النصح

والإرشاد ، وتشارك فى وضع الخطط ، وتسهم برأيها فى تحليل الموقف العسكرى ، وتوجه القيادات إلى أسلوب القتال السليم .. وهذا يعنى أن التفاهم كان واضحاً ميسوراً بين القيادتين .

ومجال الكتاب لا يسمح بعرض هذه الرسائل أو بعض منها ، فهذا يلزمه كتب كثيرة ، وهذه الرسائل منشورة فى المراجع التى تتناول تاريخ الإسلام وتاريخ حروبه ، ويمكن الرجوع إليها ، ولهذا فنحن نكتفى بعرض هاتين الرسالتين راجين أن يكون فيهما ما يفى بغرض الكتاب .

* * *

وهناء نقطة هامة تتطلب الإشارة إليها فى ختام هذا الحديث فإن عمر قد كتب إلى عماله أن لا يغيب أحد بالغزو أكثر من أربعة أشهر وسبب ذلك أنه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول وكان رجلها ضمن القوات المحاربة فى العراق ...

تطاول هذا الليل وأسود جانبه وأرقنى أن لا خليل ألاعبه

فلولا حذار الله لا شىء مثله لزُحزح من هذا السرير جوانبه

وكان رأى عمر لفتة كريمة تؤكد حرصه على صلة الجند بذويهم وألا تشغلهم الحروب عن واجباتهم الأسرية ... فنعم الرأى .

(٣)

إن القيادة الناجحة الرشيدة هى التى تدرس وتلم بظروف المعركة قبل أن تخوضها .

وظروف المعركة من وجهة النظر العسكرية تعنى أشياء كثيرة .

فإن الجيش يدخل المعركه بخطة تضعها القيادة ، وهذه الخطة لا توضع بأسلوب إرتجالى ، وإنما تأتى بعد دراسة واعية لكل جزئيات المعركة ، وتوضع بناء على ما يمكن التوصل إليه من معلومات سليمة صحيحة حقيقية .

ويجب إذن أن توضع بين يدى القائد معلومات وافية عن العدو الذى سيواجهه ... وعن الأرض التى ستكون المعركة فيها وفوقها ... وعن الظروف الجوية التى تسود ميدان القتال ... يجب أن يعرف كل شىء عن عدوه .. قوته .. سلاحه .. أسلوبه فى القتال .. حلفائه ..

ويجب أن يعرف طبيعة الأرض .. هل هى مستوية .. هل هى جبلية .. هل هى صحراوية .. هل أرض زراعية .. هل بها أنهار أو مجار أو مستنقعات ...

ويجب أن يعرف الظروف الجوية ... الطقس ... الرياح .. السماء .. الأمطار ..

هذه المعلومات تعين القائد على الرؤية السليمة للموقف العسكرى من

كافة جوانبه ، وتصبح الصورة واضحة المعالم متكاملة وتمكنه من وضع الخطة باقتناع وتفهم وإدراك .

كانت القيادات قبل الإسلام لا تهتم بهذه المعلومات ، وكان همها الأكبر قاصراً على جمع الجموع وحشد الحشود ، وكانت الجيوش الكثيفة عدداً وعدة تتبع قائدها دون هدف أو غاية سوى الفتح والسلطة والسيطرة وإخضاع الغير .. وكان السبيل الوحيد للإنتصار فى الحرب هو توافر كثرة عددية فى الرجال والسلاح ، دون اهتمام بتوجيه المعركة عن دراسة وفهم وتقدير .

ولما جاء الإسلام اختلفت الصورة وتغيرت الأفكار ، واحتل الفن العسكرى مكانه فى فكر القادة ، وأصبح دخول معركة ما يخضع لدراسة عميقة ولأسلوب علمى يقوم على الفهم الكامل لظروف المعركة والتقدير الصحيح لكل جوانبها .. وبالرجوع إلى التاريخ الحربى الإسلامى نجد أن المدرسة العسكرية الإسلامية أولت الدراسات المتعلقة بالمعركة كل اهتمام وعناية ، وأن جيوشها خاضت المعارك بأسلوب متطور فى فن القتال ، وبمنهاج مستحدث فى إدارة المعركة ، وبتشريعات ووجهات نظر جديدة فى كل مشكلات الحرب .

كان رسول الله ـ وهو أول من مثل القيادة العليا للجيش الإسلامى ـ حريصاً على جمع المعلومات عن عدوه ، فكان يبعث بالعيون وكان يخرج بنفسه ، وسار الخلفاء من بعده على دربه ، وأصبح جمع المعلومات أهم وأخطر مراحل المعركة ، ولهذا اهتمت بها القيادات الإسلامية على مختلف مستوياتها ،

روى ابن إسحاق أن رسول الله نزل قريباً من بدر مع رجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب يسأله عن قريش وعن محمد وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ « فإنه بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنا ، فهم اليوم بمكان كذا (وهو المكان الذى نزل به رسول الله وأصحابه) ، وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى صدق ، فهم اليوم بمكان كذا » ،

وبعث رسول الله علىّ بن أبى طالب والزبير وسعد بن أبى وقاص إلى ماء بدر ، يلتمسون الأخبار عن قريش ، فعادوا بغلامين أحدهما لبنى الحجاج والآخر لبنى العاص ، وحاور رسول الله الغلامين وسألهما أسئلة محددة .. أين موقع القوم ؟؟ كم عددهم ؟؟ كم ينحرون كل يوم ؟؟ من فيهم من أشراف قريش ؟؟ وتجمعت لديه عليه السلام معلومات وافية عن عدوه ، فعرف أنهم « وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى » ... أنهم خرجوا فى جمع كثيف ... أنهم ينحرون يوماً تسعا ويوماً عشرا من الجزر فعددهم إذن ما بين التسعمائة والألف .. كان مع الخارجين أشراف القوم وفى مقدمتهم عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وأبو البحترى بن هشام وأبو جهل ابن هشام وأمية بن خلف .. وواجه رسول الله قومه فى ضوء هذه المعلومات وقال لهم « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » .

وكان رسول الله حريصاً على معرفة موعد وصول قافلة أبى سفيان ، فبعث باثنين من أصحابه هما بسبس بن عمرو وعدىّ بن الزغباء يجمعان له

الأخبار ، فمضيا إلى ماء بدر ، حيث سمعا حواراً بين جاريتين ، قالت واحدة للأخرى « إنما تأتى العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم وأقضيك الذى لك » ، وصدق على قولها رجل كان بجوارها وقال « صدقت » ، وعاد الإثنان إلى رسول الله ومعهما ما يفيد موعد الوصول .

وقبض عمر بن الخطاب على يهودى خلال حصار خيبر ، فسأله اليهودى أن يذهب به إلى رسول الله ليكلمه ، فلما التقى اليهودى بالرسول طلب الأمان لنفسه ولزوجته ، ثم أبلغ رسول الله أن القوم يتسللون من حصن النطاة إلى الشق ، ويتهيئون للقتال ، قال اليهودى « فى هذا الحصن فى بيت فيه تحت الأرض منجنيق ودبابات ودروع وسيوف ، فإذا دخلت الحصن غداً وأنت تدخله إن شاء الله ، أوقفتك عليه ، فإنه لا يعرفه غيرى » ... وقال « يستخرج المنجنيق وينصب على الشق ويدخل الرجال تحت الدبابات ، فيحفروا الحصن ، فتفتحه من يومك ، وكذلك تفعل بحصون الكتيبة » .

وأهتم عمرو بن العاص خلال فتح مصر بجمع المعلومات عن عدوه ، حتى أنه سعى بنفسه إلى مواطن العدو ، ليجمع بنفسه المعلومات ، فدخل حصن عدوه على أنه جندى عربى يحمل رسالة إلى إرطبون الروم ، ودرس الحصن ، وعرف أسراره وطرقه ومواطن الضعف فيه ، ووضع خطة الاستيلاء على الحصن فى ضوء ما بين يديه من معلومات ، حتى أن أرطبون أشار بعبقريته فقال « خدعنى الرجل إنه أدهى الخلق جميعاً » ، وكان هذا القول أبلغ رد على قول عمر لأصحابه « قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عما تنفرج » .

ولاشك أن حضور عمرو بن العاص إلى مصر فى جاهليته ، كان له أثر كبير فى معرفته بأحوال مصر وأخبارها وطرقها ومسالكها ، وكانت المعلومات التى تجمعت لديه ذات فائدة كبيرة عند عودته إليها على رأس الجيش الإسلامى ، فمما أثبتته الأحداث وأجمعت عليه المصادر والمراجع أن جيش عمرو حين دخل مصر دخلها من ذات الطريق الذى قطعه مع الشماس الذى رافقه فى زيارة مصر .

وقام المثنى بن حارثة بدراسة واسعة لأحوال العراق قبل أن يفكر فى غزوها ، واستطاع من دراسته أن يعرف مواطن الضعف وأن يدرك سوء الحالة الاجتماعية فى داخلها ، وأن يقف على المنازعات الداخلية المستمرة بين ملوك الحيرة طمعاً فى الملك ورغبة فى الرئاسة . . وهذه الدراسة سهلت له عملية الغزو ، فلما لاقى فى أول مرّة نجاحاً سارع إلى المدينة وعرض أمر فتح العراق على الخليفة ، وتحت يديه كافة المعلومات التى جعلت الخليفة يقتنع بوجهة نظره ، وينظر إلى الأمر بصورة أعمق وأشمل ، فكان تسيير جيش خالد إلى هناك .

وعندما استأذن موسى بن نصير الخليفة للسير إلى بلاد الأندلس ، بعث إليه قائلا « خضها بالسرايا ، حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال » ، وعاد الخليفة فكتب له « لابد من إختباره بالسرايا قبل اقتحامه » ، وهذا يعنى أن الخليفة كان يرى أن تتم عملية النزول فى أرض الأندلس واجتياز البحر إليها بعد دراسة مستوفاه للبحر ، حتى لا يلقى بالجند فى مهلك أو مخاطرة غير محسوبة النتائج .

وظلت عيون صلاح الدين تدرس بيت المقدس وأسواره خمسة أيام متصلة ، حتى توصلت إلى اكتشاف ثغرات فى جبهته الشمالية المعروفة بباب كنيسة صهيون ، فحرك الجند إلى هذه المواقع ونصب المنجنيقات وكان الهجوم العام اعتماداً على معلومات العيون .

ومن زاوية أخرى فقد اهتم الرسول بجمع المعلومات عن طبيعة الأرض ، لإختلاف نوعية القتال بإختلاف طبيعة الأرض ، واهتمت القيادات الإسلامية من بعده بذلك أيضاً .

فقبل غزوة أحد ألقى رسول الله نظرة على أرض المعركة ولاحظ وجود الجبل ، فرأى أن يستفيد منه فيحمى المسلمين من الخلف ويمنعهم من عدوهم ، فاختار عليه السلام خمسين من الرماة ووضعهم على شعب فى الجبل وأمرهم بالبقاء لحماية ظهور المسلمين ، وبعدم مغادرة الموقع فى حالتى النصر والهزيمة ، وكان رسول الله يرى فى ارتفاع الجبل فرصة للسيطرة على منطقة القتال كلها ، فلما خالف الرماة أوامره عليه السلام ، وتركوا أماكنهم ، هاجم خالد الجبل وقتل من بقى من الرماة ، وسيطر على الموقع ، فتحولت المعركة إلى جانب قريش ، بعد أن كان النصر بين يدى المسلمين .

وعندما بعث بهمن جاذويه إلى أبى عبيد بن مسعود يقول له قبل موقعة الجسر « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم » ، لم تكن لدى أبى عبيد أية معلومات عن النهر أو عن الأرض التى سيلتقى فيها بالفرس بعد العبور ، وكان المثنى على علم بالمنطقة ، ورأى أن الأرض خلف النهر ضيقة لاتتحمل قوات المسلمين . ولا تسمح بالمناورة وحرية

الحركة ، فنصح القائد أبا عبيد « لاتعبر .. إننا ننهاك عن العبور » ، ولكن أبا عبيد رفض الرأى ، وصمم على العبور ، قائلا للناس « لنقطعن الفرات إليهم » ، وأمر بالعبور ، فهاجمه الفرس خلال العبور ، فوق أنهم لم يتركوا له إلا منطقة ضيقة لا تحتمل كل قواته ، فكانت هزيمة الجسر المرّة التى خسر فيها المسلمون بضعة آلاف مابين قتيل وغريق .. ولأن المثنى درس المنطقة وعرف طبيعتها رفض فى البويب العبور ، وبعث إلى الفرس « بل اعبروا إلينا » ، فعبروا حيث كان مقتلهم على يد المثنى ثأراً لقتلى الجسر .

إن المعلومات عن الحالة الجوية تفيد جداً عند وضع خطة اللقاء ، وقد فشلت الأحزاب التى حاصرت المدينة فى موقعة الخندق ، لأن قيادتها لم تدرس حالة الجو ، ولم تقف على إمكانية التقلبات التى قد تحدث خلال فترة المعركة.. لقد كانت جموعهم عديدة كثيفة أفزعت المسلمين وزلزلت قلوبهم مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب ١٠/١١) . .

فلما كان الليل عصفت ريح شديدة ، وهطل المطر غزيراً ، وقصف الرعد ، ولمع البرق ، واقتلعت الريح خيام الأحزاب ، وكفأت القدور ، وقام طليحة بن خويلد ونادى « إن محمداً قد بدأ كم بشر فالنجاة النجاة » ، وقال أبو سفيان « يامعشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما يطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا

نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فإرتحلوا فإنى مرتحل » .

ودعا رسول الله خلال الخندق حذيفة بن اليمان وقال له « يا حذيفة ، إذهب فأدخل فى القوم (يقصد الأحزاب) ، فانظر ماذا يفعلون ، ولا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تأتينا » ، وقال حذيفة « فذهبت فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ماتفعل ، لاتقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء » ، وبقى بينهم وسمع قولهم وعرف أنهم سيرحلون ، فعاد إلى رسول الله وأخبره الخبر ، فسعد عليه السلام وقال لأصحابه . . «الآن نغزوهم ولا يغزوننا » ، ثم هتف وهتف رجاله من ورائه « الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلاشىء بعده » .

فهذه الظروف المناخية لم يكن لدى قريش أية معلومات عنها ، ولذا فوجئت بها ، دون أن تعد نفسها لمواجهتها ، وهذا الجهل بطبيعة الجو كان من عوامل الهزيمة التى لحقت بهم . .

ولقد حدث موقف مماثل فى بدر ، إذ أرسلت السماء سحباً مثقلة حافلة بالغيوث الثقيلة ، فصبت أثقالها على الطرفين المتقاتلين ، وتحولت الأرض التى يسير عليها المشركون إلى أوحال وأغوار ، وأصبح من المسير عليهم أن يتقدموا ، فكلما انتزعوا قدماً أو رجلا غاصت قدم أو رجل ، أما أرض المسلمين فقد أصابتها أطراف السحب بمطر خفيف ، وكانت أرضهم رملة ، فتلبدت الأرض تحتهم ، وسهلت لهم مضاعفة السير ، فساروا وهم فى بهجة وانتعاش ، بينما تعثر المشركون .

وهذا الذى حدث فى بدر يؤكد أن الأحوال الجوية تؤثر تأثيراً مباشراً

على العمليات ، وهذا يتطلب أن تقوم القيادات بدراسة حالة الجو وتغيراته خلال فترة القتال ، واتخاذ مايلزم لمواجهتها وإعداد الجند لتحملها .

وإذا كانت المدرسة العسكرية الإسلامية قد وضعت قواعد هامة قبل دخول المعركة ، وجعلت الاستطلاع وجمع المعلومات عن العدو والأرض والجو واجباً تلتزم به كافة القيادات ، فإنها فى ذات الوقت قد توقعت أن العدو الذى تجمع عنه المعلومات ، قد يتخذ هو أيضاً مثل هـذه الخطوة ، فيجمع المعلومات اللازمة عن المسلمين . . . لم يغب هذا عن ذهن أحد ، ولهذا فرضت المدرسة العسكرية الإسلامية السرية المطلقة على كافة ما يتصل بأمور الحرب والمعركة ، وأصبح قول النبى « استعينوا على قضـــاء حوائجكم بالـكتمان » ، شعاراً للمسلمين فى كافة أعمالهم عامة والعسكرية خاصة .

ولقد نبـه الرسول الـكريم إلى ضرورة اتخاذ السرية فى التجمع والتحرك ، حتى لاتـكون لدى العدو فرصة يجمع فيها المعلومات التى تفيده ، وإذا كان جمع المعلومات سلاحاً ذا حدين ، فإن المسلمين قد استغلوا إحدى حديه لصالحهم ، وأبطلوا مفعول الحد الآخر باتباعهم السرية ، واتخاذها أساساً لتحركاتهم واستعداداتهم .

فمثلا حين بعث الرسول بسرية عبد الله بن جحش الأسدى ، كتب له كتاباً وأعطاه له دون أن يعلم مابه ، وأمره أن لاينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين ، فإذا نظر فيه مضى لما أمره به ، وكان الهدف من ذلك هو كتمان أمر التحرك وجهته حتى لايعرف قبل أوانه ، وحتى لايتسرب خبر التحرك إلى العدو فيعرف به ويحذره .

وفى غزوة الفتح دعا رسول الله ربه أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لاتقف على نبأ يفيدهم ويضر التحرك ويسىء إلى الهدف ، قال « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش » ، وأمر عليه السلام بحراسه الطرق إلى مكة ، والقبض على كل من يستراب فيه ، وكلف عمر بن الخطاب بأن يشرف على الحراسة ، ومنع الدخول والخروج إلى ومن المدينة « لاتدعوا أحداً يمر بكم إلا رددتموه » .

وفى هذه الغزوة فشلت محاولة حاطب بن أبى بلتعة ، وكان قد أعد كتاباً يخطر فيه قريشاً بتحرك الرسول إليهم ، وسلمه لامرأة تسمى سارة استأجرها بعشرة دنانير ، وقال لها « أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق ، فإن عليه حرساً » ، فقد علم رسول الله بأمر الكتاب ، فبعث عليا والزبير والمقداد وراء المرأة حتى لحقوا بها ، وفتشوها وأخرجوا الكتاب ، وعادوا به إلى الرسول ففضه ووجد فيه « إن الرسول قد أذن فى الناس بالغزو ولا أراه يريد غيركم » .

ونهج القادة المسلمون منهج الرسول الكريم .

روى ابن حيان أن جند عمرو فى ذات السلاسل طلبوا منه أن يأذن لهم فيوقدوا ناراً ليصطلوا عليها من البرد ، فمنعهم ، وأنكر عليه ذلك عمر بن الخطاب، وكان أحد جنده ، فتشاور مع أبى بكر فقال « دعه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه علينا إلا لعلمه بالحرب » ، واعترض بعض الجند فقال لهم عمرو « لايوقد أحد ناراً إلا قذفته فيها » ، وشكاه المسلمون إلى رسول الله ، بعد عودتهم ، فقال « خفت أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين لأعدائهم وهم قلة فينقضوا عليهم » .

وكان من أهم وسائل حجز المعلومات عن العدو ، حرص القادة المسلمين على أن يكون تحرك قواتهم ليلا وليس نهاراً ، إمعاناً فى إخفاء تحركاتهم عن العدو ، فلا يعرف شيئاً عنهم ولا تتجمع لديه معلومات تفيده وتضرهم ، ومثال ذلك تحرك عبد الله بن جحش بسريته ليلا دون النهار وكان يقول : « كمنا نسكمن نهاراً » .

* * *

الآن وقد أعد القائد كل مقومات المعركة ...

- فأصبح لديه جيش فيه أفراد مدربون جاهزون معنوياً ونفسياً لخوض غمار المعركة .
- وأصبح جيشه مسلحاً بأنسب الأسلحة وأصلحها وأجداها استعمالا .
- وأصبحت لديه المعلومات الكافية الضرورية عن عدوه ثم عن الأرض والظروف الجوية .

فإن الخطوة التالية هى تقدير الموقف العسكرى فى ضوء كافة المعلومات والبيانات عن جيشه وعن عدوه .

وتقدير الموقف ينتهى بتحديد ورسم خطة العمليات .

وفى الحروب التى قامت قبل الإسلام لم يكن هناك تقدير الموقف على أسس سليمة صحيحة مناسبة ، ذات قيمة فنية كبيرة ، ذلك أن هذه الحروب كانت تعتمد أساساً على الكثرة العددية ، وكان تقدير الموقف

قاصراً على تجهيز الأعداد والسلاح بالكثافة المطلوبة التى تحقق النصر ، وهذا أمر بعيد عن مستوى التفكير العسكرى الإسلامى ، فالكثرة العددية كانت هى محور التفكير ومحور الخطة ، فهانيبال مثلا عندما التقى بالرومانيين عند مصب نهر (بو) اعتمد فى خطته على كثرة حشوده ، فقسم الجيش إلى قسمين يهاجم أحدهما العدو ثم ينسحب فيتبعه العدو ، وهنا يهاجمه القسم الآخر ، ويعود القسم المنسحب إلى الهجوم هو الآخر ، وهذه الخطة لا يتحقق لها النجاح إذا لم يتوافر لدى القائد حشد كبير .

وبالرجوع إلى كتب التاريخ ومصادره ، نلاحظ أنه مامن قائد قبل الإسلام وضع خطة القتال بعد دراسة لظروف المعركة وأحوالها ، ولما كان المسلمون المحاربون دائماً أقل كثافة من أعدائهم ، فإنهم أعطوا لهذه الدراسة حقها ، فكانوا يهتمون اهتماماً بالغاً بتقدير الموقف قبل خوض المعركة ، ليطمئنوا إلى أنهم لايتقدمون على خطر ، وأنهم يؤدون عملا نسبة نجاحه مضمونة موفورة .

وأصبح فى فكر المدرسة العسكرية الإسلامية ومنهجها أن تقدير الموقف عمل رئيسى وهام ، ولقد اقتنعت بهذا المنهج القيادات الواعية الفاهمة التى جاءت بعد الإسلام ، وأصبح تقدير الموقف فى فكرها العسكرى دعامة أساسية ولبنة هامة فى وضع خطة القتال ، ولعل خير مايذكر فى هذا المجال ما جاء فى كتاب « تاريخ الحروب فى العالم » الذى وضعه « الفيلد مارشال لورد مونتجمرى » ، فقد ذكر المؤلف فى خلال حديثه عن نابليون — وهو رأس المدرسة العسكرية الفرنسية الحديثة وقائد لايدانيه كثيرون ولا يتفوق عليه أحد — ذكر أن قدرة نابليون الإستراتيجية الفائقة المتميزة كانت ترجع

إلى أنه كان يضع خططه على أساس المعلومات التى يقدمها له أركان حربه برئاسة برتييه وكونت دارو ، وأنه كانت تسبق كل حملة مرحلة من التنظيم والبحث الدقيق ، وأن الاستعداد الطويل والتدبير المحكم الذى يسبق حملاته كان شيئاً حيوياً فى رأيه لنجاح المعركة .

ومازال تقدير الموقف يحتل مكان الصدارة فى تفكير قادة الحروب الحديثة ، ولقد سجلت كتب التاريخ الحديث أحداث هذه الحروب ، وناقش واضعوها تقدير الموقف فى كل معركة ، وسلطوا الأضواء عليه ، وكانت قيمة ومقدرة القائد تقدر أساساً على حسن تقديره للموقف ثم انتهائه إلى وضع الخطة ... والمتتبع لتاريخ الحرب الإسلامية يدرك أن معارك الإسلام كلها قد قُدِّر الموقف بالنسبة لها قبل خوضها تقديراً صائباً سليما ، أدى إلى وضع خطة محكمة ، قادت إلى النصر وحققته .

ونحن نقدم تقديراً للموقف العسكرى الإسلامى فى بدر، على أساس أنها أول معركة عسكرية خاضها المسلمون ، كمثل ودليل على أن المدرسة العسكريه الإسلامية كانت تعالج شئون المعركة بفكر متميز وعقل متفتح وإجراء مبتكر وأداء أمثل وأفضل .

ونرجو أن نحيط القارىء علماً بأننا فى تقدير الموقف العسكرى فى بدر نستخدم الإصطلاحات العسكرية التى تستخدم فى حروب اليوم ، ونقدم هذا التقدير للموقف فى ضوء نظريات الحرب الحديثة وطبقاً لمفاهيم الفن العسكرى المعاصر .

تقدير الموقف العسكرى

فى بـــــدر

الموقف العـام

[١] بلغ رسول الله أن قريشاً جمعت أموالها للتجارة ، حتى لم يبق بمكة لا قرشى ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به فى تلك العير ، وقيل إن فى تلك العير خمسين ألف دينار ، وكان أبو سفيان هو قائد القافلة ، وكان معه سبعة وعشرون ، وقيل تسعة وثلاثون رجلا ، منهم عمرو بن العاص ومخرمة ابن نوفل... أبو سفيان رجل حذر داهية ويعتمد عليه ، وعمرو رجل مشهور بالدهاء ، ومخرمة كان سليط اللسان .

وقرر رسول الله اعتراض طريق القافلة ، فخرج فى مائتين من المهاجرين إلى العشيرة ، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وحمل اللواء ـ وكان أبيض اللون ـ حمزة بن عبد المطلب ، وكان معهم ثلاثون بعيرا يعتقبونها ، إلا أن القافلة مرت ، وبلغت الشام ، ولهذا استقر رأى الرسول على :

(١) أن يعترض أبا سفيان وقافلته عند العودة ، وقد قدر زمن الذهاب والعودة بثلاثة أشهر .

(٢) أن يبث العيون لمراقبة الطريق ومتابعة أخبار القافلة والإفادة عنها عند اقترابها .

وعندما اقترب موعد العودة حسب تقدير الرسول عليه السلام ـ وكان

تقديره صادقاً فلم يخالف الواقع حسابه فى شىء - بعث عليه السلام طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد فمضيا حتى نزلا فى الروحاء (على بعد ثلاثين ميلا من المدينة) بخباء رجل من جهينة يسمى كشد (أو كسد كما جاء فى الإصابة) وأقاما عنده حتى لاحت العير فأسرعا إلى المدينة يبلغان الرسول .

وأرسل الرسول بسبس بن عمرو وعدى بن الزغباء ليجمعا معلومات عن القافلة ويراقبا عودتها ، فنزلا بدراً ، حيث سمعا جاريتين من جوارى العرب تتخاصمان ، وتطالب إحداهما من الأخرى ديناً لها ، فقالت « إنما تأتى العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لها ، ثم أقضيك الدين » ، وصدق على قولهما عربى يدعى مجدى بن عمرو ، وأكد لهما قرب ورود العير ، فعاد المبعوثان بهذا الخبر إلى رسول الله .

[٢] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قدر أن يذهب أبو سفيان وقافلته إلى الشام ثم يعود ماراً ببدر فى خلال ثلاثة أشهر ، وخشى عليه السلام أن ينجح أبو سفيان فى الإفلات بالقافلة مرة أخرى ، فتضيع فرصة قد لا تعود ، ولهذا ندب المسلمين إلى الخروج ، فخرج معه من كان بعيره أو فرسه حاضراً ، وطلب إليه قوم كانوا يسكنون عوالى المدينة وأغلبهم من الخزرج، أن ينتظر حتى يذهبوا ويحضروا رواحلهم ليخرجوا معه ، فلم يقبل حرصاً على الوقت والفرصة ، وقال « لا يتبعنا إلا من كان بعيره حاضرا » ، ولم يكن عليه السلام يفكر فى جمع أو حشد أو كثرة ، لأنه كان يريد العير فقط ، وهى فى حراسة قليلة لا قوة لها ولا شوكة ،هذا فوق أنه عليه السلام لم يكن يبغى قتالا ، ولم يفكر فيه أصلا ، وخرج معه عدد قليل أكثرهم من

الشباب ، وكان ضمن الخارجين غلمان لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من أعمارهم ، منهم عمير بن أبى وقاص ، وحارثة بن سراقة ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، ورافع بن خديج ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن حضير ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن ثابت ، وآخرين لم يجزهم رسول الله .

ولم يكن مع الخارجين سوى فرس[1] للزبير بن العوام وللمقداد بن عمرو ، وسوى سبعين راحلة ، فكان الخارجون يتعاقبون الركوب ، وكان النبي يتناوب ركوب بعير مع علىّ بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد .

[٣] شعر أبو سفيان – وهو فى طريق العودة – حين اقترب من الروحاء أن عيوناً تترصده ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، وبعث به إلى مكة يبلغ أهلها أن المسلمين قد اعترضوا طريق القافلة ، ويستصرخهم إلى مناصرة العير وإنقاذها ، ووصل ضمضم إلى مكة ، فقطع أذن بعيرة ، وجدع أنفه ، وحول رحله ، ووقف عليه ، وشد قميصه من قبل ومن دبر ، ثم نادى أهلها واستنفرهم . « يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، ولا أرى أن تدركوها .. فالغوث .. الغوث » ، وسمع أبو جهل صيحات ضمضم فتملكه الغيظ ، وأشفق على ماله ومال قومه ، فأسرع إلى الكعبة ، ووقف يصيح فى قريش أن تخرج

---

(١) جاء فى السيرة الحلبية أنه كان فى الجيش خمسة أفراس فرسان لرسول الله وفرس لكل من مرثد والزبير والمقداد ، ولكن اتفقت غالبية المراجع على أنه كان فى الجيش فرسان فقط .

كلها لإنقاذ الأموال ، وقال « أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك » (يقصد العير التى استولى عليها عبد الله بن جحش وسريته) .

وكانت بين قريش وكنانة عدادات وثارت ، وخشيت قريش الخروج فيقع بينها وبين كنانة صدام يؤخر اللحاق بأبى سفيان ، ولكن مالك بن جعشم أحد أشراف كنانة قطع على نفسه عهدا بألا يتعرض قومه لقريش أثناء تحركها ، وقال لهم « أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه » .

خرجت قريش فى ألف رجل ، وأعان قويهم ضعيفهم ، كل يحمل سلاحه ، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير ، وقد تجهزوا للحرب .

[٤] فى هذه الأثناء كان أبو سفيان على رأس القافلة يغذ السير فى طريقه إلى مكة ، وكان رجلا حذرا فسبق العير يتنطس الأخبار ، فقابله مجدى بن عمرو فسأله « هل أحسست أحدا ؟ » ، فقال « ما رأيت أحدا أنكره ، إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن لهما ، ثم انطلقا » ، فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيرهما ، ففتته فإذا فيه النوى ، فقال « هذه والله علائف يثرب » ، فأدرك أن الراكبين من رجال محمد ، وتأكد أنه وصحبه سيعترضون طريقه ويضعون أيديهم على الأموال ، فعاد إلى عيره ، وغير طريقه واتجه إلى ساحل البحر ، وأسرع فى مسيره حتى بعد ما بينه وبين محمد .

ونجح أبو سفيان فى أن ينجو بالقافلة ، فلما اطمأن إلى سلامته وسلامة من معه ، بعث إلى قريش وكانوا وقتها بالجحفة « إنكم إنما خرجتم تمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله تعالى فارجعوا » .

ورأى رأيه عدد غير قليل ، إلا أن أبا جهل غضب لهذه الدعوة ، وصاح فى قومه « والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم عليه ثلاثاً ، سننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا » .

وكان بنو زهرة من الخارجين ، فخاطبهم قائدهم الأخنس بن شريق وقال « يابنى زهرة ، قد نجى الله أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله ، واجعلوا بى جبنها ، وارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير منفعة إلا ما يقول هذا (يعنى أبا جهل) » ، واستجابت بنو زهرة ، وعادوا ، ولم يشتركوا فى مسيرة قريش .

[٥] هكذا كان خروج قريش وظهورها فى الميدان وتصميمها على البقاء فى بدر ثلاثة أيام ، قد قلب ميزان القوى ، فالرسول خرج أساساً من أجل القافلة ، ولم يكن هدفه القتال ، وقريش كلها خرجت للقتال .

وسارت الأمور فى طريق الصدام المسلح .

تقـــدير الموقف

الغرض من الخروج .

مواجهة قوات قريش وصد عدوانها وحماية المسلمين

العوامل التى تؤثر على الغرض

١ — القوى المتضـادة

- قدرت قوة المسلمين بـ ٣٠٠ مقاتل تقريباً ، فيهم كثير ممن بلغوا الحلم منذ شهور ، وفيهم عدد من المهاجرين الذين كانوا مستضعفين فى مكة وفى قلوبهم بقية من الرعب ممن كانوا سادتهم الذين تولوا تعذيبهم إثر إسلامهم ، كما أن فيهم عدد قليل التجربة والمهارة والدربة .
- قدرت قوة قريش بـ ١٠٠٠ مقاتل تقريباً ، فيهم رجال مكة وأشرافها ، وهم رجال حرب مدربون على القتال .

٢ — السـلاح

- كان مع المسلمين فرسان إثنان فى مواجهة مائة فرس مع قريش وكان لدى المسلمين سبعون بعيرا يقابلها سبعمائة بعير لدى قريش .
- لم يكن مع المسلمين من السلاح سوى ثمانية سيوف وست من الدروع وعدد قليل من النبال .
- كان جيش قريش مسلحاً بالدروع والسيوف والنبال وكل أدوات القتال ، ولم يكن بين الجيش فرد واحد غير مسلح .

٣ — التحرك

• كان ماء بدر هو مكان اللقاء المنتظر ، وهو ماء مشهور بين مكة والمدينة ، ومحطا للقوافل الذاهبة إلى الشام ، بينه وبين المدينة ستين ومائة كيلومتراً ، وهو سهل رملي يحده من الشمال والشرق تلال شديدة الانحدار ، ومن الغرب كثبان رملية ، ومن الجنوب منحدر صخرى منخفض ، وينساب فى واديه جدول ماء ، يعبره من الشرق إلى الغرب ، وينقطع فى أماكن كثيرة منه فيصبح آباراً ، يحيطها المسافرون بسدود فتصبح أحواضاً .

• المسافة بين مكة وبدر تقدر بأربعة أمثال المسافة بين المدينة وبدر ومعنى هذا أنه كان أمام جيش المشركين خمسة عشر يوماً بالسير العنيف حتى يصل إلى الموقع ، وأمام جيش المسلمين أسبوع كامل ، ومعنى هـذا أن قوة جيش مكة فى التحرك هى أربعة أميال ، بينما تكون قوة المسلمين فى التحرك هى ميل واحد ، لأن جيش المسلمين من المشاة وجيش قريش من الركبان .

٤ — القوى المعنوية

• خرج المسلمون للجهاد فى سبيل الله ووقوفا فى وجه المعتـدين ، وهم يحاربون بإيمان فى سبيل أحد هدفين : إنتصار عظيم أو استشهاد كريم ، فإذا انتصروا فهو انتصار للإسلام وإرساء لقواعده . . . . وإذا ماتوا فازوا بالنصيب الأوفى وهو خير الدنيا وخير الآخرة .

• قال المقداد بن عمرو للرسول نيابة عن المهاجرين « يارسول الله إمض

لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغمام لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

● ● قال سعد بن معاذ باسم الأنصار « إمض لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء » .

● ● المشركون يحاربون من أجل دنياهم ، بنفوس تمتلىء حقداً وفجوراً ، يسعون إلى السيطرة والبغى والسلطان ، ويحرصون على حياتهم ليعودوا إلى ما كانوا عليه يتمتعون بلذات دنيوية ، وهم يأملون أن تنتهى المعركة سريعاً ليعودوا إلى سلطانهم وجاههم وحياتهم الماجنة الخليعة ، وهم يحاربون من أجل الشهرة فتسمع بهم العرب وبمسيرهم فلا يزالون يهابونهم .

طرق الحل المفتوحة

كان أمام المسلمين حلان لا ثالث لهما وأحلاهما مر .

١ — الانسحاب والعودة إلى المدينة

● ● إذا استقر الرأى على الأخذ بهذا الحل فيجب أن يتم الانسحاب بسرعة قبل أن تقطع قريش خط الرجعة على الجيش الإسلامى فلا يستطيع العودة ، هذا فوق أن الأخذ به قد يشجع قريشاً على الزحف إلى المدينة

للقضاء على المسلمين والتخلص منهم نهائياً .

- وقد يشجع هذا الحل يهود المدينة على الانقضاض على المسلمين أملا فى استعادة مركزهم ومكانتهم ، ولو أدى الأمر إلى الاستعانة بقريش .
- هذا بالإضافة إلى أن الانسحاب يؤدى إلى تدهور الروح المعنوية عند المسلمين ، لظهورهم بمظهر الضعف والخوف والجبن ، وخاصة أن الغرض الأساسى من خروجهم وهو القافلة ضاع وفات .

٣ — مواجهة جيش قريش

- وفى هذا الحل خطورة ، فجيش المسلمين قليل العدد ، قليل العدة بينما أعداؤهم يتميزون بالكثرة فى العدد والسلاح .
- ولكن الأمل كان كبيراً فى عون الله ونصرته ومؤازرته ، فقد قدر الله تبارك وتعالى هذا اللقاء على غير موعد ، كما يقول سبحانه ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُم لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ (الأنفال ٤٢) ، فما كان المسلمون ليحرصوا على هذا اللقاء لو أنهم علموا حالهم وحال عدوهم ، وأدركوا الفارق الشاسع بينهم وبين هؤلاء الأعداء فى العدد والعدة ، وأراد الله أن يتم اللقاء ليقضى أمراً سبق فى علمه وقوعه وهو نصر المؤمنين ، فبهذا النصر يبدأ الإسلام عهداً جديداً .

- ولقد اتجه الرسول بكل نفسه وروحه وقلبه إلى ربه ، وجعل ينشده ماوعده وبالغ فى الدعاء والابتهال .. « اللهم هذه قريش أتت بخيلائها

تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصبة اليوم لا تعبد » ، وخفق الرسول خفقة من نعاس ، رأى خلالها نصر الله ، فقال لأبى بكر « أبشر أبا بكر أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع » ، وقال لأصحابه « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، ونزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال ٦٦) .. و ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال ١٢) . . و . . . ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ (الأنفال : ١٧) .

● ولاحظ المسلمون أن الأمطار سقطت بشدة فوق أرض المعركة ، فتحولت الأرض التى يسير عليها المشركون إلى أوحال ، وأصبح من العسير عليهم أن يتقدموا عليها ، بينما أصابت أرض المسلمين أطراف السحاب بمطر خفيف ، فتلبدت الأرض تحتهم ، وسهلت لهم السير والحركة ، وكان سقوط الأمطار مشجعاً للمسلمين على مواجهة أعدائهم بصعب تحركهم .

مواجهة قريش ودخول المعركة

(ا) انتخب المسلمون مكاناً يشرف على منطقة القتال بنى فيه عريش للرسول ، وأمّن الحراس هذا المقر .

(ب) جرى ترتيب المقاتلين فى صفوف ، وأمر الرسول أصحابه أن يصدوا هجمات المشركين وهم مرابطون فى مواقعهم، وقال لهم «إذا اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ، ولا تحملوا عليهم حتى تُؤذنوا » .

(حـ) كانت كلمة التعارف بين المسلمين وشعارهم فى القتال « أحد .. أحد .. » .

(د) يتولى الرسول تحريض المسلمين على القتال أثناءه ، ويدفعهم لمقاتلة العدو ، ويبلغهم أن الجنة لمن أحسن البلاء ، ولمن غمس يده فى العدو حاسرا تنفيذاً للأمر الإلهى ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ . (الأنفال : ٦٥) .

(هـ) كان الإذن بالقتال هو كلمة « شدّوا » يصدرها رسول الله بصفته القائد العام للجيش الإسلامى .

(و) توجيه الجهد إلى سادات قريش وزعمائها بقصد استئصالهم جزاء وفاقا لما عذبوهم بمكة ولما صدوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله .

(ز) عدم التعرض لبنى هاشم وبعض رجال من سادات قريش رغم اشتراكهم فى المعركة ضد المسلمين تقديراً لموقفهم ومعاونتهم لهم منذ البعث إلى الهجرة وخلال فترة المقاطعة .

* * *

انتهى تقدير الموقف العسكرى

ولنا ملاحظات رأينا ألا نحبسها توضيحاً لما جاء بهذا التقدير للموقف .

(١) أرجو ألا يتبادر إلى ذهن القارىء أن قيادة المسلمين فى بدر أعدت تقدير الموقف كما أثبتناه ، ولكن مواده التى تضمنها جاءت فى صورة حوار بين الرسول وأصحابه ، وقد رأينا أن نثبت هذا الحوار فى الصيغة التى تضمنها القيادات العسكرية الحديثة لتقدير الموقف .

(٢) سعد بن معاذ هو الذى أشار على رسول الله ببناء العريش قال « يانبى الله ، نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ماتخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك » .

(٣) قد يتساءل القارىء كيف تجرى المعركة مع هذا البون الشاسع فى العدد والعدّة ، وهما ركيزتا أية معركة ؟ ، ولكن يجب أن يكون واضحا أن الله تبارك وتعالى أراد لهذه المعركة أن تكون على هذه الصورة ، لتكون تأكيدا لإنتصار العقيدة بثبوتها على الكثرة العددية بعتادها ، وليتبين للناس أن النصر للعقيدة القوية لا للسلاح والعتاد ، وأن على أصحاب العقيدة أن يجاهدوا دون أمل فى المساواة بين القوتين ، لأنهم يملكون قوة لها ثقلها وهى قوة الحق .

(٤) كان رسول الله يمر بين الصفوف يحرض المسلمين على الثبات والقتال ، وكان يقول لهم « إنى أحثكم على ما حثكم الله عليه » ... و ... « إنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه أحد إلا من ابتغى به وجهه » ...و... « إن الصبر فى مواطن البأس مما يُفَرِّج الله به الهم » ... و ... « أبلوا ربكم فى هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته ومغفرته » .

وخلال القتال نزل رسول الله من عريشه إلى أصحابه يشد عزائمهم ويبشرهم بنصر الله ويقول لهم « شدوا سيهزم الجمع ويولون الدبر ، من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أسر أسيرا فهو له » .

(٥) نفذت الخطة بالنسبة لسادة قريش ، فقد قتل أشرافهم ، ومنهم أبو جهل وأمية بن خلف وحنظلة بن أبى سفيان وعتبة وشيبة ابنى ربيعة وزمعة ابن الأسود ونوفل بن خويلد وغيرهم .

(٦) قال رسول الله لأصحابه « عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم لا يقتله » ، ومن هؤلاء البخترى بن هشام ، لأنه كان أكف القوم عن رسول الله وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ، وكان أيضاً ممن نقضوا الصحيفة ، ومنهم العباس ابن عبد المطلب .

ينتهى تقدير الموقف العسكرى بوضع خطة اللقاء مع العدو فوق أرض المعركة

والخطة هى الأساس أو المنهاج الذى يخوض الجيش ـ أى جيش ـ عليه المعركة ... وعلى الخطة تتوقف إلى حد كبير نتيجة المعركة .

والخطة التى تحقق النصر هى التى توضع نتيجة دراسات صحيحة وسليمة وواعية لقوات الطرفين عدداً وعدة وتدريبا وخبرة ، ولطبيعة أرض المعركة ، والظروف الجوية التى تسودها ، ولنوعية السلاح وصلاحيته وقدراته وطرق استخدامه ، ولمعنويات المقاتلين ومدى اقتناعهم بالهدف الذى يسعون إليه والفرض الذى يقاتلون من أجله والآمال التى ينشدونها من وراء لقاء العدو .

ولم يحدث أبدا أن خاض جيش ـ أى جيش ـ غمار معركة ـ أية معركة ـ دون وضع خطة للمعركة ... والتاريخ الحربى حافل بالخطط الحربية التى وضعت منذ قامت الحرب حتى يومنا هذا ... بعضها حقق النصر .. وبعضها الآخر لم يفله ، والفرق بينهما هو سلامة الأساس الذى قامت عليه هذه الخطة أو تلك .

والإسلام شأنه شأن أية مدرسة عسكرية اهتم اهتماما بالغا بالخطة ،

وتاريخه الحربي يؤكد هذه الحقيقة بل ويبرزها ... والانتصارات الحاسمة التي حفل بها تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية ، كانت نتيجة مباشرة للبراعة العربية في وضع خطط القتال ، ولا عجب في ذلك فقد كان للقادة المسلمين قصب السبق في هذا المضمار ، فما من خطة وُضعت إلا وقد رُوعي فيها كل اعتبار ، وقُدر لكل ظرف فيها قدره .

ولا شك في أن وضع الخطة بعد دراسة وبحث وتمحيص يكون هو الخطوة الأولى نحو النصر ، تستتبعها خطوات أخرى هامة وضرورية ، فلا تكفي الخطة وحدها لإحراز النصر ، ما لم تتوافر مقومات تحقيق هذه الخطة وتنفيذها بالصورة التي هي عليها .

ولقد تنبه الإسلام إلى هذه الحقيقة الجوهرية الهامة ، ولهذا حرصت المدرسة العسكرية الإسلامية على توافر هذه المقومات التي يتحقق بها النصر .

فالخطة الجيدة لا يضعها القائد وحده ، فرأى واحد قد يخيب أو يخطىء ، ولكن رأى الجماعة يصيب دائما ، ولهذا كان الإسلام حريصاً على أن توضع الخطة على أساس من الشورى ، أى عرض كافة الآراء ، وطرحها للمناقشة والبحث والدراسة ، واختيار أصلح هذه الآراء .

والخطة الجيدة ينفذها الجيش ... والجيش قادة وجند ، ولهذا يجب أن تقوم علاقات طيبة بين القادة والجند ، وأن يتبادل الطرفان الاحترام

والثقة والتقدير ... ولقد اهتم الإسلام اهتماما بالغا بالصلة الوثيقة التى ربطت قلوب القادة وعواطفهم ومشاعرهم بقلوب الجند وعواطفهم ومشاعرهم .

والخطة الجيدة تعتمد أساساً على روح القتال عند التنفيذ ، فرجل مؤمن قوى شديد الإيمان يمكنه أن يواجه عدداً من الرجال ضعاف الإيمان مزعزعى العقيدة ، ويستطيع أن ينتصر عليهم ، ولقد أولى الإسلام هذا الجانب الحيوى الهام عنايته فعمل على رفع معنويات جنده إلى المستوى الذى يلائم المعركة ويتفق والقتال .

هذه هى المقومات التى يجب أن يكون لها المقام الأول عند تنفيذ الخطة ، ولقد حرص عليها رسول الله فى كل مواقعه واهتم بها ، وعنه صلى الله عليه وسلم أخذها القادة المسلمون ، فأصبحت منهاجا ووسيلة إلى تحقيق النصر .

١ جماعية القيادة

قام الإسلام على الشورى سبيلا لنشر الدعوة وتثبيتها ، والتمكين لها والتغلب على محاولات أعدائها ، ووقايتها من عوامل التعويق والتفكك والانحراف ، وذلك لتسير فى وجهتها التى رسمتها لها عناية الله .

والشورى تعنى الاهتمام برأى أصحاب الرأى .. وهذا يعنى أن الإسلام حرص على روح الجماعة « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .. و .. « عليكم بالجماعة وإياكم والتفرقة » .. و .. « يد الله مع الجماعة » .

وحرص الإسلام على ذلك راجع إلى الرغبه فى تقويم النزعة الفردية ،

وإلى إشاعة عادة تبادل الرأى والتشاور فى الأمر والتناصح فى كل موطن يقبل التناصح .. أى أن الإسلام حرص على أن يستعرض شتى وجهات النظر ، ويمحص الأفكار والآراء ، وإن ذلك من شأنه أن يحقق للأمة الاستقرار ، ويمكن لها من الفوز والفلاح ، ويبعد عنها عوامل الانحراف والخسران .. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدين النصيحة » .

وإذا كانت النصيحة والشورى وتبادل الرأى ضرورية بالنسبة لأوجه الحياة كلها ، فهى من أولى الضروريات فى شئون الحرب ، ومن ألزمها ، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى رسوله وهو المعصوم المؤيد بالوحى ، أن يشاور ويستمع إلى رأى غيره ، ويقبل النصح ويستعين بأهل الخبرة والتجربة ، فقال وهو خير القائلين ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ .

واستمع رسول الله لأمر ربه ، وظل طوال حياته يشاور أصحابه ويستعين بخبراتهم وآرائهم .

ونهج الخلفاء من بعده عليه السلام ذات المنهج ، وظهرت فى الأمة الإسلامية فئة « أهل الحل والعقد » ، وهم موضع الثقة ، ومبعث الرأى السليم ، ومصدر النصيحة المفيدة ، بما استبان من إخلاصهم ، ووضح من صدقهم ، وظهر من إيمانهم .

وأصبح مبدأ الشورى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ركيزة من ركائز المجتمع الإسلامى ، ومظهراً من مظاهر ديمقراطيته ، وأصبح الرأى الأصلح موضع القبول والاستحسان .

فى بدر لم يقرر رسول الله وحده القتال وإنما استشار الناس ، استشار المهاجرين ، واستشار الأنصار ، وبذلك وسعت دائرة المشورة حتى شملت السواد الأعظم ، وعندما خاض المسلمون غمار المعركة كان ذلك نتيجة اقتناع وقبول .

وفى بدر أيضاً نزل المسلمون أدنى ماء من بدر ، وكان بينهم رجل حكيم عليم بالمكان هو الحباب بن المنذر ، فسأل رسول الله « يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » فأجابه « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » ، فقال « يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته ، فننزله ، فنغور ما عداه من القلب ثم نبنى عليه حوضاً ، فنملؤه ماء ، فنشرب ولا يشربوا » ، واقتنع رسول الله برأى الحباب وصحته ووجاهته ، فأخذ به وقال « لقد أشرت بالرأى » ونزل جبريل وقال « الرأى ما أشار به الحباب » ، وبهذه الاستجابة لرأى الحباب أعطى رسول الله لأصحابه المثل فى أنه ـ وهو رسول الله ـ فى حاجة إلى حسن المشورة ، وأنه لا يقطع رأياً دونهم ، ولا يتخذ قراراً إلا بهم .

وعندما سمع رسول الله بتحرك قريش إلى المدينة أملا فى نصر يعوضهم هزيمة بدر ، جمع أصحابه وجعلوا يتشاورون ويبحثون خطة اللقاء ، فعرض الرسول اتخاذ خطة دفاعية ، فيتحصن المسلمون بالمدينة ، فإن حاولت قريش اقتحامها كان المسلمون أقدر على صدهم ودفعهم والتغلب عليهم ، قال « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ،

وإن هم دخلوا علينا قاتلنا فيها » ، وأيد عبد الله بن أبى الرأى وقال « لقد كنا يارسول الله نقاتل فيها ، ونجعل النساء والأطفال فى هـذه الصياصى ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيـان فتكون كالحصن من كل ناحية ، فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة ، وقاتلناه بأسيافنا فى السكك ، إن مدينتنا يارسول الله عذراء مافضت علينا قط ، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا » .

ووافق كثيرون على هذا الرأى ، ولـكن ظهر الرأى الآخر الذى يدعو إلى اتخاذ خطة الهجوم ، ويقول بالخروج لملاقاة العدو خارج المدينة ، وكان بعض أصحاب هذا الرأى ممن فاتتهم واقعة بدر ، قال الرأى « أخرج بنـا إلى أعدائنا ، لايرونا أنا جبنا عنهم وضعفنا ، فيكون ذلك جرأة منهم علينـا ، والله لانطيع العرب فى أن تدخل علينا منازلنا » ، ووافق على الرأى المطروح حمزة بن عبد المطلب ، وقال مؤيداً هـذا الرأى « والذى أنزل عليك الـكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة » ، وقال واحد من أصحاب هذا الرأى ومؤيديه « إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها ، فيقولون حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها ، فتكون هذه مجرئة لقريش ، وهاهم أولاء قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نذب عن عرضنا لم يزرع ، وإن قريشـا قد مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا ، لئن فعلنا لازدادوا جرأة ولشنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ، ثم اقطعوا الطريق علينا » .

رأيان معروضان مطروحان ، والامر شورى ، ورأى الأغلبية يسود ، ويتقرر الخروج ، ولكن هل يرجع المسلمون عن قرارهم .. وكانت الشورى فى امتحان عصيب فماذا كان الموقف ؟ ، تعرض سعد بن معاذ وأسيد بن حضير للناس الذين رأوا الخروج وقالا لهم « استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج فردوا الأمر إليه » ، فتوجه الناس إلى رسول الله وقالوا له « ما كان لنا أن نخالفك ولا نستكرهك على الخروج فاصنع ماشئت » .. المسلمون فى هذا الموقف فى مفترق الطرق . . هل تسود الشورى ويكون الرأى للجماعة؟ ، أم يكون الرأى لفرد واحد هو الرسول ؟ ، الذى يملك زمام هذا الموقف هو رسول الله وحده ، وقد أصبح الأمر بين يديه ، ولكنه عليه السلام قدوة للمسلمين ونموذج طيب لهم ومثل كامل ، فكيف يخرج عن خط إسلامى رسمه القرآن ، وكيف يرفض الشورى وقد أمر بها الله .. قال رسول الله للناس وكان قوله الفصل « قد دعوتكم إلى القعود فأبيتم ، وما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه » .

وجمعت قريش الجموع ، وضمت إليها سائر القبائل غطفان وبنى مرة وأشجع وسليم وأسد ، واتفقت مع يهود المدينة على التآمر على محمد ومساعدتهم ، وتحرك عشرة آلاف تحت قيادة أبى سفيان إلى المدينة ، وأتى ركب من خزاعة يخبر رسول الله بالأمر ، فندب عليه السلام الناس ، ودعاهم وعرض عليهم الأمر ، وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم فى أمرهم ، وسأل « هل نبرز من المدينة أو نكون فيها » ، وعرض سلمان الفارسى رأياً قال « يارسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا » ،

وأشار بحفر خندق حول المدينة ، وأعجب القوم بالرأى ، ووافقوا عليه ، وبدأ - الجميع - بعد اختيار الموقع المناسب فى الحفر ، وشاركهم رسول الله فعمل فيه معهم وحمل التراب على ظهره ، وعندما وصلت قريش والأحزاب فوجئت وفوجئوا بالخندق ، كأسلوب جديد من أساليب الدفاع ، لم يكن للعرب علم به ، وقد جاءت فكرته من خلال الشورى .

هذه أمثلة من جماعية القيادة فى عهد رسول الله

ومع بداية عهد أبى بكر ظهرت مشكلة منع الزكاة ، فبعد وفاة رسول الله ارتد بعض العرب عن الإسلام ، فى حين بقى آخرون على إسلامهم ، ولكنهم أبوا أداء الزكاة لأبى بكر ، ورأى الخليفة أن يقف على رأى الناس فى كيفية مواجهة هذه المشكلة ، فجمع كبار الصحابة يستشيرهم فى قتال الذين منعوا الزكاة ، وعرضت آراء متعددة ، فالبعض يرى قتالهم ، والبعض يعارض ذلك ، فكان رأى عمر وطائفة معه من المسلمين ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله ، وكان أبو بكر يرى ضرورة قتالهم ويشتد فى رأيه قائلا « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » ، واعتراض عمر بشدة ، وقال فى حدة « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها ، وحسابهم على الله » ، ولم يتردد أبو بكر فى الرد عليه فقال « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا

بحقها » ، وأتم الرواة حلقة النقاش فقالوا إن عمر قال « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

ثم كانت فتنة الردّة ، ولم ينفرد أبو بكر بالرأى فى معالجة أمرها ، بل جمع أصحاب الرأى وتداول معهم ، فلما استقر رأى الجماعة على قتال المرتدين ، عرض اختيار القيادات التى ستتولى قيادة الألوية الأحد عشر التى أعدت للقتال ، واجتمع الرأى على أسماء القادة ، ولم يختلف أحد فى الإختيار ، فالقادة الذين اقترح أبو بكر أسماءهم كانوا خيرة المسلمين وأكثرهم كفاءة وقدرة وشجاعة وصلابة ، كان فيهم خالد ، وعمرو ، وعكرمة ، والعلاء ، وحذيفة بن محصن ، وعرفجة بن هرثمة ، وخالد بن سعيد ، ومعن بن حاجز ، والمهاجر بن أمية ، وشرحبيل بن حسنة ، وسويد بن مقرن .. خيرة رجالات الإسلام وأعظمهم جلداً فى مواقع القتال ومواطن النزال .

وأتى المثنى بن حارثة أبا بكر يعرض إمداده بجيش من المسلمين يعاونه فى عملياته بالعراق ، وكانت الأنباء قبل هذا اللقاء قد ترامت إليه بأن المثنى سار بقواته شمالا فى البحرين حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وحتى بلغ مصب نهر دجلة والفرات ، وأنه قضى فى مسيرته على الفرس وعمالهم ، ولم يكن المثنى معروفاً لدى الخليفة فسأل عنه قائلا « من هذا الذى تأتينا أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ » ، فأجابه قيس بن عاصم « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيبانى » ، وعرض المثنى الأمر على الخليفة ، وشرح له ظروف القتال فى العراق ، ووضع بين يديه صورة متكاملة للوضع الدينى والاجتماعى والسياسى للمجتمع الفارسى ،

واختتم نقال « أمِّرنى على من قبلى من قومى أقاتل من يليني من أهل فارس وأكفك ناحيتى » ، فجمع أبو بكر أصحابه وعرض عليهم الموقف ، وطلب الرأى والمشورة ، فتداول القوم وتناقشوا ، وخلال المناقشة رأوا أن يستعينوا برأى رجل ليس بينهم ولكن له باع طويل وقدرة على البحث والرأى ، طلبوا أن يستدعى خالد من اليمامة حيث كان يقيم مع زوجته أم تميم وبنت مجاعة بعد غزوة عقرباء ، فاستدعاه أبو بكر على عجل ، فحضر ، وطلب رأيه فأيد رأى المثنى لسببين .. إذا توقفت الأعمال العسكرية ضد الفرس فسيشجعهم ذلك على التفكير فى استرداد نفوذهم فى البحرين وما جاورها .. أما إذا استمرت الأعمال العسكرية فإن مافعله المثنى يكون طليعة فتح كبير ، وخاصة أن العرب المقيمين بالعراق سيكونون من عوامل النصر لبنى جنسهم من عرب الجزيرة ... وتم الاتفاق على تأمير المثنى ، ثم توجيه خالد بعد ذلك إلى هناك ليتولى قيادة جيوش الفتح .

كان أبو بكر يأمل فى أن ينتشر الإسلام فيما وراء الحدود من شبه الجزيرة ، وبعد النجاح الذى لقيه المسلمون فى أرض فارس ، اتجه ببصره إلى بلاد الشام ، حيث تنتشر قبائل عربية جدير بها أن تعرض عليها الدعوة كما عرضت على العرب فى الجزيرة . . وذات يوم دعا أبو بكر عمر وعثمان وعليا وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأباعبيدة ابن الجراح ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وعدداً من جلة المهاجرين والأنصار ، وعرض عليهم أنه يريد أن يستنفر المسلمين إلى الروم بالشام ، وقال « العرب بنو أم وأب ، وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم

بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيداً ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين » وطلب الرأى صريحاً واضحاً مخلصاً صادقاً ، فقال له عمر مؤيداً وجهة نظره « والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه ، وقد والله أردت لقاءك بهذا الرأى الذى ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد ، فسرب إليهم الخيل فى إثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود ، فإن الله عز وجل ناصر دينه ومعز الإسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله » ، ولكن عبد الرحمن بن عوف كان له رأى آخر ، لا يعارض الفكرة أساساً ، ولكنه يعارض أسلوب التنفيذ ، قال موضحاً وجهة نظره « يا خليفة رسول الله ، إنها الروم وبنو الأصفر ، حد حديد وركن شديد ، والله ما أرى أن تقتحم الخيل عليهم إقحاماً ، ولكن تبعث الخيل فتغير فى أدانى أرضهم ، ثم تبعثها فتغير فترجع إليك ، ثم تبعثها فتغير ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضروا بعدوهم وغنموا من أدانى أرضهم ، فقووا بذلك على قتالهم ، ثم تبعث إلى أقاصى أهل اليمن وإلى أقاصى ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعاً ، فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك » ، وسأل أبو بكر الناس بعد حديث عبد الرحمن « ماذا ترون رحمكم الله ؟ » ، وتكلم عثمان فقال « أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين شفيق عليهم ، فإن رأيت رأيا فيه لهم رشد وصلاح وخير فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ضنين ولا متهم عليهم » ، وصدق الباقون على رأى عثمان ، وقالوا « ما رأيت من رأى فامضه ، فإنا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ، ولا نتهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك

وإجابتك » ، وانتهى الرأى إلى الموافقة على توجيه الجيوش إلى بلاد الشام ، مع الاستعانة بأهل اليمن .

وعندما بلغ الموقف فى الشام حد الحرج وعدم الاطمئنان بإقامة المسلمين على طريق الروم ومخرجهم لا يقدرون منهم على شىء ولا يقدر الروم منهم على شىء ، إذا خرج الروم ردّهم المسلمون ، وإذا غامر المسلمون بالهجوم لم يلبثوا أن يتراجعوا مخافة أن يحصرهم الروم بينهم ويقضوا عليهم ، تولى أبو بكر الضيق والسأم ، وكان أشد الناس ضجرا وأكثرهم تفكيراً فى الموقف ، وجعل يشاور عمراً وعلياً وأولى الرأى بالمدينة ، ورأى أن مشكلة المسلمين فى الشام لا تنحصر فى العدد فهم لم ينتصروا يوماً بكثرة عددية وإنما انتصروا دائماً بالقيادة الواعية المؤمنة ، وانتهى إلى أن الموقف فى الشام يحتاج قيادة جديدة تقود وتسود ، وعرض على أصحابه الأمر ، وبدأ الجميع يدرسون أسماء القيادات التى تصلح .. أبو عبيدة محارب قادر ولكنه رقيق القلب ... عمرو بن العاص على دهائه هياب غير مقدام ... عكرمة مقدام ولكن لا يجيد التقدير للمواقف ... باقى القادة لم يخوضوا بعد المعارك وتوليتهم أمر الشام مغامرة ... وقفز إلى أذهان المجتمعين اسم خالد بن الوليد ، ولم يعترض أحد لانتصاراته فى حروب الردّة ، ولفتوحاته فى أرض العراق ، وانتهى الرأى إلى إسناد قيادة الجيوش الإسلامية فى الشام إليه ، وقال أبو بكر لأصحابه بعد موافقتهم « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وهكذا كانت حكومة أبى بكر حكومة شورى فى منشئها وفى نزعتها .

أما فى عهد عمر فقد اتخذت الشورى صورة من القيادة الجماعية الواسعة ، لتتلاءم مع الفتوحات الإسلامية ، فقد كان عمر يشاور المسلمين فى كل ماجل ودق من أمورهم .

أراد عمر أن يبعث مدداً إلى العراق فكتب إلى عماله والقبائل يقول «لاتدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلىّ والعجل .. العجل » ، واجتمعت له بضعة آلاف نزل بهم على ماء يقال له صرار ، فعسكر به ، ثم استشار الناس فى المسير إلى العراق ، فقالوا له « سر وسر بنا معك » ، إذن فالرأى المطروح أن يخرج الخليفة بنفسه على رأس الجيش . . قال لهم عمر « أعدوا واستعدوا فإنى سائر إلا أن يجىء رأى هو أمثل من هذا » ، ودعا أصحاب المشورة والرأى فسألهم « احضرونى الرأى فإنى حائر » ، وتناقش الحاضرون فى حرية مطلقة ، كل يبدى رأيه فى شجاعة وعن اقتناع ، ثم أجمع ملؤهم على أن يبقى الخليفة بالمدينة ، ويبعث على رأى الجيش رجلا من أصحاب رسول الله « فإن كان الذى يشتهى من الفتح فذلك مايريد ويريدون ، وإلا ندب جنداً آخر يغيظ به العدو حتى يجىء نصر الله» ، وقال عبد الرحمن بن عوف مؤيداً هذا الرأى « أقم وابعث جنداً ، فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد ، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك ، وإنك إن تقتل أو تهزم فى أنف الأمر خشيت أن لايكبر المسلمون وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً » ، وقبل عمر رأى الجماعة ، وقال « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وإنى وإنما كنت كرجل منكم

حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلا » ، وسأل عمر خاصته عن القائد الذى يوليه إمارة الجيش ، وأخذ هؤلاء يعرضون الأسماء ويناقشون صلاحية أصحابها ، وخلال الاجتماع وصلت رسالة من سعد بن أبى وقاص يبلغ فيها عمر أنه قد جمع ألف فارس ذوى نجدة ورأى ، وعرض المجتمعون اسم سعد وقالوا « قد وجدت الرجل ! » ، فسألهم «فمن؟» قالوا « الأسد فى براثنه سعد بن أبى وقاص » ، ووافق عمر على الفور ، وبعث إلى سعد ، فقدم عليه من نجد .

كان جو العراق لايتلاءم وصحة الجند المسلمين ، وقدمت وفود منهم على عمر من جلولاء وحلوان والموصل ، فقال لهم وقد لاحظ سوء صحتهم « والله ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها » (أى التى خرجتم بها) ، ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما أبدءوا فما غيّركم ؟ » ، قالوا « وخومة البلاد » ، وكان حذيفة بن اليمان قد كتب إليه من المدائن حيث يقيم مع سعد « إن العرب قد رقت بطونها وجفت أعضاؤها وتغيرت ألوانها » ، وأزعج عمر ما أصبح عليه المسلمون فى هذه المناطق ، وخشى مايجره ذلك على المحاربين من ضعف ، فبعث إلى سعد « إن العرب لا يوافقها إلا ماوافق إبلها من البلدان ، فابعث رائداً يرتاد لهم منزلا برياً بحرياً ، ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر » ، فبعث سعد عبد الله بن المعتم من الموصل ، والقعقاع بن عمرو من جلولاء ، للبحث عن مكان صالح لمقام المسلمين ، كما وصفه أمير المؤمنين . . ولم ينته موقف عمر عند هذا الحد ، بل جمع أصحاب الرأى فى المدينة ممن لهم علم بمواقع العراق ، وسألهم الرأى فى أصلح الأماكن وأنسبها صحياً ، وتبادل الجميع الرأى ، ثم

اتفقوا على موقع الكوفة ، فلما همّ بالكتابة باسم الموقع إلى سعد ، جاءه كتاب منه تبين فيه أنه اختار ذات الموقع ، قال سعد فى كتابه « إنى قد نزلت بالكوفة منزلا فيما بين الحيرة والفرات بريا وبحريا ، ينبت الحلفاء والنَّصِىّ ، وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن فمن أعجبه المقام بالمدائن تركته فيها كالمَسْلَحة » ، وطاب مقام الناس بالكوفة ، ورجع إليهم ما كانوا قد فقدوه من قوتهم . . .

وهكذا سارت حكومة عمر على مبدأ الشورى ، شأنها فى ذلك شأن مارسمه الرسول عليه السلام ، وما تمسكت به حكومة أبى بكر .

وكما كان الحكام يستشيرون أصحابهم ، كذلك كان القادة ، فلم يستقل أحدهم برأى ، وإنما كانت أمور المعارك فى يد الجماعة ، وكان رأى الجماعة هو النافذ ، تأكيداً لمبدأ الشورى وإقرارا لجماعية القيادة .

ومعركة اليرموك تعطى الدليل والمثل . . فقد وصل خالد إلى مواقع الجيوش ووجدها مستقلة فى عملها ، كل جيش يتلقى أوامره من أميره ، لا تعاون ولا تنسيق بين كافة الجيوش ، ورأى أن الوضع على هذه الصورة ضار وخطير ، فجمع قادة الجيوش وطرح عليهم فكرة توحيد القيادة (سبق أن أشرنا إلى ذلك بالتفصيل فى موقع سابق من الكتاب) ، وناقش الجميع الفكرة من كافة جوانبها . مزاياها أو العيوب ، صلاحيتها أو عدم الصلاحية ، وانتهى الرأى أخيراً إلى توحيد القيادة مع إسنادها إلى خالد مع بداية القتال ، وكان يوم اليرموك من أيام الله الخالدة ، خفس فيه الباطل ، وذل فيه البهتان ، وارتفعت فيه رايات الحق وألوية الله .

وما حدث فى اليرموك حدث فى مواقع أخرى ، ولكنه لم يحدث فى موقعة الجسر ، فماذا كانت النتيجة ؟ كان أبو عبيدة قائد جيش المسلمين فى مواجهة ذى الحاجب بهمن جاذويه قائد جيش الفرس ، وكان جيش المسلمين فى قُس الناطف ، وأقبل بهمن فبقى بجيشه على الجانب الآخر من النهر ، وبعث يقول « إما أن تعبروا إلينا وندعوكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم » ، وتطلَّب البت فى هذا الطلب رأى أصحاب الرأى والمشورة ، وأشار الجميع بعدم العبور وأن يدع الفرس يعبرون ، ولكن أبا عبيدة أخذته العزة فصمم على أن يعبر هو ، وقال « لا يكونوا أجرأ على الموت منا ، بل نعبر إليهم » ، عارضه المثنى وسليط ووجوه الناس ، قالوا له « إن العرب لم تلق مثل جنود فارس مذ كانوا ، وإنهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الزُّهاء والعُدة بما لم يلقنا به أحد ، وقد نزلت منزلا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة إلى كرَّة » ، ولكن أبا عبيد ظل مصراً على رأيه ، ولم يستمع إلى رأى الجماعة ، وانفرد بالرأى وحده ، مخالفاً بذلك شريعة الله ، خارجاً عن سنة رسول الله ، منحرفاً عن الخط الذى رسمه الخلفاء ، فماذا كانت النتيجة ؟ أطاع المسلمون أوامره ، واجتازوا النهر ، فكانت الهزيمة المرّة والضربة القاصمة للظهر ، إذ فقدوا بجانب أبى عبيد وسليط بن قيس الآلاف من خيرة أبطالهم ما بين قتيل أو غريق فى الفرات .

وكانت هفوة تجنبها القادة بعد ذلك .

والذى نريد أن ننتهى إليه هو أن الإسلام قد أقر نظرية جماعية القيادة وأن المدرسة العسكرية الإسلامية قد جعلت جماعية القيادة مبدأ ومنهاجاً للقادة العسكريين جميعاً ، وكان هذا المنهاج من عوامل التفاهم والترابط بين المسلمين فى المعركة الواحدة ، فتحقق به النصر وتم به الظفر .

وجماعية القيادة كانت من أهم اتجاهات المدارس العسكرية التى جاءت بعد الإسلام ، فإن القيادات المختلفة اتفقت على إنشاء هيئة خاصة تسمى «هيئة الأركان حرب» تقدم للقائد المشورة والرأى والنصيحة ، وتسمى فى بعض البلاد «مجلس الحرب» ، والهيئة والمجلس مسئولان مع القائد مسئولية مباشرة فى الإعداد للمعركة ودراسة كافة أمورها وبحث كل الظروف والوقوف على كافة البيانات ، وفى ضوء دراستها توضع خطة القتال .. والهيئة والمجلس يشبهان أهل الحل والعقد وأصحاب الرأى والمشورة فى الإسلام .. اتفقت الأهداف والأعمال والواجبات وإن اختلفت المسميات .. فالمهمة واحدة والهدف واحد والمسئولية واحدة .

[٢] علاقة القائد والجند

العلاقة التى تنشأ بين القائد وجنده عامل هام من عوامل المعركة وتؤثر فى نتيجتها تأثيرا مباشرا وفعّالا .

ولقد أدركت القيادة الإسلامية ذلك فحرصت على أن تكون هذه العلاقة وثيقة قوية مدعمة راسخة لتكون على مستوى المسئولية التى يتحملها المسلمون قادة كانوا أو جنداً ، ولهذا كان من الضرورى أن يرتبط القادة والجند برباط قوى ، وأن تجمع بينهم ثقة مطلقة ، وأن تتحد مشاربهم وتتقارب قلوبهم ، وتتفاعل مشاعرهم ، وأن يكون رائدهم الحب والخير للجميع

ومن أجل هذا الهدف اتخذ رسول الله — أول ما اتخذ من خطوات بعد استقراره بالمدينة — خطوة حاسمة فى هذا الاتجاه جادة فى هدفها صادقه

في جوهرها فدعا عليه السلام إلى التآخي بين المسلمين ، وكانت هذه الدعوة إبقاء على الصلات ودعماً للأخوة الإسلامية وقبراً لأحقاد الماضي ، ومحافظة على بناء الدولة على وحدة من الدين والغاية والهدف .

وفي ضوء الخط العام لسلوك الدولة بالنسبة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم اهتمت المدرسة العسكرية الإسلامية بالعلاقة بين القادة والجند ، ووضعت لذلك قواعداً التزم بها القادة وكذلك الجند ، فالقائد عليه أن يحافظ على جنده وألا يحملهم من الأمر ماهو فوق طاقتهم ، وأن يحرص على سلامتهم ، وألا يفرق بينهم في المعاملة ، وأن يكون لهم في كل تصرفاته مثلا وقدوة ، وألا يجعل بينه وبينهم حاجزاً بل يتصل بهم ويتقرب إليهم ويستشيرهم ، وأن يتصرف بحكمة في كل الأمور التي تتصل بهم ... وفي مقدمة هذا كله يجب أن يكون موضع الثقة ، فيؤمن به جنده ، ويلتزمون بقراراته ، ويندفعون وراءه دون تردد وهم مطمئنون إلى حكمته وقدرته .

والجند ملزمون بالولاء لقائدهم ، فيسمعون له ويطيعون ، ويعملون وفق رأيه ، وينفذون أوامره لايخالفونه ، ولاينشقون عنه ، ويسعون إلى أن يكونوا موضع ثقته .

والرسول الكريم هو أول من تولى قيادة المسلمين . . وقد جعل عليه السلام من علاقته بالجند دعامة العمل العسكري وجوهره ولبه ، ولهذا حرص صلى الله عليه وسلم على أن تكون علاقته بالجند كقائد ، متسمة بالود والحب

والاحترام والتقدير ، وقائمة على أساس من الثقة الكاملة . . هم يثقون به وبرسالته وبقيادته وبمبادئه وبخططه وبتقديراته .. وهو عليه السلام يثق فيهم ويطمئن إليهم ، وتتجاوب مشاعره مع مشاعرهم ، وترتبط عواطفه بهم .

كان الرسول شجاعاً فتمثل به جنده وملأوا الميدان بضروب الشجاعة .

وكان الرسول قوى الإرادة راسخ العقيدة وكذلك كان جنده يأخذون عنه ويتعلمون منه .

وكان الرسول يعيش بين جنده كفرد منهم يشاركهم فى السراء والضراء فاستمال قلوبهم ونال محبتهم ، واكتملت بوجوده حياتهم .

وكان الرسول محارباً ممتازاً يخوض المعارك فى قوة وعزم وإيمان ، فسار جنده على دربه ونسجوا على منواله وخاضوا المعارك وبطولاته فى عقولهم وقلوبهم وأفكارهم .

أثارت سرية عبد الله بن جحش أمرين تمثلت فيهما العلاقة بين الرسول كقائد وبين جنده ، فهذه السرية كما سبق الإشارة إلى أحداثها قاتلت قافلة ابن الحضرمى فى شهر رجب وهو شهر حرم فيه القتال ، وقتلت واقد بن عبد الله وأسرت عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وقبضت على البعير .. أول الأمرين أن القتال وقع فى شهر رجب ، واستغلت قريش واليهود الحادث فى إثارة المشاعر ضد المسلمين ، وغضب المسلمون أنفسهم وعاش أفراد السرية وقائدها فى ضيق وألم ، والمسلمون عامة فى محنة ، وكان رسول الله أكثرهم إحساساً وألماً وضيقاً ، حتى أنهت السماء المشكلة لصالح السرية والمسلمين . .

... والأمر الثانى أن قريشاً كانت قد أسرت سعد بن أبى وقاص وعتبة بن

غزوان ، فطلبت من الرسول فك أسيريها وقبول الفدية ، ولكن الرسول أبى أن يقبل الفدية حتى يقدم صاحباه ، واشترط وصولهما إلى المدينة سالمين قبل إطلاق سراح أسيرى مكة ، وهدد بقتل أسيريه إذا أصاب رجليه سوء، وخضعت قريش . .

هذان التصرفان من جانب رسول الله يؤكدان أولا تعاطفه الوجدانى مع المسلمين ومشاركته إياهم فى مواقف الألم وأوقات المحن ، ويؤكدان ثانياً حرصه على سلامة رجاله وتمسكه بسلامتهم وعدم المساس بهم تحت أية ظروف .

موقف رسول الله دليل على أن الإسلام ربط بين المسلمين برباط الأخوة والحب ، وجعل الواحد منهم يعيش وكأنه الآخر، يبادله المشاعر والأحاسيس، ويقاسمه الألم والفرح ، ويعيش معه فترات المحن وفترات الفرح .

فى بدر أشار سعد بن معاذ أن يقيم المسلمون عريشاً لرسول الله يبقى به خلال القتال ، ووافق الرسول ، ولكنه أبى أن يبقى بعيداً عن المعركة ، وأصر على أن يشارك رجاله لقاء العدو ، وأن يكون معهم وبينهم ، فهذا هو شأن القائد ، وبين الجنود يكون موقعه ، ووجود رسول الله بين المقاتلين يمنحهم شعوراً بأنه يشاركهم أهوال المعركة وانفعالاتها ، ويسهم معهم فى جهدهم وجهادهم ، ويدفع بهم إلى البذل الأمثل والعطاء الأفضل ، وترك الرسول العريش ونزل إلى ساحة القتال ، وشارك رجاله الموقف ، وظل معهم وبينهم يحرضهم ويشجعهم ويثير فيهم الحماس والجرأة ، وشاهده الجند فتعلقوا به وسارعوا إلى مرضاته ، ورأوه وهو يأخذ حفنة من الحصباء

ويستقبل بها قريشاً قائلا « شاهت الوجوه » ، فاستبشروا خيراً ، فلما أصدر الأمر بالهجوم قائلا «شدّوا » ، شدّوا وانتزعوا وهم القلة المؤمنة النصر من الكثرة الضالة .

إن الرسول كان يعلم مدى الأثر الذى يتركه وجوده فى أرض المعركة فى نفوس رجاله ، وكان يرى أن علاقة القائد بالجند تقوى خلال القتال إذا رأوه بينهم، ينازل العدو ويحرض عليه .

وعندما نادى منادى قريش يوم بدر « يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا» نظر رسول الله إلى رجاله واختار حمزة بن عبد المطلب وعلى وعبيدة بن الحارث ، لأنه كان مطمئناً إلى شجاعتهم وبطولتهم ، فوضع فيهم ثقته ، وأدركوا هم سر اختيارهم فأرادوا أن يؤكدوا لرسول الله أنهم فعلا محل ثقته ، فأجادوا المبارزة ، فقتل حمزة شيبة بن ربيعة ، وقتل علىّ الوليد بن عتبة ، وعجز عبيدة وهو يبارز عتبة بن ربيعة وأصيب فى ساقه ، فأجهز علىّ وحمزة على عتبة ، وحملا عبيدة إلى رسول الله فأفرشه قدمه الشريفة وبشره بالجنة .

وشارك الرسول جنده فى القتال المرير فى أحد ، حتى أشيع أنه مات ، وهنا فقد المسلمون روح القتال ، لأنهم أصبحوا دون قيادة تحميهم وتوجههم ، ولأنهم فقدوا القلب الحنون الذى شملهم بالحب والعطف والحنان ،والوجدان الواعى الذى بادلهم المشاعر والأحاسيس ، فانتحوا جانباً يبكون ، فرآهم أنس بن النضر فسألهم « وما يجلسكم ؟ » ، قالوا « قتل رسول الله » ، قال « وما تصنعون بالحياة من بعده ، قوموا فموتوا على مامات عليه » ، وهكذا

حدد لهم أنس طريق العمل فما الذى يبقيهم بعد قائدهم ؟ ولمـاذا يتمسكون بالحياة وعلاقتهم بقائدهم تمتد إلى مابعد الحياة ؟

وأدرك المسلمون هذه الحقيقة وكان بينهم أبو بكر وعمر فقاموا واستقبلوا العدو وأبلوا فى القتال بلاء منقطع النظير . . وخلال الاشتباك رأى كعب ابن مالك رسول الله حيا وحوله عدد من المسلمين كانوا قد التفوا حوله حين رأوه ،وقد أصيبت رباعيته وشج فى وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنته وسقط فى حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، وكان من بين هؤلاء الذين التفوا حوله عليه السلام علىّ وطلحة بن عبيد الله وأبو دجانة وأم عمارة الأنصارية .. عندما رأى كعب رسول الله صاح فى القوم مبشراً إخوانه « يامعشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله »، وكان ابن قمئة قد أعلن بين قريش أنه قتل الرسول ، فأشرف أبو سفيان على الجبل ، وصاح بأعلى صوته متسائلا « ياعمر ، أنشدك الله أقتلنا محمداً ؟ » ، فأجابه عمر « اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن » .

وفى خلال حفر الخندق لم يبتعد رسول الله عن العمل وهو القائد ، بل شارك جنده الحفر ، ورغم أن حفر الخندق مهمة الجند إلا أنه عليه السلام أراد أن يقدم لجنده المثل، وأن يشعرهم بالرباط القوى الذى يجمعهم به ويجمعه بهم ، وأراد أن يؤكد لهم أن القائد قدوة ، وأن القيادة مشاركة فى العمل والجهد والعطاء وفى تحمل المسئولية ، وفى الأخذ بنصيب لايقل عن نصيب الواحد منهم ، وأدرك المسلمون هذه المعانى فازداد تعلقهم برسول الله وحبهم له وصبرهم معه وجلدهم على القتال ، وكانوا يستجيبون لما يأمر به استجابة تحمل أجمل وأرفع صور الولاء والثقة ...

بدأ الحفر وشارك فيه الرسول وأخذ يشجع المسلمين عليه ، ودعاهم إلى مضاعفة الجهد ، ولاحظ ما بالرجال من تعب وجوع فالزمن زمن عسرة، والعام عام مجاعة فأخذ يردد عليهم قول ابن رواحة ...

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره
فارحم الأنصـــار والمهـــاجره

فأجابه الرجال جميعاً بقولهم ...

نحن الذين بايعنـــا محمداً
على الجهاد ما بقينا أبدا

وفى حديث للبراء بن عازب قال « لما كان يوم الأحزاب وخندق صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل التراب حتى وارى الغبار جلده » .

وسار جندى من المسلمين هو عبد الله بن عبد الله بن أبى إلى رسول الله وقال « يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى، وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلاتدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمناً بكافر ، فأدخل النار » .

هذا جندى من المسلمين وهب نفسه للإسلام ولله ، تضطرب نفسه لأنه سمع أن أباه سيقتل بأمر رسول الله .. تضطرب نفسه بعوامل البر بالأب، وصدق الإيمان والنخوة العربية والحرص على سلامة المسلمين .. إنه لا يطلب

عفواً عن أبيه ولـكن يطالب ألا يقتل بيد غير يده .. هو يريد أن يقتل أباه وأن يحمل رأسه بيده إلى قائده .. وهنا تبرز العاطفة الحقة السامية التي تربط الجندي بقائده .. النبي برجاله .. وتتضح أبعادها حين قال له رسول الله « إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » .

لقد أقام رسول الله علاقته بجنده على أسس راسخة من الثقة المطلقة والحب والتقدير ، وعلى هذا النهج سار أبو بكر من بعده .

خرج أبو بكر يودع جيش أسامة فسار مع الجند على قدميه وأسامة راكب ، وغلب الحياء أسامة ، فخليفة رسول الله وصاحبه وقائد المسلمين وصاحب الأمر والنهي فيهم يسير على قدميه فأراد أن ينزل « يا خليفة رسول الله ، والله لتركبنّ أو لأنزلنّ » ، فقال أبو بكر على مسمع من جميع أفراد الجيش « والله لا تنزل ، ووالله لا أركب ، وما عليّ أن أغبر قدميّ في سبيل الله ساعة » ، القائد الأعلى لجيش المسلمين يسير على قدميه والجيش راكب .. أي مثل هـذا يقدمه أبو بكر للجند ، إنه يحترم الجند ويحترم قائدهم الذي اعترض كثير من المسلمين على تعيينه لصغر سنه ... تُرى ماذا يكون شعور أسامة وهو يرى هذا السلوك الكريم من أبي بكر ؟ وكيف تكون نظرة الجند إليه ؟ ثم كيف تكون نظرة الجند إلى أسامة وهم يرون القائد الأعلى يكرمه هذا التكريم على مسمع ورؤية من هؤلاء الذين يكبرونه سناً ويسيرون تحت قيادته ؟

كان أبو بكر حريصاً على حياة رجاله ، وكان يغضب أشد الغضب حين يعرف أن الأعداء قتلوا من جنده ، فحرصه على حياة المسلمين كان يتساوى

مع حرصه على سلامته هو ، ولهذا أمر خالد بن الوليد « لا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به جهرة » .

وطالب عمر أكثر من مرة من أبى بكر أن يعزل خالد بن الوليد . . قال له مرة « إن فى سيف خالد رهقا وحق عليه أن يقيده » ، ولكن خالدا كان موضع ثقة أبى بكر ، فأبى أن يعزله وقال لعمر « لا ياعمر ، ما كنت لأشيم سيفا سله الله على الكافرين » ، وكان أبو بكر يعرف أن خالدا هو السيف الذى يضرب به أعداء الإسلام ، وهذا القول يسلط الضوء على ثقة القائد الأعلى بأحد رجاله ، ثقة لا تتزعزع لحادث ولا تهتز لرأى ولا تخضع لموقف ، ولكنها ثقة مطلقة بلا حدود تبدو من قول أبى بكر « عقمت النساء أن يلدن مثل خالد » ، وقوله « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وكتب أبو بكر إلى يزيد بن أبى سفيان « إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز ... واسمر بالليل فى أصحابك » . . هذا التوجيه من أبى بكر يحمل معانى كبيرة ، فهو يريد أن تنمو العلاقات الطيبة بين قادة الجيوش والجند على مستوى العلاقات بين القيادة العامة والجند ، ولهذا فهو يدعو قائد الجيش إلى الترفق بالجند ، وإلى حسن الصحبة ، وإلى أن يقضى وقت فراغه معهم ، فإن ذلك يجعله قريبا من قلوبهم ، فيتعلقون به ويرتبطون بقيادته ، وتزيد الصلة والثقة ، فإذا حان وقت الجد كانوا له الساعد والعضد .

وعلى طريق رسول الله عليه السلام سار عمر بن الخطاب حين ولى أمر المسلمين .

فمع بداية عهده بعث إلى أبى عبيدة بن الجراح بعد أن ولّاه قيادة الجيش الإسلامى فى الشام بكتاب قال فيه « لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى هلكه » ، وفى هذا الكتاب إحساس بمسئولية القائد الأعلى تجاه جنده ، فهو المسئول الأول عن سلامتهم وأمنهم ، وهو ينقل بهذا الكتاب المسئولية كاملة إلى قائد الجيش ، وينير أمامه الطريق ويوضح له معالمه ويدعوه إلى المحافظة على الجند .

إن الخليفة يعلم أن الحرب نصر وهزيمة ، فإذا لحقت الهزيمة بالمسلمين فى معركة فإن هذا لا يعنى النهاية ، ولكن الهزيمة قد تساعد على نصر فى المستقبل ، وإن الواجب أن يقف الناس بجانب الجيش إذا هزم ، وأن يقدروا ظروفه ، وأن يعينوه على إكمال المشوار ، وأن يشجعوه ويأخذوا بأيديه ، ويخففوا من وقع الهزيمة ، ويدفعوه لمعركة يكون له فيها النصر ، وإن موقف عمر من هزيمة الجسر وتعاطفه مع الجنود دليل واضح على سلامة فكره ، وكان لموقفه هذا أعظم الأثر فى ارتفاع روح القتال عندهم ، فأحرزوا فى البويب نصراً أنساهم وأنسى المسلمين جميعا هزيمة الجسر وما لحق بهم فيها من خسائر فى الأرواح ، وكان موقف عمر مشجعاً ودافعاً لإستمرار الإنتصارات الإسلامية فوق أرض فارس حتى تملّكوها بعد أن وجد كسرى فارس قتيلا فى طاحونه ، وبعد أن قُضى تماما على كل قادتهم وعلى رأسهم رستم .

ولم يكن اهتمام الرسول وأبى بكر وعمر بالجند هو الأمر الظاهر فى تاريخ

المدرسة العسكرية الإسلامية ، وإنما كانت هناك اهتمامات بالغة من جانب القادة على مختلف المستويات ، وكانت العلاقة بين القادة والجند علاقة ود وحب واحترام وتقدير دعت إليها وحدة الهدف ووصايا الرسول وخلفائه من بعده ، فلم يكن هناك تباعد بين القادة والجند ، وإنما كان هناك امتزاج روحى وعاطفى ، وانسجام فكرى عقائدى ، ورابطة تقوم على الثقة والإيمان .

كان القادة يحرصون على سلامة الجند .. لا يلقون بهم إلى تهلكة ، ولا يجبرونهم على أمر ولا يتشددون فى موقف ، ولا يتميزون عنهم فى شىء ، يعيشون معهم ويقاتلون بجانبهم ويشاورونهم فى الأمر ، لا فرق بين هذا وذاك إلا بمقدار الجهد والبذل والعطاء ، وعبر عن هذه العلاقة رجل من رجال المقوقس فى قوله « رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد » ، فلما سمع المقوقس هذا الوصف قال لأصحابه « والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقدر على قتال هؤلاء أحد » ، وصفهم عمر فى كتاب لسعد بن أبى وقاص فقال « الناس شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة » .

جاء رجلان من دهاقين الفرس هما مزدخ وفرنداذ إلى أبى عبيد ابن مسعود قائد الجيش الإسلامى فى العراق ، وقدما له آنية فيها بعض الأطعمة

الفارسية ، وقالا له « هذه كرامة أكرمناك بها ، وقرى لك » ، فسألهما أبو عبيد « أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم ؟ » ، فأجاباه « لا لم يتيسر لنا ونحن فاعلون » ، فاعتذر عن تناول الطعام ورده ، لأنه لا حاجة له فيما لا يسعه ويسع جنده ، وقال « لا حاجة لنا فيه ، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم ، وأهرقوا دماءهم دونه أو لم يهريقوها ، فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ، لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثلما يأكل أوساطهم » ، هكذا أبى أبو عبيد قائد المسلمين أن يكرمه أعداؤه بشيء لا يُكرم به إخوانه الجنود ، فهم قد خرجوا معه معاهدين الله على البذل ، وليس المجال مجال تمييز أو مجال ألقاب ورئاسات ، ولكنه مجال جهاد يتساوى فيه الجميع ، فهم كلهم أخوة على قدم المساواة ، لا فرق بينهم ولا تميز لأحدهم ، بهذا نزلت آيات الكتاب الحكيم ، وبهذا قال الرسول الكريم ، فما يحجب عن الجند يحرم على القائد ، وما يستبيحه القائد لنفسه يباح لجنده .. وهكذا كانت العلاقة بين القائد وجنده مظهرا من مظاهر الأخوة والزمالة والمشاركة .

ولعلنا نذكر فى هذا المجال ما كان عليه الحجاج بن يوسف الثقفى من شدة وقسوة على جنده ، فقد كان يأخذهم بالشدة حتى من ولى منهم منصب القيادة ، وكان على حد قوله فى رسالة إلى أحد قادته « إنى أرى أن آخذ الولىّ بالولىّ والسمىّ بالسمىّ » وقد اشتهر بأنه أساء إلى كثير من رجاله ، وأنه كان شديدا حتى فى موضع اللين ، عجولا متسرعا مع قادته ، جريئا على أقدار الرجال ، محبا لسفك الدماء ، فحّاشا سبابا ويصف نفسه فيقول « أنا لجوج حسود حقود ذو قسوة » ، من أجل هذا كرهه جنوده ، وبدا هذا

واضحا فى ثوراتهم المتعددة ضده ، كثورة شبيب ، وثورة مطرف بن المغيرة ، وثورة عبد الرحمن بن الأشعث .

والحجاج فى التاريخ الإسلامى كان صورة شاذة لم يكن له شبيه ، نسى أو تناسى منهاج القرآن ومنهاج الرسول ومنهاج الخلفاء ، فيما يجب أن تكون عليه الصلة والعلاقة بين القادة والجند .. إنه بسلوكه يعتبر نشازا فى تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية ، رغم أنه كان صاحب فضل لا ينكر فى اتساع رقعة الدولة الإسلامية فى عهد الحكم الأموى ، فقد تم خلال ولايته فتح بلاد الختل ونيزك وخراسان وبخارى وخوارزم وسمرقند ، ووصلت فتوحاته إلى بلاد الهند والصين .

إن المدرسة العسكرية الإسلامية قد نبهت الأجيال العسكرية التى جاءت بعدها إلى أهمية خلق صلة قوية راسخة بين القائد وجنده .. فالقائد وحده مهما بلغ من مراتب الفن العسكرى ، ومهما كانت قدراته وإمكانياته لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا لم يكسب ثقة رجاله ، وإذا لم يشعر رجاله بأن مصالحهم وحياتهم مصونة بين يديه .. إذا كسب القائد ثقة رجاله وارتبط بهم ، فإنه يمتلك رصيدا لا يقدر وقوة لا تقهر .

إن المدرسة العسكرية الإسلامية قد أقرت مبدأ هاماً وخطيراً فى ذات الوقت ، وقامت بوضعه موضع التجربة فى حروبها المتعددة فى مختلف عهودها ، وأثبتت التجربة نجاحاً بعيد المدى ، وأصبحت العلاقة بين القادة والجند هى الأساس الذى تعتمد عليه المعركة ، فالجندى الذى يخرج إلى الميدان وسلاحه

فى يد ، وروحه فى اليد الأخرى يواجه الموت فلا يخافه ويلاقى الأهوال فلا يجبن ، لأن قائده موضع ثقته وهو يؤمن به ويرى فيه المثل والقدوة ... والقائد الذى وضع كل آماله فى جنده يجمعه وإياهم هدف سام وغاية نبيلة وتحيط بهم جميعا زمالة فى الدين وأخوة فى الله يخوض المعركة معتمدا عليهم واثقا بهم متأكدا أنه بهم سيحقق النصر وسيكسب المعركة ، بفضل تعاون الجميع وتضامنهم ، وبفضل العلاقة الطيبة التى ألفت بين قلوبهم ، ووحدت أفكارهم ، وقاربت بين مشاعرهم ومشاربهم .

بهذا آمنت المدرسة العسكرية الإسلامية .

وبهذا أيضاً آمنت من بعدها المدارس العسكرية الأخرى .

وفى سجلات الحروب التى قامت بعد الإسلام تثبت هذه الحقيقة ، فكل القيادات على مختلف مستوياتها كانت تتقرب إلى الجند ، فتخلق نوعا من الصداقة ، وتعيش بين صفوفهم تتحدث إليهم ، فتوجد نوعا من الإطمئنان النفسى يجذب الجند إلى قادتهم ، فيرتبطون بهم ، ويدرك القادة حينئذ أنهم أصبحوا قريبين إلى قلوب جنودهم فيسهل قيادهم .

هكذا فعل نابليون ... فقد حرص على أن تجمع بينه وبين جنده روابط قوية تقوم أساسا على الثقة المتبادلة .. ومن أعظم ما سجله له تاريخه الحربى الحافل أنه استطاع أن يغزو سهول لومارديا بجيش من الحفاة العراة ، وكان العامل الرئيسى فى نجاحه وإنتصاره هو علاقته بجنده .. خاطبهم عند مسيره بهم إلى إيطاليا فقال « إنى أراكم تحتاجون إلى الكثير مما تستحقون

وها أنذا على رأسكم ، أسير بكم إلى المواطن التى تكسبكم العزة والفخر والغنيمة » ، وخاطب يوماً أمته فقال متحدثاً عن جيشه « لاريب فى أننى أستطيع فتح العالم بهؤلاء الرجال» ... وتاريخ نابليون يروى كيف ارتبط به الجندى الفرنسى ، وليس أدل على ذلك من أنه حين هرب من الأسر وعاد وحده إلى فرنسا خرج الجيش الفرنسى كله يرحب به ويخدم تحت لوائه وهو يهتف من أعماق قلبه « يحيا الإمبراطور » .

وهكذا فعل روميل ثعلب الصحراء وبطل فرق البانزر الألمانية ، فقد ظل يحارب قوات بريطانيا فى الصحراء الغربية سنتين كاملتين معتمداً على فرقتين مدرعتين فقط ، دون أن تستطيع دولته إمداده بالمزيد ، ومرجع ذلك — مع كثرة انتصاراته التى بهرت العالم فى حينه — هذه الرابطة القوية التى جمعته وجنده ، كانوا يرون فيه قائداً لايبارى ، وكان يرى فيهم جنداً عباقرة ، كانوا يرون النصر فى ركابه ،وكان يرى هزيمة عدوه فى شجاعتهم... كانوا يفخرون بقيادته لهم ، وكان يعتز بهم كجند له ، وبتأثير هذه الوشائج النفسية التى جمعت بينهم اندفعوا جميعاً لنصرة دولتهم ، فحققوا معجزات اعترفت بها كل دول العالم وكل رجالات الحرب ، وكل مؤرخى هذه الفترة من تاريخ العصر الحديث ، حتى أصبح وأصبحوا أسطورة فى حرب الصحراء .

وهكذا فعل مونتجمرى قائد الجيش الثامن الذى قهر فى العلمين وما بعدها جيوش المحور .. كان مونتجمرى يؤمن بالجند وبأهميتهم ، ولهذا تقرب إليهم وعاش بينهم ، وأوجد صلة قوية بهم فأحبوه وتعلقوا به ، وكان ذلك

وراء انتصارهم فى حرب الصحراء الغربية .. قال فى مذكراته « إننى كنت أتحدث مع جنودى كلما أمكن ذلك » ، وقال أيضاً « إن المعارك تكسب أولا وبصفة رئيسية فى قلوب الرجال » ، وذكر أنه حينما وجد ثقة الجنود فى قادتهم قد تلاشت نتيجة للهزائم المتواصلة التى لحقت بهم ، سعى أول ماسعى لدى توليه قيادة الجيش الثامن إلى خلق نوع من الترابط والصلة النفسية بينه وبين جنده ، ونجح فى مسعاه ، فتولدت الثقة من جديد ، وكان لهـا أثر بالغ فى فى انتصاره فى العلمين ومابعدها .

وعلى الجانب الآخر لوحظ خلال الحرب العالمية الأولى أن السير دوجلاس هيج كان لايميل إلى لقـاء جنده .. كان لايتحدث إليهم ولايقترب منهم ولايستمع إليهم ، ولا تربطه بهم إلا الأوامر ، فبعدت الشقة بينه وبينهم ، وفقد الجند صلتهم به ، وكان منهم كثيرون لايعرفونه ، وتداعت الصلة بينهم ، وفقدت الثقة فيه تماماً ، وأدرك أحد ضباط أركان حربه خطورة هذا الأسلوب فتحدث إليه ، وطالب أن يلتقى بالجند ، وأن يتقرب إليهم ، وأن يخلق جواً من التعارف والألفة بينـه وبينهم ، ليعرفوه عن كثب وليعرفهم هو أيضاً ، فتمهد هذه المعرفة إلى تواجد جو من الثقة المتبادلة والمشاعر والأحاسيس .

ونختم حديثنا فى هذا الموضوع فنذكر ماقاله الدكتور لنك وهو يتحدث أولا عن الشخصية « الشخصية هى المدى الذى يذهب إليه الفرد فى تحويل كفاءته وضروب نشاطه إلى عادات وأعمال من شأنها التأثير بنجاح فى الغير » .

ونذكر ماقاله ثانياً فى وصف القائد الناجح « إن القائد الناجح هو الذى يفكر فى جنده ويهتم بهم ويتعاطف معهم » .

إذن ألم تكن المدرسة العسكرية رائدة ؟

نعم لقد كانت

وستظل . . .

[٣] روح القتال

تأتى روح القتال فى مقدمة العوامل التى يترتب عليها نجاح الحرب وكسب المعارك . . وروح القتال تشمل صفات الجند وأخلاقهم ، وحسن انتظامهم وشجاعتهم، وإخلاصهم وقوة احتمالهم، وقدرة قادتهم وكفاءتهم، وإيمانهم بأحقية الغرض الذى يحاربون من أجله .

ومما لاشك فيه أن روح القتال هى العامل الهام فى المعركة ، فالعدد والسلاح لايقومان مقام الشجاعة والإقدام والرغبة فى إحراز النصر . . وتوافر روح القتال هى التى تجعل الفرد يقدم على الحرب بعزيمة الرجال وقوة الأبطال .

وروح القتال تعنى الروح المعنوية .

ولقد ذكر الماريشال مونتجمرى فى كتابه « تاريخ الحروب » « إن أعظم عامل عن العوامل المؤدية إلى تحقيق النجاح هو روح المقاتل . . إنه لأمر هام وجوهرى أن يفهم المرء أن المعارك إنما ، تكسب أولا وقبل كل شىء فى قلوب الرجال » .

والإنسان يملك طاقة روحية لانفاد لها يستطيع أن يوجهها إلى نصرة الحق والدفاع عنه ، وهى دون شك أمضى من كل سلاح مادى ، ولهذا

فقد اهتم الإسلام بأن يسير الإعداد الروحي للمقاتلين جنبا إلى جنب مع الإعداد المادي .

ولقد جعل الإسلام من جهاد النفس وتسليحها بفضائل الأخلاق جهاداً أكبر ، وهو في ذات الوقت أساس قوي لجهاد الأعداء بالسلاح ، وهو فوق هذا الضمان الأكيد لإحراز النصر في أية معركة ، وفي هذا المعنى كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص « إني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليكم من عدوكم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة » .

والخليفة في رسالته يأمر جنده بتقوى الله ، لأنها القوة الروحية التي تعد أقوى وأمضى سلاح ضد العدو ، وأعظم مكيدة في الحرب ، فهي دليل الإيمان بالله ، وبرهان الثقة بالنفس ، ولا يهزم جيش سلاحه الإيمان ودرعه الثقة ، والإيمان والثقة عماد الروح المعنوية ، وهما نقطة البداية في روح القتال ،ولقد سعى الإسلام إلى أن يدعم في نفوس رجاله فكرة الثبات على المبدأ أو الثبات على الحق ، فالمسلمون لم يخوضوا معركة مع أعدائهم إلا من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وكم لاقوا في ذلك المشقات وقامت في طريقهم العقبات، فلم يفقدوا إيمانهم بحقهم وبمبادئهم وبمثلهم ، ومن هنا نصرهم الله في مواطن

كثيرة بفضل إيمانهم بأنهم على الحق « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، وأشار تعالى إلى فضيلة الثبات على الحق فى قوله ، وقوله الصدق « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

وبذلت المدرسة العسكرية الإسلامية جهداً كبيراً لخلق الرجاء فى الله عند المسلمين . . والرجاء يقارنه عمل متواصل شاق فى سبيل مايسعى إليه الإنسان ، ولهذا يكون الرجاء دافعاً إلى العمل الإيجابى ، فبه تحيا القلوب وتدرك قيمة النصر فتسعى إليه وتحققه .

والصبر سلاح يتسلح به المجاهد المقاتل، فهو أمضى سلاح ضد قوى البغى والعدوان ، وقد قيل إن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ويقول الله تعالى فى محكم آياته ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ ، وفى هذه الآية يوضح تبارك وتعالى للمسلمين أربعة مبادىء يجب أن يتحلى بها الجندى المسلم هى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى ، وهى من أجل وأطهر الصفات التى تقوم عليها روح القتال ، وفى ذلك يقول تعالى « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » .

فى بدر استقبل الرسول القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه وجعل ينشده ما وعده وأخذ يردد « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . . اللهم فنصرك الذى وعدتنى » ، وهذا الاتجاه إلى الله عرفه كل مسلم مقاتل حق المعرفة ، إذ آمن بأن هناك وعداً من الله تبارك وتعالى، لنصرته ومؤازرته ، ولهذا كان يدخل المعركة معتمداً على الله وهو يردد فى

إيمان مطلق بالله قول رسوله الكريم «والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» .

لقد كان كل مسلم يؤمن بأن لله إرادة فى أن يرتفع العالم إلى الكمال وأن تُنقذ الإنسانية المحطمة المنهارة وأن تسمو القيم الأخلاقية ، وكان الطريق إلى تحقيق هذا الهدف هو أن يسعى الجندى المسلم إلى إبلاغ رسالة الله ، فإن قبلها المبلَّغين حفظوا أنفسهم وحياتهم ، وإن أبوا إلا أن يطفئوا نور الله ، فإن واجبهم كجند الله وقوته أن يجاهدوا حتى يتم الله نوره ولوكره الكافرون .. إذن فواجب الجهاد هنا مرتبط بإرادة الله ووثيق الصلة بها .. والقدرة على الجهاد فى سبيل الله مرتبطة بالإيمان ووثيقة الصلة بالعقيدة .

فى ضوء هذا المعنى استهان المسلمون بالموت فى كل موقعة خاضوا غمارها ، بل كان الواحد منهم يحرض على الخروج ويسعى إليه أملا فى الشهادة ، ولم تسكن قلتهم بمعجزة إياهم عن مواجهة قوى أكبر وأخطر ، لأنهم كانوا يملكون قوة لاتقهر هى قوة الايمان .

بهذه القوة حمل المسلم عبء الدعوة إلى دين الله ، وواجه قوى ذات شأن ، وصبر فى مواجهتها ، وأصر على أن يقطع الطريق إلى نهايته ، وساد الإسلام فى عهد رسول الله الجزيرة ، وآمنت به كافة القبائل بعد معارك مريرة ثبت فيها الجندى المسلم بوحى من عقيدته، والتصاقه القلبى والعقلى بربه، وارتكازاً على قوة الايمان .

وبهذه القوة مع بداية عهد أبى بكر حمل المسلم عبء الدفاع عن الدين ضد مانعى الزكاة والمرتدين ومدّعى النبوة ، ووقف شامخاً بإيمانه وصلابته فى

خضم الأحداث حتى طواها ، وأعاد الهدوء والأمان والعقيدة والإيمان إلى الجزيرة كلها فى كافة مواقعها وقبائلها .

وبهذه القوة وعلى إمتداد عهدى أبى بكر وعمر حمل المسلم عبء إبلاغ الرسالة ومواجهة المعارضين خارج الجزيرة ، مع اتساع رقعة أراضيهم ، ومع ما كانوا عليه من تطور لم تشهده الجزيرة ولم يكن للعرب منه نصيب ، والتقى فى كافة البقاع أبناء البادية والخيام بأبناء المدن والقصور فى معركة فاصلة بين خير يراد وباطل يستباح ، وبفضل قوة إيمان أهل البادية سطعت أنوار الإسلام فى تلك الربوع ، تنشر الحق والعدل والاخاء والمساواة تحت شعار « الله أكبر ... لا إله إلا الله محمد رسول الله ».

بهذه القوة كان خالد ينتصر باسمه وكان عدوه يخشاه قبل أن يلقاه ..
بهذه القوة لمع نجم خالد كقائد عسكرى لا يبارى ، وقد اندفع إلى بلاد العراق يطأ أرضها ويثل عرشها ، وينتقل من نصر إلى نصر ، لا يهاب عدوه ، سيفه فى يده ، وإيمانه فى قلبه ، وثقة رجاله تحيط به ، وأمل المسلمين ينير له طريقه ... فى أليس مثلا واجهه القائد الفارس جابان وهو من أخطر قادة الفرس بجيش كثيف ، فاستعرض خالد بحاسة القائد الملهم مشاعر جنده ، وأدرك أنهم مصرون على القتال فى جلد وبأس ، يحدوهم الأمل ويدفعهم الرجاء ، فاتجه ـ وقد أخذ عليه ذلك شعوره وإحساسه ـ إلى ربه يستنصره ويمده ... قال « اللهم إن لك علىّ إن منحتنا أكتافهم ألّا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم » ، وخلال القتال تداعت قوة الفرس وانهارت ، ولم يملكوا قدرة المواجهة ، وتحطمت صفوفهم فولّوا الأدبار أملا فى النجاة ،

فنادى خالد رجاله « الأسر ... الأسر ... لا تقتلوا إلا من امتنع » ووقع في أيديهم أسرى كثيرون ، فضرب خالد أعناقهم وجرى النهر بدمائهم .

إن خالداً الذى حقق أعظم الانتصارات فى تاريخ الإسلام ، وارتبط اسمه بكل معاركه ، تلقى أمر عزله وهو فى قمة مجده بروح إسلامية تعبر عن قوة الإيمان التى تتملكه .. تلقى الأمر ومعركة اليرموك على أشدها فأخفاه حتى كان النصر ، ثم دعا أبا عبيدة بن الجراح وسلمه القيادة ، وقال لحامل البريد الذى جاء إليه بأمر العزل « بلغ أمير المؤمنين أن من حقه أن يعزلنى عن القيادة ، ولكنه لا يملك أن يجردنى من سيفى ، فسأظل حاملا هذا السيف فى خدمة أمتى » ، وعاش خالد جندياً بسيطاً تحت إمرة أبى عبيدة ، يتلقى منه الأوامر وينفذها ، وحاول البعض أن يدفع خالد إلى الاعتراض ، ولكن الاعتراض على رأى الحاكم أو الوالى خروج عن طاعة الله ومخالفة لأوامره ، والخروج والمخالفة يمسان الإيمان ، وإيمان خالد أكبر من أن يواجه الخليفة فى حق يملكه ، أو من أن يخرج عن طاعته فى وقت يواجه فيه الجند المسلم أعداءهم .. وبقى خالد جندياً يؤمر فيطيع بوحى من قوة إيمانه بعظمة الإسلام الذى يسمو بصاحبه إلى آفاق لا يحسب فيها للأشخاص أو المواقف حساب ، ولا يعرف فيها الغل ولا الضغينة ، فالأشخاص فانون والأشياء زائلة والأحداث منقضية ، أما دين الله فخالد باقٍ لا يزول ، وهذا هو قمة الإيمان وذروته .

وبمراجعة معارك الإسلام ندرك أن قوة الإيمان ـ وهى روح القتال ـ سيطرت على أحداث هذه المعارك وكانت الدعامة الأولى فى تحقيق النصر .

ففى موقعة البويب تولى مهران الهمذانى قيادة جيش الفرس وكان قائداً طموحاً ، فتقدم بقواته التى بلغت إثنى عشر ألفاً ، وواجه المثنى فى موقع يقال له بسوس قرب الكوفة ، وسمح له المثنى فعبر النهر الفرات واستعد الجانبان .. وكان المسلمون ما زالوا يعيشون ذكرى هزيمتهم فى الجسر ، وكان المثنى يعلم ذلك ، فأخذ يمر بين الصفوف ويقول لهم « إنى لأرجو ألا تؤتى العرب اليوم قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم شىء لنفسى وهو يسرنى لعامتكم » ، وأخذ ينشط الهمم ويقوّى العزائم ويحرض على القتال ويذكرهم بالحروب والوقائع الماضية والغزوات السالفة ، ويعرفهم بمواقع الشجعان ومصارع الفرسان ، ويضع أمامهم ما وعد الله به الشهداء من ثواب فى دار النعيم ، وحدّد المثنى ساعة الصفر وقال « إنى مكبّر ثلاثاً فتهيئوا ثم احملوا مع الرابعة » ، ولكن ميدان القتال هو ميدان المفاجآت ، فقبل أن تحين لحظة الهجوم العربى فوجئ العرب بهجوم للفرس ، فاختلّت لشدة المفاجأة وقسوة الهجوم صفوف المسلمين ، ولكن المثنى القائد الواعى اليقظ تنبه للأمر ، فبعث إلى بنى عجل وقد رأى خللا فى جبهتهم قائلا « إن الأمير يقرئكم السلام ، ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم » ، فاستجاب بنو عجل وشدّوا مع باقى المسلمين ، ودار القتال عنيفاً قاسياً شديداً ، والمسلمون بقوة الإيمان راسخون كالطود ثابتون كالجبال ، لا يبالون بالموت ، بل هاجموا وثبتوا بكل العزم والجرأة والاستبسال والصمود ، وكان أكثر جهداً وأعظمهم بلاء هؤلاء الذين فروا يوم الجسر ، وكأنهم كانوا يكفّرون بجهد اليوم عن خطأ الأمس ... وانتصر المسلمون فى البويب انتصاراً أنساهم هزيمة الجسر ، وثأروا لقتلاهم فقتلوا من الفرس عشرة آلاف .

وعندما تولى سعد بن أبى وقاص قيادة الجيش الإسلامى فى العراق ، وجه كل عنايته إلى روح القتال ، فكان يستعين بجماعة من أولى الرأى ، كالمغيرة وعاصم بن عمرو وطليحة وعمرو بن معدى كرب ، وبجماعة من الشعراء مثل الشماخ والحطيئة وعبده بن الطيب وقال لهؤلاء وهؤلاء « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فأنتم من العرب بالمكان الذى أنتم به ... أنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم ، وأنتم سادتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال » ، وانطلق هؤلاء بين الصفوف يحدثون الجند ويثيرون المشاعر والعواطف ، ويؤكدون الرغبة فى النصر أو الشهادة ، قال مثلا المذيل الأسدى « يا معشر معد ، اجعلوا حصونكم السيوف وكونوا عليها كأسود الأجم ، وتربدوا تربد النمور ، وأدّرعوا العَجَاج ، وثقوا بالله ، وغضّوا الأبصار ، فإذا كلّت السيوف فأرسلوا عليها الجنادل ، فإنها يُؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » ، وكمثل آخر قال عاصم بن عمرو « يا معشر العرب ، إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيناً على العرب غداً » ، وأمر سعد أن تقرأ آيات الجهاد فى كل المواقع .

بهذه الروح خاض المسلمون موقعة القادسية وبهذه التعبئة الروحية انتصر المسلمون .

برزت فى تاريخ المدرسة العسكرية الإسلامية أسماء قيادات تميزت بروح

القتال ، وكانت لها مواقف وأحداث ، ونحن نقدم هنا موقفاً لأحدهم كمثل صادق حي ... دخل طليحة بن خويلد معسكراً للأعداء وحده ، وقتل إثنين من فرسانه وساق جواديهما وغادر المعسكر ، فلمحه جنود العدو ، وخرجوا وراءه ، فتصدّى لهم وقتل منهم إثنين وأسر الثالث ، فارتد الباقون ، ونترك لأسيره يحكى لنا أحداث هذه المغامرة .. قال أسيره « باشرت الحروب منذ أنا غلام وسمعت بالأبطال فلم أسمع بمثل هذا ... إن رجلا قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفاً ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوتات ، فلما أدركناه قتل الأول وهو يعد بألف ، ثم الثانى وهو نظيره ، ثم أدركته أنا ، وخلفت من بعدى من يعدلنى ، وأنا الثائر بالقتيلين ، فرأيت الموت ، واستؤسرت » .

لم تكن روح القتال متوفرة لدى المسلمين الأوائل فقط ، وإنما توارثتها الأجيال المسلمة جيلا بعد جيل ، وبقيت روح القتال سائدة فى جميع المعارك ومسيطرة على أحداثها .

فطارق بن زياد يخوض ضد أهل الأندلس معركة كبيرة وخطيرة فى وادى بكة ... كان جيش عدوه ستة أضعاف جيشه ، هكذا قال ابن بول وهو يصف جيش رذريق « إن جيش رذريق ستة أضعاف جيش المسلمين » ، وأرسل رذريق من يأتيه بخبر عن المسلمين فجاءه قائلا « شهدت معسكر المسلمين ... لقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها ، وصفّوا فى السهل موطّنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب » ، واستمر القتال

بين الطرفين ثمانية أيام ، انتصر بعدها المسلمون إنتصاراً رائعاً ، فقد حاربوا بكل إيمان عميق وإخلاص مطلق وعقيدة راسخة وأمل كبير فى الله ورغبة أكيدة فى النصر . . وكانت لكلمات طارق أثرها القوى فى إثارة الهمم « لقد استقبلكم عدوكم بجيش كبير وأسلحته وقواته موفورة ، وأنتم لاملجأ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه لكم من أيدى عدوكم . . إنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم رذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه »، ووصف التلمسانى فى « نفح الطيب » وقع هذه الكلمات فقال « . . انبسطت نفوسهم وتحققت آمالهم وهبّت رياح النصر عليهم » .

وكان لسيف الدولة دور كبير ضد الروم ، وكانت روح القتال عنده وعند رجاله استمراراً لروح القتال عند المسلمين الأوائل ، ووصف الحافظ الذهبى فى كتابه « تاريخ الإسلام» شجاعة جند سيف الدولة فقال«وأخذت عليه الروم الدروب وحالوا بينه وبين المقدمة ، وقطعوا الشجر وسدُّوا به الطرق ، ودهدهوا الصخور فى المضايق على الناس ، والروم وراء الناس يقتلون ويأسرون ، ولا منفذ لسيف الدولة ، وكان معه أربعمائة أسير من وجوه الروم ، فضرب أعناقهم وعقر جمالهم ، وظل يقاتل فى نفر يسير قتال الموت حتى نجا » .

ووصف الثعالبى روح القتال فى جيشه فقال « سار سيف الدولة لبناء قلعة عظيمة الشأن ، فجمع ملك الروم عظماء أهل مملكته وجهزهم بالصليب

الأعظم وعليهم فردوس الدمستق فى عدد لا يحصى ، حتى أحاطوا بمعسكر سيف الدولة ، والتهبت الحرب واشتد الخطب وساءت ظنون المسلمين ، ثم أنزل الله نصره ، فحمل سيف الدولة طالباً الدمستق ، فولّى هارباً ، وأُسر صهره وابن ابنته ، وقُتل خلق كثير من الروم » . . . ووصف المتنبي هذا الموقف فقال ...

سراياك تترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبى

ولقد سيطرت روح القتال الإسلامية بكل مقوماتها على المسلمين الذين واجهوا الحملات الصليبية على بلدان المشرق العربى ومصر ، فهزموهم شر هزيمه ، وأسروا ملكهم فى مصر ، وطردوهم من البلاد التى كانوا قد وضعوا أيديهم عليها . . . والذين واجهوا حملات المغول والتتار فهزموهم هزيمة منكرة وأنقذوا ملك المسلمين وأرضهم وردّوهم إلى خارج حدود الدولة الإسلامية .

إن المسلمين فى كل عهودهم كانوا يلقون أعداءهم بقوة وعزم وتصميم وإيمان وعقيدة ووعى وشجاعة .. وهذه هى مقومات روح القتال .

وعلى الجانب الآخر لم تكن الجيوش التى واجهت المسلمين على ذات المستوى ، فقد كانت تفتقد الدوافع النفسية والقوى المعنوية وروح القتال . . افتقدوا هذا كله فخسروا المعارك ووصفهم خالد بن الوليد فقال « إنما أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب » .

[٤] — الالتزام بالخطة

كان المقاتلون من المسلمين على مختلف مستوياتهم يلتزمون بالخطة التي وضعها القائد الأعلى أو قائد الجيش، وكانوا يحرصون على تنفيذها دون تغيير أو تبديل فهذا من حق القيادة وحدها .

ولاشك فى أن الالتزام بالخطة يجعل الأهداف واضحة والواجبات محددة وخط التنفيذ معروف ، فيفهم كل فرد واجباته ومسئولياته وفى حدود الواجب والمسئولية يكون تصرفه .

فى بدر خرج وجهاء قريش وزعماؤها على رأس الخارجين يحرضون على قتال المسلمين وفى مقدمتهم أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ، وهما من أشد المشركين على المسلمين ، وكانت خطة المسلمين تلزمهم بأن يوجهوا همهم الأول بل الأكبر إلى رءوس الكفر جزاء وفاقاً لما عذبوهم بمكة ولما صدوهم عن المسجد الحرام ولما أثاروا عليهم الناس والقبائل . . والتزم المسلمون بهذا الخط ورأى بلال أمية بن خلف فصاح به « أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا » ، وقتله ، وقتل معاذ بن عمرو بن الجموح أبا جهل بن هشام . . . وقُتل كثيرون من زعماء قريش .

ولعل هزيمة المسلمين فى أُحد ترجع أساساً إلى عدم التزام الرماة بالخطة التى وضعها رسول الله ، وقد كانت أوامره عليه السلام واضحة « الزموا مكانكم لاتبرحوا منه » ، وكان واجب الرماة محدداً يتركز فى حماية ظهر المسلمين وعدم مغادرة الموقع نهائياً تحت أية ظروف وعدم الاشتراك فى القتال فى حالتى النصر والهزيمة « إن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم

فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا » ، وكانت مهمتهم الرئيسية كما حددتها الخطة هى إبعاد الخيل بالنبل عن أرض المعركة برشقها بالنبل « إنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقبل على النبل » . . ورغم هذا الوضوح الكامل فإن الرماة لم يلتزموا بالخطة ، وخرجوا فى واجباتهم عن الحد المقرر لها ، فعندما شاهدوا ثلاثة آلاف من فرسان قريش تتمزق أمام هجمات المسلمين قال بعضهم وقد استخفهم الفرح والطمع حين رأى المغانم التى خلفتها قريش تزحم الجبل « لم تقيمون هاهنا فى غير شىء ، وقد هزم الله عدوكم ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا فاغنموا مع الغانمين » ، وتنبه أحدهم إلى خطورة هذه الدعوة فقال محذراً ومنبها « ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانكم » ، ولم يستمعوا إليه وقالوا « لم يرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذل الله المشركين » ، وترك الرماة مواقعهم إلا نفراً دون العشرة ، ولمح خالد خلو الجبل ، وهو موقع استراتيجى هام ، فكر ومعه عكرمة بن أبى جهل بالخيل ، وحمل على القلة الباقية من الرماة ، وقتلهم ، وتحولت نتيجة المعركة إلى جانب قريش ، وقد كانت ملء أيدى المسلمين .

وفى الخندق اقتحم عمرو بن عبد ود الخندق ، ودعا الناس للمبارزة ، فتهيب كثيرون لقاءه ، ولم يخرج إليه أحد ، فصاح فيهم قائلا « أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم يدخلها أفلا تبرزون لى رجلا ؟ » ، فقام إليه علىّ ، ولكن الرسول منعه خوفاً عليه وقال « إجلس إنه عمرو » ، فأصرّ علىّ وقال « وأنا علىّ » ، فأدناه الرسول وقبله وعممه بعمامته وخرج معه خطوات كالمودع له القلق عليه ، ثم دعا له وقال للقوم « الآن برز الإسلام كله للشرك

كله » ثم ناشد ربه « اللهم أعنه عليه . . اللهم هذا أخى وابن عمى فلا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين » ، فلما التقى الإثنان قال عمرو « يا ابن أخى ، من أعمامك من هو أشد منك ، فإنى أكره أن أريق دمك ، وإن أباك كان صديقاً لى ، ووالله ما أحب أن أقتلك » ، وكان هـذا التحذير دعوة لعلىّ ليتجنب المبارزة ، ولـكنه خرج أصلا من صفوف المسلمين ليحقق هدفاً ويؤدى واجباً ، فـكان لابد من أن يلتزم بهذا الخط ، ولهذا قال لعمرو « ولـكنى والله أحب أن أقتلك » . . وقتله .

وكانت خطة الرسول فى فتح مكة تقوم على أساس دخولها دون قتال . . ووضع رسول الله خطة الغزو ، فقسم جيشه إلى فرق يقودها رجال من المسلمين الأشداء ، وكان على جماعة الأنصار سعد بن عبادة ، وسمع بعض المسلمين سعدا يقول وهو يقترب من مكة « اليوم يوم الملحمة . . اليوم تستحل الحرمة » ، وفى قوله هـذا خروج عن الخط وعدم التزام بالخطة ، وكان لا بد من علاج سريع خوفاً من أن يتطور الأمر إلى شىء يكرهه رسول الله ، ونقل عمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف إلى رسـول الله قول سعد وقالوا « يا رسول الله ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة » ، فأمر رسول الله بأن تنزع منه الراية ، وأن يتولى ابنه قيس المهمة بدلا منه وقال « بل اليوم يوم تعظم فيه وتعز فيه الـكعبة . . اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً » .

وعندما تلقى خالد أوامر أبى بكر وهو فى العراق بالتوجه إلى اليرموك ، رأى أن الطريق الذى يسلـكه لا يصل به مباشرة إلى مواقع المسلمين ،

وإنما يقوده إلى أماكن فى يد الروم مما يضطره إلى قتالهم ، وهو بذلك يخرج عن الخط المقرر ، ويبعد عن الهدف المحدد ، فمهمته أصلا أن يصل بجيشه سليما غير مجهد إلى مواقع المسلمين ، وأن يسهم معهم فى قتال الروم ، وخالد قائد يعرف أن المهمة يجب أن تنحصر فى تنفيذ الأوامر وتحقيق الهدف دون أن يعترض التنفيذ مايخل بالهدف ، ولهذا دعا حذاق الأدلاء وسألهم « كيف لى بطريق أخرج منه من وراء جموع الروم ، فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين » . . والتزام خالد بالأوامر والتعليمات وحرصه على الهدف المحدد له يعنى فى حروب اليوم « المحافظة على الهدف » ، وهو من المبادىء التى تحرص عليها القيادات العسكرية الحديثة .

وفى أواخر أيام أبى بكر طلب منه المثنى أن يعينه بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ، ودعا أبو بكر عمر وأوصاه فى أمر العراق « اسمع ياعمر ما أقول لك ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، وإن فتح الله على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » . . أبو بكر قبل وفاته رسم للخليفة المنتظر الخط العريض لسياسته فى العراق ، والتزم عمر بهذا الخط ، فما أن تولى الخلافة حتى ندب الناس إلى العراق « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك . . أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : ليظهره على الدين كله ، والله مظهر دينه ومعز ناصره وممول أهله مواريث الأمم »

كانت الخطة العامة لعرض الإسلام على غير المسلمين تقوم على أسس ثلاث تبدأ بعرض الإسلام كدين ومبادىء ، فإن استجاب الناس وآمنوا أصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وإن رفضوا دفعوا الجزية وعاشوا مع المسلمين لا يمسون بسوء ، وإن أبوا لم يعد سوى القتال ... هذه هى الخطة العامة التزم بها المسلمون ولم يخرجوا عنها أبدا فى كافة مراحل حياتهم .

كتب خالد إلى هرمز يدعوه إلى واحدة من ثلاث « أما بعد ، فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة . وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وأرسل عمرو بن العاص إلى المقوقس « ليس بينى وبينكم إلا إحدى خصال : فإما دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا ، وإما أبيتم فأعطيتم الجزية ، وإما جالدناكم بالصبر والقتال ، حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » .

وبعث سعد بن أبى وقاص وفدا يضم النعمان بن مقرن وفرات بن حيان والأشعث بن قيس وعمرو بن معدى كرب والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة إلى يزدجرد ، وتحدث إليه المغيرة فقال « اختر إن شئت الجزية ، وإن شئت السيف ، أو تسلم فتنجى نفسك » .

وفى عهد عمر ازدادت رقعة العمليات العسكرية الإسلامية ، وكان عمر مقيما فى المدينة عاصمة الدولة ومقر القيادة العليا للجيوش ، وكانت قيادات جيوشه قد بعدت عنه كثيراً ، وكان يخشى أن يتورط قادته فى عمليات خاسرة تضر بصالح الإسلام والمسلمين ، لهذا طلب من قادة جيوشه أن

يكتبوا له دائماً فى كل موقف ، حتى يكون فى الصورة معهم وكأنه يعيش معهم فى مواقعهم .. كتب بهذا المعنى إلى سعد بن بن أبى وقاص فقال « اكتب إلى بجميع أحوالكم وتفاصيلها .. كيف تنزلون .. وأين يكون منكم عدوكم ... واجعلنى بكتبك إلى كأنى أنظر إليكم واجعلنى من أمركم على الجلية » ..

وكان عمر وهو فى مقر القيادة بالمدينة يرسم الخطط فى ضوء ما يبلغه من معلومات ، ويبعث بها إلى العراق ، فيلتزم بها الكافة ، ومن أمثلة ذلك « إذا بلغت القادسية ، والقادسية باب فارس فى الجاهلية ، وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ، وهو منزل رغيب خصب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر » .

ومن أمثلة ذلك « إذا كان يوم كذا . فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القواديس ، وشرق بالناس وغرب بهم » .

ومن أمثلة ذلك « إن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إنشاء الله ، وإنه قد ألقى فى روعى أنكم ستهزمونهم فلا تشكن فى ذلك » .

ومن أمثلة ذلك « سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء فى إثنى عشر ألفاً ، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى ميسرته عمرو بن مالك ، وعلى ميمنته مسعود بن مالك ، واجعل على الساقة عمرو بن مرّة الجهنى » .

ولم يقتصر توجيه عمر على سعد وحده ، وإنما شمل كل قادته .. كتب إلى الحارث بن يزيد العامرى فى شأن أهل هيت « إن استجابوا فخل عنهم فليخرجوا ، وإلا فخندق على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك حتى أرى من أرى » ... وكتب إلى عتبة بن غزوان « إنى قد استعملتك على أرض الهند ، وهى حومة من حومة العدو ، أدع إلى الله فمن أجابك فاقبل منه ، ومن أبى فالجزية وإلا فالسيف » . وكتب إلى أبى موسى الأشعرى « سر بأهل البصرة إلى ماه ، والأمير النعمان بن مقرن » .

كان عمر يضع لقادته الخطط ويبلغهم بها ، وكان القادة على مختلف مستوياتهم يرتبطون بهذه الخطط ، ويعملون فى حدودها ، ويلتزمون بالخط الذى رسمه لهم .

ولما حان الوقت الذى خرج فيه المسلمون عن الخط العام للإسلام ولم يلتزموا به ، اختلفت بهم الطرق وانقسموا على أنفسهم ، وقامت الخلافات وظهرت الطوائف والشيع ، واندلعت نيران الحروب بينهم وهان أمرهم ، وتجرأت على الدولة الإسلامية دول ما كانت لتتجرأ لولا ما وجدتها عليه من فوضى وانقسام وتنازع .

* * *

ويأتى بعد ذلك دور الحديث عن الخطة ذاتها

ونحن نعرض مجموعة من الخطط العسكرية الإسلامية ، ولعل القارىء الكريم من خلال الاطلاع على هذه الخطط ، مع استرجاع للدراسات التى

شملتها صفحات سابقة من الكتاب ، يقف على حقيقة تاريخية ذات شأن ، وهى أن العسكريين الإسلاميين كانوا يضعون خطط القتال على أسس سليمة وقواعد صحيحة ، وبمهارة وعلم وحسن إدراك وفهم ، وأن الخطط كانت تتلاءم مع الموقف وتتفق مع الظروف وتتناسب مع طبيعة العدو .

فى عهد رسول الله كان عليه السلام يتولى قيادة الجيش الإسلامى ، وكانت العمليات الحربية كلها عمليات محلية أى قاصرة على داخل الجزيرة ، ولهذا كان رسول الله هو المسئول عن وضع الخطط .

فى بدر كانت خطة المسلمين أن يقتربوا قدر الإمكان من ماء بدر — حسب ما أشار به الحباب بن المنذر — ويضعوا أيديهم على الماء فيستغلوه لصالحهم وخدمة أغراضهم ، ويمنعوه فى ذات الوقت عن عدوهم ، فإذا حاول الوصول إلى مواقع الماء تعرضوا له ومنعوه وقاتلوه ، وقد أصر الأسود ابن عبد الأسد المخزومى — وكان رجلا شرساً سيء الخلق — على أن يشرب من الماء وقال « والله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنّ دونه » ، فلما خرج فى اتجاه الماء تعرض له حمزة ، وضربه فأطَنّ قدمه بنصف ساقه ، فوقع على ظهره ، ثم حبا إلى موقع الماء حتى اقتحمه ، فقتله حمزة .

ويلاحظ أن الماء كان العامل الرئيسى الذى تحكم فى خطة القتال فى بدر ، والمعركة تدور فى أرض صحراوية لا ماء فيها إلا فى مناطق محددة ، والماء فى مثل هذا الموقع وهذه الظروف هام وجوهرى ، يغتسل به المقاتل ، ويشرب منه ويسقى خيله وإبله وهى أسلحة القتال التى يرتكن عليها فى التحرك والقتال ، ومنع الماء عن العدو يسبب له مشاكل كثيرة ، ومتاعب متعددة

تخلق عنده اضطرابا نفسيا .. والحرص على الماء كان له دور فى حرب الحيرة ، فقد سبق هرمز خالد بن الوليد إلى موقع الماء هناك لينزل خالد بجنده على غير ماء ، فقال خالد لرجاله « حطوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء ، فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » ، وحتى يكون الماء فى أيدى جنده فقد استمدوا من إيمانهم قوة ومن يقينهم عدة ومن أرواحهم أسلحة وجالدوا عدوهم على الماء ، حتى انتزعوه .

وفى أحد كان وضع الرماة جزءا من الخطة ، فقد قامت الخطة أساساً على الاستفادة من طبيعة الأرض ، فالجبل وهو جزء من أرض المعركة يشكل مانعاً يمنع المسلمين من عدوهم ، فلا يهاجمهم من الخلف ، هذا فوق أنه مرتفع يشرف على على أرض المعركة ، ومن يسيطر عليه يتحكم فيها ويستطيع أن يستخدم سلاحه ـ وهو لدى المسلمين النبل والرمح ـ بحرية وقدرة وفاعلية

وقامت خطة الدفاع فى موقعة الأحزاب على أساس تحطيم صيغة التحالف القائم ضد المسلمين ، ولعب نعيم بن مسعود دوراً رائعاً فى هذه الموقعة ، وإليه يرجع فضل تحطيم صيغة التحالف ، فقد أتى رسول الله وقال « يا رسول الله، إنى قد أسلمت ولم يعلم قومى بإسلامى ، فمرنى بما شئت » له « نما أنت رجل واحد من غطفان ، فلو خرجت فخذّلت عنا إن استطعت كان أحب إلينا من من بقائك معنا ، فاخرج فإن الحرب خدعة » ، وأتى نعيم بنى قريظة وقال لهم « إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم

ونساؤكم ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ، فلا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم » ... ثم أتى قريشا وغطفان وقال لهم « تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما كان من خذلانهم محمدا ، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا نسلمهم إليك تضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم » ... وطلبت قريش وغطفان من بنى قريظة أن يعدوا أنفسهم للقتال غدا ـ وكان يوم سبت ـ فاحتجوا بذلك ، ثم طلبوا الرهن « لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتدّ عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا به » .

واختلفت كلمة الأحزاب وانعدمت الثقة وافترقوا ونجحت الخطة .

وفى غزوة الفتح وضع رسول الله خطته على أساسين هما دخول مكة من جميع جهاتها ثم دخولها دون قتال ، فقسم عليه السلام جيشه إلى أربعة أقسام ، وحدد لكل قسم واجبه ومسئوليته ، فجعل الزبير على الجناح الأيسر وأمره أن يدخل مكة من شمالها ، وخالد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخلها من أسفلها ، وسعد بن عبادة على أهل المدينة (الأنصار) ويدخلها من الغرب ، وأبا عبيدة على المهاجرين ويدخلها فى حذاء جبل هند ... وبذلك تحقق الأساس الأول من الخطة ، أما الأساس الثانى فقد تم بعزل سعد بن عبادة ،

وتمت الخطة فعلا كما أرادها الرسول إلا فى جبهة خالد ، إذ تعرض له عدد من قريش فيهم سهيل وعكرمة وصفوان ، ودار قتال قصير فر على أثره الثلاثة ، وتساءل رسول الله « ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ » ، فقال المهاجرون « نظن أن خالدا قوتل وبدىء بالقتال فلم يكن بد أن يقاتل ، وما كان يارسول الله ليعصيك ولا ليخالف أمرك » ، وسأله الرسول « لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ » ، فقال « هم بدأوا ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا بالنبل وقد كففت يدى ما استطعت » ، فقال الرسول « قضاء الله خير » .

ومع بداية عهد أبى بكر قامت الفتنة فى الجزيرة العربية ، وكان لابد من مواجهتها والضرب على أيدى القائمين بها ، وإعادة الأمور إلى نصابها ، وأحس الناس جميعا بالمسئولية التى ألقتها المقادير على عاتقهم بعد وفاة الرسول ، فاجتمعوا وراء أبى بكر لمواجهة الفتنة ، واستقر الرأى على قتال مانعى الزكاة من عبس وذبيان وبنى كنانة وغطفان وفزارة ، وعلى مدعى النبوة طليحة ابن خويلد ومالك بن نويرة ومسيلمة الحنفى ، وعالج أبو بكر الموقف على مرحلتين ، فبدأ بقتال مانعى الزكاة وهزمهم فى ذى القصة ، ثم ابتدأت المرحلة الأكثر حرجا وهى مرحلة قتال المرتدين ، وأعد أبو بكر أحد عشر لواء وحدد لكل لواء مهمته ، ووضع خطة تعاون هذه الألوية (سبق الإشارة إلى هذه الألوية وأهدافها وقياداتها) ، وترك أبو بكر لقادة الألوية حرية التصرف العسكرى فى ضوء الظروف والاعتبارات ، وبذلك أعطاهم الصلاحية الكاملة للعمل وتحقيق الأهداف ... ولقد حققت كافة الألوية مهمتها ، ولا تتسع صفحات الكتاب للحديث عن عمل كل لواء ، ولهذا فنحن نعرض

لأعمال اللواء الأول الذى تولى قيادته خالد بن الوليد ، لنؤكد على حقيقة هامة،وهى الالتزام الكامل وحسن التخطيط والتنفيذطبقا للهدف الاستراتيجى للدولة الإسلامية فى حينه .

كان اللواء الذى عقده أبو بكر لخالد هو أمنع الألوية وأقواها ، وكان به خيرة المقاتلة من المهاجرين والأنصار ، قال أبو بكر « ياخالد ، عليك بتقوى الله وإيثاره على من سواه والجهاد فى سبيله فقد وليتك على من ترى من أهل بدر من المهاجرين والأنصار » .

تحددت مهمة خالد بقتال طليحة بن خويلد ، فإذا فرغ منه قاتل مالك ابن نويرة ، وكان بنو أسد (قوم طليحة) وبنو تميم (قوم مالك) هم أقرب المرتدين إلى المدينة وأشدهم وأقواهم ، ولهذا اختير خالد لمواجهتهم ، ولا عجب نخالد بطل الإسلام وسيفه ، حليف الحروب وصنديدها ، بطل المعارك وفارسها .

نزل طليحة مع رجاله على ماء يسمى الغمر ، والتقى الجيشان فى ساحة المعركة وجها لوجه ، وأراد عدىّ بن حاتم أن يجعل قومه فى المقدمة وقال « يا أبا سليمان ، اجعل قومى مقدمة أصحابك » ، ورأى خالد أن يجعل فى المقدمة المهاجرين والأنصار ، لأنهم قوم صبر وثبات ولهم سوابق ، وهو عالم بأحوال الرجال وشأن الجند فى حومة الوغى ومنزلة أهل العقائد والإيمان فى الإقدام والحرص على الموت فى سبيل الله ، فقال لعدىّ « يا أبا طريف ، إن الأمر قد اقترب ، وأنا أخاف أن أقدم قومك ، فإذا لحمهم القتال انكشفوا فانكشف من معنا ، ولكن دعنى أقدم قوما صُبرا لهم سوابق وثبات وهم من قومك » .

وجمع خالد القوم وتدارس معهم الموقف ، ودفع بلواء الجيش إلى زيد ابن الخطاب ، وبلواء الأنصار لثابت بن قيس ، وفوجىء المسلمون بطليحة يحمل عليهم بكتيبة خاصة قوامها أربعون غلاماً جلداً ، فانكشف المسلمون واختلطت صفوفهم ، فصاح خالد « يامعشر الأنصـار ، الله ، الله » ، وتقدم بفرسه إلى المقدمة ، يضرب بسيفه ، وروى الكلبي أنه لم يرجع من هجمته إلا بعد أن قضى على الأربعين الذين كانوا فى الـكتيبة ، وقال إنه قاتل يومها بسيفين حتى قطعهما . . . واتسع نطاق القتال بين جند الإسلام وجند طليحة ، انتصر المسلمون وانكشف عن طليحة شيطانه ، وسقطت رايته ووطأتها الإبل والخيل والرجال ، فلما رأى ماحلّ برجاله من القتل والأسر ، وثب على فرسه وحمل وراءه امرأته النوار ، وقال لأصحابه « من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل » ، وهرب بها إلى الشام .

وبدأت الجولة الثانية ضد مالك .. وتردّد رجال من لوائه أن يسيروا معه فقال لهم « هذا مالك بن نويرة بحيالنا ، وأنا قاصد له بمن معى من المهاجرين والتابعين لهم بإحسان ، ولست أكرهكم » ، وسار إلى البطـاح ، وتخلّف الأنصار ولـكنهم تشاوروا فى الأمر وقرروا اللحـاق به ، وكانت انتصاراته على طليحه قد بلغت مالك ، فأمر رجاله بالتفرق وقال لهم « يابنى يربوع ، إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنـه فلم نفلح ، وقد نظرت فيه فوجدت أن الأمر يتأتّى لهم بغير سياسة ، وإذا الأمر لايسوسه النـاس ، فإياكم ومناوأة قوم قد صُنع لهم فتفرقوا إلى دياركم وأدخلوا فى هذا الأمر » ، ولم يجـد خالد أحداً بالبطاح ، وألقى جنده القبض على نفر من بنى يربوع منهم مالك ، فأمر خالد بقتله .

وأمد أبو بكر خالداً بمدد ، وأمره بالسير إلى حيث مسيلمة الكذاب باليمامة وكان مسيلمة رجلا صاحب ذكاء وفيه خبث ومكر ودهاء واقتـــدار على الاحتيال ، واستطاع أن يجمع أربعين ألفاً من رجاله بعقرباء في طرف اليمامة ، ووضع خالد خطته على أساس استخدام الحروب الباردة أولا ثم السيف ، فبعث زياد بن لبيد بن بياضة الأنصارى — وكان صديقاً لمحكم بن طفيل سيد أهل اليمامة وحليف مسيلمة — لعله ينجح في كسبه إلى صفه وقال له « لو ألقيت إلى محكم شيئاً تكسره به » ، فكتب إليه بعض أبيات من الشعر قال له فيها ...

يامحكم بن طفيل قد أتيح لكم	لله در أبيكم حية الوادى
يامحكم بن طفيل إنكم نفر	كالشاة أسلمها الراعى لآساد
مافى مسيلمة الكذاب من عوض	من دار قوم وإخوان وأولاد
فاكفف حنيفة يوما قبل نائحة	تنعى فوارس شاج شجوها باد
لاتأمنوا خالداً بالبرد معتجرا	تحت العجاجة مثل الأغضف العادى
ويل اليمامة ويلا لافراق له	إن جالت الخيل فيها بالقنا الصادى
والله لاتنثنى عنكم أعنتها	حتى تكونوا كأهل الحجر أو عاد

ورفض محكم الدعوة واندفع يحرض الناس على قتـال المسلمين « يامعشر أهل اليمامة ، إنكم تلقون قوماً يبذلون أنفسهم دون صاحبهم ، فابذلوا أنفسكم دون صاحبكم ، فإن أسدا وغطفان إنما أشار إليهم خالد بذباب السيف ، فكانوا كالنعام الشاردة » .

ولم ييأس خالد فلجأ إلى عمير بن صالح اليشكرى — وكان قد أسلم وكتم إسلامه على قومه — وكان قوى العقيدة راسخ الإيمان ، وقال له « تقدم إلى قومك فاكسرهم » ، فأتاهم ولم يكونوا علموا بإسلامه ، وقال « يامعشر أهل اليمامة ، أظلكم خالد فى المهاجرين والأنصار ، تركت القوم يتتابعون إلى فتح اليمامة ، وقد قضوا وطراً من أسد وغطفان وعليا هوازن ، وأنتم فى أكفهم ، وقولهم لاقوة إلا بالله ، إنى رأيت قوماً إن غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر ، وإن غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد ، ولستم والقوم سواء ، الإسلام مقبل ، والشرك مدبر ، وصاحبهم نبى وصاحبكم كذاب ، ومعهم السرور ومعكم الغرور ، فالآن والسيف فى غمده والنبل فى جفيره (جعبة من الجلد أو الخشب) قبل أن يسل السيف ويرمى بالنبل ، سرت إليكم مع القوم عشراً فاكسرهم »

ودفع خالد ثمامة بن أثال الحنفى ليؤدى ذات الدور مع قومه ، فسار إليهم ودعاهم إلى الاستسلام ، قال لهم « إنه لايجتمع نبيان بأمر واحد ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا نبى بعده ، لا نبى مرسل معه . . لقد بعث (يقصد أبا بكر) رجلا لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه يقال له « سيف الله » معه سيوف كثيرة ، فانظروا فى أمركم » .

وبدأت مرحلة القتال ، فقسّم خالد جيشه إلى ميمنة عليها أبو حذيفة عتبة ابن ربيعة ، وميسرة عليها شجاع بن وهب ، وجماعة الأنصار عليهم ثابت بن قيس ، وجماعة المهاجرين وعليهم زيد بن الخطاب ، وجعل البراء بن مالك على الخيل . . وبدأ القتال واشتد ، وحمى الوطيس ووقع القتلى من الجانبين ، واختلط الناس ولم يُعرف الفُرّار من الكُرّار ، وشنّ خالد حملة عنيفة وحمل

معه المسلمون ، فتجمع رجال مسيلمة فى حديقة له فهاجمهم المسلمون ، وقتلوهم حتى سميت الحديقة من كثرة القتلى بحديقة الموت ، وانفرط عنه الرجال وانحلت عزائمهم ، ووهنوا أمام المسلمين فتفرّقوا .

قلنا إن أبا بكر كان يطلق يد القادة فى وضع الخطط وتنظيم الجيش ، ولم يتدخل أبداً فى شئون المعارك ، ولم يفرض على أحد من قادته خطة معينة أو رأياً محدداً ؛ وإنما كان ينصح ويقدّم العون ويدعو بالتوفيق ، ولعله اتخذ هذا الأسلوب لأن جيوش الشام لم تكن قد بدأت معاركها ، ولأن جبهة العراق يتولّاها خالد وهو محارب له منزلته ومكانته وفكره العسكرى وقدرته على القيادة وشجاعته فى المواجهة .

أمر أبوبكر خالدا بأن ينضم إلى قوات الشام ، وفى اليرموك تدارس الموقف ، ورأى الروم قوة واحدة وجبهة صلبة وقيادة واحدة ، بينما كان المسلمون أربعة جيوش بأربعة قيادات ، كل قيادة تتصرف طبقاً لما تراه دون تعاون بين الجيوش كلها ، فوضع خطة عمل تقوم على أسس ثلاثة ...

- تعاون جميع الألوية فى جبهة واحدة .
- توحيد القيادة فى شخص واحد يأتمر بأمره الجميع .
- تكون المبادأة للمسلمين .

وكان النصر العظيم فى اليرموك فاتحة لانتصارات أخرى فى بلاد الشام .

يومات أبو بكر وخلفه عمر ، وفى عهده اتسعت رقعة الدولة وازدادت

الفتوحات وكثرت المعارك وتعددت ميادين القتال . وبقيت خطوات المعركة كما حددتها المدرسة العسكرية الإسلامية . . تقدير للموقف تقومه خطة مدروسة محكمة تحدد الأهداف وتنظم المسئوليات والواجبات .

وانتهج عمر سياسة جديدة ، فكان — كما سبق الإشارة — يشترك فى توجيه الجيوش ووضع الخطة العامة ، وظلت حرية الحركة مكفولة للقيادات المباشرة ، تتلقى الاستراتيجية العامة من المدينة وتقوم هى بالتنفيذ .

مع بداية عهد عمر عزل خالد من قيادة جيوش المسلمين وتولى مسئوليتها أبو عبيدة بن الجراح ، وكلف باستكمال العمليات الحربية ضد الروم ، وكان عليه أولا أن يبدأ بالتقدم إلى دمشق ، وجاءته الخطوط الرئيسية للخطة من المدينة معتمدة وكانت تتضمن ...

- القوات الرئيسية تقوم بالهجوم على دمشق .
- بعض قوات الفرسان تقوم بهجوم ثانوى على فحل .

و

- فى حالة نجاح الهجومين تتقدم القوات كلها إلى حمص .

ولعل خطة عبور نهر دجلة إلى المدائن كانت أعظم الخطط التى وضعت فى تاريخ الحروب ، فقد شكل سعد كتيبتين كلفهما بالعبور ، وحدد لكل كتيبة هدفا محدداً وواجبا مرسوما ، وكان هذا التشكيل بداية لاستراتيجية عسكرية جديدة فى تاريخ الحرب ، فإحدى الكتيبتين هى كتيبة الأهوال ،

وهى تشبه فى حروب اليوم تشكيلات فرق الصاعقة ، وكانت مهمتها أن تعبر النهر ثم تعد على الشاطىء الآخر مكاناً آمناً تصل إليه بقية الجيش ، والكتيبة الثانية كانت الكتيبة الخرساء ، وكانت مهمتها معاونة كتيبة الأهوال . . الكتيبة الأولى تولّى قيادتها عاصم بن عمرو ، أما الأخرى فتولاها القعقاع ابن عمرو ، وكانت خطة العمليات كالآتى ...

— تجتاز كتيبة الأهوال النهر وتستولى على منطقة آمنة وتحميها وتؤمنها (أى تقوم بعملية إقامة رأس جسر على الشاطىء الآخر للنهر) .

— تتقدم الكتيبة الخرساء للمعاونة وللحماية خلال إقامة رأس الجسر .

— تتحرك كافة القوات للعبور إلى الجانب الآخر من النهر .

وبرز عمرو بن العاص كقائد مشهود له بالكفاءة والقدرة والمعرفة الكاملة بفنون القتال ، وكانت عملياته فى فلسطين ومصر عمليات تاريخية ناجحة ، وكانت خططه على أعلى مستوى .. دراسة ومعرفة وإدراكاً وتخطيطاً ، فمثلا وضع خطة القتال فى أجنادين بأسلوب حربى متجدد ، يطلق عليه فى الحرب الحديثة « اقتصاد القوى » أو « ادخار القوى » بمعنى توجيه القوة الرئيسية إلى الهدف الرئيسى مع توجيه بعض القوى الثانوية إلى أغراض ثانوية ، بقصد توجيه نظر العدو عن مكان الضربة الرئيسية ، ولنراجع معاً خطة عمرو لنرى كيف طبق مبدأ ادخار القوى ...

● مواجهة قوات أرطبون فى إيلياء ، وتتولى هذه المهمة قوة بقيادة علقمه بن حكيم ومعه مسروق العبكى .

• مواجهة قوات أرطبون فى الرملة ، وتتولى هذه المهمة قوة بقيادة أبو أيوب المالكى .

• مهاجمة أرطبون فى أجنادين بالقوة الرئيسية وبقيادة عمرو .

وخطة عمرو فى أم دنين تؤكد عبقريته ونبوغه ، فأم دنين قرية شمال حصن بابليون ، والاستيلاء عليها يسهل عملية الاستيلاء على الحصن ، وأدرك الروم خطورة سقوط أم دنين ، فبعثوا بقوات هائلة كثيفة إلى بابليون وأم دنين وتهيأوا للقتال . . . وقدر عمرو الموقف وبحثه مع رجاله ، وبث العيون تأتيه بالأخبار ، وانتهى إلى وضع خطته وكانت تتضمن ...

• حصار أم دنين والاستيلاء على السفن الراسية فى المرفأ .

• عدم التورط فى قتال غير مضمون النتيجة .

• استعجال أمير المؤمنين لإرسال المدد المطلوب .

ونفذت الخطة ، وحوصرت أم دنين ومنع عنها الزاد والميرة ، ودار قتال شديد بين المحاصرين والمسلمين ، ووصل المدد خلال الحصار ، فهاجم عمرو الحصن وقتل كثير من الروم وفر الباقون إلى بابليون ، ووضع عمرو يده على السفن الراسية على النيل .

وضعت بعض خطط المسلمين فى بعض المعارك على أساس استخدام مبدأ الحصار أو التطويق ، فكثير من الأعداء كانوا يسكنون مناطق محصنة يصعب دخولها أو فتحها عنوة ، ولهذا اتبع نظام الحصار أو التطويق ، ونجح نجاحاً كبيراً ، وهو فى فن الحرب من أسهل وأسرع الوسائل للقضاء على

العدو ، بل هو من الوسائل الفعّالة ، فالقوات التى تُحاصر تظل حبيسة لا تملك القدرة على الحركة ، وتنقطع اتصالاتها بالخارج ، ولا تجد وسيلة للامداد بكل متطلباته ، وتـكون كثعلب فى جحر ، وبطول مدة الحصار تفتر العزيمة وتنهار المعنويات ، وتصبح القدرة على الصمود واهية ضعيفة .

إذن أصبح الحصار فى العهد الإسلامى وسيلة لقهر العدو ، وقامت خطط كثيرة اعتماداً على الحصار ، كما حدث فى خيبر بعد أُحد ، وفى قريظة بعد الخندق ، وفى الطائف ، وبابليون ، وطرابلس ، ودمشق ، وفى مناطق أخرى كثيرة فى مختلف ساحات القتال ، ونحن نذكر فيما يلى مثلين للحصار الأول حصار الطائف على عهد رسول الله ، والثانى حصار دمشق على عهد عمر بن الخطاب .

• كانت الطائف مدينة محصنة لها أبواب تُغلق عليها ، وكان أهلها ذوى دراية بحرب الحصار ، وذوى ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون ... كان يسكنها بنو ثقيف ، وهؤلاء كان رسول الله قد لجأ إليهم قبل الهجرة ينشد عندهم الأمان والعون ، فسخروا منه وأساءوا إليه .. حدث قبل المسير إلى الطائف أن وقع صدام مسلح فى حنين مع قوات مالك بن عوف ، فلما انهزموا فرّوا إلى الطائف يحتمون بها ، فأمر الرسول بمحاصرة ثقيف هناك ، لأنه كان من المتعذر اقتحام الحصون لمناعتها وقوتها ، وتم الحصار وقال أحد الأعراب يصف للرسول حصار الطائف « إنما ثقيف فى حصنها كالثعلب فى جحره لاسبيل إلى إخراجه إلا بطول المـكث » .

وكانت ثقيف قد أخذت أهبتها لحصار طويل ، فأجمعوا أمرهم على الدفاع

بكل قواهم وعلى إحباط كل محاولة للوصول إليهم ، وزوّدوا حصونهم بكل ما استطاعوا من مؤن وذخيرة . . وكان رجال ثقيف ذوى خبرة بقتال الحصون ، فكانوا يمطرون المسلمين بالسهام ، فقُتل عدد منهم وجرح عدد آخر ، فأمر رسول الله بالابتعاد عن مرمى السهام ، واستعان عليه السلام بقوم من بنى دوس لهم علم بالرماية بالمنجنيق ومهاجمة الحصون ، ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق واستخدموا الدبابات ، وزحفوا بها إلى الجدار ، ولكن أهل الطائف قاوموا وصدّوا هجمات المسلمين ، وأمر رسول الله من نادى عبيد ثقيف « من خرج إلينا فهو حر » ، فتسلل عدد من العبيد وأعتقهم رسول الله ، ومنهم عرف أن القوم تزوّدوا بزاد سنة ، وأنهم عازمون على البقاء حتى إذا نفد زادهم حاربوا دفاعاً عن أنفسهم حتى لا يبقى منهم رجل ، ورأى الرسول أن الحصار قد فقد قيمته ، وأن الأشهر الحرم قد قرب أوانها ، وأوشك ذو القعدة فآثر رسول الله العودة .

● وكانت دمشق مدينة ذات أسوار منيعة .. كانت مثلا فى قوة التحصن والمنعة ، بنيت من حجارة ضخمة متينة ، وعلت أبنيتها إلى ارتفاع يزيد على ستة أمتار ، فى سمك يزيد على ثلاثة ، وكانت حصونها رفيعة الذرى كثيرة الشرفات ، يحتمى بها الرماة بالسهام والمجانيق ، وزادها هرقل تحصيناً ، وكانت بالأسوار أبواب منيعة يحكم إغلاقها فلا تسمح لداخل إليها أو خارج منها ، وأحيطت الأسوار بخندق يزيد عرضه على ثلاثة أمتار ، وتحميه مياه نهر بردى .

هكذا كانت دمشق كما وجدها المسلمون المتقدمون إليها تحت إمرة

أبى عبيدة بن الجراح ، قلعة ذات أبراج . . . وفكّر أبو عبيدة ، وقرر أن يحاصر المدينة وأن يمنع أية قوات معاونة من الوصول إليها ، وقضت خطة الحصار بأن يخصص لكل قائد على رأس جماعة من المقاتلين باب من أبواب الحصن يرقبه ويهاجمه إذا سنحت له الفرصة ، فكان أبو عبيدة على باب الجابية ، وعمرو على باب توماء ، وشرحبيل على باب الفراديس ، ويزيد بن سفيان على باب كيسان ، وخالد على الباب الشرقى ، ونصب المسلمون المجانيق حول المدينة من كل اتجاه .

ولتنفيذ الشطر الثانى من الخطة تحركت قوة بقيادة ذى الكلاع الحميرى إلى منطقة بين دمشق وحمص ، وقوة أخرى بقيادة علقمة بن حكيم ومسروق العبسى إلى منطقة بين دمشق وفلسطين ، وكان واجب القوتين منع أية قوات معادية من التقدم إلى دمشق من حلب أو من فلسطين . . . وطال الحصار ، وعلم خالد أن بطريق المدينة وُلد له ولد وأنه أولم للناس ، فأكل الجند وشربوا وتراخوا من المراقبة وتركوا مواقعهم وغفلوا ، فأعدّ حبالا على هيئة سلالم ، وقال لجنده « إذا سمعتم تكبيرنا من السور فارقوا إلينا » ، وتقدم ومعه القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدىّ وعبروا الخندق ، ثم ثبتوا أوهاق حبالهم فى الأسوار وتسلقوها ، ثم ثبتوا الحبال فى الشرف التى تلى داخل المدينة ، وألقوها ، وانحدر خالد ومن معه ، ونزلوا إلى الباب وقتلوا الحراس ، وفتحوه على مصراعيه ، وكبّر خالد وسمع رجاله فعبروا الماء وتسلقوا الحبال ، واندفع بعضهم من باب الحصن واستسلمت المدينة .

* * *

وأخيراً

فهذه صور للخطط الحربية التى وضعها المسلمون خلال عملياتهم ، ونحن نذكر هذه الصور على سبيل التدليل على ماتذهب إليه من البحث ، ونحن لا نستطيع أن نعرض لكل الخطط ، ولكن الذى يهمنا هو أن الخطة الحربية عند المسلمين كانت تُعد بعد دراسة عميقة ، وفهم لكافة الأوضاع ووعى بكل الظروف ، وأنه على طول التاريخ العسكرى الإسلامى لم توضع خطة بصفة عامة عاجلة أو بطريقة إرتجالية مما يؤكد عبقرية المسلمين العسكرية وتميزهم فى هذا الفن .

(٤)

عندما بدأ الإسلام يخطو على طريق الحياة ، وأصبح قوة تملك الصد والردع ، وغدت جيوشه قادرة على الحركة السريعة داخل الجزيرة وخارجها، تحدد موقف الناس منه فى ثلاثة مواقف . . .

- بعضهم قبل الإسلام كدين ، وآمن بالرسول والرسالة ، واعتنق الإسلام وأصبح مسلماً مؤمناً صحيح الإسلام صادق الإيمان ، وعاش فى ضوء القرآن وتعاليمه .
- بعضهم بقى على دينه وعبادته ، على أن يدفع الجزية المقررة مقابل حمايته والدفاع عنه ، طالما أن المسلمين قادرون على فرض الحماية ، فإذا عجزوا أُسقطت ورُدَّت .
- بعضهم رفض الإسلام كدين ، وأبى دفع الجزية ، وشهر سيفه فى وجه المسلمين ووقع القتال .

هذه المواقف الثلاثة كانت نبع تعليمات رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن الدعوة للاسلام ، والتى حددها فى : قبول الإسلام ، أو قبول الجزية ، أو الحرب ، والتزم المسلمون بهذه التعليمات وأصبحت منهجاً وأسلوباً لعرض الإسلام والدعوة إليه .

وقامت الحروب فى داخل الجزيرة وخارجها ، وكانت الغاية منها إعلاء كلمة الله وحماية الدين وتوفير المناخ الملائم للدعوة إليه .

ولقد أيد الله المسلمين بنصره فانتصروا ، وارتفع لواء الإسلام فى مختلف البقاع فى الجزيرة والعراق والشام وشمال أفريقيا ، ومناطق متعددة فى أفريقيا وآسيا وأوربا .

وكان فى أعقاب كل معركة تواجه المسلمون بعض مشكلات ترتبط بالحرب ، وتكون نتيجة مباشرة لها ، وتصدى المسلمون لها ، ووضعوا الخطوط الرئيسية لعلاج كل مشكلة .

[١] وكانت أول مشكلة تواجه المسلمين هى مشكلة الأسرى

والأسير هو من وقع فى قبضة الأعداء من الرجال ، والسبية من وقع فى يدهم من النساء والأطفال .

وكان للعرب فى جاهليتهم أساليب مختلفة فى معاملة الأسرى .

وكان المتبع أن يعامل الأسير معاملة سيئة فيها امتهان وإذلال ، فكان يصفد بالأغلال والقيود ، فلا يملك القدرة على الحركة ولا يستطيع التنقل . .

قاظ الشَّرَبَّة[1] فى قيد وسلسلة   صوت الحديد يُغنيه إذا قاما

وكان بعض العرب يسخرون الأسرى عبيداً ويستخدمونهم خدما ...

ولقد شريت الخمر بالعبـــد الصحيح وبالأســير

وكانوا أحياناً يجزون نواصيهم تشهيراً بهم وتوكيداً للمذلة ، وكان الأسير يخير بين جز الناصية والتخلية ، وبين الأسر ، فإن احتار جز الناصية جزها ، وجعل شعره فى كنانته وخلى سبيله .

---

(١) أقام وقت القيظ ــ الشربة موضع ومكان .

وكانوا يحرصون على جز ناصية الشريف الذى يقع فى الأسر ذلة له واعتزازاً بالعفو عنه بعد المقدرة ...

جززنا نواصى فرسـانهم وكانوا يظنون أن لن تجزا[1]

وكان بعض العرب يقتلون أسراهم ويضربون أعناقهم ، ولـكن كان هناك إجماع على عدم قتل الأسرى ، وكان كثيرون يستقبحون ذلك ، فقد قال ابن جفنة لعامر بن مالك « ماقتلنا أسيراً قط » .

وكثيرون كانوا يفدون أسراهم ، وروى أن هوذة بن الحنفى دفع فداء لنفسه ثلثمائة بعير ، وقيل أيضاً أن الأشعث بن قيس الـكندى وقع أسيراً ففادى نفسه بألفى بعير وألف من الهدايا . . . قال الشاعر فى ذلك ...

فـكان فداؤه ألفى بعير وألفا من طريقات وتلد

وأطلق لبيد أسراه دون فداء...

وعانٍ فـكـكناه بغير سوامة فأصبح يمشى فى المحلة جاذلا[2]

وكان بعض العرب يمنون على الأسرى ويطلقونهم ، وكان إطلاق الأسير مدعاة للفخر والمدح ، قالت الخنساء وهى ترثى أخاها صخراً :

ورب نُعْمَى منك أنعمتَها على عُنَاةٍ غُلَقُ فى الإسار

أما السبايا ، فـكان العرب يستولدونهن، وكان البعض يعتقهن ويتخذهن

---

(١) ديوان الخنساء .
(٢) ديوان لبيد .

زوجات ، وكثير من سادات العرب أبناء سبايا ، كدريد بن الصمة ، فإن ريحانة بنت معديكوب أسرها الصمة بن عبد الله وتزوجها فانجبت دريدا وإخوته .

وكان السبي عارا مابعده عار ، حتى أن السبية الحرة كانت تنخع نفسها حتى لا يستذلها الإسار .

هذا ما كان من شأن الأسرى فى الجاهلية .

ولقد قامت هذه المشكلة ـ أول ماقامت فى الإسلام ـ على أثر بعث سرية عبد الله بن جحش ، فى هذه السرية وقع اثنان من المسلمين هما سعد بن أبى وقاص وعقبة بن غزوان فى يد قريش ، وفى ذات الوقت أسر المسلمون إثنين من قريش كانا مع قافلة العلاء بن الحضرمى أحدهما حر والآخر مولى هما عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان . . . كان هناك توازن فى عدد الأسرى ، وطلبت قريش فك أسيريها ، وعرضت أن تدفع فى مقابل ذلك ماشاء الرسول من الفداء ، ولكن الرسول أبى فداء الأسيرين حتى يقدم صاحباه من أسر قريش ، واشترط عليه السلام أن يصلا أولا إلى المدينة قبل إطلاق سراح أسيرى مكة ، وهدد بقتل الأسيرين إذا أقبلت قريش على قتل سعد وعقبة ، ووافقت قريش فاطلقت سراحهما واستلمت أسيريها .

<u>كان إذن تبادل الأسرى هو أول خطوة تجاه هذه المشكلة</u>

ولكن المشكلة عولجت فى بدر بطريقة أخرى .

فى هذه الغزوة وقع فى أيدى المسلمين سبعون من قريش ، كان من بينهم

إثنان أمر رسول الله بقتلهما هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط .. كانا أذى وشراً على المسلمين وقت مقامهم في مكة ، وعندما عُرض أمرهما على رسول الله لم يكن عليه السلام قد استقر على رأى أو نظام بالنسبة للأسرى ، فأمر بقتل النضر عند الأثيل ، وقيل إن رسول الله نظر إلى النضر نظرة ارتعد لها فقال « محمد والله قاتلى .. لقد نظر إلىّ بعينين فيهما الموت » ، والتفت إلى مصعب بن عمير وقال « كلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه فهو والله قاتلى إن لم تفعل » ، فقال له مصعب « إنك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه وكنت تعذب أصحابه » ، فقال النضر « لو أسرتك قريش ماقتلتك أبداً وأنا حى » ، فقال مصعب « والله إنى لا أراك صادقاً ، ثم إنى لست مثلك » وقتله علىّ بن أبى طالب ضرباً بالسيف .

ثم أمر الرسول بقتل عقبة فصاح « فمن للصبية يامحمد ؟ » ، فقال الرسول « النار » ، وقتله علىّ بن أبى طالب ، وقيل فى بعض الروايات قتله عاصم بن ثابت ، وقال رسول الله للمسلمين « أتدرون ماصنع هذا بى ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام ، فوضع رجله على عنقى وغمزها ، فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستَنْدِران (ستخرجان) .. وجاء مرّة بسلا شاة فألقاها على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى » ، وحاول المقداد بن عمرو إنقاذه فقال « النضر أسيرى » ، فقال الرسول « اضرب عنقه ، واللهم أغن المقداد من فضلك » ، فلما قُتل أمر به رسول الله فصلب ، وكان أول مصلوب فى الإسلام.

وصل رسول الله المدينة قبل وصول الأسرى بيوم ، فلما أقبلوا فرقهم بين أصحابه وقال لهم « استوصوا بهم خيراً » ، فأكرمهم المسلمون حتى أنهم كانوا

يؤثرونهم على أنفسهم بطيبات الطعـــــام ، قال فى ذلك أبو عزيز بن عمير « كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدموا غذاءهم وعشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ، ماتقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها فأستحى ، فأردها على أحدهم ، فيردها علىّ مايمسها » .

وبدأ رسول الله يفكر فى أمرهم .. ماذا يفعل ؟ .. هل يقتلهم ؟ .. هل يطلقهم ؟ .. هل يأمر بفدائهم ؟.

إذا أطلقهم ففيهم أشداء أقوياء يخشى صولتهم عند الحرب .

وإذا قتلهم أثار قومهم فيزدادون كرهاً للإسلام وعداوة للمسلمين .

وإذا افتداهم تمتلىء نفوسهم حقداً فيكونون حرباً عليه .

لم يشأ الرسول أن ينفرد وحده بالرأى فى مواجهة هـذه المشكلة ، ورأى كما هى عادته أن يرجع إلى أصحابه يستشيرهم ويقف على رأيهم .

وفى ذات الوقت كان الأسرى يفـكرون فى أنفسهم . . كانوا حباً منهم فى الحياة وتعلقاً بها يأملون أن يتقبل منهم الفداء وإن كان عظيما ، وقال بعضهم « لو بعثنا إلى أبى بـكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمة وعطفاً ولا نعلم أحداً آثر عند محمد منه » ، وبعثوا إليه وقالوا « يا أبا بـكر إن فينا الآباء والإخوان والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب ، كلّم صاحبك يمنّ علينا أو يفادينا » نوعدهم خيراً . . وخافوا أن يفسد عمر وساطة أبى بكر ، فبعثوا

إليه وحدثوه بما حدثوا به أبا بكر فلم يسمع منهم وتركهم .

وكان سعد بن معاذ قد رفض أساساً فكرة الأسر ، وأغضبه مشهد المسلمين وهم يقرنون الأسرى فى الحبال دون أن يقتلوهم ، وكره منهم ذلك ، ورأى رسول الله من سعد الكراهية لما يصنعون فقال « كأنك تكره ماذا يصنع الناس ؟ » فقال « أجل والله هى أول وقعة أوقعها الله بالمشركين ، وكان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال » .

وعرف رسول الله رأى سعد يحبسه فى داخله .

ثم استدعى أبا بكر وعمر وآخرين وسألهم الرأى « ماتقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ » .

قال أبو بكر

« يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والإخوان ، وأبعدهم منك قريب ، فامنُن عليهم منّ الله عليك ، أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار ، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين ، فلعل الله أن يقبل بقلوبهم » .

وقال عمر

« يارسول الله ، هم أعداء الله ، كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك ، إضرب رقابهم ، هم رءوس الكفر وأئمة الضلالة ، يوطىء الله بهم الإسلام ، ويذل بهم أهل الشرك » .

وقال عبد الله بن رواحة

« يارسول الله أنظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم ناراً » .

وانقسم الناس .. البعض آخذ برأى أبي بكر .. والبعض آخذ برأى عمر ... والبعض آخذ برأى عبد الله ، وحاول أبو بكر أن يستعطف الرسول ويذكره القرابة والرحم .

وأخيراً أعلن الرسول رأيه

« إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة .. أنتم عالة فلا يبقين أحد إلا بفداء أو ضربة عنق » .

إذن كان الرأى هو الفداء

وعاتب الله رسوله لأنه قبل الفداء وآثره على الإثخان فى قتل العدو ... قال سبحانه ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٦٧/٦٩) .

وقال الرواة إن رسول الله بكى ، وبكى معه أبو بكر ، وبكى معهم القائلون بالفداء ، وقالوا إن رسول الله تمنى لو أنه أخذ برأى عمر فى قتل الأسارى .

والآية الكريمة تضمنت عتاباً للرسول ولأصحابه ، لأنهم قبلوا فدية الأسرى ، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك وهم مازالوا فى أول الطريق ،

وليست لديهم القوة التى يفرضون بها رأيهم ، أو يحمون بها دينهم ، أو يكفلون بها وجودهم وحياتهم ، بينما العدو قوى شرس معاند مكابر ، وهو دائم التعدى عليهم والتنكيل بهم ، عذّبهم وأخرجهم من ديارهم ، ثم حاربهم بأمل أن يقضى عليهم ، ولهذا فكان الواجب ـ وقد هزموه فى أول لقاء مسلح ـ أن يقتلوا أسراه ، فيضعف ، وتتراخى يده عنهم .

انتهى رأى الرسول إلى الفداء ، وجعل المال يتدرج من ألف درهم إلى أربعة آلاف ، وكان كل أسير يدفع على قدر يساره .

ولما علمت قريش بما انتهى إليه رأى الرسول قالت « لا تعجلوا فى فداء أسراكم » ، وكانت ترى أن عدم الإسراع قد يخفف من تشدّد الرسول ، ولكن مضى وقت طويل وهى صابرة على محنتها ، ثم لم تجد بداً من أن تبعث فى الفداء ، فقدم مكرز بن حفص فى فداء سهيل بن عمرو ، وهو خطيب هاجم رسول الله بلسانه ، فطلب عمر أن يسمح له الرسول فينزع ثنيتيه ليدلع لسانه فلا يقوم فى الناس خطيبا يهاجم النبى ويسبه « يارسول الله دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو فيدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً » ، فرفض الرسول وقال « لا أمثّل به فيمثّل الله بى وإن كنت نبياً » ، ولقد ظل سهيل على عدائه لرسول الله حتى فتح مكة فأسلم .

اشترط رسول الله فى الفداء من قدر عليه افتدى به ، أما من لم يقدر وكان يعرف القراءة والكتابة فقد رأى الرسول أن يفك أسره إذا علّم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة لينهض بهم ، وكان زيد بن ثابت أحد هؤلاء الذين تعلّموا فى هذا الفداء ، وزيد هو الذى كتب الوحى للنبى ،

وأمره النبي أن يتعلم العبرانية فتعلمها في سبعة عشر يوما ، وكتب زيد مصحف حفصة في عهد أبي بكر ، ثم المصاحف الأخرى في عهد عثمان .

أما الأسرى الفقراء الذين لا مال لهم فقد منّ الرسول عليهم ، وأطلق سراحهم دون فداء .

ومن الأسرى الذين أطلق سراحهم دون فداء أبو العاص بن الربيع خَتَنَ رسول الله (صهره) وزوج ابنته زينب ، وكان من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، فقد بعثت زينب تفتديه بمال وبقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بُنى بها ، فلما رآها الرسول رقّ لها وطلب من المسلمين « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها مالها فافعلوا » ، فقالوا له « نعم يا رسول الله » ، وردّوا عليها الذى لها ، وأطلقوا سراحه ، وأخذ النبي عليه أن يخلّي سبيل زينب فوعده .

وكان العباس عم الرسول ضمن الأسرى ، فأراد أن يمنّ الرسول عليه فيطلقه دون فداء ، ولكن الرسول أبى إلا أن يدفع فديته وفدية نفر من أهله وحلفائه ، وروى أن العباس قال للرسول « إنى كنت مسلما قبل ذلك ، وإنما استكرهونى » ، فقال له الرسول « الله أعلم بشأنك ، إن يك ما تدعى حقا فالله يجزيك بذلك ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وحليفك عقبة بن عمرو » ، فقال « ما ذاك عندى يارسول الله » ، فقال الرسول « فأين المال الذى دفنت أنت وأم الفضل ؟ » ، وافتدى العباس نفسه بسبعين أوقية من الذهب ، وافتدى ابنى أخويه عقيل ونوفل بسبعين .

إذن تقرر في بدر مبدأ افتداء الأسرى

ولكن هذا المبدأ تغير حين حارب الرسول اليهود

فكان له مع أسراهم رأى آخر وموقف مختلف

بعد أن استسلم يهود بني قينقاع استشار الرسول أصحابه في أمرهم ، واستقر الرأى على قتلهم جميعا ، وتقدم عبد الله بن أبي بن سلول برجاء إلى الرسول أن يعفو عنهم « يا محمد أحسن في موالى » ، ثم عاد فقال « أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر » ، وانضم إليه في الرجاء عبادة بن الصامت ، فاستجاب إليهما الرسول ، ولكن بشرط أن يخرجوا من المدينة جزاء لهم على صنيعهم ، فتركوها إلى أذرعات على حدود الشام .

وخرج يهود بني النضير كما خرج يهود قينقاع ، وقد ترك كل منهم ما تحت يديه من الحلقة ، أى السلاح والعتاد .

أما يهود خيبر فبعد استسلامهم وافق رسول الله على بقائهم يقومون على خدمة الحدائق والمزارع والنخيل التي كانت في حاجة ماسة إلى الأيدي العاملة ، واحتفظ رسول الله لنفسه بحق إجلائهم حين يريد .

واستسلم يهود فدك فأبقاهم الرسول وصالحهم على نصف أموالهم .

أما يهود بني قريظة فقد تغير الوضع بالنسبة لهم ، فبعد استسلامهم عرضوا أن يلحقوا باليهود الآخرين فى أذرعات ، وتحدثوا إلى الأوس فى هذا الشأن « ألا تأخذون لإخوانكم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم » ، (يقصدون مسعى عبد الله بن سلول بشأن يهود بني قينقاع) ، وتحدث بعض من الأوس إلى الرسول فى شأنهم « يانبى الله ، ألا تقبل من حلفائنا مثل الذى قبلت من حلفاء الخزرج » ، فقال لهم « يامعشر الأوس ، ألا ترضون أن أجعل بينى وبين حلفائكم رجلا منكم ؟ » . قالوا « بلى » ، قال « فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا » ، واختار اليهود سعد بن معاذ ، وكان فى المسجد فى خيمة يداوى فيها الجرحى من الصحابة ممن لم يكن له من يقوم عليه ، وكان قد أصيب بسهم يوم الخندق ، فأتاه قومه ، فحملوه ، وأقبلوا به إلى رسول الله وهم يقولون له « يا أبا عمرو أحسن فى مواليك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فأحسن فيهم فقد رأيت ابن أبى وما صنع فى حلفائه » ، فقال « لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم » ، فتشاءم كثيرون ، وقالوا « واقوماه » ، فلما انتهوا إلى رسول الله قال له « أحكم فيهم ياسعد » ، فقال « الله ورسوله أحق بالحكم » ، فقال الرسول « قد أمرك الله أن تحكم فيهم » ، وسأل سعد الجميع « عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت » ، فأجابوه « نعم » ، فقال « فإنى أحكم فيهم أن تُقتل الرجال وتُغنم الأموال وتُسبى الذرارى والنساء ، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار » ، فقال له رسول الله « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة (سموات) » ، وأمر الرسول أن يُجْمع ما فى حصونهم من الحلقة والسلاح ، فوجد فيها ألف وخمسمائة سيف وثلثمائة

دارع وألفى رمح وخمسمائة ترس وماشية ، كما أمر بأن تكون النساء والذرية في دار ابنة الحرث النجارية ، ثم خندق رسول الله فى سوق المدينة خنادق ، وأمر بهم فضربت أعناقهم ، وألقيت جثثهم فى الخندق ، ورد عليها التراب ، وعند قتلهم صاحت نساؤهم وشقت جيوبها ونشرت شعورها وضربت خدودها وملأت المدينة نواحاً ، وكان فى مقدمة القتلى زعيمهم حيي ابن أخطب .

واختلفت الصورة بالنسبة للأسرى مرة أخرى .

فبعد أن تم نصر الله ودخل المسلمون مكة أصبح كل من فى مكة من قريش أسيراً ، وانتظر القوم ما يفعل بهم رسول الله بعد أن أصبح الأمر كله فى يده ... دعا الرسول عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ووقف على بابها ، وتكاثر الناس فى المسجد يرقبون أمره فيهم ، وسألهم « يا معشر قريش ماترون أنى فاعل بكم ؟ » ، قالوا « خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم » ، قال « فاذهبوا فأنتم الطلقاء » ، ونزل هذا العفو الكريم برداً وسلاماً على تلك القلوب القاسية التى طالما اضطرمت بالعداوة لهذه النفس الخيِّرة ، وطالما أعماها الحقد عن مجاوبة هذا القلب الرحيم ...

وأمر رسول الله بقتل تسعة ،وأهدر دمهم ، وأباح قتلهم ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة ، وهؤلاء كادوا كيداً شديداً للإسلام منهم عبد الله بن أبى سرح وكان قد أسلم قبل الفتح ، وكان يكتب الوحى لرسول الله ، وزعم أنه لا يكتب ما يملى عليه ويغير فيه ويبدل ، وقال « إن محمداً لا يعلم ما يقول » ، فلما انكشفت خيانته ارتد وهرب إلى مكة ، وقال « إن كان محمد نبياً يوحى

إليه فأنا نبي يوحى إلى » ، وقال لقريش « إنى كنت أصرف محمداً كيف شئت ، كان يملى على عزيز حكيم فأقول عليم حكيم ... » ، فلما كان يوم الفتح لجأ إلى عثمان بن عفان أخيه فى الرضاعة وقال « يا أخى ، استأمن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يضرب عنقى » ، وألح عثمان على الرسول وأسلم وبايع الرسول بمر الظهران ... ومنهم عبد العزى بن أخطل وهو شاعر هجا رسول الله ثم أسلم ، ثم عاد وارتد ، وبعد أن دخل رسول الله مكة تعلق بأستار الكعبة ، فقال الرسول « اقتلوه فإن الكعبة لا تعيذ عاصياً ولا تمنع من إقامة حد واجب » ، ... ومنهم هبار بن الأسود الذى أسلم « يا محمد أنا جئت مقراً بالإسلام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، فقال له الرسول « يا هبار عفوت عنك ، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام والإسلام يجب ما قبله » ... ومنهم عكرمة بن أبى جهل وكان هو وأبوه أشد الناس أذية للرسول وأشد الناس على المسلمين ، وفر إلى اليمن فلحقت به امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام بعد أن أسلمت وقالت له « يا ابن عم ، جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس ، لا تهلك نفسك فقد استأمنت لك » ، فعاد معها وسأل رسول الله « يا محمد ، هذه أخبرتنى أنك أمنتنى » ، فقال « صدقت ، إنك آمن » ، فقال « اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله » .

كان إذن موقف الرسول من أسرى قريش هو العفو العام عنهم .

ويمكن أن نوجز موقف الرسول من الأسرى على الوجه التالى ...

- العفو لفضل سابق أو لحكمة تقتضيها مصلحة المسلمين .

- الإفتداء بالمال كل حسب قدرته .
- الإجلاء عن المدينة تخلصاً من القوى المضادة .
- القتل .

على هذا المنهاج سار الخلفاء ، أما فى العهود التى تلت عهد الراشدين ، فقد تطور الأمر بالنسبة لتطور نظم الدولة ، فقد وقعت الفتنة بين المسلمين وحارب بعضهم بعضاً ، وكان القتل هو الأمر الشائع والأسلوب الذائع حتى شمل أقرب الناس إلى قلب رسول الله وأكثرهم جهاداً إلى جانبه وأعمقهم إيماناً بالله وأصدقهم إخلاصاً للإسلام .

* * *

[٢] فرض الإسلام ضريبة يدفعها أهل الذمة فى مقابل قيام المسلمين بالدفاع عنهم وحمايتهم من أى عدوان يتعرضون له ، ولإظهارهم بمظهر الخاضع للإسلام ، وكانت هذه الضريبة تسمى الجزية .

فرضت الجزية على أهل الذمة يؤدونها للمسلمين ، وسميت جزية لأنها إما من الجزاء فى مقابل الذنب الذى ارتكبوه بإفساد عقيدتهم ، وإما من المجازاة فى مقابل حفظ نفوسهم وصبيانهم من القتل .

وتسقط الجزية بالإسلام .

قال الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » « واسمها مشتق من الجزاء ، فيجب على أولى الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من أخذ الذمة

من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار الإسلام ، ويلتزم لهم ببذلها بحقين : أحدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين » .

وقال تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(التوبة:٢٩) ويفسر الأستاذ عبد الكريم الخطيب هذه الآية فى « التفسير القرآنى للقرآن » فيقول إن الله أمر بقتال المشركين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً مشوبا بالضلال ، وكذلك أمر بقتال اليهود الذين لا يؤمنون دين الحق وأفسدوا دينهم مما حرفوا من كتاب الله الذى فى أيديهم ، وكذلك أمر بقتال الكافرين الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر .. إذن فواجب المسلمين أن يعرضوا على هؤلاء دعوة الحق ، فإن استجابوا وآمنوا كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وإن أبوا كان من الضرورى قتالهم حتى يستسلموا ، فإذا سامت لهم أنفسهم لا تسلم لهم أموالهم ، وعليهم أن يؤدوا الجزية صاغرين مقهورين .

ولم تفرض الجزية على عبدة الأوثان من العرب ولا على المرتدين ، فهؤلاء كان عليهم أن يختاروا الإسلام أو السيف يتلوه القتل ، والهدف من ذلك هو توحيد الأمة العربية والقضاء على الوثنية بها نهائياً ، ولهذا لم يشملهم التشريع ولم يطوق عليهم ، وفى ذلك قال الإمام

الشافعى « إنها (يقصد الجزية) تؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجماً ، ولا تؤخذ من أهل الأوثان لثبوتها فى أهل الكتاب » ، وعند أبى حنيفة تؤخذ الجزية من أهل الكتاب مطلقاً ، ومن مشركى العجم والمجوس لا من مشركى العرب ، وقال أبو يوسف فى كتاب « الخراج » « الجزية واجبة على جميع أهل الذمة وتجب على الرجال دون النساء والصبيان » .

وذكر الأستاذ محمد عزة دروزة فى « الدستور القرآنى فى شئون الحياة » أنه ليس ما يمنع أخذ الجزية من غير أهل الكتاب إذا رأى السلطان الإسلامى ذلك متفقاً مع مصلحة المسلمين وأمنهم .. وأنه ليس ما يمنع أن يقبل السلطان الإسلامى خضوع عدو باغ واستسلامه ورضاءه بالجزية دون قتال ، وذكر أن النبى وخلفاءه قد صالحوا بعض الأعداء على الجزية من دون قتال

والجزية ليست إسلامية الأصل والمنبت وإنما هى قديمة .

فرضها اليونان على سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد .

وفرضها الرومان على أهالى البلاد التى خضعت لحكمهم ، وكانت تختلف باختلاف الأقاليم ، وكانت تثقل كاهل الناس .

وفرضها البيزنطيون على جميع الأهالى ، ولم يكن لها فى عهدهم نظام ثابت ، فكان مقدارها تتناوله الزيادة والنقصان تبعاً لظروف الدولة وأحوال البلاد ، وكانت تفرض جملة على القرية ويقسمها السكان فيما بينهم .

وكانت الجزية موردا هاماً من موارد الدولة الفارسية ، ووضع لها كسرى أنو شروان القواعد والنظم ، وجعلها تتناسب مع الغنى والفقر .

كان أول تطبيق للجزية فى الإسلام فى تيماء ، فقد سار رسول الله إليهم وكان قد بلغهم ما فعل الرسول بأهل خيبر وفدك ووادى القرى ، فصالحوه عليه السلام على الجزية ، وأقاموا ببلادهم وأرضهم فى أيديهم ، وجاء فى الصحيح أن الجزية فرضت فيها على أهلها .

وعندما قُررت الجزية فى الإسلام لم يكن لها فى عهد رسول الله نظام خاص أو قواعد ثابتة ، ولم تكن معينة الجنس والمقدار ، وكان مقدارها حسب الظروف وطبقات الناس وقدراتهم ، وكان تقدير ذلك متروكا لأولى الأمر .

أخذت الجزية فى بعض الأحيان ذهباً كجزية اليمن ، وكانت فى الأحيان الأخرى تؤخذ من الحلل والثياب والشياه والبقر والإبل والأخشاب كجزية نجران ، وكانت توضع على القرية تارة ، وعلى الرءوس تارة أخرى ، وكانت تنقص أو تزيد حسب حاجة المسلمين وحالة من تؤخذ منهم ، ولم تفرض الجزية على النساء والعبيد والمرضى ، بل فرضت على القادرين .

وكان عهد أبى بكر مماثلا لعهد رسول الله ، ولم يحدث فيه تغيير ، سوى أن الجزية كانت تؤخذ غالباً نقدا ، وذلك راجع إلى أن البلاد المفتوحة فى عهده كانت تتعامل بالعملة النقدية .

جاء فى الصلح الذى عقده خالد بن الوليد مع أهل الحيرة « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمر بن عدىّ وعمر بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وجيرى بن أكال ، وهم نقباء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومائتى ألف درهم تقبل فى كل سنة ، جزاء

عن أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسيسيهم ، إلا من كان منهم على غير ذى يد ، حبيسا عن الدنيا تاركا لها وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم ، فلا شىء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة » .

وفى بابليون صالح عمرو بن العاص قيرس ، وتضمن الصلح أن يدفع الجزية من دخل فى العقد ، وقدرت بدينارين على كل رجل ، إلا على الشيخ العاجز والولد الصغير والنساء ، وبلغت الجزية إثنى عشر ألف ألف دينار على حد ماجاء فى تاريخ أبى صالح الأرمنى .

أما فى عهد عمر ، فقد اقتضت ظروف الدولة إذ ذاك أن تنظم الجزية وأن ترتب ، وأن تحدد مقاديرها فى ضوء أحوال الدولة الحاكمة وظروف الشعوب المفتوحة ، وأحوال الدولة تعنى كثرة الفتوحات واتساع الرقعة بفتح الشام والعراق ومصر ، ومانتج عن ذلك من كثرة مشاريع الدولة ومصالحها وتعدد مرافقها مما يتطلب زيادة فى الدخل .

حدد عمر وقت أداء الجزية بما يتفق وصالح الدافعين ، ولهذا اختلف ميعاد الدفع باختلاف الجهات والأقطار ، وهذا تطور واختلاف عما كان يحدث أيام الرسول وفى عهد أبى بكر ، فقد كانت الجزية تدفع مقدماً ، فقد جاء صاحب أيلة إلى رسول الله ودفع له الجزية مقدماً ، وذكر فى نص معاهدة الصلح « أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرج فأعطوه الجزية » ، أما فى عهد عمر فكانت تدفع فى نهاية العام حين يأتى وقت الحصاد .

وحدد عمر الأشخاص الذين تجب عليهم الجزية ، فأوجبها على الذكر

البالغ الصحيح الجسم والعقل بشرط أن يكون له مال يدفع منه .

وأعفى عمر النساء والأطفال والشيوخ ، لأن هؤلاء لايشتركون فى قتال ولا يخرجون لحرب ، وكذلك أعفى المرضى إلا إذا كانوا أغنياء ، وأعفى الفقراء والمساكين والأرقاء والضعفاء ، ولم يطالب بها الرهبان إذا كانوا فى عزلة عن الناس ، وأما إذا اختلطوا بهم فيؤخذ منهم .. وأعفى أيضاً الرقيق والمجانين والمعدمين .

والإسلام بإقراره نظام الجزية قد :

(١) أوجب لدافعيها من الحقوق ما أوجب للمسلمين .

(٢) أسقط عن دافعيها واجب حمل السلاح ، وجعل فى عنق الدولة واجب الدفاع عنهم والمقاتلة فى سبيل أرضهم وذراريهم .

(٣) أباح لدافعيها التمتع بما هو حلال عندهم ، وإن كان هـذا الحلال حراماً عند المسلمين ولم يفرض عليهم أدنى عقاب لذلك .

(٤) مكّن دافعيها من الشعور والإحساس بوجودهم العقائدى ، وأباح لهم أن يقيموا بيعهم وكنائسهم ، وأن يقيموا شعائرهم دون رقيب أو معارضة .

(٥) أسقط حق الأداء إذا تعذر الدفاع عن دافعيها .

وهذه القواعد كلها تؤكد عدالة الإسلام وبرّه .

فالجزية لم تقرر لترهق الناس ، ولم تحدد بما هو فوق طاقتهم ، وأعفى منها

من لا يستطيع ولا يملك ، كما أعفيت منها فئات عديدة كالشيخ والطفل والمرأة والمريض ورجال الدين المتفرغين للعبادة .

والجزية فرضت فى الإسلام لغرض شريف نبيل ، ولم تكن أبداً للاستغلال ، وكان الخليفة هو الذى يتولى أمرها ، يقسلمها ويقوم بإدارة نواحى الصرف منها ، فكانت فى أيد أمينة تعرف حق الله وحق الناس .

والإسلام كان أكثر رحمة فى فرض الجزية من الأمم الأخرى التى فرضتها فاشتدت فى جمعها وفى تقديرها .

* * * *

[٣] لم يعرف المسلمون الغنائم إلا بعد هجرتهم إلى المدينة ، لأن فترة البقاء فى مكة كانت فترة دعوة وإرشاد إلى الدين الجديد بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة .

ولما قامت الحرب بين المسلمين وقريش ، وبينهم وبين اليهود ، ثم بينهم وبين القوى الأخرى ، وضع المسلمون أيديهم على غنائم كثيرة وأموال وفيرة أصبحت قوة للمسلمين وعدة لهم .

الفىء

هو كل مال وصل من المشركين إلى المسلمين عفواً من غير قتال ، أى كل مايسّره الله من غنائم ومكاسب بدون حرب ، وقد حدّد القرآن الكريم أوجه صرف هذا المال فى قوله تعالى فى سورة الحشر ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ

ولكنَّ اللهَ يُسلِّطُ رُسُلَه عَلَى مَنْ يَشَاءُ واللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ ولِلرَّسُولِ وَلِذِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً ويَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ * والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦ — ١٠)

وتضع هذه الآيات القواعد العامة لتنظيم الفىء[١] كالآتى ...

— ليس لأحد من المقاتلين حق فيه باعتبارهم مقاتلين ، لأنهم لم يتحملوا مشقة فى الحصول عليه ، ولم يسرعوا على ظهور الخيل والإبل لاستخلاصه من أيدى الكفار بالحرب والقتال ، ولكنه مال خالص لله ولرسوله يضعه الرسول حيث يشاء ، وحكم ذلك على أموال يهود بنى النضير فإن المسلمين لم يسيروا إليها خيلا ولا إبلا ، ولم يقاتلوا عليها ، لأن القوم كانوا قريبين منهم فلم يبذلوا

(١) الأصل فى الفىء هو الرجوع إلى الشىء المتروك ويقول تعالى « فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » البقرة : ٢٢٦ .

جهداً للوصول إليهم ، ولأن القوم استسلموا دون قتال ولم توضع الأيدى على هذه الأموال بقوة السلاح .

— يتولى رسول الله بنفسه قبض الفيء والتصرف فيه ، والرسول كان فى عهده يمثل الدولة ، فكأن الإسلام قد جعل الدولة صاحبة الحق فى قبضه والتصرف فيه ، والفيء على هذا النحو يكون جزءاً من الميزانية العامة للدولة.

— يُحجب جزء من الفيء لله ولرسوله ولذوى القربى ، ويعود الباقى إلى الطبقات الفقيرة المعوزة ، وهى تتمثل فى ... فقراء المهاجرين الذين أخرجتهم قريش من ديارهم بمكة ، وفرُّوا بدينهم وإيمانهم إلى المدينة ، يرجون أن يمنّ الله عليهم بنعمة فى الدنيا وأن يرضى عنهم فى الآخرة ، ويكون هذا المال مواساة لهم فى غربتهم ، وتخفيفاً للعبء عن الأنصار الذين يتقاسمون المهاجرين أموالهم وديارهم ... وفقراء الأنصار الذين آووا المهاجرين وأعانوهم وآثروهم على أنفسهم على ما بهم من خصاصة ورقّة حال ... وفقراء آخرين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار وانضموا إلى المسلمين واتبعوهم بإحسان .

ولابد لنا أن نوضح أن ما فى يد الكافرين من أموال هى فى حقيقتها أموال المسلمين ، وهم أولى بها ، وأعرف بحق الله والعباد فيها ، فاذا أخذها المسلمون فكأنها فاءت إليهم ، أى عادت إلى أهلها دون قتال أو حرب .

وبعد وفاة الرسول عليه السلام رُدَّ نصيبه من الفيء إلى بيت المال .

الأنفال

هى كل مال وقع فى يد المسلمين فى بدر ، وقد جاء نتيجة قتال اختفت وراءه يد الله ، فكأنها جاءت على غير تقدير منهم ، حيث كانوا قلة فى وجه العدو الذى واجههم بجيش كثيف ، وكان النصر أصلا للعدو ، إلا أن الله هيأ لجنده النصر ، فكانت يد الله هى التى ردت عنهم العدو وأظفرتهم بما خلفته قريش من ورائها من عتاد ومتاع ، ولقد سماها الله أنفالا ، ليذكر المسلمين بما كان لله عليهم من فضل ، وهى طبقاً لتشريع الله سبحانه وتعالى لله ولرسوله ، يقبضها الرسول ويتصرف فيها فى حدود أوامر الله وتعاليماته .

ولقد اعتبر كل ما وضع المسلمون أيديهم عليه فى خيبر أنفالا ، لأن اليهود استسلموا دون قتال ، فقدسار الرسول وجنده إليهم بعدصلح الحديبية، فلما استشعروا الهزيمة والهلاك استسلموا صاغرين ، وكانت السماء وراء هذا النصر ، ولم يكن للمسلمين جهد فى قتال أو بلاء ظاهرين .

واختلفت الآراء بالنسبة للأنفال بعد غزوة بدر .

- فمن قائل إنها لمن جمعها وحازها بيده .
- ومن قائل إنها لمن قاتل والتحم بالعدو .
- ومن قائل إنها لمن شهد القتال قاتل أو لم يقاتل .
- ومن قائل إنها للجماعة الإسلامية التى تضمها المدينة .

اختلفت الآراء وتوزعت مشاعر المسلمين وعواطفهم فى مواجهة هذه

المكاسب التي هلّت عليهم لأول مرة ، ولو تُرك الأمر لهم يقضون فيه برأيهم ، لما وصلوا إلى حل يحسم الموقف ويجمع الآراء ويوحّد الأفكار

ومما لا شك فيه أن المسلمين كانوا بعد بدر على أول الطريق يدعمون بناءهم ويستكملون كيانهم ، واختلاف رأيهم على أمر ما كبر أو صغر هو صدع للبناء ، معرض لأن يزداد مع الأيام عمقاً واتساعاً .

ولهذا كان لابد من أن تجيء كلمة الفصل من السماء ، واقتضت إرادة الله وحكمة الحكيم العليم ، أن تكون كلمة الله هي القضاء الفصل فيما اختلف فيه المسلمون ، حتى يظلوا جنداً خالصاً لدين الله يجاهدون في سبيله دون التفات إلى مغنم أو مكسب أو ربح ، ونزل قول الله تبارك وتعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ ، قُلِ الأَنفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال ١) .

بهذا القول الحكيم كان رسول الله يتصرف في الأنفال كما يتراءى له ، يضعها حيث يرى ويشاء ، وبهذا التوجيه الرباني الكريم عاد المسلمون إلى ما كانوا عليه من اتفاق الكلمة ووحدة الرأي ، إخوانا مجاهدين في سبيل الله لا يبتغون إلا رضا الله ورضوانه ، وأنهوا ما كان قد ثار بينهم من خلاف ... قال عبادة بن الصامت عن الأنفال « فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسوله ، فقسّمه الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بَوَاء (على السواء) » .

الغنائم

هى كل ما ناله المسلمون نتيجة للحروب والقتال عن بلاء وعمل ظاهرين .

وأول غنيمة ظفر بها المسلمون هى عير عمرو بن الحضرمى ، وضع عبدالله بن جحش يده عليها ، وقد ذكر بعض آل عبد الله أنه قال لأصحابه « إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الخمس ـ وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخمس من الغنائم ـ فعزل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خمس العير ، وقسّم سائرها على أصحابه » ، وقال ابن إسحق « فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، فوقّف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، فلما فرّج الله تبارك وتعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشّفق ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير » .

ونزل فى الغنائم قول الله تبارك وتعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُم آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (الأنفال : ٤١)

ولقد أوضحت هذه الآيات أن الغنائم التى يغنمها المسلمون المجاهدون بسيوفهم فى القتال هى ثمرة من ثمرات جهادهم ، لهم فيها حق معلوم ، ولو كان القتال لحسابهم فقط لكانت هذه الغنائم كلها لهم ، ولكنهم كانوا يقاتلون

لحساب الإسلام ولإعلاء كلمة الله ، ولهذا وجب أن يكون لله حق فى هذه الغنائم .

وفى ضوء هذه الآيات التى جاءت بحكم الله فى الغنائم كانت الغنائم ، كالآتى ...

— خُمس لله وللرسول يقسم إلى خمسة أقسام ... قسم لله وما كان لله فهو لرسول الله ، وقسم لذوى القربى من رسول الله من بنى عبد المطلب وبنى هاشم ، وثلاثة أقسام للفقراء والمساكين وابن السبيل .

— أربعة أخماس للمجاهدين الذين قاتلوا على تلك الغنائم ، تقسم بينهم بالسويّة .. لكل مقاتل سهم ، وفى التسوية بين المجاهدين احتفاء بالجهاد من حيث هو جهاد ، وتكريم للمجاهدين من حيث هم على نيّة الجهاد.. فهم جميعاً على درجة واحدة مع تلك النيات التى انعقدت منهم على الجهاد ، ومع هذا الموقف الذى واجهوا فيه الاستشهاد فى سبيل الله .

وغضب بعض المسلمين من هذه التسوية التى جعلت للقوى ما للضعيف من نصيب ، فالمجاهدون يتميزون وقت القتال ، فهذا مجاهد قوى ذو بأس وشدّة ، وهذا مجاهد ضعيف لا يملك أن يعطى أكثر مما أعطى وهو قليل ، فكيف يسوّى بين الإثنين فى الغنيمة ، وقال سعد بن أبى وقاص للرسول « يارسول الله ، أتعطى فارس القوم الذى يغيظهم مثل ما تعطى الضعيف ؟» ، فقال له « ثكلتك أمك ابن أم سعد وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » .

ورأى رسول الله بعد أن ازداد التحام المسلمين بالمشركين ، أن يجعل للفارس سهمين سهم له وسهم لفرسه ، وذلك حتى يحثّ المسلمين على اقتناء الخيل وإعدادها للقتال ، لتكون عاملا فى الجهاد ، فهى مصدر رهبة ومثار فزع ورعب للعدو .

وظل خُمس الرسول – وهو خمس الله أصلا – قائماً طوال حياته ، فلما توفى ضُمّ إلى بيت المال .

واعتبر أبو بكر بعد توليه الخلافة أن خُمس ذوى القربى ميراثاً ، وحرّمه عليهم عملا بقول رسول الله « نحن معاشر الأنبياء لا نورث . . ماتركناه صدقة » ، وأخذ بهذا الرأى من بعده عمر وعثمان ، وأقره أيضاً علىّ ، رغم أنه كان يراه حقاً لذوى القربى بعد الرسول كما كان حقاً فى حياته .

فى عهد أبى بكر كثرت الغنائم باتساع نطاق القتال فى ساحات العراق والشام .

ولما تولى عمر الخلافة وواصل الفتوحات فى العراق والشام وأفريقيا ، غنم المسلمون أضعاف ماغنموه فى عهد الرسول وعهد أبى بكر ، ومثال ذلك أن الغنائم التى وضع المسلمون يدهم عليها بعد انتصارهم فى نهاوند ، فاقت كل ماتوقعه المسلمون ، وبلغ نصيب الفارس ستة آلاف والراجل ألفين ، وكان ضمن الغنائم سفَطان مملوءان جوهراً ثميناً ، جعلها المسلمون لعمر خاصة ، وحمل السائب بن الأقرع – الذى عيّنه عمر على الأقباض – خُمس الغنائم إلى عمر ، وقال السائب « فأخبرته خبر السفطين فقال : أدخلهما بيت المال حتى ننظر فى شأنهما » ، وأمره عمر أن يلحق بجنده ، وفى اليوم التالى بعث

فى إثره من استدعاه وقال له « ويحك ! والله ماهو إلا أن نمت فى الليلة التى خرجت فيها ، فباتت ملائكة ربى تسحبنى إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً ، يقولون : لنكوينك بهما ، فأقول إنى سأقسمهما بين المسلمين ، فخذهما عنى لا أبا لك ، وألحق بهما فبعهما فى أعطية المسلمين وأرزاقهم » ، فأخذهما السائب فابتاعهما منه عمرو بن حُرَيث المخزومى بألفى ألف ، ثم باعهما فى أرض الأعاجم بأربعة آلاف ألف ، وقال عنه السائب « فما زال أكثر أهل الكوفة مالا بعد » .

المتاع

هو كل ما عدا الأرض والرقاب من حيوان وملابس ومعادن وأوان وسلاح ، وهو نصيب المقاتلين الغانمين ، ولا يجوز لغيرهم أن يأخذوا شيئاً منه إلا إذا دفعوا ثمنه كاملا ، ويقسم طبقاً لتعاليم القرآن ، وظل رسول الله يأخذ نصيبه حتى توفى فضم إلى بيت المال .

الرقاب

يقصد بها الأسرى ولقد تناولنا موضوع الأسرى بالتفصيل .

النفل

هو ماجاء زائداً عن المطلوب ، وخصص لبعض المقاتلين زيادة على نصيبهم من الغنيمة ، تشجيعاً لهم وتقديراً لبطولاتهم وتحريضاً لهم على المثابرة والقتال ، وكان يصرف وقت القتال فقط ، أما فى وقت السلم فلم يكن

له مجال .. اجتمع بنو بجيلة لدى الخليفة عمر ، فقال لجرير بن عبد الله البجلي .. « أخرج حتى تلحق بالمثنى » ، فقال جرير « بل الشام فإن أسلافنا بها » ، فقال عمر « بل العراق فإن الشام فى كفاية » ، ولم يزل عمر ببنى بجيلة وهم يأبون التحرك إلى العراق حتى جعل لهم الربع من خمس ماءمن الله على المسلمين ، يضاف إلى نصيبهم ، فرضوا .

السلب

هو ثياب المقتول وسلاحه الذى معه ، ودابته التى يركبها بسرجها وآلاتها ، وكان للمسلم حق سلب من يقتله « من قتل قتيلا فله سلبه » ، ولقد سمح سعد بن أبى وقاص لهلال بن علقمة سلب رستم قال له « جرِّده إلا ماشئت » ، فلم يدع هلال على القتيل شيئاً إلا أخذه ، فبلغ ذلك سبعين ألفاً ، ولولا أن قلنسوته سقطت فى النهر لضاعف ذلك حظ هلال .

الرضخ

هو نصيب من لا نصيب له فى الغنائم ، كالأطفال والنساء إذا باشروا القتال أو قدموا معاونة فعّالة أو مساعدة مجدية مفيدة خلال القتال ، كمعالجة المرضى وتقديم الماء وإعداد الطعام ومناولة السهام .. غنم المسلمون غنائم كثيرة من مال ومتاع بعد انتصارهم فى البويب ، فبعث المثنى إلى النساء والأطفال بنصيبهم ، حمله عمرو بن عبد المسيح إلى مكان تجمعهم فى القوادس .

الأرض

هى أرض الأعداء التى يضع المسلمون أيديهم عليهم .

وكانت أرض بنى قريظة وبنى النضير هى أول أرض استولى عليها المسلمون ، ولقد قسمها رسول الله بين الغانمين « قال صاحب الإمتاع » « فلما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير ، بعث ثابت بن قيس فدعا الأنصار كلها ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم فى منازلهم وأثرتهم علىّ أنفسهم ، ثم قال : إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علىّ من بنى النضير ، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم . . . فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : بل نقسمه للمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا . . . ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يارسول الله ، فقال رسول الله : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » .

وعندما صالح الرسول يهود خيبر وفدك ، رأى أن يترك الأرض لهم يزرعونها ويدفعون نصف أموالها ، وكانت حكمته عليه السلام أن الأرض فى حاجة إلى الأيدى العاملة للعناية بها وزراعتها ، ولم يكن من اليسير أن يزرعها المسلمون ورسول الله فى حاجة إلى سواعدهم للحرب .

ولقد اختلفت الآراء بالنسبة للأرض ... رأى قال بضرورة بقائها فى

أيدى أهلها على أن يؤدوا ضريبة الخراج ، ويكون هذا الخراج فيئاً للمسلمين على مر الأيام ينتفعون به ، ورأى قال بتوزيعها على المقاتلين .

وانضم عمر إلى الرأى الأول ، فلما ولى الخلافة أخذ بمضمونه ، وكتب إلى سعد بن أبى وقاص فقال « أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسِم الأرض بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به من العسكر من كُرَاع ومال فاقسِمْه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر (أى من حارب) لم يكن لمن بعدهم شىء » .

ولم يسترح الناس لرأى عمر فقالوا « أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا؟ » ، فلم يزد على أن قال « هذا رأيى » ، فقالوا له وقد رأوا تصلبه وتمسكه برأيه « فاستشر » ، فجمع الأولين من المهاجرين ، وطرح عليهم المشكلة فاختلفت الآراء ... ذهب عبدالرحمن بن عوف إلى ضرورة تقسيم الأرض بين الفاتحين لأن هذا حقهم « ما الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم » ، وذهب عثمان وعلىّ وطلحة مذهب عمر .

واتخذ عمر خطوة أكبر ، فدعا مجلساً يضم عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج ، وقال لهم « إنى لم أزعجكم إلا لتشتركوا فى أمانتى فيما حُمِّلت من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرّون بالحق ، خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا

الذى هو هواى ، فلكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ماأريد به إلا الحق » ، قالوا «قل نسمع ياأمير المؤمنين» ، قال « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلماً ! لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيتُ ، لكنى رأيت أنه لم يبق شىء يُفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمتُ ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجتُ الخمس فوجّهته على وجهه ، وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرَضِين بعلوجها ، وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم ، أرأيتم هذه الثغور لابدّ لها من رجال يلزمونها ... أرأيتم هذه المدن العظام لابدّ لها من أن تشحن بالجيوش ، ولابدّ من إدرار العطاء عليهم ، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قُسمت الأرضون والعلوج ؟» .

كان هذا هو رأى الخليفة ، قاله فى صراحة وبوضوح ، وتشاور الناس ، وانتهوا إلى أن رأى الخليفة يتفق مع مصلحة الدولة ، ويتناسب مع وضعها وظروفها ، فوافقوا عليه بالإجماع ، وقالوا له « الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنهم » ، فسألهم عمر « قد بان لى الأمر ، فمن رجلٌ له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ » ، فقال القوم إن خير من يقع عليه الاختيار هو عثمان بن حُنيف « تبعثه إلى أهم ذلك ، فإن له بصراً وعقلا وتجربة » ، فولاّه عمر أرض السواد .

ولقد امتدح أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم مؤلف كتاب « الخراج » رأى عمر فقال « توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك ، وقسمته بين المسلمين ، عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الأعطيات والأرزاق ، لم تشحن الثغور ، ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة » .

وقيل إن جباية الكوفة وحدها قبل عام من مقتل عمر مائة ألف ألف درهم ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال .

وبلغ خراج العراق فى عهده ثمانية عشر مليوناً من الدراهم كل عام .

وكان الولاة يجمعون الخراج ، ويدفعون منه أرزاق الجند ، وما تحتاج إليه المرافق العامة من ضروب الإصلاح ، ويرسلون الباقى إلى بيت المال .

وكان عمرو بن العاص ينفق من خراج مصر ما يحتاج إلى إنفاقه فى حفر خلجانها وإقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها ، ثم يبعث ما يتبقى بعد ذلك إلى أمير المؤمنين .

* * *

هذه هى بعض المشكلات التى كانت تظهر بعد المعارك ، ولقد عالجها

المسلمون اعتماداً على القرآن الكريم وما نصت عليه آياته المحكمات ، ثم اعتماداً على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اعتماداً على اجتهاد أهل الرأى .

وبهذه المعالجة تكون المدرسة العسكرية الإسلامية قد وضعت حلولا لمواجهة أية مشكلة تنجم عن الحروب ، بروح الحق والعدل ومصلحة الأمة الإسلامية والإسلام .

للحرب مبادىء

وهذه المبادىء تمهد الطريق إلى النصر .

والقائد الذى يلم بها ويفهمها ، ويضع خططه على أساسها ، ويطبقهـا فى معاركه ، ويلتزم بها فى مراحل الاستعداد والقتال ، يضمن إلى حد ما النصر ، ما لم يتدخل عامل آخر يغير موازين المعركة إلى غير صالحه .

ولقد استقرت آراء كثير من العسكريين ، على أن هذه المبادىء تؤدى إلى الغرض من الحروب ، وتحقق الهدف ، أى أنها وسائل تمكن من الحصول على نتائج معينة .

واتفقت كافة الآراء على أن مبادىء الحرب لا تخرج عن الحشد وادخار القوى والمباغتة والتعرض وخفة الحركة والسلامة والتعاون والمطاردة .

واختلف العسكريون فى تحديد المبادىء من وجهة نظرهم ، فكلاوزفتز مثلا جعل التعاون واحداً من هذه المبادىء ، وأغفل النظر عن المطاردة التى اعتبرها هندرسن فى مقدمة هذه المبادىء .

واهتم العسكريون فى مختلف المدارس العسكرية بدراسة المبادىء وتحديدها وتوضيح أهميتها ، حتى أن نابليون قال مرة « إذا وجدت الوقت الكافى لدىّ فسوف أضع كتاباً أوضح فيه مبادىء الحرب بطريقة سهلة بسيطة لتكون فى

متناول أى جندى »

وفى مقدمة هؤلاء الذين اهتموا بدراسة وتحديد مبادىء الحرب كلاوزفتز وهندرسن وجوميني وفوللير وفوش ... والمهم الذى يثير الاهتمام أن موضوع مبادىء الحرب كان موضع الدراسة والبحث خلال فترة قريبة ، لا تمتد أبداً إلى العصر الإسلامى ، ومما يثير الانتباه أن هذه المبادىء عرفت فى ظل المدرسة العسكرية الإسلامية وطبقت بمهارة وكفاءة ومقدرة ، ارتفعت إلى مستوى التجربة المفيدة والدرس النافع لكافة العسكريين الذين جاءوا فى عهود ما بعد الإسلام ، فلما انشغلوا بها نسبوا إلى أنفسهم فضل اكتشافها والإعلان عنها وتطبيقها .

ومع الأسف الشديد ، فإن المؤرخين الذين أرّخوا تاريخ الحروب الإسلامية أرّخوه كأحداث ، ولم ينظروا إليه كفن ، ولم يعرضوه كدراسة ، ولو فعلوا ذلك لقدّموا للكتاب الذين تخصصوا فى الدراسات العسكرية نبعاً لايجف وفكراً لايخبو .

وهناك حقيقتان لابد من أن تكونا واضحتين أمام القارىء ...

الأولى ... إن تطبيق مبادىء الحرب فى الحروب الإسلامية تم بمعرفة قادة نشأوا فى البادية ، لم ينتظموا فى كليات أو أكاديميات عسكرية ، ولم يقرأوا كتباً أرّخت للحروب التى سبقت عهدهم ، ولم يختلطوا عسكرياً بالأمم التى كانت فى زمانهم ، ولكنهم توصّلوا إلى هذه المبادىء بفكر ناضج وإحساس صادق وتفهّم كامل وإدراك واعٍ وقدرة فائقــــة ، بالإضافة إلى ما كانوا يتسمون به من صفات المحارب .

الثانية .. إن القيادات العسكرية اختلفت فيما بينها على تحديد المبادىء ، وذهبت كل منها مذهباً ، وتمسكت ببعض منها دون الآخر .

فكلاوزفتز مثلا حدّد مبادىء الحرب بأربع فقط هى : التعرض ، والحشد ، وخفة الحركة ، والمناورة ، ورأى أن التعاون يدعم هذه المبادىء .

وهندرسن : جعلها اثنتين : المفاجأة ، والمطاردة .

وجوميني : قال إنها خمس .. حرية الحركة ، وخفة الحركة ، وحشد القوى ، والتعرض والمباغتة .

وفوش : رأى أنها لاتخرج عن ادخار القوى ، وحرية العمل ، وتوزيع القوات ، والسلامة .

وفولـير : كان أكثر هؤلاء تعريفاً للمبادىء ، فحددها فى الحشد والمباغتة ، وادخار القوى ، وخفة الحركة ، والتعرض ، والسلامة .

أما الإسلام فقد توصل إلى كافة هذه المبادىء ، وطبقها بالكامل فى حروبه ، ونفذها بجدارة وقدرة ، مما يعد نقطة إشراق فى تاريخه العسكرى ، وبذلك تكون المدرسة العسكرية الإسلامية أقدم المدارس تحديداً لمبادىء الحرب وإدراكا لأهميتها ، وتطبيقاً لها فى كل معاركها منذ أذن للمسلمين بالقتال .

ونحن لانريد أن ندعى كذباً أن الإسلام هو الذى أوجد هذه المبادىء أو قررها أو وضع يده عليها ، فإن حروباً كثيرة قامت قبل الإسلام وقد

تكون بعض هذه المبادىء قد روعيت فى هذه الحروب ، ولكن ليس بالأسلوب الذى استخدمت به فى حروب الإسلام ، لأن ما من معركة إسلامية إلا وكانت مبادىء الحرب منهاجها وأساسها كما سنوضح فيما بعد .

[١] الحشد

وهو يعنى جمع أكبر قوة ممكنة فى مواجهة العدو .

وهو فى مفهوم الإسلام « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

وإذا عدنا بالذاكرة إلى حروب الإسلام ، فإننا نجد أن هذا المبدأ لم يطبق أصلا فى غزوة بدر ، وذلك لأن المسلمين لم تتوفر لديهم عند الخروج نية القتال ، ولأنهم أجبروا على المواجهة ، فقد كان همهم الأول هو الاستيلاء على قافلة أبى سفيان ، وكما سبق القول فى موضع سابق كانت هذه القافلة فى حراسة ضعيفة لا ترقى إلى مستوى القتال ، وكان الرسول الكريم وقت خروجه يخشى أن تفلت القافلة فى عودتها كما أفلتت فى ذهابها فيضيع على المسلمين بعض التعويض الذى كانوا يأملونه عن أموالهم وديارهم التى فقدوها عند هجرتهم إلى المدينة ، ومن هنا كانت دعوة الرسول « لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضراً » حتى إن رجالا كانت ظهورهم فى عوالى المدينة ، فطلبوا منه عليه السلام أن ينتظر حتى يرافقوه ، فأبى ، لأنه لم يكن عازماً على المواجهة متأهباً للقتال .

وقد بذلت محاولات لإيجاد توازن بين قوى المسلمين وقوى أعدائهم ، ولكن ظل التفوق العددى فى جميع غزوات الرسول للعدو ، وكان التفوق

المعنوى يعوض المسلمين هذا النقص ، ودليل ذلك أنهم انتصروا فى معاركهم كلها ، اللهم إلا فى غزوة أحد ، التى تحولت فيها كفة المعركة نتيجة عامل مفاجىء هو مخالفة فئة من المسلمين هم الرماة أوامر الرسول ، ولو ثبتت هـذه الفئة فى مواقعها طبقاً للتعليمات والخطة لظل النصر فى جانب المسلمين .

وإن هذا لا يعنى أن القيادة فى عهد الرسول أهملت مبدأ الحشد ، ولـكنها كانت تطبقه فى حدود إمكانيات المسلمين وعددهم ، فالإسلام كان فى بدايته يخطو خطواته الأولى على الطريق ، والمسلمون كانوا يتزايدون ببطء ، والجيش الإسلامى كان يضم كل مسلم صحيح الإسلام قادر على حمل السلاح ، والقيادة الإسلامية كانت ترفض انضمام غير المسلم إلى صفوف مقاتليها ، كما كانت تمنع صغار السن وضعاف الإيمان من أن يكونوا مقاتلين .

ومع هذا فإن الجيش الإسلامى بلغ فى آخر غزوة قام بها الرسول فى العام التاسع الهجرى وهى غزوة تبوك أكثر من ثلاثين ألفاً من المقاتلين معهم عشرة آلاف من الخيل ، وهو عدد كثيف بالنسبة للـكم الذى كان عليه المسلمون خلال فترة قصيرة .

ولقد بدأ مبدأ الحشد ينال اهتماماً بالغاً من القيادات التى خلفت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبو بـكر حين أراد أن يحارب المرتدين ومانعى الزكاة حشد لهم أحد عشر لواءاً ، وعنـدما أدرك حرج موقف جيوشه التى تواجه الروم فى اليرموك لعدم تناسبها كماً مع عدد العـدو سير خالد بن الوليد من العراق دعماً وقوة .

وكان هذا هو شأن عمر حين أُلقيت على عاتقه مسئولية الدولة ، فقد حرص على أن يمدّ جيوش المسلمين فى العراق بصفة مستمرة ، كما حرص على أن يمد عمرو بن العاص فى مصر بقوات عاونت كثيراً فى تسهيل مهمته . . وكان يتولى بنفسه إعداد الإمدادات وحث الناس والإشراف على تجهيز الجيوش وتحركها . . . خاطب الناس فى المسجد فى أمر الخروج إلى العراق ، فقال لهم « أيها الناس ، إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها » .

وإيماناً منه بمبدأ الحشد كان يغرى الناس بالخروج ، وقد عرض على بنى بجيلة الربع من خمس ما يفىء الله على المسلمين إضافة إلى نصيبهم من الفىء . . . حدّث داوود بن أبى هند قال « أخبرنى الشعبى أن عمر وجه جرير بن عبد الله إلى الكوفة بعد قتل أبى عبيد — أول من وجه — وقال : هل لك فى العراق وأنفلك الثلث بعد الخمس » .

ولعمر خطوتان جديرتان بالذكر فى هذا المجال ... أولاهما ... أنه سمح للمثنى بن حارثة خلال قتاله فى العراق أن يضم إلى قواته بعضاً من نصارى العرب المقيمين هناك ، كنصارى تغلب ونصارى بنى النمر ، فقاتلوا بجانب المسلمين فى شجاعة واستبسال ، حتى إن مهران الهمذانى قائد الفرس لقى مصرعه على يد واحد من نصارى تغلب ... وثانيهما ... أنه سمح للمسلمين الذين كان تيار الردّة قد جرفهم بعد وفاة الرسول ثم عادوا إلى الإسلام ، بالمشاركة فى القتال ، أملا فى أن يزيد حجم الجيش الإسلامى فى مواجهة عدو له تفوق بشرى كبير ، وكان أبو بكر قد

رفض بإصرار السماح لهم بالمشاركة فى القتال ، ولكن عمر أراد أن يكسب بهم قوة ، وأن يمنحهم شرف القتال ، وأن يعطيهم فرصة التكفير عن خطأ وقعوا فيه .

الذى أريد أن أنتهى إليه هو أن المسلمين اهتموا بالحشد اهتماماً يتفق مع إمكانياتهم وقدراتهم ، وأنهم حرصوا على أن يكون الحشد متناسباً مع حجم العدو وحجم المعركة ، ولكنهم مع هـذا الإهتمام والحرص كانوا يخوضون المعركة معتمدين أساساً على معنوياتهم ، بغض النظر عن حجم عدوهم وكثافة جنده وكثرة عدده ، فى ضوء قوله تبارك وتعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا . . »

لقد حشدت القيادات الإسلامية حشوداً ضخمة لمواجهة الغارات المتعددة التى تعرضت لها البلاد الإسلامية والأماكن المقدسة ، واستطاعت هذه الحشود أن توقف تيار المغول والتتار فى عين جالوت ، وأن تقهر الصليبيين فى حطين والمنصورة .

[٢] إدخار القوى

إن أهم العوامل التى تسيطر على القائد خلال المعركة — على حد قول كلاوزفتز — هو حشد مجموع قواته على ألا ينفصل عنها سوى ماتتطلبه الحاجة القصوى ، ولقد عرفت المدرسة العسكرية الفرنسية — التى يجىء نابليون على رأسها — إدخار القوى بأنه حشد أعظم قوة تجاه الغرض الأساسى مع تخصيص القوات الأقل للعمليات الثانوية .

وهذا يعنى حشد كل القوى الممكن إعدادها واشتراكها فى القتال بإزاء الغرض الرئيسى الذى تكون فيه هزيمة العدو ، مع تجنب استبعاد أية قوات إلا ما تتطلبه الحاجة القصوى كما قال كلاوزفتز ، فالقائد قد يجد نفسه مضطراً إلى توجيه قوة من جيشه المحتشد تحت قيادته إلى غرض يهدف به إلى شغل قوة من العدو مجتمعة فى مكان بعيد أو قريب من المعركة ومنعها من المشاركة فيها ، أو يهدف به إلى توجيه نظر العدو إلى حيث لا يكون الهجوم الرئيسى أو الضربة القاصمة ، أو يهدف به إلى أن تكون هذه القوة المنفصلة قوة وقائية تستر القوات الرئيسية وتحميها وتؤيدها فى اللحظة الحاسمة .

هذا المبدأ تمليه ظروف العدو وخطته وطبيعة المعركة ، وقد كان له نصيب كبير من اهتمامات المدرسة العسكرية الإسلامية .

فى أحد جعل الرسول جماعة من المسلمين على رأسها الزبير بن العوام وقال له « استقبل خالد بن الوليد وكن بإزائه » . . كما كلّف جماعة من الرماة عليهم عبد الله بن جبير بأن يتخذوا مواقعهم على الجبل ليحموا ظهر قواته . . وعزل هاتين القوتين عن الجيش لا يؤثر على قوة الهجوم بقدر ما تفيده ، لأنها تشغل بعض قوات العدو عن المعركة الرئيسية .

وعند فتح مكة أراد رسول الله أن يخفى عن قريش تحركه إليهم ، فأعدّ سرية من ثمانية أفراد عليهم أبو قتادة بن ربعى ، وأمره بالسير فى اتجاه مكان يقال له بطن أضم ، ليوجه الأنظار بعيداً عن الهدف الرئيسى للهجوم .

وفى خلال الهجوم على دمشق وضع أبو عبيدة بن الجراح خطته على أساس أن يكون هناك هجوم عام شامل تقوم به قواته مباشرة على دمشق ، ولكنه فى ذات الوقت كان يدرك أن للعدو قوات فى فحل ، وخشى أن تتحرك هذه القوات لتعاون قوات دمشق ، فأمر بعض رجاله بقيادة أبى الأعور السلمى بمواجهة القوات فى فحل ، ومنعها من مغادرة مواقعها ، وأدت هذه القوة واجبها بكفاءة وأمانة حتى تم دخول دمشق .

وخلال حصار دمشق أمر أبو عبيدة قوة بقيادة ذى الكلاع الحميرى بالمناورة فى المنطقة ما بين دمشق وحمص ، وأمر قوة أخرى بقيادة علقمة بن حكيم ومسروق العبسى بالمناورة فى المنطقة ما بين دمشق وفلسطين ، خوفاً من أن يحرك هرقل أية قوات من هذه المناطق إلى دمشق .. ولما انتهت مهمة الجيش بدخول دمشق ، تحركت كل القوة الإسلامية بقيادة أبى عبيدة يعاونه خالد بن الوليد إلى فحل وحمص ، وتم لها احتلال الموقعين .

وحين صدرت الأوامر إلى عمرو بن العاص باحتلال أجنادين ، لاحظ — وهو رجل حرب له خبرته وكفاءته وقدرته — أن أرطبون قد وضع قوات له فى إيلياء والرملة ، وكانت هذه القوات شوكة فى جانب جيشه ، وكان لا بد له من أن يتصرف فى حدود القوة التى يقودها ليحقق الهدف الذى كلف به . فصل عمرو قوتين صغيرتين من جيشه ، وكلّف الأولى بقيادة علقمة بن حكيم بمواجهة قوة إيلياء ، وكلّف الثانية بقيادة أبى أيوب المالكى بمواجهة قوة الرملة ، وأمر القوتين بمنع أى تحرك لقوات الروم فى اتجاه أجنادين ، وبذلك تفرغت القوة الرئيسية — وهى تمثل الجانب الأقوى —

للعملية الرئيسية ، ونجحت فى مهمتها ، وهزم أرطبون ، وهلل للنصر عمر بن الخطاب وقال « غلبه عمرو ... لله عمرو » .

وفى موقعة هليوبوليس فصل عمرو كتيبتين ، وحدد لهما هدفا ، هو مهاجمة جيش الروم عند اشتداد القتال فقط ، وتقدم هو بالقوة الرئيسية لمواجهة الروم فى الموضع الذى يسمى اليوم « العباسية » ، فلما اشتد القتال وحمى وطيسه وعلا غبار المعركة ، خرجت القوتان من مواقعها وشاركتا فى القتال .

وبينما المثنى يطارد أعداءه فى اتجاه المدائن ، أمر قسما من جيشه عليه أخوه المعنّى بمهاجمة حصن المرأة ، بينما استمر الجيش الرئيسى فى مهمته .

وأمر عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص خلال القتال مع الفرس أن يبعث بأجزاء من قوته إلى أهداف ثانوية ، بشرط ألا تؤثر فى قوة الجيش من ناحية ، وألا تعطل الهدف الأكبر من جهة أخرى ، وحققت هذه القوى أغراضها ، وسهلت مهمة الجيش الرئيسى . . فمثلا تحرك عبد الله بن المعتم إلى تسكريت ، وربعى بن الأفكل إلى الحصنين ، وعمرو بن مالك إلى هيت ، وضرار بن الخطاب إلى ماسبذان ، وهاشم بن عتبة إلى جلولاء ، وجرير بن عبدالله إلى قرمسين .. وهذه كلها أهداف ثانوية لم يؤثر الانشغال بها عن الهدف الرئيسى ، بل مهدت الطريق أمام المسلمين وهم يخوضون المعركة الكبرى التى سميت فى التاريخ باسم « فتح الفتوح » ، والتى قضت نهائياً على الدولة الساسانية فقامت على أنقاضها دولة الإسلام .

[٣] المباغتة

وتسمى فى حروب اليوم المفاجأة .

وهى تعنى الظهور أمام العدو فى وقت لايقدره وبصورة لايتوقعها ، وبأسلوب يجهله .

وهى بهذا المعنى تؤدى إلى ارتباك خطير فى فكر العدو وتخطيطه ، فوق أنها تثير الرعب بين الجنود ، فيفقدون اتزانهم وتهتز أعصابهم ، ويصبحون غير قادرين على المواجهة والقتال ، وهنا تحل بهم الهزيمة .

والقائد الماهر الذكى هو الذى يجتهد فى أن يضع خصمه فى الموضع الذى يصبح فيه مسلوب الإرادة مقيد التفكير لاحول له ولا قوة ، ضعيفاً لا يملك القدرة على المقاومة والتحمل ، ويكون همه الأول هو وقاية نفسه وحمايتها .

والمباغتة قد تكون عددية ، أى أن يواجَه العدو بقوات كبيرة كثيفة لم تكن فى حسبانه . . . وقد تكون فى وقت لايتوقعه العدو . . . وقد تكون فى جبهة لايقدر العدو أهميتها فتكون هى مقبرته . . . وقد تكون باستخدام سلاح جديد يجهله العدو .

وتتم المباغتة إذا تحققت لها سهولة الحركة وسريتها وسرعتها .

وكان للمباغتة دور وأى دور فى المعارك الإسلامية . . ومن أول مظاهرها روح القتال التى اتصف بها الجند المسلمون الذين قاتلوا فى بدر ، فقد توهمت قريش أن ظهور أشرافها أمام رجال محمد — وقد

كانوا فى مكة عبيداً لهم وعانوا العذاب المرير على أيديهم قبل هجرتهم — سيملأ قلوبهم رعباً وفزعاً وخوفاً فيحجمون عن القتال . . ولكن حين باشر المسلمون القتال ، فوجئت قريش بهؤلاء يحاربون بكل قوة وشجاعة وبأس ، حتى كان انتصار المسلمين فى بدر معجزة فريدة فى تاريخ الحروب ... وكانت هذه المفاجأة ذات وقع أليم على قريش ، ففقد رجالها — وهم رجال لهم قدرهم ومكانتهم — رشدهم ، حتى إن الواحد منهم كان لا يعى لنفسه أمراً ولا يرى مخرجاً ولا يجد طريقاً للنجاة ، والمسلمون من ورائهم يضربون بالسيف ، ويقطعون الرءوس ، وينازلون الأشراف فيقتلونهم . . . ولقد امتد أثر هذه المفاجأة إلى داخل مكة ، حيث كان أبو لهب ، فلما سمع بما حدث ، وبمصرع رجالات قريش ، أصابته حمى من كثرة الكمد والهم فمات ، ولم يكن قد جف على قتلى بدر تراب القليب .

وكانت صورة أخرى للمباغتة فى الخندق .

فقد اجتمعت الأحزاب لتحارب الرسول وتستأصل دينه ، وكلهم أمل ورجاء فى أن يكون تحركهم الضربة الواثقة والطعنة القاضية ، فكيف لمحمد ورجاله أن يواجهوا هذه الآلاف العشرة التى جمعت بينها الرغبة فى القضاء عليه والتخلص منه . . تحركت القوة بقيادة أبى سفيان إلى المدينة ، وهناك كانت المفاجأة . . . أقام المسلمون حول المدينة نوعاً جديداً من وسائل الدفاع كانت قريش وحلفاؤها يجهلونه . . . كان هناك الخندق الذى أشار بحفره سلمان الفارسى الذى قال فيه رسول الله « سلمان منا أهل البيت » ..

وذهلت قريش . . وأخذت تفكر فى هذا الأسلوب الجديد . . كيف يجتازونه ؟ وكيف يصلون إلى المسلمين ؟ وكيف يحققون هدفهم من التحرك ؟ وضاعت الإجابات مع الرياح الشديدة التى ثارت وهبت ، ومع العواصف الرملية التى اجتاحت المنطقة . .

ونجحت المباغتة فى تحقيق هدف رسول الله بأن يكون دخول مكة دون قتال ، فقد سار إليها دون أن تعلم قريش بمسيره ، حتى بلغ رءوس الجبال حول مكة ، وكان من أثر المباغتة أن أدرك أبو سفيان أنه لاقبل لمكة بالجيش ، فقال لقومه « هذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم به » ، ودخل المسلمون مكة دون قتال ، نتيجة مباشرة لعنصر المباغتة ، الذى أفقد قريش كل قدرة على الاستعداد والمواجهة ، فاستسلمت ووقفت فى خضوع لم تتعوده تنتظر حكم رسول الله فيها ، وهم يقولون له فى انكسار « أخ كريم وابن أخ كريم » .

قلنا إن المباغتة تعتمد على الحركة ... سهولة وسرية وسرعة .

وكانت الحركة بمقوماتها الثلاث أساس عمليات كثيرة فى عهد الرسول ، كما حدث فى غزوة بنى المصطلق ، حيث فوجىء القوم بظهور الرسول أمامهم ففروا ، وكما حدث فى غزو خيبر ، إذ كانت سرعة المسلمين فى التحرك سبباً فى الوصول إلى المدينة فى ثلاثة أيام ، ففوجىء الناس بهم فهربوا وهم يتصايحون « هذا محمد والجيش معه »

هذه أمثلة من المباغتة على عهد رسول الله ... وأمثلة المباغتة فى الحروب الإسلامية كثيرة . بكافة أنواع المباغتة ، ولقد اهتم القادة

المسلمون فى كل القطاعات والأزمنة بتحقيق المفاجأة فى معاركهم ، لما لها من آثار نفسية ومعنوية على الجيش المعادى .

ونود أن نشير إلى أن المسلمين قد تعرضوا خلال غزوة حنين إلى مباغتة لم تكن لهم على بال ، وكان تأثيرها رغم كثافة عددهم قوياً وعنيفاً ، حتى اختلط أمرهم وفروا من المعركة ـ كل يطلب النجاة ـ حين هاجمتهم قوات هوازن وهم ينحدرون من مضيق حنين فى واد من أودية تهامة ، وكان الهجوم مباغتاً فى توقيته ، مما أدى إلى اختلال صفوف المسلمين ، وعمت الفوضى ، ولولا شجاعة رسول الله لتغير الموقف تماماً ، ولتلقى المسلمون هزيمة منكرة .. لقد صمد رسول الله وثبت فى موقعه ، وأخذ ينادى على المهاجرين والأنصار ويدعوهم إلى نصرة الله ، فاستجاب الناس وعادوا إلى المعركة ، وقاوموا وصمدوا وكان النصر لهم .

وتعرض المسلمون للمباغتة فى معارك كثيرة ولكنهم تمكنوا من أن يتغلبوا على آثارها فور وقوعها نتيجة المقومات القتالية التى كان يتميز بها الجند المسلمون .

[٤] التعرض

وهو يعنى الهجوم ، ويقولون إنه خير وسائل الدفاع ، فهو يعطى المهاجم فرصة السيطرة ، وحرية العمل ، ويمنحه روحاً عالية ، ومعنويات مرتفعة ، وإحساساً بالقوة والقدرة .

وهو لا يؤدى فى كل الظروف إلى النصر ، ولكن الانتفاع بآثار يقود إلى النصر ، فالهدف الأساسى منه هو كسر شوكة العدو ، وإضعاف قدرته على المقاومة ، وتحطيم روحه المعنوية .

والتعرض عمل عقلى ومعنوى ومادى ، فالرغبة فى النصر تمثل القوة الثابتة ، والمقدرة على التنفيذ هى العمل الحاسم ، وهو لايكون مجدياً إلا إذا استكمل مقوماته العقلية والمادية والمعنوية .

والتعرض يقوم أساساً على استخدام كل مايمكن إعداده من سلاح وقوة بشرية ، وهويتوقف على خفة الحركة وقوة العزيمة ، وإمكانية المواجهة والتحمل .

ولم تغب أهمية التعرض وخطورته على القائمين على شئون الحرب الإسلامية ، ففى عهد رسول الله كان المسلمون فى غالبية غزواتهم هم المهاجمون .. فى بدر .. فى أحد .. فى مؤتة .. فى الفتح .. فى حنين .. فى الطائف .. فى تبوك .

وفى عهد أبى بكر هاجم المسلمون المرتدين ومانعى الزكاة .

وفى عهد عمر انتقلت حركة الجيوش الإسلامية إلى خارج الجزيرة ، وكانت معارك الإسلام فوق أرض أعدائهم .

فى الشام حيث تقدموا بعد اليرموك من موقع إلى آخر . . من اليرموك إلى دمشق .. إلى فحل .. إلى حمص .. إلى باقى أنحاء البلاد .

فى العراق حيث اجتاحوا الأرض بمن عليها فى مواقع متعددة ، بدأها خالد فى السكواظم (كاظمة) ، حيث تحقق أول انتصار على الفرس ، وأنهاها سعد بن أبى وقاص فى المدائن حيث قضى على دولتهم .

فى مصر وشمال أفريقيا حيث انتصر عمرو فى الفرما ، ثم توالت انتصاراته

حتى دخل المسلمون بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد الأندلس .

فى آسيا حيث وصلت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الهند والسند والصين.

وإذا شئنا أن نقدم أمثلة للتعرض الإسلامى فإن هـذا يعنى أن ننشر تاريخ الحرب الاسلامية كلها ، وإننا لنرجو أن نوضح ، أننا حين تقول إن الاسلام اعتمد فى عملياته على مبدأ التعرض ، لا نعنى أن الإسلام كان معتديا ، فالتعرض الإسلامى كان نوعاً من الدفاع ، واتخاذ مبدأ التعرض كان لمواجهـة قوات تستعد وتتأهب وتتجهز للتحرك ضد المسلمين ، فمواجهتها والبدء بالهجوم يقلب أفـكار القادة ، ويزعزع الثقة ، ويضعف المعنويات .

[٥] خفة الحركة

وهى تعنى القدرة على الحركة والمناورة والإنتقال السريع .

ولعبت خفة الحركة دوراً أساسياً فى الحرب الإسلامية ، فالمسلمون فى الأصل عرب سكنوا الصحراء وأقاموا بالبادية ، كانت حياتهم تحركا دائماً يعتمد على الخفة والسرعة والمناورة واللياقة وحسن الإعداد النفسى .

كان رسول الله إذا بلغه نبأ تجمع يستهدف ضرراً بالمسلمين أوتحركاً ضدهم ، أسرع إلى مواقع التجمع ليواجهه ، قبل أن يستفحل أمره ، كما حدث فى غزواته عليه السلام ضد بنى لحيان ، وبنى محارب ، وإلى بواط ، والعشيرة ، وسفوان .

وكان عليه السلام يسرع بإرسال سراياه ، إذا أحس بخطر يهدد مواقعه فى مكان ما ، كما حدث فى سراياه إلى بنى أسد ، وذى القصة ، وبنى سليم ،

وبنى كلب ، وغيرهم .

وكافة الغارات التى قام بها المسلمون فى العراق فيما بين سوق الخنافس ، والأنبار ، وبادوريا ، وقطربل ، وسوق بغداد ، وتكريت ، حققت نجاحاً كبيراً ، لأنها اعتمدت أساساً على خفة الحركة .

ويعد تحرك خالد بن الوليد من العراق إلى اليرموك ، نموذجاً لخفة الحركة ، فقد سار بقواته فى بادية لاماء فيها ، وقطع المسافة فى فترة وجيزة هى خمسة أيام ، وهى مسافة تقطعها السيارة الآن فى عشرين ساعة مع فترات استراحة (يبلغ طولها ثمانمائة وستين كيلو) .

واعتمد عمرو بن العاص حين تعذر عليه فتح حصن بابليون على خفة الحركة فى التقدم تجاه الفيوم ، حيث ناور كتيبة يقودها حنا وقضى عليها . . وقد أذهل هذا التحرك الروم ، فلم يكن يخطر ببالهم أن يتحرك عمرو من بابليون إلى الفيوم بهذه السرعة ، ثم يعود مرة أخرى إلى بابليون ، بعد أن يكون المدد قد وصل إليه .

ويعطى احتلال صبراته مثلا حياً لخفة الحركة ، فعندما انتهى عمرو من احتلال طوابلس ، أمر قواته بالتقدم على الفور إلى صبراته ، وتحركت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير ليلا ، وأصبح الصبح وهو يدخل المدينة ، وأهلها مشغولون بإخراج حيواناتهم للمرعى ، واحتل عبد الله المدينة دون قتال ، وروى ابن الحكم « كان من بصبرة متحصنين ، فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس ، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولاطاقة له بهم ، أمنوا ، فلما ظفر عمرو بمدينة طرابلس ، جرد خيلا كثيفاً من ليلته ، وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة صبرة ، وقد غفلوا وفتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها ، ولم ينج منهم أحد ، واحتوى عمرو على ما فيها » .

ولعبت خفة الحركة دوراً كبيراً فى حروب الحيرة ، فقد سد الفرس نهر الفرات ، وفجروا ميـاهه فى أنهـار فرعية ، فوقفت السفن التى تحمل جيش المسلمين ، وجنحت بمن فوقها من الجند والعتاد ، وفقد المسلمون القدرة على التصرف ، إلا أن خالداً لم يشأ أن تفلت الفرصة من يده ، فأسرع مع كتيبة من الخيل بأقصى سرعة إلى حيث ابن المرزبان الذى سد النهر ، فوجده ورجاله وخيله يغطون فى نوم الأمان والغرور ، فهاجمهم وأتى على آخر رجل فيهم ، وسد الأنهار الفرعيه ، فجرى الماء فى الفرات ، وسارت السفن بأحمالها.

٦] السلامة

من أهم واجبات سلامة قواته ، وحماية خطوط مواصلاتها ، واتخاذ الحيطة اللازمة حتى لاتباغت .

وكانت حماية وسلامة القوات الإسلامية المقاتلة فى مكان الصدارة فى تفكير القيادات العسكرية الإسلامية على مختلف مستوياتها منذ عهد رسول الله .

والأصل فى الحروب الإسلامية هو السلامة والحماية ... أى سلامة الدعوة وحماية المؤمنين بها الداخلين فى الإسلام ، فبعد سنين طويلة من الصبر على الأذى والعدوان ، قررت السماء أن تحمى كل مؤمن اختار الإسلام ديناً ، ولهذا فرضت الحروب فى الإسلام حماية له وسلامة لأهله .

وعندما استعدت قريش للهجوم على المدينة فى غزوة أحد ، بعث العباس عم الرسول بكتاب إليه ينبئه بالتحرك ، فلما تسلم الرسول الكتاب ، دفع به إلى أبى بن كعب ليقرأه ، فلما عرف مابه طلب منه أن يكتم أمر

الكتاب ، ثم تصرف عليه السلام بسرعة ، فأمر بإعداد حراسة شديدة على المدينة خلال الليل ، وأرسل جماعة استطلاع تكشف له الأمر وتمده بالمعلومات .

وفى خلال الغزوة أرادت كتيبة من يهود حلفاء عبد الله بن أبى أن تسهم فى حرب قريش فرفض الرسول قائلا « لايستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك مالم يسلموا » ، ورفض رسول الله أن يسمح لغير المسلمين بالإسهام فى الحرب حرصاً منه على سلامة قواته .

وعندما أرسل رسول الله لواء يقوده أبو سلمة بن عبد الأسد لمحاربة طليحة وسلمة ابنى خويلد ، أمره بالسير ليلا والاختفاء نهاراً ، وأن يسلك طرقاً غير مطروقة .

وفى غزوة ذات الرقاع خشى الرسول أن يهاجمه بنو غطفان ، فقال لقومه « من يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ » ، وتقدم عمار بن ياسر وعبادة بن بشر ، فتناوبا معا الحراسة .

وفكرة الخندق تقوم أساساً على مبدأ السلامة ، فقد تجمعت قريش وحلفاؤها فى أعداد ضخمة تشكل خطراً على المسلمين ، الذين كانوا حتى هذه المعركة قلة لاتستطيع أن تواجه هذه الجموع ، ومن هنا برزت فكرة الخندق كأسلوب جديد للدفاع ، وحققت الفكرة هدفها .

ومنع عمرو بن العاص قواته على أثر انتصاره فى عملياته ضد قضاعة من مطاردة الفارين ، خوفاً من أن يعودوا أدراجهم بقوات أكثر وأضخم ، فيصعب صدهم وهم يشنون هجوماً مضاداً ، وخاصة أنهم يحاربون فوق أرضهم . . كما أنه منع رجاله من إيقاد النار ، فأنكر ذلك عمر بن الخطاب ، وطلب من أبى بكر أن يحدثه فى ذلك ، فأغلظ عمرو له وقال « لا يوقد

أحد ناراً إلا قذفته فيها » ، ولما عادوا شكوه إلى رسول الله ، فقال عمرو موضحاً وجهة نظره « لقد خفت أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين لأعدائهم وهم قلة فينقضوا عليهم » .

وكانت سلامة الأراضى التى أصبحت فى حوزة المسلمين فى فلسطين وبلاد الشام هى الدافع الأساسى لفتح مصر ، حيث تتجمع قوات كثيرة تابعة للروم تشكل خطراً جسيما على القوات الإسلامية فى شرقها .

وتصرف عمرو بعد احتلاله الفرما وهو فى طريقه إلى مصر ، يؤكد حرصه الشديد على سلامه قواته ، فقد هدم أسوارها ودك حصونها ، حتى لا يستفيد منها الروم إذا عادوا إليها ، ووضعوا أيديهم عليها ، كما أمر بحرق السفن الراسية فى المرفأ القريب منها ، حتى لا يستغلها العدو ضده .

وعندما أصيب المثنى بن حارثة إصابة الموت ، دعا أخاه وزوجه ، وحملهما رسالة إلى سعد بن أبى وقاص ، وطلب منه فيها أن يلزم العرب مراكزهم على حدود الصحراء ، وألا يقاتلوا أعداءهم فى عقر دارهم ، وأن يقاتلوهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العجم ، فالبادية تحمى ظهورهم ، والفرس لا يستطيعون التوغل فيها ، كما أن البادية تمثل نقطة انطلاق إلى داخل العراق . . . هذه النصيحة تهدف أولا وقبل كل شىء إلى حماية القوات العربية وسلامتها .

[٧] التعاون

أى توحيد العمل والتضامن من أجل الوصول إلى الهدف .

ولقد حرص الإسلام على أن يكون التعاون متكاملا لأجل خير الإنسان ورقى البشرية . .

وإذا كان التعاون ضرورياً من أجل حياة أفضل فإنه فى مجال الحرب ضرورة حتمية .

والتعاون يأتى فى صورتين . . . فى إبداء الرأى أو فى التعاون العملى .

ورسول الله كان يسعى دائماً إلى الوقوف على رأى أصحابه ، وهؤلاء كانوا لا يحجبون رأياً ، بل كانوا يقدمون الرأى والنصح والمشورة ، متى تطلبت الظروف ذلك ، وكانت الآراء والأفكار تناقش بروح الأخوة الإسلامية ، بعيداً عن الاتجاهات الشخصية ، أو الزيف ، معتمدة على صدق النوايا ، وصحيح الإسلام ، وسلامة القلب .

فى بدر عرض الرسول الموقف على الناس وطلب رأيهم فتحدث المهاجرون بحريتهم ، وتناول الأنصار الموقف بصراحة ، وانتهى الأمر إلى اتفاق على كلمة وخطة .

وكذلك كان الموقف فى أحد فقد قال البعض بالبقاء واتخاذ خطة الدفاع ، وقال البعض بالخروج واتخاذ خطة الهجوم ، وتغلبت الفكرة الثانية واستجاب لها الرسول ، وخرج المسلمون جميعاً القائلون بالدفاع والقائلون بالهجوم ، وأصبحوا قوة واحدة متعاونة .

وسارت القيادات الإسلامية بعد رسول الله على منهج الشورى ، الذى قرره القرآن الكريم وأمر به فى أكثر من موضع ، والذى سار عليه رسول الله وهو الأسوة والقدوة . ومنهج الشورى هو أسلوب سليم صادق للتعاون .

أما التعاون العملي فقد تجلى فى أعظم صوره فى كافة ميادين القتال .

كانت خطة العمل فى الميدان يراعى فيها التعاون والتنسيق بين القوات . . ففى حروب الردة حددت اختصاصات اللواءات ، وكلفت بعض الألوية بمعاونة ألوية أخرى ، كمعاونة لواء شرحبيل بن حسنة للواء عكرمة ابن أبى جهل .

ومن أمثلة التعاون الصادق موقف المثنى مع خالد حين تولى الأخير القيادة مكانه ، وموقفه مع أبى عبيد بن مسعود حين ولّاه عمر قيادة الجيش فى فارس . . لقد عمل المثنى تحت قيادة الاثنين كجندى بسيط ، ونسى أنه كان قائداً للجيش ، وأنه صاحب فكرة المواجهة مع فارس ، وأنه حقق قبلهما انتصارات مهدت لهما المناخ الملائم لعملياتهما ، وأنه لا يقل عنهما مكانة وكفاءة وقدرة . . . فعندما وصل خالد إلى أرض فارس اتجه المثنى فى ثمانية آلاف إليه ، جواداً كريماً مطواعاً ، وتعاون معه إلى أقصى حدود التعاون ، وشارك معه فى عملياته ، وكان دائماً على رأس طليعة جيش خالد . . وعندما تولى أبو عبيد القيادة ، عمل المثنى معه متعاوناً ، دون حرج ، وكان مستشاره الذى يقدم له النصح ويده التى تحارب .

وكما كان هذا الموقف مشرفاً لتاريخ المثنى ، كان كذلك موقف خالد حين عزله عمر بن الخطاب وهو فى أوج انتصاراته وذروة أمجاده . . لم يغضب للعزل ، وإنما سلّم القيادة لأبى عبيدة بن الجراح ، وظل بجانبه يقدم الرأى ، ويخدم المعركة ، حتى فتح الله عليهم بالشام ، وفى ذلك قال أبو عبيدة « . . إنما نحن أخوان وما يضير الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه » .

وفى اليرموك كان التعاون بين جيوش المسلمين عاملا هاماً وراء النصر العظيم على قوات الروم ، وفى الأندلس كان تعاون طارق بن زياد وموسى ابن نصير من أسباب فتح باب الأندلس أمام الإسلام والمسلمين .

إن القادة المسلمين كانوا يدركون أهمية التعاون وآثاره ، ولعل هذا الإدراك نبع من تفهمهم جيداً لقوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى » ، فكان جهادهم وسعيهم فى سبيل الله براً بالله وبراً بالاسلام ، وكان كفاحهم المتصل نوعاً راقياً من التقوى .

[٨] المطاردة

تعنى متابعة المنهزم ومحاولة القضاء عليه . حتى لا يملك القدرة على العودة إلى ميدان القتال من جديد ، ليحارب ويخوض معركة أخرى .

والمطاردة لها آثار نفسية على الجيش الفار ، فإنه يفقد الكثير من معنوياته ومن قدراته على المواجهة ، وتفتر عنده الرغبة فى القتال ، ويكاد يفقد كل مشاعره وأحاسيسه ، وإذا أدرك أنه مطارد ، وأنه لا يملك أن يحمى نفسه إلا بالامعان فى الفرار ، وقد يؤدى به ذلك إلى أن يفقد ثقته فى نفسه كمقاتل ، فيتردد فى العودة إلى القتال مرة أخرى ، وإلى أن يفقد ثقته فى سلاحه فيلقيه من يده ، ويقف ذلك حاجزاً بينه وبين السلاح ، ويسقط التعامل بينهما إلى الأبد ، فلا هو قادر على استخدامه ، ولا السلاح قادر على أن يحميه ، وإلى أن يفقد ثقته فى رئاسته والمسئولين عن إدارة القتال ، ومتى انهارت هذه الثقة تقطعت الجسور وانهار البناء العسكرى .

لقد تولى الرسول بنفسه أول عملية مطاردة فى تاريخ الحرب الإسلامية ،

وكان عليه السلام يأمل فى القضاء على قوة لقريش قدرت بمائتى فارس عليها أبوسفيان ، وكان القرشيون من فرط خوفهم وانزعاجهم خلال المطاردة يتخففون من أرزاقهم التى كانوا يحملونها ، حتى أطلق على الغزوة اسم السويق ، (السويق اسم يطلق على القمح والشعير والأزواد) .

وفى حنين أمر رسول الله المسلمين بمطاردة هوازن ، وقال لرجاله مشجعاً « من قتل مشركاً فله سلبه » ، وتبع المسلمون الفارين حتى أوكاسا ، وسلبوا من احتملوا من النساء والأموال ، وأمر الرسول بمداومة مطاردة مالك بن عوف ، فظل مطارداً ورجاله ، حتى لجأ إلى الطائف ، فامتدت المطاردة إلى هناك ، حتى وصل الجيش بقيادة الرسول لحاصر المدينة .

فى حروب الردّة طارد خالد الفارين من قوات مسيلمة ، حتى إذا مادخلوا حديقة مسيلمة ، اقتحم عليهم الحديقة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، حتى سميت حديقة الموت .

وفى حروب العراق كان خالد حريصاً على متابعة قوات عدوه وملاحقتها . . وكذلك كان المثنى ، ومن بعده كان سعد بن أبى وقاص .

وفى مصر كان عمرو بن العاص حريصا على مطاردة عدوه ، وكذلك كان موسى بن نصيروطارق بن زياد وهما يقودان جيوش المسلمين فى شمال أفريقيا والأندلس ، وكذلك كان قادة الدولة العباسية وهم يكتسحون بقواتهم أراضى آسيا ينشرون الإسلام فى ربوعها .

وكذلك كان كل القادة المسلمين فى كافة معاركهم فى مختلف الميادين ، إيماناً منهم أن المطاردة هى الضربة القاصمة التى تكسر العدو فيؤمن جانبه .

خاتمة

أما بعـــــد

فإنى أحمد الله حمداً كثيراً على أنه تبارك وتعالى وفقنى إلى إعادة معالجة موضوع الكتاب بالتعديل والتغيير والإضافة ، ليخرج على هذه الصورة الجديدة ، ولقد أحسست خلال إعداده بأن هناك قوة ترعى عملى وتباركه ، فقد كان الله تبارك وتعالى ـ جلت قدرته وعلت عظمته ـ عونى ورائدى فكلما استعنته أعاننى ، وكلما استهديته هدانى .

ومن خلال هذا الإحساس بذلت غاية ما وسعته طاقتى ، وما قدر عليه جهدى ، رغبة فى أن يكون ما أبذل تقربا إلى الله وشفاعة لدى رسوله الكريم وخدمة للإسلام وتبصرة للمسلمين .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه .

محمد فرج

سجل المراجع

رتبت المراجع حسب الحروف الأبجدية

القرآن الكريم

المقالات والبحوث والمحاضرات التي تناولت التاريخ الإسلامي

و

أسد الغابة فى معرفة الصحابة	ابن الأثير
أشهر مشاهير الإسلام فى الحروب والسياسة	رفيق العظم
الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الإسلام	البيباسى
البداية والنهاية	ابن كثير
التفسير القرآنى للقرآن	عبد الكريم الخطيب
السيرة الحلبية	برهان الدين الحلبى
الدستور القرآنى فى شئون الحياة	محمد عزت دروزة
الرسول القائد	محمد شيت خطاب
السرايا الحربية فى العهد النبوى	محمد السيد الطنطاوى
السلام والحرب فى الإسلام	محمد فرج
السلام فى الإسلام	حسن البنا

السيرة النبوية — ابن هشام

الصديق أبو بكر — محمد حسين هيكل

الطبقات الكبرى — ابن سعد

الطريق إلى المدائن — أحمد عادل كمال

العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول — محمد فرج

العقد الفريد — ابن عبد ربه

الفاروق القائد — محمد شيت خطاب

الفاروق عمر — محمد حسين هيكل

الفتح العربى للعراق وفارس — محمد فرج

الفتوحات الإسلامية — أحمد بن دحلان

الفن الحربى فى صدر الإسلام — عبد الرءوف عون

الفتوة عند العرب — عمر الدسوقى

الكامل فى التاريخ — ابن الأثير

النظم الإسلامية — حسن وعلى إبراهيم

الوحى المحمدى — محمد رشيد رضا

أيام العرب فى الجاهلية — محمد أحمد جاد المولى

بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب — الألوسى

تاريخ الأسطول العربى — ياسين الحموى

تاريخ التمدن الاسلامى — جورجى زيدان

تاريخ الرسل والملوك — الطبرى

تاريخ العرب العسكرى — محمود الدرة

تاريخ اليعقوبى	أحمد بن يعقوب
جبابرة حرب	محمد فرج
جوامع السيرة	الثعالبى
حياة محمد	محمد حسين هيكل
خاتم المرسلين	يوسف الشال
خالد بن الوليد	إبراهيم صادق عرجون
خالد بن الوليد	بكر موسى
خالد بن الوليد	عمر كحالة
خالد بن الوليد	طه الهاشمى
دروس من غزوة أحد	عبد العزيز كامل
زاد المعاد فى هدى خير العباد	ابن قيم الجوزى
سورة الأحزاب	مصطفى زيد
سورة الأنفال	مصطفى زيد
سيرة ابن هشام	ابن هشام
سيرة الرسول	محمد عزة دروزه
سيف الله خالد	محمد فرج
شهداء الاسلام	على سامى النشار
صحيح البخارى	البخارى
صور من حياة الرسول	ابن دويدار
عبقرية الصديق	عباس العقاد
عبقرية محمد	عباس العقاد
عبقرية عمر	عباس العقاد

الكتاب	المؤلف
عصر النبي وبيئته قبل البعث	محمد عزة دروزة
عمر بن الخطاب	سليمان الطماوى
عمرو بن العاص	عباس العقاد
عمرو بن العاص	محمد فرج
غزوة أحد	أحمد عز الدين عبد الله
غزوة بدر	محمد جمال الدين حماد
فتح العرب لمصر	الفرد بتلر ـ تعريب فريد أبو حديد
فتوح البلدان	البلاذرى
فتوح الشام	الواقدى
قادة الفتح العربي للعراق وفارس	محمد شيت خطاب
محمد المثل الكامل	محمد أحمد جاد المولى
محمد القائد	محمد عبد الفتاح إبراهيم
محمد من نبعته إلى بعثته	إبراهيم صادق عرجون
معارك الإسلام الكبرى	محمد جمال الدين حماد
مغازى رسول الله	الواقدى

٦٣١

للمؤلف

– ١ –

من مطبوعات دار الفكر العربي

المدرسة العسكرية الإسلامية	الطبعتان الأولى والثانية
العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول	الطبعتان الأولى والثالثة
الفتح العربى للعراق وفارس	الطبعتان الأولى والثانية
شخصيات عسكرية إسلامية	الطبعة الثانية
محمد المحارب	الطبعتان الأولى والثالثة
سيف الله خالد	
عمرو بن العاص	
السلام والحرب فى الاسلام	
الأمة العربية على الطريق إلى وحدة الهدف	
قصة الجلاء	
قلوب محطمة (قصة)	
بطولة فدائية (قصة للأطفال)	
الناس سواسية (قصة للأطفال)	

— ٢ —

من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

السلام فى الإسلام

نماذج من العسكرية الإسلامية

رمضان شهر الذكريات

فلسطين عربية

حروب الردّة

دراسات فى الميثاق (مع عدد من الكتاب)

— ٣ —

من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية

فن إدارة المعركة فى الحروب الإسلامية

الإستراتيجية العسكرية الإسلامية

— ٤ —

من مطبوعات الدار القومية

العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول — الطبعة الثانية

المثنى بن حارثة الشيبانى

من معارك الإسلام الخالدة

أحاديث فى الحرب

العدوان الثلاثى

القوات المسلحة فى ضوء الميثاق

النضال الشعبى فى سوريا وقصة الانقلابات

النضال الشعبى ضد حملة فريزر

النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية

التطور السياسى فى الهند والصين

يمنيات

— ٥ —

من مطبوعات الشئون العامة للقوات المسلحة

الإشاعات

الثورة المصرية وآثارها فى التطور السياسى

قصة الجلاء (الطبعة الأولى)

— ٦ —

بدر والفتح قمة معارك التاريخ	الناشر	سلسلة كتابك
شخصيات عسكرية إسلامية (الطبعة الأولى)	«	كتاب الجمهورية الديني
نهاية الطاغية	«	دار النداء
هذه هي الحياه (قصة)	«	دار النشر الحديثة

و

- مجموعة من المقالات والبحوث في مختلف المجلات الإسلامية في مصر والبلاد العربية (الصفحة الدينية بجريدة الأخبار ومجلة منبر الإسلام ومجلة الأزهر ومجلة منار الإسلام).

- أحاديث دينية بإذاعة صوت العرب والبرامج الدينية بالتليفزيون.

فهرس الكتاب

* * *

المبحث الأول

نظرية الحرب بين التطوير والتهذيب

* * *

المبحث الثانى

الإعداد للمعركة عقائديا ومعنويا وماديا

* * *

المبحث الثالث

المعركة

رقم الإيداع ٤٦٣٨/١٩٧٩
ISBN ٩٧٧-٣٠٦-١٩٩-٣

مطبعة المدني
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت: ٩٢٧٨٥١١

مؤلف هذا الكتاب

- لقد سخر الله تعالى لهذا البحث الأستاذ محمد فرج، وهو من الذين مرسوا بالحرب وخبروها وعركتهم وعركوها، فإذا تكلم فهو خبير بما يتكلم، وإن حكم فطلبها من ميدان الحقائق فجعلها بين مضبوطة وموازين محكمة.

الإمام الشيخ محمد أبو زهرة

- إن الأستاذ محمد فرج يبدو في دراسته هذه كأنه أحد الذين تخصصوا في التاريخ الإسلامي وتمرسوا به وعكفوا على التأليف فيه، وتلك ميزة في المؤلف تضاف إلى ميزتين أخريين أولاهما تفهمه للمواقف الحربية وتحليله إياها في ضوء الخبرة الشخصية والتجربة العملية، والثانية هذا الأسلوب الأدبي في العرض والأداء.

الدكتورة بنت الشاطئ

- إن الأستاذ محمد فرج عرف كيف ينتهج في بحثه المنهج العلمي السليم، وكيف يطوع طاقته في التفكير على حسب الحاجة والضرورة، وبذلك يكون قد حقق وضوح الغاية التي تجعل مؤلفاته من المؤلفات ذات الطابع الأكاديمي.

الدكتور محمد البهي

- لقد حاول المؤلف التوفيق في دراسته بين أسلوب البحث المعاصر وأسلوب السلف الأقدمين، وحاول التوفيق بين خطط أسلافنا السابقين وخطط العباقرة من الأبطال المعاصرين، وفي هذا ربط بين الماضي والحاضر.

الشيخ الدكتور أحمد الشرباصي